صوت الإمام علي عليه السلام

في نهج البلاغة

الجزء الثاني

تأليف العلامة الشهيد

السيد حسن علي القبانجي النجفي

من كلام له (عليه السلام] :(في تمامية الرسالة والتحذير من النار]

»تَاللَّهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالاَتِ وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ وَعِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ اعْمَلُوا لِيَوْمٍ تُذْخَرُ لَهُ الذَّخَائِرُ وَتُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَمَنْ لا يَنْفَعُهُ حَاضِرُ لُبِّهِ فَعَازِبُهُ عَنْهُ أَعْجَزُ وَغَائِبُهُ أَعْوَزُ وَاتَّقُوا نَاراً حَرُّهَا شَدِيدٌ وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحِلْيَتُهَا حَدِيدٌ وَشَرَابُهَا صَدِيدٌ. أَلَا وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لا يَحْمَدُهُ.«

)شرح ابن أبي الحديد مج 2، ص 26، ط 1.(

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

)علّمت) في أكثر النسخ على صيغة المجهول من باب التفعيل، وفي بعضها بالتخفيف على المعلوم، قال الشارح

المعتزلي: والرواية الأولى أحسن، و(الحكم (في أكثر النسخ بالضم وسكون الكاف، وفي بعضها بالكسر وفتح الكاف جمع الحكمة، و(عزب (التي من باب قعد: بعد عني وغاب، و(عوز) الشيء - كفرح - إذا لم يوجد، والرجل افتقر، وأعوزه الدهر أفقره.

* * *

الشرح:

جاء في منهاج البراعة (مج 8، ص 110 من الطبعة الحديثة): إنّ المقصود بهذا الكلام - كما يفهم من سياقه - الإشارة إلى وجوب اتّباعه وملازمته والتمسّك بذيل ولايته واتّباع الطيّبين من عترته وذريّته، ووجوب أخذ معالم الدين وأحكام الشرع المبين عنهم صلوات الله عليهم.

وعقّبه بذِكر جملة من فضائله المخصوصة به المفيدة لتقدّمه على غيره، والدالّة على وجوب تقديمه، نظراً إلى قُبح ترجيح المرجوح على الراجح.

وغير خفيّ على الذكيّ البصير أنّ كلاً من هذه الخصائص برهان واضح وشاهد صدق على اختصاص الخلافة والولاية بهم (عليهم السلام)، وعلى أنّها حقّ لهم دون غيرهم.

وافتتح كلامه (عليه السلام) بالقسم البارّ تحقيقاً للمقصد، فقال: «تالله لقد علّمت تبليغ الرسالات» أي علّمنيه رسول الله (صلى الله عليه وآله (بتعليم من الله سبحانه، وأعلمنيه بأمر منه تعالى، لا أنّه علمه بوحيٍ كما توهّمه بعض الغلاة، لأنّ الأئمّة (عليهم السلام) مُحدَّثون.

والرسالة هو الإخبار عن مراد الله تعالى بكلامه بدون واسطة بشر، والمراد أنه (عليه السلام) علّمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) إبلاغ ما جاء به إلى الخلق على اختلاف ألسنتهم وتعدّد لغاتهم، سواء كان ذلك في حال حياة الرسول، كبعثه (صلى الله عليه وآله) له (عليه السلام) بسورة براءة إلى أهل مكة وعزله لأبي بكر، معلّلاً بقوله (صلى الله عليه وآله): أُمرت أن لا يبلّغها إلاّ أنا أو رجل منّي،(1) أو بعد وفاته (صلى الله عليه وآله)، فقد كان هو (عليه السلام) وأولاده الطاهرون (عليهم السلام) أوعية علم النبيّ (صلى الله عليه وآله) وحملة سرّه وحفظة شرعه، مؤدّين له إلى أمّته. وكانوا عمدة نشر الأحكام وانتشار مسائل الحلال والحرام وانفتاح باب العلم في زمنهم (عليهم السلام)، وكانوا مأمورين بالتبليغ والانذار كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) مأموراً بذلك. ويشهد بذلك ما رواه الكليني والطبرسي والعياشي عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالى: «وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ» الآية، قال: ومن بلغ أن يكون إماماً من آل محمد (صلى الله عليه وآله)، فهو يُنذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله (صلى الله

عليه وآله).(2(

وفي غاية المرام عن الصدوق بإسناده عن يزيد بن معاوية العجلي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قوله تعالى: «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ»(3) فقال: «المنذر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وعلي الهادي، وفي كل وقت وزمان إمام منّا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله)».(4(

وفيه أيضاً عن الصدوق مسنداً عن أبي هريرة قال: دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد نزلت هذه الآية: «إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ» فقرأها علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: أنا المنذر، أتعرفون الهادي؟ قلنا: لا يا رسول الله. قال: هو خاصف النعل. فطوّلت الأعناق، إذ خرج علينا علي (عليه السلام) من بعض الحُجر وبيده نعل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثم التفت إلينا وقال: ألا إنّه المبلّغ عني، والإمام بعدي، وزوج ابنتي، وأبو سبطيّ، فنحن أهل بيتٍ أذهب الله عنا الرجس وطهّرنا تطهيراً من الدنس.(5(

وفي البحار عن بصائر الدرجات باسناده عن أنس بن مالك خادم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي أنت تعلّم الناس تأويل القرآن بما لا يعلمون. فقال علي (عليه السلام): ما أبلّغ رسالتك بعدك يا رسول الله؟ قال: تخبر الناس بما أشكل عليهم من تأويل القرآن(6.(

وفيه أيضاً من كشف الغمّة، من كتاب محمد بن عبد الله بن سليمان، مسنداً عن أنس، قال: كنت أخدم النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقال لي: يا أنس بن مالك يدخل عليَّ رجل إمام المؤمنين، وسيّد المسلمين، وخير الوصيّين. فضُرب الباب، فإذا علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فدخل بعرق، فجعل النبي (صلى الله عليه وآله) يمسح العرق عن وجهه ويقول: أنت تؤدّي عني ـ أو تبلّغ عني _. فقال: يا رسول الله أو لم تبلّغ رسالات ربّك؟ فقال (صلى الله عليه وآله): بلى، ولكن أنت تعلّم الناس.(7(

* * *

قوله (عليه السلام): «وإتمام العدات» أي إنجازها، يحتمل أن يكون المراد بها ما وعده الله سبحانه في حقه، فقد علّمه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأنّ الله سيفي له بما أنزل عليه في القرآن حيث قال: «أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ»،(8) جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) في هذه الآية، قال: «الموعود علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وعده الله أن ينتقم له من أعدائه في الدنيا، ووعده الجنّة له ولأوليائه في الآخرة».(9(

ولكنّ الأظهر أن يُراد بها العدات والعهود التي عاهد عليها الله سبحانه، ويشهد به قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً»(10) جاء عن أبي عبد الله (عليه

السلام) عن محمد بن الحنفية (رضي الله عنه) قال: قال علي (عليه السلام): «كنت عاهدت الله ورسوله أنا وعمّي حمزة وأخي جعفر وابن عمي عبيدة بن الحارث على أمر وفينا به لله ورسوله، فتقدّمني أصحابي وخُلّفت بعدهم لما أراد الله (عز وجل)، فأنزل الله سبحانه» :مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا» الآية».(11)

أو يراد بها مواعيد رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي وعدها للناس، فقد قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنت وصيّي ووارثي وقاضي ديني ومُنجز عدتي،(12) وعلّمه (صلى الله عليه وآله) كيفيّة أدائها ومن أين يؤدّيها.

فقد حدّث صاحب كتاب غاية المرام عن محمد بن علي الحكيم الترمذي ـ من أعيان علماء العامة ـ في كتابه المسمى بـ «فتح المبين من كتاب الأوصال» قال: وروي أنّ أمير المؤمنين (كرّم الله وجهه) قد أدّى سبعين ألفاً من دينه (صلى الله عليه وآله)، وكان أكثره من الموعود.(13)

[قصة أبي صمصام العبسي مع رسول الله (صلى الله عليه وآله):]

وفيه أيضاً من كتاب ثاقب المناقب، قال: حدثني شيخي أبو جعفر محمد بن حسين الشهرابيّ في داره بمشهد الرضا (عليه السلام) بإسناده إلى عطا، عن ابن عباس (رضي الله عنه)، قال:

قدم أبو الصمصام العبسي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله (فأناخ ناقته على باب المسجد ودخل وسلّم وأحسن التسليم، ثم قال: أيّكم الفتى الغويّ الذي يزعم أنّه نبي؟

فوثب إليه سلمان الفارسي (رضي الله عنه) فقال: يا أخا العرب أما ترى صاحب الوجه الأقمر والجبين الأزهر، والحوض والشفاعة والتواضع والسكينة، والمسألة والإجابة، والسيف والقضيب، والتكبير والتهليل، والنور والشرف، والعلّو والرفعة، والسخاء والشجاعة والنجدة، وذلك مولانا رسول الله (صلى الله عليه وآله.)

فقال الأعرابي: إن كنت نبيّاً فقل متى تقوم الساعة؟ ومتى يجيء المطر؟ وأيّ شيء في بطن ناقتي؟ وأيء شيء أكتسب غداً؟ ومتى أموت؟

فبقي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ساكتاً لا ينطق بشيء، فهبط الأمين جبرئيل فقال: يا محمد اقرأ «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»(14) قال الأعرابي: مُدّ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلاّ الله وأقرّ أنّك رسول الله، فأيّ شيء لي عندك إن أتيتُك بأهلي وبني عمّي مسلمين؟ فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): لك عندي ثمانون ناقة حُمر الظهور بيض البطون سود الحدق، عليها من طرائف اليمن ونمط الحجا ز.

ثم التفت النبي (صلى الله عليه وآله) إلى علي بن أبي طالب)عليه السلام) وقال: اكتب يا أبا الحسن «بسم الله الرحمن الرحيم أقرّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأشهد على نفسه في صحّة عقله وبدنه وجواز أمره أنّ لأبي الصمصام عليه وعنده في ذمّته ثمانين ناقة حُمر الظهور بيض البطون سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونمط ـ ثوب من صوف ملوّن ـ الحجاز، وأشهد عليه جمعاً من أصحابه.«

وخرج أبو الصمصام إلى أهله، فقُبض النبي (صلى الله عليه وآله)، فقدم أبو الصمصام وقد أسلمت بنو عبس كلها، فقال: ما فعل رسول الله؟ قالوا :قُبض. قال: فمن الوصيّ بعده؟ قالوا: ما خلّف فينا أحداً. قال: فمن الخليفة بعده؟ قالوا: أبوبكر. فدخل أبو الصمصام المسجد فقال: يا خليفة رسول الله إنّ لي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ديناً ثمانين ناقة حمر الظهور بيض البطون سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونمط الحجاز. فقال أبوبكر: يا أخا العرب سألتَ ما فوق العقل، والله ما خلّف فينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا صفراء ولا بيضاء، خلّف فينا بغلته الذلول ودرعه الفاضلة فأخذها علي بن أبي طالب، وخلّف فينا فدكاً فأخذناها بحقّ، ونبيّنا (صلى الله عليه وآله) لا يورث.

فقام سلمان الفارسي (رضي الله عنه) ومدّ يده إلى أبي الصمصام فأقامه وجاء به إلى منـزل علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو يتوضّأ وضوء الصلاة، فقرع سلمان الباب، فنادى علي (عليه السلام): ادخل أنت وأبو الصمصام العبسي. فقال أبو الصمصام: أعجوبة وربّ الكعبة، من هذا الذي سمّاني ولم يعرفني؟ فقال سلمان: هذا وصيّ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، هذا الذي قال له رسول الله: أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب، هذا الذي قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): عليّ خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر.

وهذا الذي قال الله تعالى فيه «وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».(15(

وهذا الذي قال الله تعالى فيه: «أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ».(16(

وهو الذي قال الله تعالى فيه: «أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ».(17(

وهذا الذي قال الله تعالى فيه: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ».(18(

وهذا الذي قال الله تعالى فيه: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ»(19) الآية.

وهذا الذي قال الله تعالى فيه: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».(20(

وهذا الذي قال الله تعالى فيه: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ

راكِعُونَ».(21(

أُدخل يا أبا الصمصام وسلِّم عليه، فدخل أبو الصمصام وسلّم عليه ثم قال: إنّ لي على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثمانين ناقة حمر الظهور بيض البطون سود الحدق، عليها من طرائف اليمن ونمط الحجاز. فقال علي (عليه السلام :(أمعك حجّة؟ قال: نعم، وأخرج الوثيقة، فقال (عليه السلام): يا سلمان نادِ في الناس :ألا من أراد أن ينظر إلى قضاء دين رسول الله (صلى الله عليه وآله) فليخرج إلى خارج المدينة.

فلمّا كان من الغد خرج الناس، وقال المنافقون: كيف يقضي الدين وليس معه شيء؟ غداً يفتضح، من أين له ثمانون ناقة حمر الظهور بيض البطون سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونمط الحجاز؟ فلمّا كان الغد اجتمع الناس وخرج علي)عليه السلام) في أهل بيته ومحبيّه وجماعة من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأسرّ إلى الحسن (عليه السلام) سرّاً لم يدر أحد ما هو. ثم قال: يا أبا الصمصام امضِ مع ابني الحسن إلى كثيب الرمل، فمضى الحسن (عليه السلام) ومعه أبو الصمصام، وصلّى الحسن ركعتين عند الكثيب وكلّم الأرض بكلمات لا يُدرى ما هي، وضرب على الكثيب بقضيب رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فانفجر الكثيب عن صخرة ململمة مكتوب عليها سطران على الأول: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله» وعلى الآخر «لا إله إلا الله علي وليّ الله». وضرب الحسن (عليه السلام) تلك الصخرة بالقضيب فانفجرت عن خطام ناقة، فقال: قُد يا أبا الصمصام، فقاد فخرج منها ثمانون ناقة حمر الظهور بيض البطون سود الحدق عليها من طرائف اليمن ونمط الحجاز، ورجع إلى علي (عليه السلام) فقال (عليه السلام):

استوفيتَ حقّك يا أبا الصمصام؟ فقال: نعم، فقال (عليه السلام): سلّم الوثيقة، فسلّمها إليه فخرقها (عليه السلام) ثم قال: هكذا أخبرني ابن عمي رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّ الله (عز وجل) خلق هذه النوق في هذه الصخرة قبل أن يخلق ناقة صالح بألفي عام(22) وتروى هذه القصة أيضاً بوجه آخر.

قال صاحب ثاقب المناقب: ويُروى هذا الخبر على وجه آخر، وهو ما روى أبو محمد الادريسي عن حمزة بن داود الديلمي، عن يعقوب بن يزيد الأنباري، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن حبيب الأحول، عن أبي حمزة الثمالي، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس قال:

لمّا قُبض النبيّ (صلى الله عليه وآله) وجلس أبو بكر نادى في الناس: ألا من كان له على رسول الله (صلى الله عليه وآله) عدة أو دين فليأت أبا بكر وليأت معه بشاهدين، ونادى علي (عليه السلام) بذلك على الاطلاق من غير طلب شاهدين، فجاء أعرابي متلثّم متقلّداً سيفه، متنكّباً كنانته، وفرسه لا يُرى منه إلاّ حافره .وساق الحديث ولم يذكر الاسم والقبيلة، وكان ما وعده مائة ناقة حمراء بأزمّتها وأثقالها موقّرة ذهباً وفضّة بعبيدها.

فلما ذهب سلمان بالأعرابي إلى أمير المؤمنين (عليه السلام (قال له حين بَصُر به: مرحباً بطالب عدة والده من رسول الله (صلى الله عليه وآله(، فقال: ما وُعد أبي يا أبا الحسن؟

قال: إنّ أباك قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال :أنا رجل مُطاع في قومي إن دعوتُهم أجابوك، وإنّي ضعيف الحال، فما تجعل لي إن دعوتُهم إلى الاسلام فأسلموا؟ فقال (صلى الله عليه وآله): مِن أمر الدنيا أم من أمر الآخرة؟

قال: وما عليك أن تجمعهما لي يا رسول الله وقد جمعهما الله لأناسٍ كثيرة .فتبسّم النبي (صلى الله عليه وآله) وقال: أجمع لك خير الدنيا والآخرة، أمّا في الآخرة فأنت رفيقي في الجنة، وأمّا في الدنيا فما تريد؟ قال: مائة ناقة حمر بأزمّتها وعبيدها موقّرة ذهباً وفضّة، ثم قال: وإن دعوتهم فأجابوني وقُضي عليّ الموت ولم ألقك فتدفع ذلك إلى ولدي؟

قال: نعم، على أنّي لا أراك ولا تراني في دار الدنيا بعد يومي هذا، وسيُجيبك قومك، فإذا حضرتك الوفاة فليصِر ولدك إلى وليّي من بعدي ووصيّي، وقد مضى أبوك ودعا قومه فأجابوه، وأمرك بالمصير إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو إلى وصيّه، وها أنا وصيّه ومُنجز وعده.

فقال الأعرابي: صدقتَ يا أبا الحسن، ثم كتب (عليه السلام) له على خرقة بيضاء وناول الحسن (عليه السلام) وقال: يا أبا محمد سِر بهذا الرجل إلى وادي العقيق وسلِّم على أهله واقذف الخرقة وانتظر ساعة حتّى ترى ما يُفعل، فإن دُفع إليك شيء فادفعه إلى الرجل. ومضيا بالكتاب.

قال ابن عباس: فسرت من حيث لم يرني أحد. فلمّا أشرف الحسن)عليه السلام) على الوادي نادى بأعلى صوته: السلام عليكم أيها السكان البررة الأتقياء، أنا ابن وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أنا الحسن بن علي سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) وابن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورسوله إليكم. وقد قذف الخرقة في الوادي، فسمعت من الوادي صوتاً: لبّيك لبّيك يا سبط رسول الله وابن البتول وابن سيدّ الأوصياء سمعنا وأطعنا، انتظر ليُدفع إليك. فبينا أنا كذلك إذ ظهر غلام لم أدر من أين ظهر وبيده زمام ناقة حمراء تتبعها ستّة، فلم يزل يخرج غلام بعد غلام، في يد كلّ غلام قطار حتى عددت مأة ناقة حمراء بأزمّتها وأحمالها، فقال الحسن)عليه السلام): خُذ بزمام نوقك وعبيدك ومالك وامضِ يرحمك الله.(23(

* * *

]الكلمات التامات:[

قوله سلام الله عليك: «وتمام الكلمات.«

فسّرها الشارح المعتزلي بتأويل القرآن وبيانه الذي يتم به، قال: لأنّ في كلامه تعالى المجمل الذي لا يستغنى عن متمّم

ومبيّن يوضحه.

ويجوز أن يراد بالكلمات الكلمات القرآنيّة خصوصاً، أعني الآيات وما تضمّنته من التأويل والتنـزيل، والمفهوم والمنطوق، والظهر والبطن، والنكات والأسرار، وما فيها من الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، والعام والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والجدل والمثل والقصص، والترغيب والترهيب، إلى غير ذلك، فإنّ تمام ذلك وكلّه عند أمير المؤمنين)عليه السلام)، والعلم بجميع ذلك مخصوص به وبالطاهرين من أولاده سلام الله عليهم أجمعين.

أو يُراد بها مطلق كلمات الله النازلة على الأنبياء والرسل في الكتب السماويّة والصحف الإلهيّة.

أو أن يراد بها الأعمّ من هذه أيضاً، وهو الأنسب باقتضاء عموم وظيفتهم (عليهم السلام)، فيكون المراد بها ما ورد في الأخبار من أنّ رسول الله)صلى الله عليه وآله) علّم علياً (عليه السلام) كلمة تفتح له ألف كلمة، وألف كلمة تفتح كلّ كلمة ألف كلمة، وعبّر عنها في أخبار أُخر بلفظ الباب، ومن هنا كان أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: «إنّ في صدري هذا لعلماً جمّاً علّمنيه رسول الله)صلى الله عليه وآله)، لو أجد له حفظة يرعونه حقّ رعايته ويروونه عنّي كما يسمعونه منّي، إذاً لأودعتُهم بعضه، يعلم به كثيراً من العلم، إنّ العلم مفتاح كلّ باب، وكلّ باب يفتح ألف باب».(24(

]سؤال اليهود لعمر بن الخطاب:[

جاء في كتاب غاية المرام عن محمد بن علي الحكيم الترمذي، عن صاحب الينابيع قال: سأل قوم من اليهود عمر في زمن خلافته عن مسائل بشرط إن أجابهم أو غيره من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) آمنوا به.

قالوا: ما قفل السماء؟ وما مفتاح ذلك القفل؟ وما القبر الجاري؟ ومن الرسول الذي وعظ قومه ولم يكن من الجنّ ولا من الإنس؟ وما الخمسة الذين يسيرون في الأرض ولم يُخلقوا في أرحام الأمّهات؟ وما يقول الديك في صوته والدرّاج في صديده والقمريّ في هديله والفرس في صهيله والحمار في نهيقه والضفدع في نقيقه؟ فأطرق عمر زماناً ثم رفع رأسه وقال: لا أدري. فغدى سلمان وأخبر علياً بالقصّة، فأتى فلمّا رآه عمر استقبله وعانقه وأخبره بالقصة، فقال (كرّم الله وجهه): لا تُبالِ فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علّمني ألف باب من العلم، يتشعّب منه ألف باب آخر. قال عمر: فاسألوه عنها. فقال (عليه السلام) في جوابهم:

»أمّا قفل السماء فهو الشرك، وأمّا مفتاح ذلك القفل فقول لا إله إلاّ الله محمد رسول الله». قالوا: صدق الفتى. ثم قال: وأمّا القبر الجاري فهو الحوت الذي كان يونس في بطنه حيث دار به في سبعة أبحر، وأمّا الرسول الذي لم يكن من

الجنّ والانس فنملة سليمان كما قال الله تعالى: «قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ»(25) قال: وأمّا الخمسة الذين لم يُخلقوا في أرحام الأمّهات :فآدم وحوّا وناقة صالح وكبش إبراهيم وثعبان موسى، وأمّا الديك فيقول: اذكروا الله أيها الغافلون، وأمّا الدرّاج فيقول: الرحمن على العرش استوى، وأمّا القمري فيقول :اللهم العن مبغضي محمّد وآل محمد، وأمّا الفرس فيقول عند الغزو: اللهمّ انصُر عبادك المؤمنين على عبادك الكافرين، وأمّا الحمار فيلعن العشّارين ولا ينهق إلاّ في وجه الشيطان، وأمّا الضفدع فيقول: سبحان ربيّ المعبود في لجُج البحار. فآمنوا لمّا سمعوا ذلك من أمير المؤمنين (عليه السلام).(26(

* * *

]أهل البيت باب الحكمة:[

قوله (عليه السلام): «وعندنا أهل البيت أبواب الحكم» يجوز أن يراد بالحكم القضاء والفصل بين الناس في الخصومات والدعاوي، وأن يراد به الحكم الشرعيّ الفرعيّ، أعني خطاب الله المتعلّق بأفعال المكلّفين.

فعلى الأوّل فالظاهر أنّ المراد بأبوابه هو طرقه ووجوهه، فإنّهم (عليهم السلام) كانوا عالمين بها عارفين بتمامها، يحكمون في القضايا الشخصيّة على ما تقتضيه المصلحة الكامنة الظاهريّة أو الواقعيّة.

ففي بعضها كانوا يحكمون بظاهر الشريعة على ما يقتضيه اليمين والبيّنة.

وفي بعضها يمرّ الحقّ على وجه التدبير واستخراج وجه الحيلة والإحتيال في إعمال الحقّ واستخراج الأفراد بالحقوق الباطنة بلطائف الفكر، كما كان يفعله أمير المؤمنين (عليه السلام) في أيام خلافة عمر وغيرها كثيراً، مثل قضائه في المرأة التي استودعها رجلان وديعة،(27) وفي المرأة التي توفّي عنها زوجها وادّعى بنوها أنّها فجرت،(28) وفي الجارية التي افتضّتها سيّدتها اتّهاماً ورمياً لها بالفاحشة،(29) ومثل أنّه توفّي رجل وخلّف إبناً وعبداً، فادّعى كلّ واحد منهما أنّه الابن وأنّ الآخر عبد له، فأتيا أمير المؤمنين (عليه السلام) فتحاكما إليه، فأمر)عليه السلام) أن يُثقب في حائط المسجد ثقبان، ثم أمر كلّ واحد منهما أن يُدخل رأسه في ثقب، ففعلا، ثم قال: يا قنبر جرّد السيف ـ وأشار إليه: لا تفعل ما آمرك به ـ ثم قال: اضرب عُنق العبد، قال: فنحّى العبد رأسه، فأخذه أمير المؤمنين (عليه السلام (وقال للآخر: أنت الابن وقد أعتقته وجعلته مولى لك.(30(

وفي بعضها بالحكم الواقعيّ المحض، وبه يحكم القائم من آل محمّد (عليه السلام) وعليهم بعد ظهوره، وهو المعبّر عنه بحكم داود في الأخبار، فإنّ داود (عليه السلام) كان يعمل زماناً على مقتضى علمه بالوحي من دون أن يسأل عن البيّنة، ثم إنّ بني اسرائيل اتّهموه لبعده عن طور العقل، فرجع إلى العمل بالبيّنات.

]قضاء علي (عليه السلام (بين النبي (صلى الله عليه وآله) وأعرابي:[

وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) يحكم بهذا الحكم أحياناً، مثل ما روي عنه في محاكمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع الأعرابيّ.

قال في الفقيه: جاء أعرابيّ إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله (فادّعى عليه سبعين درهماً ثمن ناقة باعها منها، فقال (صلى الله عليه وآله): قد أوفيتك. فقال: اجعل بيننا وبينك رجلاً يحكم بيننا، فأقبل رجل من قريش، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): احكم بيننا. فقال للأعرابيّ: ما تدّعي على رسول الله؟ قال: سبعين درهماً ثمن ناقة بعتها منها. فقال ما تقول يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه وآله): قد أوفيته. فقال للأعرابي: ما تقول؟ قال: لم يوفني. فقال لرسول الله)صلى الله عليه وآله): ألك بيّنة على أنّك قد أوفيته؟ قال: لا، قال للأعرابي: أتحلف أنّك لم تستوفِ حقّك وتأخذه؟ فقال نعم. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله :(لأتحاكمنّ مع هذا إلى رجل يحكم بيننا بحكم الله (عز وجل)، فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومعه الأعرابي، فقال علي (عليه السلام :(ما لك يا رسول الله؟ فقال: يا أبا الحسن احكم بيني وبين هذا الأعرابي، فقال علي)عليه السلام): يا أعرابي ما تدّعي على رسول الله؟ قال: سبعين درهماً ثمن ناقة بعتها منه. فقال: ما تقول يا رسول الله؟ فقال: قد أوفيتُه ثمنها. فقال: يا أعرابي أصدق رسول الله فيما قال؟ قال لا ما أوفاني شيئاً. فأخرج علي (عليه السلام) سيفه فضرب عنقه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لم فعلت ذلك يا علي؟ فقال: يا رسول الله نحن نصدّقك على أمر الله ونهيه وعلى أمر الجنّة والنار والثواب والعقاب ووحي الله (عز وجل)، ولا نصدّقك في ثمن ناقة هذا الأعرابي، إنّي قتلتُه لأنّه كذّبك لمّا قلتُ له «أصدق رسول الله فيما قال؟» فقال «لا ما أوفاني شيئاً». فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أصبتَ يا علي، فلا تعد إلى مثلها. ثم التفت (صلى الله عليه وآله) إلى القرشيّ ـ وكان قد تبعه ـ فقال: هذا حكم الله لا ما حكمت به.(31(

وعلى الثاني ـ أي على كون المراد بالحكم الأحكام الشرعيّة ـ فالمراد بأبوابه هو طرق الإفتاء ووجوه بيان المسائل على ما تقتضيه المصلحة، فيفتون بعض الناس بالحكم الواقعيّ، وبعضهم بالتقيّة حقناً لدمائهم أو لدماء السائلين.

وكيف كان، فقد وضح وظهر ممّا قرّرنا أنّ الأئمة (عليهم السلام) عندهم أبواب الحكم بأيّ معنى أُخذ الحكم، وأنّهم عارفون بها محيطون بأقطارها، وهذا الوصف مخصوص بهم لا يوجد في غيرهم، لأنّ معرفة المصالح الكامنة لا تحصل إلاّ بتأييد إلهيّ وقوّة ربّانيّة مخصوصة بأهل العصمة والطهارة.

ولذلك ـ أي لقصد الاختصاص والتخصيص ـ قدّم (عليه السلام (المسند وقال: «وعندنا أبواب الحكم .«

)وضياء الأمر) والمراد بالأمر إمّا الولاية كما كنّي به عنها كثيراً في أخبار أهل البيت (عليهم السلام)، وفي قوله تعالى: «وَأُولِي الأْمْرِ مِنْكُمْ»، والضياء حينئذٍ بمعناه الحقيقيّ، أي عندنا نور الإمامة والولاية، وأمّا الأوامر الشرعية فالضياء استعارة للحقّ، لأنّ الحقّ يشبّه بالنور كما أنّ الباطل يشبّه بالظلمة، قال سبحانه:

»اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ»(32) فالمقصود أنّ الأئمّة (عليهم السلام) عندهم حق الأوامر الشرعيّة والتكاليف الإلهيّة، وإليه أُشير في قوله سبحانه:

»أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأْمْرِ مِنْكُمْ».(33(

وأمّا مطلق الأمور المقدّرة في الكون كما قال تعالى:

»تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ».(34(

أي تنـزّل إلى وليّ الأمر بتفسير الأمور.

ثم إنّه (عليه السلام) بعد ما ذكر جملة من فضائله وفضائل آله الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين أردف ذلك بالاشارة إلى وجوب اتّباعهم وأخذ معالم الدين عنهم (عليهم السلام) فقال:

»ألا وإنّ شرايع الدين» و هي طرقه، أي قواعده وقوانينه »واحدة وسُبله قاصدة» أي معتدلة مستقيمة، وهي ما دلّ عليها أهل بيت العصمة والطهارة، لأنّهم أولياء الدين وأبواب الايمان وأُمناء الرحمن والأدلاّء على الشريعة والهداة إلى السنّة. «من أخذ بها» واتّبع أئمّة الهدى سلك الجادّة الوسطى و«لحق» بالحقّ «وغنم» النعمة العظمى، «ومن وقف عنها» وانحرف عن الصراط الأعظم والسبيل الأقوم وأخذ في أمر الدين بطرق الأقيسة ووجوه الاستحسانات العقليّة، أو رجع فيه إلى الهمج الرعاع وأئمّة الضلال العاملين فيه لعقولهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة »ضلّ وندم.«

ثم أمر بتحصيل الزاد ليوم المعاد فقال (عليه السلام» :(اعملوا ليوم تُذخر له الذخائر» وهي الأعمال الصالحة «وتُبلى فيه السرائر» الغرض بالوصف إمّا تخصيص الموصوف أو التهويل حثّاً على العمل، كما في قوله سبحانه:

»فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».(35(

والجملة الثانية مأخوذة من الكتاب العزيز، قال تعالى» :يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ»(36) أي تُختبر، والسرائر: ما أسرّ القلوب من العقائد والنيّات وغيرها وما خفي من الأعمال.

قال الطبرسيّ: والسرائر أعمال بني آدم، والفرائض التي أوجبت عليه، وهي سرائر في العبد تختبر تلك السرائر يوم القيامة حتى يظهر خيرها وشرّها.

عن معاذ بن جبل قال: سألت النبي (صلى الله عليه وآله) ما هذه السرائر التي تبلى بها العباد يوم القيامة؟ قال (صلى الله عليه وآله): سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والزكاة والصيام والوضوء والغسل من الجنابة وكلّ مفروض، لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفية، فإن شاء قال صلّيت ولم يُصلّ، وإن شاء قال توضّأت ولم يتوضّ، فذلك قوله: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ».(37) هذا ولمّا كان كمال القوة العمليّة لا يحصل إلا بكمال القوّة النظريّة أردفه بقوله (عليه السلام:(»ومن لا ينفعه حاضرُ لُبّه فعازبُه» أي بعيده «أعجز وغايبه أعوز» أي أعدم للمنفعة، يعني أنّ من لا ينفعه لبّه الحاضر وعقله الموجود فهو بعدم الانتفاع بما هو غير حاضر ولا موجود عنده من العقل أولى وأحرى.

وقيل في تفسيره بوجوه أخر: الأول من لا يعتبر بلبّه في حياته فأولى بأن لا ينتفع به بعد الموت. الثاني أنّ من لم يعمل بما فهم وحكم به عقله وقت إمكان العمل، فأحرى أن لا ينتفع به بعد انقضاء وقته، بل لا يورثه إلاّ ندامة وحسرة .

الثالث أنّ من لم يكن له من نفسه رادع وزاجر فمن البعيد أن ينـزجر ويرتدع بعقل غيره وموعظة غيره، كما قيل:

(وزاجر من النفس خير من عتاب العواذل).(38(

ولمّا حثّ على العمل أكّده بالتحذير من النار، فقال (عليه السلام): «واتّقوا ناراً حرّها شديد، وقعرها بعيد، وحليتها حديد، وشرابها صديد» لا يخفى ما في هذه الفقرات من حسن الخطابة، حيث ناط بكلّ لفظة ما يناسبها ويلايمها، لو نيطت بغيرها لم تلائم، والاضافة في القرينة الأولى على أصلها، وفي الأخيرة لأدنى المناسبة، وفي الوسطين تحتمل الأوّل والثاني، واستعارة الحلية للقيود والأغلال من باب التحكّم، والقرينة الأخرى مأخوذة عن قوله سبحانه: «يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ»،(39) وهو القيح والدم، وقيل: هو القيح كأنه الماء في رقّته والدم في شكله، وقيل: هو ما يسيل من جلود أهل النار. وكيف كان فتوصف النار بهذه الأوصاف الأربعة للتحذير والترهيب منها، كما أنّ في ذكر حلية أهل الجنّة وشرابهم في قوله تعالى :

»وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً».(40(

ترغيباً وتشويقاً إليها.

ثم قال (عليه السلام): «ألا وإنّ اللسان الصالح» أي الذِكر الجميل، تسمية للشيء باسم مسبّبه «يجعله الله للمرء في الناس خير له من مال يورثه من لا يحمده» والمراد أنّ تحصيل مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال من البذل والانفاق ونحوهما ممّا يوجب الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العُقبى خير من تحصيل المال وجمعه وتوريثه من لا يشكره عليه، أي وارثه الذي لا يعدّ ذلك الايراث فضلاً ونعمة لإيجابه العذاب الأليم والندم الطويل، وهو شاهد بالعيان معلوم بالوجدان.

* * *

(1)مسند أحمد 1: ح21؛ تفسير مجمع البيان 224 :؛ تفسير العيّاشي 1: 356.

(2)الكافي 1: 416/ ح21؛ تفسير مجمع البيان 22 :4؛ تفسير العيّاشي 1: 356.

(3)الرعد: 7.

(4)رواه الصدوق في إكمال الدين: 667/ ح10.

(5)بحار الأنوار 36: 316/ ح162.

(6)بحار الأنوار 23: 195/ ح23؛ بصائر الدرجات: 215/ ح3.

(7)كشف الغمّة، وعنه بحار الأنوار 38: 17 /ح29.

(8)القصص: 61.

(9)بحار الأنوار 36: 150 - 151/ ح129.

(10)الأحزاب: 23.

(11)بحار الأنوار 35: 410/ ح5.

(12)انظر: مدينة المعاجز 1: 347/ ح224؛ بحار الأنوار 38: 111/ ح46.

(13)غاية المرام 6: 331.

(14)لقمان: 34.

(15)مريم: 50.

(16)السجدة: 18.

(17)التوبة: 19.

(18)المائدة: 67.

(19)آل عمران: 61.

(20)الأحزاب: 33.

(21)المائدة: 55.

(22)الثاقب في المناقب: 127 - 132/ ح127؛ غاية المرام 6: 335 - 337.

(23)الثاقب في المناقب: 133 - 134/ ح128؛ غاية المرام 6: 338 - 339.

(24)الفصول المهمّة 1: 564/ ح846؛ ينابيع المعاجز 141.

(25)سورة النمل (27): الآية 18.

(26)غاية المرام 5: 216 - 217، عن الحكيم الترمذي في شرح الرسالة الموسومة بـ «الفتح المبين في كشف حقّ اليقين»؛ ورواه أيضاً في التحصين لابن طاووس: 642 - 644؛ بحار الأنوار 61: 35 - 36.

(27)انظر: مناقب آل أبي طالب 2: 191؛ بحار الأنوار 40: 317.

(28)بحار الأنوار 40: 307/ ح81.

(29)بحار الأنوار 40: 296/ ح70.

(30)من لا يحضره الفقيه 3: 105 - 106 /ح3425؛ بحار الأنوار 40: 308 - 309.

(31)من لا يحضره الفقيه 3: 105 - 106 /ح3425؛ عوالي اللئالي 3: 518 - 519.

(32)البقرة: 257.

(33)النساء: 59.

(34)القدر: 4.

(35)السجدة: 5.

(36)الطارق: 9.

(37)تفسير مجمع البيان 10: 323.

(38)وتمام البيت:

وأقصرت عمّا تعهدين وزاجرٌ من النفس خيرٌ من عتاب العواذل

انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 397.6 :

(39)إبراهيم: 16.

(40)الإنسان: 21.

من خطبة له (عليه السلام] :(في بيان فضله (عليه السلام) ووفاة النبي (صلى الله عليه وآله[(

»وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله) أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطّ وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله (وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي وَلَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ (صلى الله عليه وآله (وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ مَلَأٌ يَهْبِطُ وَمَلَأٌ يَعْرُجُ وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَمَيِّتاً فَانْفُذُوا عَلَى بَصَائِرِكُمْ وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّكُمْ فَوَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لَعَلَى جَادَّةِ الْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.«

)شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد مج 2، ص 561، ط الأُولى.(

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

)المستحفَظون) بصيغة المفعول من استحفظه الشيء، أي أودعه عنده وطلب منه أن يحفظه، فهو مستحفِظ وذاك مستحفَظ، و(واسيته) من المواساة، يقال :واسيته وآسيته، وبالهمزة أفصح، و(نكص) عن الشيء نكوصاً من باب قعد: أحجم عنه، ونكص على عقبيه: رجع، قال تعالى: «فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ»،(1) و(النجدة) البأس والشدّة والشجاعة، و(النفس) بسكون الفاء: الدم، وبالتحريك واحد الأنفاس، و(فناء) الدار وزان كساء: ما اتّسع أمامها أو ما امتدّ من جوانبها، والجمع أفنية وفنى، و(الضجيج) الصياح عند المكروه والجزع، و(الهينمة) بفتح الهاء: الصوت الخفّي، وقيل الكلام الخفّي لا يُفهم، و(الضريح) القبر أو الشقّ وسطه، والأول هو المراد هنا، و(المزلّة) الموضع الذي تزلّ فيه قدم الإنسان كالمزلقة.

الشرح:

إنّ هذه الخطبة الشريفة مَسوقة لبيان جملة من مناقبه الجليلة وخصائصه المختصّة به (عليه السلام)، المفيدة لمزيد اختصاصه برسول الله (صلى الله عليه وآله) وقُربه منه، استدلالاً بذلك على أنّه أحقّ وأولى بالخلافة والقيام مقامه)صلى الله عليه وآله)، وأنّه على الحقّ وغيره على الباطل، وغرضه (عليه السلام (تنبيه المخاطبين على وجوب إطاعته فيما يأمرهم به من جهاد الأعداء المبطلين.

]خمس فضائل لعلي (عليه السلام:[(

وذكر (عليه السلام) خمساً من فضائله، وصدّر كلاًّ بالقسم البارّ تأكيداً للغرض المسوق له الكلام، وتنبيهاً على أنّ

اتّصافه بها جميعاً حقّ لا يعتريه ريب ولا يُدانيه شكّ.

أوّلها: [عدم الرد على النبي (صلى الله عليه وآله) والتسليم له [ما أشار إليه بقوله: «ولقد علم المستحفَظون من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) أنّي لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعةً قطّ» المراد بالمستحفَظين خيار الصحابة المطّلعون على أسرار رسول الله)صلى الله عليه وآله) ومعجزاته وكراماته وعهوده ومواثيقه والملاحم الواقعة في زمانه)صلى الله عليه وآله) ونحو ذلك ممّا يتعلّق به (صلى الله عليه وآله) في نفسه وفي أوصيائه وأتباعه من الأمور المعظّمة التي يهتمّ بها في الشرعيّة ولها مدخل في قوام أركان الدين وإعلاء لواء الشرع المبين، الذين كُلّفوا بحفظ ذلك كلّه، وأُمروا بأن يبلّغوها ويؤدّوها في مقام الضرورة والحاجة.

وإنّما خصّ عِلم ما ذكره بهؤلاء مع عدم اختصاصه بهم لأنّ هؤلاء بمقتضى تصلّبهم في الدين لا يكتمون الشهادة ولا يغيّرونها ولا يبدّلونها في مقام الحاجة للأغراض الدنيويّة الفاسدة كما كتمها جمع منهم مثل زيد بن أرقم، وأنس بن مالك ونظرائهم .

حدّث العلاّمة المجلسي في البحار عن الخصال والأمالي عن جابر الجعفي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خطبنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيّها الناس إنّ قدّام منبركم هذا أربعة رهط من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله)، منهم أنس بن مالك، والبراء بن عازب الأنصاري، والأشعث بن قيس الكندي، وخالد بن يزيد البجلي، ثمّ أقبل بوجهه على أنس بن مالك فقال: يا أنس، إن كنتَ سمعتَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول «من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه» ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتّى يبتليك ببرص لا تغطّيه العمامة.

وأما أنت يا أشعث، فإن كنت سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو يقول «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه «ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتى يذهب بكريمتيك.

وأما أنت يا خالد بن يزيد، إن كنت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه «ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله إلاّ ميتة جاهليّة.

وأما أنت يا براء بن عازب، إن كنت سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه «ثم لم تشهد لي بالولاية فلا أماتك الله إلاّ حيث هاجرت منه.

قال جابر بن عبد الله الانصاري: والله لقد رأيت أنس بن مالك قد ابتُلي ببرص يغطّيه بالعمامة فما يستره.

ولقد رأيت الأشعث بن قيس وقد ذهبت كريمتاه وهو يقول: الحمد لله الذي جعل دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

(عليه السلام) بالعمى في الدنيا، ولم يدعُ عليَّ بالعذاب في الآخرة فأعذّب.

وأمّا خالد بن يزيد فإنّه مات، فأراد أهله أن يدفنوه وحُفر له في منـزله فسمعت بذلك كندة فجاءت بالخيل والإبل فعقرتها على باب منـزله، فمات ميتة جاهليّة.

وأمّا البراء بن عازب فإنّه ولاّه معاوية اليمن فمات بها ومنها كان هاجر.(2(

فقد ظهر بذلك أنّ المستحفظين هم المكلّفون بحفظ الأمور المهمّة المعتدّ بها في أمر الدين، وأنّ تخصيصهم بالعلم لعدم كتمانهم لما حملوه لو رجع الخاطئون إليهم.

وأمّا أنّه (عليه السلام) ما ردّ على الله ورسوله أبداً فهو معلوم محقّق لا خفاء فيه، بل من ضروريّات المذهب، لملكة العصمة المانعة من مخالفته لله ولرسوله (صلى الله عليه وآله.(

]ردّ عمر على رسول الله)صلى الله عليه وآله:[(

وهذا القول إيماء إلى ما كان يفعله بعض الصحابة من التسرّع بالقول والاعتراض على الرسول (صلى الله عليه وآله)، كما نُقل عن عمر يوم الحديبية عندما سطر كتاب الصلح أنّه أنكر ذلك وقال لرسول الله (صلى الله عليه وآله): ألسنا على الحقّ؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا الكافرين؟ قال: بلى. قال: فكيف نعطي الدنيّة في ديننا؟ والله لو وجدتُ أعواناً لم أُعط الدنيّة أبداً، فقال له أبوبكر: وَيحك الزم غرزه، فو الله إنّه لرسول الله وإنّ الله لا يُضيعه، ثم قال له: أقال لك أنّه سيدخل مكّة هذا العام؟ فقال لا. قال: فسيدخلها، فلمّا فتح النبيّ (صلى الله عليه وآله (مكّة وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: هذا الذي وُعدتم به.(3(

قال ابن أبي الحديد بعد نقل هذا الخبر: واعلم أنّ هذا الخبر صحيح لاريب فيه، والناس كلّهم رووه، وليس عندي بقبيح ولا مُستهجَن أن يكون هذا الشخص سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد والتماساً لطمأنينة النفس، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: «أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي»(4) وقد كانت الصحابة تراجع رسول الله)صلى الله عليه وآله) في الأمور وتقول له: أهذا منك أم من الله؟ كقول السعدان يوم الخندق، وقول الأنصار يوم بدر، وقد كانت من عمر أمور دون هذه القصّة، كقوله: دعني أضرب عنق أبي سفيان، وقوله: دعني أضرب عنق عبد الله بن أبي، وقوله: دعني أَضرب عنق حاطب بن أبي بلتعة، ونهى النبي (صلى الله عليه وآله) عن التسرّع إلى ذلك، وجذبه ثوب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين قام على جنازة ابن أبي سلول يصلّي، وقوله: وكيف تستغفر لرئيس المنافقين؟ وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه، وإنّما الرجل كان مطبوعاً على

الشدّة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجيّة التي طُبع عليها، وعلى أيّ حال كان لقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً.(5)

أقول: والعجب من الرجل كيف أعمى الله بصيرته كلّما ذكر شيئاً من رذائله وقبائحه يجيب مرّة بأنّ هذه وإن كانت رذيلة إلاّ أنّ له فضائل جمّة تنغمر هذه الرذيلة تحتها، وأخرى ينفي القبيح عمّا فعله، وليس هذا إلاّ شدّة العصبيّة بحيث صار قلبه مسودّاً، نعوذ بالله من الختم والطبع، كما قال سبحانه: «خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَعَلى سَمْعِهِمْ وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ»(6) وقول» :وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ».(7)

الثانية: [المواساة النبي (صلى الله عليه وآله :[(ما أشار إليه بقوله (عليه السلام): «ولقد واسيتُه بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخّر فيها الأقدام نجدةً وشجاعة أكرمني الله بها» وجعلها مخصوصة بي وآثرني بها علىغيري.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: وهذا ـ يعني المواساة ـ ممّا اختصّ (عليه السلام) بفضيلته غير مُدافَع، ثبت معه يوم أُحد وفرّ الناس، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس، وثبت تحت رايته يوم خيبر حتّى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله.

وروى المحدّثون أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمّا ارتثّ ـ أي حُمل من المعركة جريحاً ـ يوم أُحد قال الناس: قُتل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى إلاّ أنّه حيّ فصمدت له، فقال لعلي (عليه السلام): اكفني هذه، فحمل عليها وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة أخرى فقال: يا علي اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها وقتل رئيسها، ثم صمدت له كتيبة ثالثة فكذلك، فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد ذلك يقول: قال لي جبرئيل: يا محمد إنّ هذه للمواساة. فقلت: وما يمنعه وهو مني وأنا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما.

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي «لا سيف إلاّ ذوالفقار ولا فتى إلاّ علي». فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمن حضره: ألا تسمعون؟ هذا صوت جبرئيل.

وأمّا يوم حُنين فثبت معه في نفر يسير من بني هاشم بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامى عنه وقتل قوماً من هوازن بين يديه حتى ثابت إليه الأنصار وانهزمت هوازن وغنمت أموالها. وأما يوم خيبر فقصّته مشهورة» انتهى كلام ابن أبي الحديد المعتزلي.(8)

قال الميرزا الخوئي: أقول: أوّل مواساته (عليه السلام) مبيته على فراش خاتم الأنبياء حتّى باهى الله به ملائكة السماء، فوهب نفسه لله تعالى وبذلها لنبيّه المصطفى وبات على فراشه لينجو به من كيد الأعداء وتتمّ له بذلك السلامة

والبقاء، وينتظم له به الغرض في الدعوة إلى الحنيفيّة البيضاء، فكان ذلك سبب نجاة النبي (صلى الله عليه وآله) وبقائه وحقن دمه حتّى صدع بأمر ربّه.

ولولاه (عليه السلام) لما تمّ لرسول الله (صلى الله عليه وآله) التبليغ والأداء، ولا استدام له العمر والبقاء، ولظفر به الحسدة والأعداء، فلمّا أصبحوا وعرفوا تفرّقوا عنه وانصرفوا، وقد ضلّت لهم الحيل وانقطع بهم الأمل، وانتقض ما بنوه من التدبير، وخابت لهم الظنون.

وكان بذلك انتظام الإيمان، وإرغام الشيطان، وخذلان أهل الكفر والعدوان، وهذه منقبة لم يشركه (عليه السلام) فيها أحد من أهل الإسلام، وقد أنزل فيه محكم التبيان، وهو قول الله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ».(9)

وأمّا مواساته له (صلى الله عليه وآله) في مواطن جهاده ومواطن جدّه واجتهاده، ومقامات جداله بألسنة الأسنّة وجلاده فهو فوق حدّ الاحصاء، متجاوز عن حدّ العدّ والاستقصاء:

منها غزوة بدر:

التي هدّت قوى الشرك وقذفت طواغيته في قليب الهلك، ودوّخت مردة الكفّار وسقتهم كاسات الدمار والبوار، ونقلتهم من القليب إلى النار.

فيومها اليوم الذي لم يأت الدهر بمثله، وأفاض الله فيه من أحسن فضله، أنزل فيه الملائكة لتأييد رسوله تفضيلاً له على جميع رُسله، وحباه من علوّ القدر ما لم ينله أحد من قبله، وأشرب صناديد قريش كأس أسره وقتله، وجبرئيل ينادي: إقدم حيزوم، لإظهار دينه على الدين كلّه، وأمير المؤمنين (عليه السلام) كان فارس تلك الملحمة، فما تعدّ الأسد الغضاب بشسع نعله، ومسعّر تلك الحرب العوان، ينصبّ على الأعداء انصباب السحاب ووبله، ونار سطوته ونجدته تتسعّر تسعّر النار في دقيق الغضا وجزله. فكان نصف القتلى يومئذ على يده من دون شركة غيره له.

ومنها غزوة أحد:

قال في كشف الغمّة في حديث عمران بن حصين، قال: لمّا تفرّق الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) جاء علي (عليه السلام) متقلّداً بسيفه حتى قام بين يديه، فرفع رأسه إليه وقال له: مالك لم تفرّ مع الناس؟ فقال: يا رسول الله أرجع كافراً بعد إسلامي؟! فأشار إلى قوم انحدروا من الجبل فحمل عليهم فهزمهم، فجاء جبرئيل وقال: يا رسول الله قد عجبت الملائكة من حسن مواساة علي لك بنفسه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما يمنعه من ذلك وهو مني وأنا منه. فقال جبرئيل: وأنا منكما.(10)

قال في كشف الغمّة: وروي عن عكرمة قال: سمعت علياً (عليه السلام) يقول: لمّا انهزم الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم أُحد لحقني من الجزع عليه ما لم أملك نفسي، وكنت أضرب بسيفي بين يديه، فرجعت أطلبه فلم أره، فقلت: ما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليفرّ، وما رأيته في القتلى، وإنّه رُفع من بيننا إلى السماء، فكسرت جفن سيفي وقلت: لأقاتلنّ به حتى أُقتل، وحملت على القوم فأفرجوا، فإذا أنا برسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد وقع مغشيّاً عليه، فنظر إليّ وقال: ما فعل الناس يا علي؟ قلت: كفروا يا رسول الله وولّوا الدبر وأسلموك، فنظر إلى كتيبة قد أقبلت فقال: ردّهم عني. فحملت عليهم أضربهم يميناً وشمالاً حتى فرّوا، فقال (صلى الله عليه وآله): أما تسمع مديحك في السماء؟ إنّ مَلَكاً اسمه رضوان ينادي: لا سيف إلاّ ذو الفقار، ولا فتى إلاّ علي، فبكيت سروراً وحمدت الله على نعمته.(11(

وقد ذكر أهلُ السير قتلى أحد من المشركين، وكان جمهورهم قتلى أمير المؤمنين (عليه السلام)، وانصرف المشركون إلى مكّة، وانصرف النبي (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة، فاستقبلته فاطمة ومعها إناء فيه ماء، فغسل به وجهه، ولحقه أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد خضّب الدم يده إلى كتفه ومعه ذو الفقار، فناوله فاطمة وقال: خُذي هذا السيف فقد صدقني اليوم، وقال:

فلست برعديدٍ ولا بمُليمِ	أفاطمُ هاكِ السيف غير ذميم
سقى آل عبد الدار كأسَ	أميطي دماء الكفر عنه فإنه
حميم	لعمري لقد أعذرت في نصر أحمد
وطاعة ربٍّ بالعباد عليم	

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): خُذيه يا فاطمة، فقد أدّى بعلك ما عليه وقد قتل الله صناديد قريش بيده.(12(

ومنها: وقعة الأحزاب المعروفة بغزوة الخندق:

قال الشيخ المفيد في الإرشاد: وقد روى قيس بن الربيع قال :حدّثنا أبو هارون العبدي، عن ربيعة السعدي قال: أتيت حذيفة بن اليمان فقلت: يا أبا عبد الله إنّا لنتحدّث عن علي (عليه السلام) ومناقبه فيقول لنا أهل البصرة: إنّكم لتفرطون في علي (عليه السلام)، فهل أنت تحدّثني بحديث فيه. قال حذيفة: يا ربيعة وما تسألني عن علي، فوالذي نفسي بيده لو وُضع جميع أعمال أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) في كفّة الميزان منذ بعث الله محمداً إلى يوم الناس هذا، ووُضع عمل علي (عليه السلام) في الكفّة الأخرى لرجح عمل علي (عليه السلام) على جميع أعمالهم. فقال ربيعة: هذا الذي لا يُقام ولا يقعد. فقال حذيفة: يا لُكع وكيف لا يُحمل؟ وأين كان أبو بكر وعمر وحذيفة وجميع أصحاب محمد (صلى الله

عليه وآله) يوم عمرو بن عبد ودّ وقد دعا إلى المبارزة فأحجم الناس كلّهم ما خلا علياً (عليه السلام) فإنّه برز إليه وقتله الله على يده، والذي نفس حذيفة بيده لعمله ذلك اليوم أعظم أجراً من عمل أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) إلى يوم القيامة.(13(

قال في كشف الغمّة: رأيت في بعض الكتب أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال حين بارز علي عمرو بن عبد ودّ: خرج الإسلام كلّه إلى الشرك كلّه .

وقال الدميري في كتابه (حياة الحيوان) في مادّة (حيدرة): جاء في بعض الروايات أنّ علياً (رضي الله عنه) لمّا بارز عمراً قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «اليوم برز الإيمان كلّه للشرك كلّه».(14(

ومنها غزوة وادي الرمل:

وتسمّى غزوة ذات السلاسل ـ وإنّما سُمّيت بذلك لأنّه (عليه السلام) شدّ أسراهم في الحبال مكتّفين كأنّهم في السلاسل ـ وقد كان الفتح فيها لأمير المؤمنين (عليه السلام) خاصّة بعد أن كان فيها من غيره من الإفساد ما كان، وفيها نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) سورة العاديات فتضمّنت ذِكر ما فعله أمير المؤمنين (عليه السلام) فيها.

قال الشيخ المفيد: روي عن أمّ سلمة قالت: كان نبيّ الله (صلى الله عليه وآله) قائلاً في بيتي إذ انتبه فزعاً من منامه، فقلت له: الله جارك. قال :صدقت والله جاري، لكنّ هذا جبرئيل يخبرني أنّ علياً قادم، ثم خرج إلى الناس فأمرهم أن يستقبلوا علياً (عليه السلام)، فقام المسلمون له صفّين مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فلمّا بَصُر بالنبي (صلى الله عليه وآله) ترجّل عن فرسه وأهوى إلى قدميه يقبّلهما، فقال له (صلى الله عليه وآله): اركب فإنّ الله تعالى ورسوله عنك راضيان. فبكى أمير المؤمنين (عليه السلام) فرحاً وانصرف إلى منـزله، وتسلّم المسلمون الغنائم... إلى أن قال: ثم قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي لولا أنّني أُشفق أن يقول فيك طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم، لقلتُ فيك اليوم مقالاً لا تمرّ بملأ منهم إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك.(15(

ومنها غزوة الحديبية:

وفيها أقبل سهيل بن عمرو إلى النبي (صلى الله عليه وآله (فقال له: يا محمد إنّ أرقّاءنا لحقوا بك، فاردُدهم علينا، فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى تبيّن الغضب في وجهه ثم قال: لتنتهينّ يا معاشر قريش أو ليبعثنّ الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه بالايمان يضرب رقابكم على الدين. فقال بعضُ من حضر: يا رسول الله أبوبكر ذلك الرجل؟ فقال: لا. قال: فعمر؟ قال: لا، ولكنه خاصف النعل في الحجرة. فتبادر الناس إلى الحجرة ينظرون من الرجل، فإذا هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام). رواه المفيد في الإرشاد،(16) ورواه في كشف الغمة،(17) وفي

صحيح الترمذي(18) نحوه.

ومنها غزوة خيبر:

قال المفيد: ثمّ تلت الحديبية خيبر، وكان الفتح فيها لأمير المؤمنين (عليه السلام) بلا ارتياب، فظهر من فضله في هذه الغزاة ما أجمع عليه نقلة الرواة.(19(

جاء في كتاب (كشف الغمّة): قال ابن طلحة: وتلخيص المقصد فيها على ما ذكره أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب السيرة النبويّة، يرفعه بسنده عن ابن الأكوع، قال :

بعث النبي (صلى الله عليه وآله) أبا بكر برايته ـ وكانت بيضاء ـ إلى بعض حصون خيبر، فقاتل ثم رجع ولم يكن فتح وقد جهد, ثم بعث عمر بن الخطاب فكان كذلك, فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، ويفتح الله على يديه، ليس بفرّار, قال سلمة :فدعا علياً عليه السلام وهو أرمد فتفل في عينيه ثم قال: خذ هذه الراية فامضِ بها حتى يفتح الله عليك, فخرج يهرول وإنّا خلفه نتبع أمره، حتى ركّز رايته في رخم من حجارة تحت الحصن, فاطّلع عليه يهوديّ من الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم حصننا وما أُنزل على موسى, قال: فما رجع حتّى فتح الله على يديه.(20(

ومنها فتح مكّة :

قال المفيد (رضي الله عنه): وفيما ذكرناه من أعمال أمير المؤمنين (عليه السلام) في قتل من قُتل من أعداءه بمكّة وإخافة من أخاف، ومعونة رسول الله على تطهير المسجد من الأصنام، وشدّة بأسه في الله، وقطع الأرحام في طاعة الله (عز وجل) أوّل دليل على تخصيصه من الفضل بما لم يكن لأحد منهم سهم فيه.(21(

ومنها غزوة حُنين:

فاستظهر فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكثرة الجمع، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومعه عشرة آلاف من المسلمين، فظنّ أكثرهم أنّهم لن يُغلَبوا لما شاهدوا من كثرة جمعهم وعددهم وعدّتهم، وأعجب أبا بكر الكثرة يومئذ فقال: لن نُغلب اليوم من قلّة، فكان الأمر بخلاف ما ظنّوه.

فلمّا التقوا لم يلبثوا وانهزموا بأجمعهم، فلم يبق مع النبي)صلى الله عليه وآله) إلاّ تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن أم أيمن، وقُتل (رحمه الله)، وثبت التسعة الهاشميّون رئيسهم أمير المؤمنين (عليه السلام)، ورجعوا بعد ذلك وتلاحقوا، وكانت الكثرة لهم على المشركين، فأنزل الله في إعجاب أبي بكر بالكثرة »وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى

الْمُؤْمِنِينَ»(22) يريد علياً ومن ثبت معه من بني هاشم.(23)

هذا قليل من كثير، ويسير من جمّ غفير من مناقبه ومفاخره ومجاهداته ومواساته لرسول الله (صلى الله عليه وآله.)
وهذا معنى قوله (عليه السلام): «ولقد واسيتُه في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخّر فيها الأقدام.«

الثالثة: [النبي (صلى الله عليه وآله) في مرض الموت :]ما أشار إليه (عليه السلام) بقوله: «ولقد قُبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإنّ رأسه لعلى صدري.«

قيل: لعلّه (عليه السلام) أسنده (صلى الله عليه وآله) إلى صدره عند اشتداد مرضه، وقيل: إنّه كان رأسه على رُكبته، فيكون رأسه (صلى الله عليه وآله) في صدره عند إكبابه عليه، والأوّل أظهر.

ويؤيّده ما في البحار عن أمالي الشيخ، عن أمير المؤمنين)عليه السلام) قال: كنت عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مرضه الذي قُبض فيه، وكان رأسه في حجري، والعباس يذبّ عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فأغمي عليه إغماء ثم فتح عينيه فقال: يا عبّاس يا عمّ رسول الله اقبل وصيتي واضمن دَيني وعِداتي. فقال العبّاس: يا رسول الله أنت أجود من الريح المرسلة، وليس في مالي وفاء لدينك وعداتك. فقال النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك ثلاثاً يُعيده عليه والعبّاس في كلّ ذلك يُجيبه بما قال أوّل مرّة.

قال: فقال النبي (صلى الله عليه وآله): لأقولنّها لمن يقبلها ولا يقول يا عبّاس مثل مقالتك. فقال: يا علي اقبل وصيّتي واضمن ديني وعِداتي.

قال: فخنقتني العبرة وارتجّ جسدي ونظرت إلى رأس رسول الله)صلى الله عليه وآله) يذهب ويجيء في حجري، فقطرت دموعي على وجهه ولم أقدر أن أُجيبه، ثم ثنّى فقال: اقبل وصيتي واضمن ديني وعداتي. قال، قلت: نعم بأبي وأمّي .قال: أجلِسني. فأجلسته، فكان ظهره في صدري فقال: يا علي أنت أخي في الدنيا والآخرة ووصيّي وخليفتي في أهلي. ثم قال: يا بلال هلمّ سيفي ودرعي وبغلتي وسرجها ولجامها ومنطقتي التي أشدّ بها على درعي. فجاء بلال بهذه الأشياء فوقف بالبغلة بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا علي قُم فاقبض. فقال: قمت وقام العبّاس فجلس مكاني، فقمت فقبضت ذلك، فقال: انطلق به إلى منـزلك، فانطلقت ثمّ جئت فقمت بين يدَي رسول الله (صلى الله عليه وآله) قائماً، فنظر إليّ ثم عهد إلى خاتمه فنـزعه ثم دفعه اليّ فقال: هاك يا علي، هذا لك في الدنيا والآخرة. والبيت غاصّ من بني هاشم والمسلمين.

فقال: يا بني هاشم، يا معشر المسلمين، لا تخالفوا علياً فتضلّوا، ولا تحسدوه فتكفروا، يا عبّاس قم من مكان علي

(عليه السلام) فقال: تُقيم الشيخ وتُجلس الغلام؟ فأعادها ثلاث مرّات. فقام العبّاس فنهض مغضباً وجلست مكاني.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا عبّاس يا عمّ رسول الله، لا أخرج من الدنيا وأنا ساخط عليك فيُدخلك سخطي عليك النار، فرجع وجلس.(24(

ومن الأمالي أيضاً عنه (عليه السلام) في حديث، قال: فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا علي أجلسني، فأجلسته وأسندتُه إلى صدري، قال علي (عليه السلام): فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليثقل ضعفاً وهو يقول يُسمع أهلَ البيت أعلاهم وأدناهم: إنّ أخي ووصيّي ووزيري وخليفتي في أهلي علي بن أبي طالب (عليه السلام)، يقضي ديني ويُنجز وعدي. يا بني هاشم يا بني عبد المطلب لا تُبغضوا علياً ولا تخالفوا عن أمره فتضلّوا، ولا تحسدوه وترغبوا عنه فتكفروا، أضجِعني يا علي، فأضجعته، الحديث.(25(

وفي البحار من الأمالي أيضاً بإسناده عن ابن أبي رافع، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: دخلت على نبيّ الله وهو مريض، فإذا رأسه في حِجر رجل أحسن ما رأيتُ من الخلق، والنبيّ نائم، فلما دخلت عليه (صلى الله عليه وآله) قال الرجل: أُدنُ إلى ابن عمك فأنت أحقّ به منّي، فدنوت منهما، فقام الرجل وجلست مكانه ووضعت رأس النبيّ (صلى الله عليه وآله) في حِجري كما كان في حجر الرجل، فمكث ساعة، ثم إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) استيقظ فقال: أين الرجل الذي كان رأسي في حجره؟ فقلت: لمّا دخلتُ عليك دعاني إليك ثم قال: ادنُ إلى ابن عمّك فأنت أحقّ به منّي، ثم قام فجلست مكانه. فقال النبي (صلى الله عليه وآله): فهل تدري من الرجل؟ قلت: لا بأبي وأمّي، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): ذاك جبرئيل كان يحدّثني حتى خفّ عني وجعي، ونمت ورأسي في حجره.(26(

]وفاة النبي (صلى الله عليه وآله:[(

وأمّا كيفيّة وفاته (صلى الله عليه وآله)، ففي البحار عن أمالي الصدوق بإسناده عن ابن عبّاس قال:

لمّا مرض رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعنده أصحابه، قام إليه عمّار بن ياسر فقال له: فداك أبي وأمّي يا رسول الله فمن يغسّلك منّا إذا كان ذلك منك؟ قال: ذلك علي بن أبي طالب، لأنه لا يهمّ بعضو من أعضائي إلاّ أعانته الملائكة على ذلك.

فقال له: فداك أبي وأمّي يا رسول الله، فمن يصلّي عليك منّا إذا كان ذلك منك. قال: مه رحمك الله.

ثم قال (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): يا ابن أبي طالب إذا رأيت روحي قد فارقت جسدي فاغسلني وأنقِ غسلي، وكفّنّي في طمريّ هذين أو في بياض مصر وبردٍ يمان، ولا تُغال في كفني، واحملوني حتّى تضعوني على شفير

قبري، فأوّل من يصلّي عليّ الجبار جلّ جلاله من فوق عرشه، ثمّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة لا يُحصي عددهم إلاّ الله جلّ وعزّ، ثم الحافّون بالعرش، ثم سكّان أهل سماء فسماء، ثم جلّ أهل بيتي ونسائي الأقربون فالأقربون، تُومون إيماء وتسلّمون تسليماً، لا تؤذوني بصوت نادبة ولا مرنّة.

ثم قال: يا بلال هلمّ عليَّ بالناس، فاجتمع الناس، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) متعصّباً بعمامته متوكّئاً على قوسه حتّى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

معاشر أصحابي أيّ نبيّ كنت لكم؟ ألم أجاهد بين أظهركم؟ ألم تُكسر رباعيتي؟ ألم يُعفّر جبيني؟ ألم تسل الدماء على حرّ وجهي حتّى كنفت لحيتي؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟!

قالوا: بلى يا رسول الله، ولقد كنتَ لله صابراً وعن منكر بلاء الله ناهياً، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء.

قال: وأنتم فجزاكم الله، ثم قال: إنّ ربي (عز وجل) حكم وأقسم أن لا يجوزه ظلم ظالم، فناشدُتكم بالله أيّ رجل منكم كانت له قِبل محمّد مظلمة إلاّ قام فليقتصّ منه، فالقصاص في دار الدنيا أحبّ إليّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء.

فقام إليه رجل من أقصى القوم يُقال له سوادة بن قيس فقال له :فداك أبي وأمّي يا رسول الله إنّك لمّا أقبلت من الطائف استقبلتُك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فلا أدري عمداً أو خطأ. فقال (صلى الله عليه وآله): معاذ الله أن أكون تعمّدت. ثم قال :يا بلال قُم إلى منـزل فاطمة فأتني بالقضيب الممشوق.

فخرج بلال وهو يُنادي في سلك المدينة: معاشر الناس من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، فهذا محمّد (صلى الله عليه وآله) يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة.

وطرق بلال الباب على فاطمة (عليها السلام) وهو يقول: يا فاطمة قومي فوالدك يريد القضيب الممشوق. فأقبلت فاطمة وهي تقول: يا بلال وما يصنع والدي بالقضيب وليس هذا يوم القضيب؟ فقال بلال: يا فاطمة أما علمتِ أنّ والدك قد صعد المنبر وهو يودّع أهل الدين والدنيا. فصاحت فاطمة (عليها السلام) وقالت :واغمّاه لغمّك يا أبتاه، من للفقراء والمساكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب، ثمّ ناولت بلالاً القضيب، فخرج حتّى ناوله رسول الله (صلى الله عليه وآله.(

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أين الشيخ؟ فقال الشيخ: ها أناذا يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، فقال: فاقتصّ منّي حتّى ترضى، فقال الشيخ: فاكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه، فقال الشيخ: بأبي أنت وأمّي

أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ فأذن له، فقال: أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله)صلى الله عليه وآله) من النار.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يا سوادة بن قيس، أتعفو أم تقتصّ؟ فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال (صلى الله عليه وآله): اللّهمّ اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفى عن محمّد نبيّك.

ثم قام رسول الله (صلى الله عليه وآله) فدخل بيت أمّ سلمة وهو يقول: ربّ سلّم أمّة محمّد من النار، ويسّر عليهم الحساب، فقالت أم سلمة: يا رسول الله ما لي أراك مغموماً متغيّر اللّون؟ فقال (صلى الله عليه وآله): نُعيت إليّ نفسي هذه الساعة، فسلام لك في الدنيا فلا تسمعين بعد هذا اليوم صوت محمّد أبداً، فقالت أم سلمة: واحزناه حزناً لا تدركه الندامة عليك يا محمّد. ثم قال (صلى الله عليه وآله): ادع لي حبيبة قلبي وقرّة عيني فاطمة، فجائت فاطمة وهي تقول: نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء يا أبتاه، ألا تكلّمني كلمة فإنّي أنظر إليك وأراك مفارق الدنيا، وأرى عساكر الموت تغشاك شديداً.

فقال لها: يا بُنيّة إنّي مفارقك فسلام عليك مني. قالت: يا أبتاه فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال (صلى الله عليه وآله): عند الحساب. قالت: فإن لم ألقك عند الحساب؟ قال: عند الشفاعة لأمتي. قالت: فإن لم ألقك عند الشفاعة لأمّتك؟ قال: عند الصراط، جبرئيل عن يميني وميكائيل عن يساري، والملائكة خلفي وقدّامي ينادون «ربّ سلّم أمّة محمد من النار ويسّر عليهم الحساب». قالت فاطمة :فأين والدتي خديجة؟ قال: في قصر له أربعة أبواب إلى الجنّة.

ثمّ أُغمي على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فدخل بلال وهو يقول: الصلاة رحمك الله، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصلّى بالناس وخفّف الصلاة.

ثم قال: ادعوا لي علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد، فجاءا، فوضع (صلى الله عليه وآله) يده على عاتق علي والأخرى على أسامة، ثمّ قال: انطلقا بي إلى فاطمة، فجاءا به حتى وضع رأسه في حجرها فإذا الحسن والحسين يبكيان ويصطرخان وهما يقولان: أنفسنا لنفسك الفداء، ووجوهنا لوجهك الوقاء.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من هذان يا علي؟ فقال)عليه السلام): ابناك الحسن والحسين، فعانقهما وقبّلهما، وكان الحسن (عليه السلام (أشدّ بكاء، فقال (عليه السلام) كُفّ يا حسن فقد شققتَ على رسول الله (صلى الله عليه وآله.(

فنـزل ملك الموت فقال: السلام عليك يا رسول الله قال: وعليك السلام يا ملك الموت، لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك يا نبي الله؟ قال: حاجتي أن لا تقبض روحي حتّى يجيئني جبرئيل فيسلّم عليّ وأسلّم عليه.

فخرج ملك الموت وهو يقول: يا محمّداه، فاستقبله جبرئيل في الهواء فقال: يا ملك الموت قبضت روح محمّد؟ قال: لا يا جبرئيل، سألني أن لا أقبضه حتّى يلقاك فتسلّم عليه ويسلّم عليك، فقال جبرئيل: يا ملك الموت أما ترى أبواب السماء مفتّحة لروح محمّد (صلى الله عليه وآله)؟ أما ترى الحور العين قد تزيّنت لروح محمّد (صلى الله عليه وآله)؟

ثم نزل جبرئيل فقال: السلام عليك يا أبا القاسم، فقال: وعليك السلام يا جبرئيل، ادنُ مني حبيبي جبرئيل، فدنا منه، فنـزل ملك الموت فقال له جبرئيل: يا ملك الموت احفظ وصيّة الله في روح محمّد، وكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره وملك الموت أخذ بروحه، فلمّا كشف الثوب عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله) نظر إلى جبرئيل فقال له: عند الشدائد لا تخذلني، فقال: يا محمّد إنّك ميّت وإنّهم ميّتون، كلّ نفس ذائقة الموت. فرُوي عن ابن عباس أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ذلك المرض كان يقول: ادعوا لي حبيبي، فجعل يُدعى له رجل بعد رجل فيعرض عنه، فقيل لفاطمة (عليها السلام): إمضي إلى علي، فما نرى رسول الله يريد غير علي، فبعثت فاطمة إلى علي (عليه السلام)، فلمّا دخل فتح رسول الله (صلى الله عليه وآله) عينيه وتهلّل وجهه ثم قال: إليّ يا علي، إليّ يا علي، فما زال (صلى الله عليه وآله) يُدنيه حتى أخذه بيده وأجلسه عند رأسه.

ثمّ أغمي عليه، فجاء الحسن والحسين (عليهما السلام) يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأراد علي أن يُنحّيهما عنه)صلى الله عليه وآله)، فأفاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم قال: يا علي دعني أشمّهما ويشمّاني، وأتزوّد منهما ويتزوّدان مني، أما إنّهما سيُظلمان بعدي ويُقتلان ظلماً، فلعنة الله على من يظلمهما، يقول ذلك ثلاثاً.

ثم مدّ يده إلى علي فجذبه إليه حتّى أدخله تحت ثوبه الذي كان عليه، ووضع فاه على فيه وجعل يُناجيه مناجاة طويلة حتّى خرجت روحه الطيّبة (صلى الله عليه وآله)، فانسلّ علي من تحت ثيابه وقال: أعظم الله أجوركم في نبيّكم فقد قبضه الله إليه، فارتفعت الأصوات بالضجّة والبكاء، فقيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): ما الذي ناجاك به رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أدخلك تحت ثيابه؟ فقال: علّمني ألف باب، كلّ باب يفتح ألف باب.

وقد كان جبرئيل ينـزل على النبي (صلى الله عليه وآله) في مرضه الذي قُبض فيه في كلّ يوم وليلة فيقول: السلام عليك، إنّ ربّك يقرؤك السلام فيقول: كيف تجدك وهو أعلم بك، ولكنّه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك على الخلق، وأراد أن تكون عيادة المريض سُنّة في أمتك.

فيقول النبي (صلى الله عليه وآله) إن كان وجعاً: يا جبرئيل أجدني وجعاً، فقال له جبرئيل: اعلم يا محمّد أنّ الله لم يشدّد عليك، وما من أحد من خلقه أكرم عليه منك، ولكنّه أحبّ أن يسمع صوتك ودعاءك حتّى تلقاه مستوجباً للدرجة

والثواب الذي أعدّ لك والكرامة والفضيلة على الخلق.

وإن قال له النبي (صلى الله عليه وآله): أجدني مريحاً في عافية، قال له: فاحمد الله على ذلك، فإنه يحبّ أن تحمده وتشكره ليزيدك إلى ما أعطاك خيراً، فإنّه يُحبّ أن يُحمد ويزيد من شكر.(27)

وفي البحار من المناقب عن سهل بن أبي صالح، عن ابن عباس، أنّه أُغمي على النبي (صلى الله عليه وآله) في مرضه فدقّ بابه، فقالت فاطمة: من ذا؟ قال: أنا رجل غريب أتيت أسأل رسول الله، أتأذنون لي في الدخول عليه؟ فأجابت: امضِ ـ رحمك الله ـ لحاجتك، فرسول الله عنك مشغول.

فمضى ثمّ رجع فدق الباب وقال: غريب يستأذن على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتأذنون للغرباء؟ فأفاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) من غشيته وقال: يا فاطمة أتدرين من هذا؟ قالت: لا يا رسول الله، قال: هذا مفرّق الجماعات ومنغّص اللذّات، هذا مَلَك الموت، ما استأذن ـ والله ـ على أحد قبلي ولا يستأذن على أحد بعدي، استأذن عليّ لكرامتي على الله، ائذني له، فقالت: ادخل رحمك الله، فدخل كريح هفّافة وقال: السلام على أهل بيت رسول الله.

ثمّ قال: يا نبيّ الله إنّي رسول الله إليك، قال: وأيّ رُسل الله أنت؟ قال: أنا ملك الموت أرسلني إليك يُخيّرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): فأمهلني حتّى ينـزل جبرئيل فأستشيره.

ونزل جبرئيل فقال: يا رسول الله الآخرة خير لك من الأُولى ولسوف يعطيك ربّك فترضى، لقاء الله خير لك، فقال (صلى الله عليه وآله): لقاء ربي خير لي، فامضِ لما أُمرتَ به، فقال جبرئيل لملك الموت: لا تعجل حتّى أعرج إلى السماء وأهبط، قال ملك الموت: لقد صارت نفسه في موضع لا أقدر على تأخيرها، فعند ذلك قال جبرئيل: يا محمّد هذا آخر هبوطي إلى الدنيا، إنّما كنتَ أنت حاجتي فيها(28).

وصاحت فاطمة وصاح المسلمون وصاروا يضعون التراب على رؤوسهم .ومات (صلى الله عليه وآله) لليلتين بقيتا من صفر سنة عشر من الهجرة (صلى الله عليه وآله) وسلّم تسليماً كثيراً.

الرابعة: [قبض روح (صلى الله عليه وآله)]: ما أشار إليه (عليه السلام) بقوله: «ولقد سالت نفسُه في كفّي فأمررتُها على وجهي.»

المراد بالنفس هنا نفسه الناطقة القدسيّة التي هي مبدء الفكر والذكر والعلم والحلم والنباهة، ولها خاصيّة الحكمة والنـزاهة، فيكون محصّل المراد بالكلام أنّ روحه الطيّبة الكاملة التي هي المصداق الحقيقي لقوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»، والمقصود الأصلي بقوله: «وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» لمّا فارقت جسده الطاهر فاضت بيدي فمسحت بها على

وجهي.

وإنّما مسح بها على وجهه إمّا تيّمناً أو لحكمة عظيمة لا نعرفها.

* * *

لمّا كانت هذه الخطبة الشريفة التي نحن في شرحها مَسوقة لذكر مناقبه وخصائصه الجميلة المخصوصة به، المفيدة لكونه أحقّ وأولى بالخلافة والإمامة من غيره، أحببت أن أورد رواية متضمّنة لجملة من كراماته وبيّناته التي لم يشركه فيها أحد، تأكيداً للغرض المسوق له الخطبة الشريفة وتكميلاً له، وهي:

]سبعون منقبة لعلي (عليه السلام:[(

ما رواه في البحار من الخصال عن القطّان والسنان والدقّاق والمكتب والورّاق جميعاً عن ابن زكريا القطّان، عن ابن حبيب، عن ابن بهلول، عن سليمان بن حكيم، عن ثور بن يزيد، عن مكحول، قال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)عليه السلام(:«لقد علم المستحفَظون من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) أنّه ليس فيهم رجل له منقبة إلاّ وقد شركته فيها وفضلته، ولي سبعون منقبة لم يشركني فيها أحد منهم. قلت: يا أمير المؤمنين فأخبرني بهنّ، فقال (عليه السلام:(

إنّ أوّل منقبة لي أنّي لم أُشرك بالله طرفة عين ولم أعبد اللات والعُزّى.

والثانية: أنّي لم أشرب الخمر قطّ.

والثالثة: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) استوهبني من أبي في صباي، فكنت أكيلَه وشريبه ومؤنسه ومحدّثه.

والرابعة: أنّي أوّل الناس إيماناً وإسلاماً.

والخامسة: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: يا علي أنت منّي بمنـزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي.

والسادسة: أنّي كنت آخر الناس عهداً برسول الله (صلى الله عليه وآله) ووليته في حفرته.

والسابعة: أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنامني على فراشه حيث ذهب إلى الغار، وسجّاني ببُرده، فلمّا جاء المشركون ظنّوني محمّداً، فأيقظوني وقالوا: ما فعل صاحبك؟ فقلت: ذهب في حاجته، فقالوا: لو كان هرب لهرب هذا معه.

وأمّا الثامنة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) علّمني ألف باب من العلم، يفتح كلّ باب ألف باب، ولم يعلّم ذلك أحداً غيري.

وأمّا التاسعة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال لي :يا علي إذا حشر الله (عز وجل) الأوّلين والآخرين نصب لي منبراً فوق منابر النبيّين، ونصب لك منبراً فوق منابر الوصيّين فترتقي عليه.

وأمّا العاشرة: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله (يقول: لا أُعطى في القيامة شيئاً إلاّ سألتُ لك مثله.

وأمّا الحادية عشرة: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أنت أخي وأنا أخوك، يدك في يدي حتّى ندخل الجنّة.

وأمّا الثانية عشرة: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: يا علي مثلك في أمّتي كمثل سفينة نوح، من ركبها نجى، ومن تخلّف عنها غرق.

وأمّا الثالثة عشرة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (عمّمني بعمامة نفسه بيده، ودعى لي بدعوات النصر على أعداء الله، فهزمتُهم بإذن الله)عز وجل.(

وأمّا الرابعة عشرة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (أمرني أن أمسح يدي على ضرع شاة قد يبس ضرعُها، فقلت: يا رسول الله بل امسح أنت، فقال: يا علي فِعلُك فعلي، فمسحت عليها يدي فدّر عليّ من لبنها، فسقيتُ رسول الله)صلى الله عليه وآله) شربة، ثمّ أتت عجوز فشكت الظماء فسقيتها، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّي سألت الله (عز وجل) أن يُبارك في يدك ففعل.

وأمّا الخامسة عشرة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (أوصى إليّ وقال: يا علي لا يلي غسلي غيرك، ولا يُواري عورتي غيرك، فإنّه إن رأى عورتي غيرك تفقّأت عيناه، فقلت له: كيف لي بتقليبك يا رسول الله؟ فقال: إنّك ستُعان، واللهِ ما أردت أن أقلّب عضواً من أعضائه إلاّ قُلّب لي.

وأمّا السادسة عشرة: فإنّي أردت أن أُجّرده (عليه السلام (فنوديت: يا أخ محمد لا تجرّده، فغسلته والقميص عليه، فلا واللهِ الذي أكرمه بالنبوّة وخصّه بالرسالة ما رأيتُ له عورة، خصّني الله بذلك من بين أصحابه.

وأمّا السابعة عشرة: فإنّ الله (عز وجل) زوّجني فاطمة وقد كان خطبها أبو بكر وعمر، فزوّجني الله من فوق سبع سماواته، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): هنيئاً لك يا علي، فإنّ الله (عز وجل) قد زوّجك فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة وهي بضعة منّي، فقلت: يا رسول الله أو لستُ منك؟ قال: بلى يا علي، أنت مني وأنا منك كيميني من شمالي، لا أستغني عنك في الدنيا والآخرة.

وأمّا الثامنة عشرة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (قال: يا علي أنت صاحب لواء الحمد في الآخرة، وأنت يوم القيامة أقرب الخلائق منّي مجلساً، يُبسط لي ويُبسط لك، فأكون في زمرة النبيّين، وتكون في زمرة الوصيّين، ويوضع

على رأسك تاج النور وإكليل الكرامة، يحفّ بك سبعون ألف ملك حتّى يفرغ الله)عز وجل) من حساب الخلائق.

وأمّا التاسعة عشرة: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (قال لي: ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، فمن قاتلك منهم فإنّ لك بكلّ رجل منهم شفاعة في مائة ألف من شيعتك، فقلت: يا رسول الله فمَن الناكثون؟ قال: طلحة والزبير، سيُبايعانك بالحجاز وينكثان بالعراق، فإذا فعلا ذلك فحاربهما، فإنّ في قتالهما طهارة لأهل الارض، قلت: فمن القاسطون؟ قال: معاوية وأصحابه، قلت: فمن المارقون؟ قال: أصحاب ذي الثديّة، وهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فاقتلهم فإنّ في قتلهم فرجاً لأهل الأرض وعذاباً مؤجلاً عليهم، وذُخراً لك عند الله)عز وجل) يوم القيامة.

وأمّا العشرون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله (يقول: «مثلك في أمّتي مثل باب حطّ ّة في بني إسرائيل، فمن دخل في ولايتك فقد دخل الباب كما أمره الله (عز وجل.(

وأمّا الحادية والعشرون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، ولن يدخل المدينة إلاّ من بابها، ثم قال: يا علي إنّك سترعى ذمّتي، وتقاتل على سُنّتي، وتخالفك أمّتي.«

وأمّا الثانية والعشرون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «إنّ الله تبارك وتعالى خلق ابنيّ الحسن والحسين من نور ألقاه إليك وإلى فاطمة، وهما يهتزّان كما يهتزّ القُرطان إذا كانا في الأُذنين، ونورهما متضاعف على نور الشهداء سبعين ألف ضعف، يا علي إنّ الله (عز وجل) قد وعدني أن يُكرمهما كرامة لا يكرم بها أحداً ما خلا النبيّين والمرسلين.«

وأمّا الثالثة والعشرون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أعطاني خاتمه في حياته ودرعه ومنطقته، وقلّدني سيفه وأصحابه كلّهم حضور وعمّي العبّاس حاضر، فخصّني الله (عز وجل) بذلك دونهم.

وأمّا الرابعة والعشرون: فإنّ الله (عز وجل) أنزل على رسوله »يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً»(29) فكان لي دينار فبعتُه بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصّدق قبل ذلك بدرهم، ووالله ما فعل هذا أحد من أصحابه قبلي ولا بعدي، فأنزل الله (عز وجل) «أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ»(30) الآية، فهل تكون التوبة إلاّ من ذنب كان؟

وأمّا الخامسة والعشرون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «الجنّة محرّمة على الأنبياء حتّى أدخلها أنا، وهي محرّمة على الأوصياء حتّى تدخلها أنت، يا علي إنّ الله تبارك وتعالى بشّرني فيك ببشرى لم يُبشّر بها نبيّاً قبلي، بشّرني بأنّك سيّد الأوصياء، وأنّ ابنيك الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة يوم القيامة.

وأمّا السادسة والعشرون: فإنّ جعفراً أخي الطيّار في الجنّة مع الملائكة، المزيّن بالجناحين من درّ وياقوت وزبرجد.

وأمّا السابعة والعشرون: فعمّي حمزة سيّد الشهداء.

وأمّا الثامنة والعشرون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: «إنّ الله تعالى وعدني فيك وعداً لن يُخلفه، وجعلني نبيّاً وجعلك وصيّاً، وستلقى من أمّتي من بعدي ما لقي موسى من فرعون، فاصبر واحتسب حتّى تلقاني، فأوالي من والاك وأعادي من عاداك.«

وأمّا التاسعة والعشرون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «يا عليّ أنت صاحب الحوض لا يملكه غيرك، وسيأتيك قوم فيستسقونك فتقول: لا ولا مثل ذرّة، فينصرفون مسودّة وجوههم، وسترد عليك شيعتي وشيعتك فتقول :روّوا رواء مرويّين، فيردون مبيضّة وجوههم.«

وأمّا الثلاثون: فإنّي سمعته (صلى الله عليه وآله) يقول :تُحشر أمتي يوم القيامة على خمس رايات: فأوّل راية ترد عليّ راية فرعون هذه الأمة وهو معاوية، والثانية مع سامريّ هذه الأمة عمرو بن العاص، والثالثة مع جاثليق هذه الأمة وهو أبو موسى الأشعريّ، والرابعة مع أبي الأعور السلميّ، وأمّا الخامسة فمعك يا علي، تحتها المؤمنون وأنت إمامهم، ثم يقول الله تبارك وتعالى للأربعة «ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ»،(31) وهم شيعتي ومن والاني وقاتل معي الفئة الباغية والناكثة عن الصراط، وباب الرحمة هم شيعتي، فينادي هؤلاء: «أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأْ ◌مانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»،(32) ثمّ ترد أمّتي وشيعتي فيروون من حوض محمّد (صلى الله عليه وآله) وبيدي عصا عوسج أطرد بها أعدائي طرد غريبة الإبل.

وأمّا الحادية والثلاثون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لولا أن يقول فيك الغالون من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى ابن مريم، لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملأ من الناس إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك يستشفون.

وأمّا الثانية والثلاثون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: «إنّ الله تبارك وتعالى نصرني بالرعب، فسألته أن ينصرك بمثله، فجعل لك من ذلك مثل الذي جعله لي.«

وأمّا الثالثة والثلاثون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) التقم أُذني وعلّمني ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، فساق الله (عز وجل (ذلك إلى لسان نبيّه.

وأمّا الرابعة والثلاثون: فإنّ النصارى ادّعوا أمراً، فأنزل الله (عز وجل) «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ»(33) فكانت نفسي نفسَ رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والنساء فاطمة، والأبناء الحسن والحسين، ثمّ ندم القوم فسألوا الإعفاء فأعفاهم، والذي أنزل التوراة على موسى والفُرقان على محمد لو باهلوا لمُسخوا قردة وخنازير.

وأمّا الخامسة والثلاثون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجّهني يوم بدر فقال: ائتني بكفّ حصيات مجموعة في مكان واحد، فأخذتها ثمّ شممتها فإذا هي طيّبة تفوح منها رائحة المسك، فأتيتُه بها فرمى بها وجوه المشركين، وتلك الحصيات أربع منها كنّ من الفردوس وحصاة من المشرق وحصاة من المغرب وحصاة من تحت العرش، مع كلّ حصاة مأة ألف مَلَك مدداً لنا، لم يُكرم الله (عز وجل) بهذه الفضيلة أحداً قبلُ ولا بعدُ.

وأمّا السادسة والثلاثون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: ويلٌ لقاتلك! إنّه أشقى من ثمود ومن عاقر الناقة، وإنّ عرش الرحمن يهتزّ لقتلك، فأبشر يا علي فإنّك في زمرة الصدّيقين والشهداء والصالحين.

وأمّا السابعة والثلاثون: فإنّ الله تبارك وتعالى قد خصّني من بين أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) بعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والخاصّ والعام، وذلك ممّا منّ الله به عليّ وعلى رسوله (صلى الله عليه وآله)، وقال لي الرسول (صلى الله عليه وآله): يا علي إنّ الله (عز وجل) أمرني أن أُدنيك ولا أُقصيك، وأعلّمك ولا أجفوك، وحقّ عليَّ أن أطيع ربيّ، وحقّ عليك أن تعي.

وأمّا الثامنة والثلاثون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعثني بعثاً ودعا لي بدعوات وأطلعني على ما يجري بعده، فحزن لذلك بعض أصحابه)صلى الله عليه وآله) وقال: لو قدر محمد أن يجعل ابن عمّه نبيّاً لجعله، فشرّفني الله بالاطّلاع على ذلك على لسان نبيّه.

وأمّا التاسعة والثلاثون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: كذب من زعم أنّه يحبّني ويُبغض علياً، لا يجتمع حبّي وحبّه إلاّ في قلب مؤمن، إنّ الله (عز وجل) جعل أهل حبّي وحبّك يا علي في أوّل زمرة السابقين إلى الجنّة، وجعل أهل بُغضي وبُغضك في أوّل الضالّين من أمّتي إلى النار.

وأمّا الأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجّهني في بعض الغزوات إلى ركيّ فإذا ليس فيه ماء، فرجعت إليه فأخبرته، فقال: أفيه طين؟ فقلت: نعم، فقال: إيتني منه، فأتيت منه بطين فتكلّم فيه ثمّ قال: ألقه في الركي، بألقيتُه فإذا الماء قد نبع حتّى امتلأ جوانب الركي، فجئت إليه فأخبرته، فقال لي :وُفّقت يا علي، وببركتك نبع الماء، فهذه المنقبة خاصّة لي من دون أصحاب النبيّ (صلى الله عليه وآله.(

وأمّا الحادية والأربعون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أبشر يا علي! فإنّ جبرئيل (عليه السلام)

أتاني فقال لي: يا محمد إنّ الله تبارك وتعالى نظر إلى أصحابك فوجد ابن عمك وختنك على ابنتك فاطمة خيرَ أصحابك، فاجعله وصيّك والمؤدّي عنك.

وأمّا الثانية والأربعون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أبشر يا علي! فإنّ منـزلك في الجنّة مواجه منـزلي، وأنت معي في الرفيق الأعلى في أعلى علّيين، قلت: يا رسول الله وما أعلى علّيون؟ فقال: قبّة من درّة بيضاء لها سبعون ألف مصراع، مسكن لي ولك يا علي.

وأمّا الثالثة والأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إنّ الله (عز وجل) رسّخ حبّي في قلوب المؤمنين، وكذلك رسّخ حبّك يا علي في قلوب المؤمنين، ورسّخ بُغضي وبغضك في قلوب المنافقين، فلا يُحبّك إلاّ مؤمن تقيّ، ولا يُبغضك إلاّ منافق كافر.

وأمّا الرابعة والأربعون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لن يُبغضك من العرب إلاّ دعيّ، ولا من العجم إلاّ شقيّ، ولا من النساء إلاّ سلقلقيّة.

وأمّا الخامسة والأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) دعاني وأنا أرمد العين، فتفل في عيني وقال: اللهمّ اجعل حرّها في بردها، وبردها في حرّها، فوالله ما اشتكت عيني إلى هذه الساعة.

وأمّا السادسة والأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر أصحابه وعُمومته بسدّ الأبواب وفتح بابي بأمر الله (عز وجل)، فليس لأحدٍ منقبة مثل منقبتي.

وأمّا السابعة والأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمرني في وصيّته بقضاء ديونه وعِداته، فقلت: يا رسول الله قد علمتَ أنّه ليس عندي مال، فقال: سيُعينك الله، فما أردتُ أمراً من قضاء ديونه وعِداته إلاّ يسّره الله لي، حتّى قضيت ديونه وعداته، وأحصيتُ ذلك فبلغ ثمانين ألفاً، وبقي بقيّة فأوصيت الحسن أن يقضيها.

وأمّا الثامنة والأربعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أتاني في منـزلي ولم يكن طَعِمنا منذ ثلاثة أيام، فقال: يا علي هل عندك من شيء؟ فقلت: والذي أكرمك بالكرامة واصطفاك بالرسالة ما طعمتُ وزوجتي وابناي منذ ثلاثة أيام، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): يا فاطمة ادخلي البيت وانظري هل تجدين شيئاً؟ فقالت: خرجت الساعة، فقلت: يا رسول الله أدخله أنا؟ فقال: ادخل باسم الله، فدخلت فإذا بطبق موضوع عليه رطب وجفنة من ثريد، فحملتها إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: يا علي رأيت الرسول الذي حمل هذا الطعام؟ فقلت نعم، فقال :صفه لي، فقلت: من بين أحمر وأخضر وأصفر، فقال (صلى الله عليه وآله): تلك خطط جناح جبرئيل (عليه السلام) مكلّلة بالدرّ والياقوت، فأكلنا من الثريد حتّى شبعنا فما رُأي إلاّ خدش أيدينا وأصابعنا، فخصّني الله (عز وجل) بذلك من بين أصحابه)الصحابة.(

وأمّا التاسعة والأربعون: فإنّ الله تبارك وتعالى خصّ نبيّه بالنبوّة، وخصّني النبي (صلى الله عليه وآله) بالوصيّة، فمن أحبّني فهو سعيد يُحشر في زمرة الأنبياء (عليهم السلام.(

وأمّا الخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث ببراءة مع أبي بكر، فلمّا مضى أتى جبرئيل فقال: يا محمد لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك، فوجَّهَني على ناقته العضباء، فلحقته بذي الحليفة فأخذتها منه، فخصّني الله (عز وجل) بذلك منه.

وأمّا الحادية والخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أقامني للناس كافّة يوم غدير خُمّ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فبُعداً وسحقاً للقوم الظالمين.

وأمّا الثانية والخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: يا علي ألا أعلّمك كلمات علّمنيهنّ جبرئيل؟ فقلت: بلى، قال: يا رازق المقلّين ويا راحم المساكين ويا أسمع السامعين ويا أبصر الناظرين ويا أرحم الراحمين، ارحمني وارزقني.

وأمّا الثالثة والخمسون: فإنّ الله تبارك وتعالى لن يذهب بالدنيا حتّى يقوم منّا القائم يقتل ولا يقبل الجزية، ويكسر الصليب والأصنام وتضع الحرب أوزارها، ويدعو إلى أخذ المال فيقسمه بالسوية ويعدل في الرعية.

وأمّا الرابعة والخمسون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: يا علي سيلعنك بنو أميّة، ويردّ عليهم ملك بكلّ لعنة ألف لعنة، فإذا قام القائم (عليه السلام) لعنهم أربعين سنة.

وأمّا الخامسة والخمسون: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: سيفتتن فيك طوائف من أمّتي فتقول: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (لم يخلّف شيئاً فيما إذا أوصى علياً، أو ليس كتاب الله ربّي أفضل الأشياء بعد الله)عز وجل)؟ والذي بعثني بالحقّ لأن لم تجمعه بإتقان لم يُجمع أبداً، فخصّني الله (عز وجل) بذلك من دون الصحابة.

وأمّا السادسة والخمسون: فإنّ الله تبارك وتعالى خصّني بما خصّ به أولياءه وأهل طاعته، وجعلني وارث محمّد (صلى الله عليه وآله)، فمن ساءه ساءه، ومن سرّه سرّه، وأومى بيده نحو المدينة.

وأمّا السابعة والخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان في بعض الغزوات ففقد الماء، فقال لي: يا علي قُم إلى هذه الصخرة وقل: أنا رسول رسول الله (صلى الله عليه وآله) تفجّري إليّ ماء، فوالله الذي أكرمه بالنبوّة لقد أبلغتُها الرسالة فطلع منها مثل ثدي البقر، فسال من كلّ ثدي منها ماء، فلمّا رأيت ذلك أسرعت إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) فأخبرتُه فقال: انطلق يا علي فخُذ من الماء، فجاء القوم حتّى ملأوا قِربهم وأدواتهم وسقوا دوابهم وشربوا وتوضّوا، فخصّني الله (عز وجل) بذلك من دون الصحابة.

وأمّا الثامنة والخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمرني في بعض غزواته وقد نفد الماء وقال: يا علي ائتِ بتور،(34) فأتيته به، فوضع يده اليمنى ويدي معها في التور فقال: انبع، فنبع الماء من بين أصابعنا.

وأمّا التاسعة والخمسون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وجّهني إلى خيبر، فلمّا أتيته وجدتُ الباب مغلقاً فزعزعته شديداً فقلعته ورميت به أربعين خطوة فدخلت، فبرز إليّ مرحب فحمل عليّ وحملت عليه وسقيت الأرض دمه، وقد كان (صلى الله عليه وآله) وجّه رجلين من أصحابه فرجعا منكسفين.

وأمّا الستّون: فإنّي قتلت عمرو بن عبد ودّ، وكان يُعدّ بألف رجل.

وأمّا الحادية والستّون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: يا علي مثلك في أمتي مثل «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فمن أحبّك بقلبه وأعانك بلسانه فكأنما قرأ ثُلثي القرآن، ومن أحبّك بقلبه ولسانه ونصرك بيده فكأنما قرأ القرآن كلّه.

وأمّا الثانية والستّون: فإنّي كنت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جميع المواطن والحروب، وكانت رايته معي.

وأمّا الثالثة والستّون: فإنّي لم أفرّ من الزحف قطّ، ولم يُبارزني أحد إلاّ سقيت الأرض من دمه.

وأمّا الرابعة والستّون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أُتي بطير مشوي من الجنّة، فدعى الله (عز وجل) أن يدخل عليه أحبّ الخلق إليه، فوفّقني الله تعالى للدخول عليه حتّى أكلت معه من ذلك الطير.

وأمّا الخامسة والستّون: فإنّي كنت أصلّي في المسجد فجاء سائل فسأل وأنا راكع، فناولتُه خاتمي من اصبعي، فأنزل الله تبارك وتعالى «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ».(35)

وأمّا السادسة والستّون: فإنّ الله تبارك وتعالى ردّ عليّ الشمس مرتين، ولم يردّها على أحد من أمّة محمّد غيري.

وأمّا السابعة والستّون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمر أن أُدعى بإمرة المؤمنين في حياته وبعد موته، ولم يُطلق ذلك لأحد غيري.

وأمّا الثامنة والستّون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: يا علي إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العرش: أين سيّد الأنبياء؟ فأقوم، ثم ينادي: أين سيّد الأوصياء؟ فتقوم، ويأتيني رضوان بمفاتيح الجنّة، ويأتيني مالك بمقاليد النار، فيقولان: إنّ الله جلّ جلاله أمرنا أن ندفعها إليك، ويأمرك أن تدفعها إلى علي بن أبي طالب، فتكون يا علي قسيم الجنّة والنار.

وأمّا التاسعة والستّون: فإنّي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لولاك ما عُرف المنافقون من المؤمنين.

وأمّا السبعون: فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نام ونوّمني وزوجتي فاطمة وابني الحسن والحسين وألقى علينا عباءة قطوانيّة، فأنزل الله تبارك وتعالى «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»(36) وقال

جبرئيل (عليه السلام): أنا منكم يا محمد، فكان سادسنا جبرئيل.(37(

* * *

(1)الأنفال: 48.

(2)الخصال للصدوق: 219 - 220/ ح44؛ أمالي الصدوق: 184 - 185/ ح190؛ بحار الأنوار 31: 446 - 447/ ح3 و4.

(3)شرح نهج البلاغة 10: 180؛ بحار الأنوار .333 :20

(4)البقرة: 260 .

(5)شرح نهج البلاغة 10: 180.

(6)البقرة: 7.

(7)النور: 40.

(8)شرح نهج البلاغة 10: 182.

(9)البقرة: 207.

(10)كشف الغمة 1: 193.

(11)كشف الغمة 1: 194.

(12)الإرشاد للمفيد 1: 90؛ بحار الأنوار88.20 :

(13)الإرشاد 1: 103.

(14)كشف الغمة 1: 205.

(15)الإرشاد 1: 116.

(16)الإرشاد 1: 122.

(17)كشف الغمة 1: 210.

(18)سنن الترمذي 5: 298/ ح3799.

(19)الإرشاد 1: 124.

(20)كشف الغمّة 1: 211.

(21)الإرشاد 1: 138.

(22)التوبة: 25 و26.

(23)الإرشاد 1: 140 - 141.

(24)أمالي الطوسي: 572 - 573/ ح1185؛ بحار الأنوار 22: 499 - 500/ ح46.

(25)أمالي الطوسي: 600 - 602/ ح1244؛ بحار الأنوار 22: 500 - 501/ ح47.

(26)أمالي الطوسي: 385/ ح836؛ بحار الأنوار /507 - 506 :22ح8.

(27)بحار الأنوار 22: 507 - 511/ ح9؛ أمالي الصدوق: 732 - 737/ ح1004.

(28)بحار الأنوار 22: 533 - 534؛ مناقب آل أبي طالب 3: 116.

(29)المجادلة: 12.

(30)المجادلة: 13.

(31)الحديد: 13.

(32)الحديد: 14 و15.

(33)آل عمران: 61.

(34)التور: من الأواني. (لسان العرب 4: 96، مادّة «تور.(»

(35)المائدة: 55.

(36)الأحزاب: 33.

(37)بحار الأنوار: 31/ 432 - 446/ ح2؛ الخصال للصدوق 2: 572 - 580/ ح1؛ أبواب السبعين وما فوقه.

من كتاب له (عليه السلام (إلى معاوية جواباً: [يذكر فيه مثالب معاوية ومناقب أهل البيت (عليهم السلام][

»أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللَّهِ مُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) لِدِينِهِ وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النِّضَالِ وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ

لَهَا أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ رَوَّاغٌ عَنِ الْقَصْدِ أَلَا تَرَى غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أُحَدِّثُ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ أَوَ لَا تَرَى أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ حَتَّى إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ وَلَوْ لَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ».(1) إلى آخر الكتاب.

* * *

]الشرح:[

قال العلاّمة الشيخ محمد جواد مغنية في كتابه (علي والقرآن):(

»لا يستطيع الإنسان ـ أي إنسان ـ أن يتجرّد عن ذاته وانطباعاته، وأن يسند معلوماته وتصوّراته إلى الواقع بعيدة عن شخصه ومُعطياته مهما حاول واجتهد، إلاّ إذا استطاع أن يُوجد علماً بدون عالم، ورسماً بدون رسّام، وهو مستحيل كاستحالة وجود القيام بلا قائم، والكتابة بلا كاتب.«

وعلى هذا فإذا حصلت لنا المعرفة بشيء وتحدّثنا عنه فإنّما نتحدث عن وعينا وعن الصورة التي تمثّلناها لذلك الشيء، وقد تأتي مطابقة وقد تكون مخالفة، حيث لا تلازم بين الواقع والشعور الذي يعكسه، فالواقع مستقلّ عن الفكر لا يستدعي معرفة الواقع.

وهذا المبدأ يطّرد في الجميع إلاّ في الأنبياء الذين تلقّوا الوحي من الله، وإلاّ في الأولياء الذين أحاطوا علماً بكتاب الله وأخذوا عن الأنبياء بلا واسطة، كالإمام علي (عليه السلام)، فإنّ علمه عين الواقع لا ينفكّ عنه بحال، ومن هنا قال: «لو كُشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً» حيث لا جديد يوجب الزيادة.

فالذي يحجّ إلى مكّة المكرّمة لا يزداد معرفة بأصل وجودها بعد أن يصل إليها، وهكذا علوم الإمام تمثّل الحقيقة تمثيلاً صحيحاً بعيداً كلّ البعد عن الخطأ والإلتباس.

والانسان الذي يعتمد كتاب الله وماتواتر عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) فعِلمه عن الحقّ واليقين، وعلى هذا الأساس نتكلّم في هذا البحث عن صفات الإمام وخصائصه وفضائله، فما دلّ عليه الكتاب والحديث المرويّ بطريق الشيعة والسنّة أثبتناه، ولا شأن لنا بغيره.

علي أخو الرسول:

قال ابن حجر في كتاب الصواعق المحرقة (ص 122 طبعة سنة 1375 (قال النبيّ (صلى الله عليه وآله): «خير أخوتي علي، وخير أعمامي حمزة». وفي ص 120 منه أنّه قال لعلي: «أنت أخي في الدنيا والآخرة.«

قال الثعلبي في العرائس (ص 149): قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار: إن الله أهبط تابوتاً على آدم (عليه السلام) من الجنّة حين أُهبط إلى الأرض فيه صور الأنبياء من أولاده، وفيه بيوت بعدد الرسل منهم، وآخر البيوت بيت محمّد (صلى الله عليه وآله) من ياقوتة حمراء (إلى أن قال): وبين يديه علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) شاهر سيفه على عاتقه، ومكتوب على جبهته «هذا أخوه وابن عمه المؤيَّد بالنصر من عند الله.«

وقال محبّ الدين الطبري في ذخائر العقبى (ص 92)، عن أنس بن مالك قال: صعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) المنبر فذكر قولاً كثيراً ثم قال :أين علي بن أبي طالب؟ فوثب إليه فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، فضمّه إلى صدره وقبّل بين عينيه وقال بأعلى صوته: معاشر المسلمين هذا أخي وابن عمي وختني، هذا لحمي ودمي وشعري، هذا أبو السبطَين الحسن والحسين سيّدي شباب أهل الجنّة، هذا مفرّج الكروب عنّي، هذا أسد الله وسيفه في أرضه على أعدائه، على مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين، والله بريء منه وأنا منه بريء.«

وذكر البيهقيّ في كتابه «المحاسن والمساوئ» (جزء أول ص 35 (عن الزهريّ في حديث حول حرب الجمل: فقالت عائشة لرجل من ضبّة وهو آخذ بخطام جملها أو بعيرها: أين ترى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء، فنظرت فقالت: ما أشبهه بأخيه، قال الضبّي: ومن أخوه ؟ قالت: رسول الله)صلى الله عليه وآله)، قال: فلا أراني أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله (عليه السلام(، فنبذ خطام راحلتها من يده ومال إليه.«

]آيات في حق علي (عليه السلام:[(

وفي مسند أحمد بن حنبل، والرياض النضرة لمحبّ الدين الطبري)ج 2 ص 209)، وتاريخ بن عساكر (مج 6 ص 201)، وتذكرة الخواص لسبط بن الجوزي ص 14، وفي كنز العمّال (مج 6 ص 390)، وفي كفاية الشنقيطي (ص 35)، هؤلاء كلّهم رووا عن زيد بن أبي أوفى قال: لمّا آخى النبي (صلى الله عليه وآله) بين أصحابه، وآخى بين عمر وأبي بكر (إلى أن قال:) فقال علي (عليه السلام): لقد ذهب روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلتَ بأصحابك مافعلت غيري، فإن كان هذا من سخط عليَّ فلك العُتبى والكرامة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): والذي بعثني بالحقّ ما أخّرتُك إلاّ لنفسي، وأنت منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبي بعدي، وأنت أخي ووارثي. قال: وما أرث منك يا رسول الله ؟ قال: ما ورث الأنبياء من قبلي. قال: وما ورث الأنبياء من قبلك؟ قال: كتاب ربّهم وسنّة نبيّهم، وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة ابنتي، وأنت أخي ورفيقي، ثمّ تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله) «إِخْواناً عَلى

سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ».(2(

إلى كثير وكثير من هذه الأحاديث، ولو ذهبنا إلى جمع شوارد هذا الباب لجاء منه كتاب ضخم.

هذه الأخوّة بالمعنى الخاصّ الثابتة لأمير المؤمنين (عليه السلام) ولا يدّعيها غيره إلاّ كذّاب كما ورد في الحديث الذي جاء في مناقب أحمد، وتاريخ ابن عساكر، وكفاية الكنجيّ، وتذكرة سبط ابن الجوزيّ وصحّحه وردّ على جده في تضعيفه سنده، وفي المرقاة في شرح المشكاة (ص 569) هؤلاء كلّهم رووا عن جابر بن عبد الله وسعد بن المسيب، قالا: إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) آخى بين أصحابه، فبقي رسول الله (صلى الله عليه وآله) وأبو بكر وعمر وعلي، فآخى بين أبي بكر وعمر، وقال لعلي: أنت أخي وأنا أخوك، فإن ناكرك أحد فقل: أنا عبد الله وأخو رسول الله، لايدّعيها بعدك إلا كذّاب.«

]علي (عليه السلام) هو الشاهد:[

علي هو الشاهد في الآية 17 من سورة هود «أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ».(3(

قال الرازي: في تفسير الشاهد وجوه: ثالثها أنّه علي، والمراد تشريفه بأنّه بعض من محمد. وقال السيوطيّ في الدرّ المنثور،(4) والطبري في تفسيره:(5) رسول الله (صلى الله عليه وآله) على بيّنة من ربّه وعلي شاهد منه.«

علي صاحب النجوى في قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ».(6(

أجمع المفسّرون الشيعة والسنّة على أنّ هذه الآية لم يعمل بها أحد إلاّ الإمام علي، وذلك أنّ المسلمين أكثروا السؤال على الرسول حتّى شقّوا عليه، فأمرهم الله بهذه الآية أن يتصدّقوا قبل أن يسألوا، فأحجموا إلاّ الإمام تصدق وسأل، ثم نُسخت الآية، وقال الإمام (عليه السلام): كنت إذا سألت النبي (صلى الله عليه وآله) أجابني، وإذا سكتّ ابتدأني.(7(

علي هو سابق الأمة في قوله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ».(8(

قال الفضل بن روزبهان ـ وهو من كبار العلماء عند السنّة ـ في كتاب إبطال الباطل جاء في رواية أهل السنّة: سبّاق الأمم ثلاثة: مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار، وعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، ولا شكّ أنّ علياً (عليه السلام) سابق في الإسلام وصاحب السابقة والفضائل التي لا تخفى .«

وجاء في الجمع بين الصحاح الستّة أنّ طلحة بن شيبة قال مفتخراً: أنا أولى بالبيت لأنّ المفتاح بيدي، وقال العبّاس: أنا أولى أنا صاحب السقاية، فقال علي: أنا أوّل الناس إسلاماً وأكثرهم جهاداً، فنزلت هذه الآية لبيان أفضليّة الإمام على الجميع: «أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ

عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».(9(

]علي (عليه السلام (والوليد:[

علي هو المؤمن في قول الله (عز وجل): «أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ».(10(

أخرج الطبري في تفسيره (ج 21 ص 22) بإسناده عن عطاء بن يسار، قال: كان بين الوليد وعلي (عليه السلام) كلام، فقال الوليد: أنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأردّ منك للكتيبة، فقال علي: اسكت فإنّك فاسق، فأنزل الله فيهما» :أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ.«

وفي الأغاني (ج4 ص 185) وتفسير الخازن (مج 3 ص 470): كان بين علي والوليد تنازع وكلام في شيء، فقال الوليد لعلي: اسكت فإنّك صبي وأنا شيخ، والله إنّي أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأجمع منك جناناً وأملأ منك حشواً في الكتيبة، فقال له علي: أُسكت فإنّك فاسق، فأنزل الله هذه الآية.

وأخرجه محبّ الدين الطبري في الرياض النضرة (ج 3 ص 206) عن ابن عباس وقتادة من طريق الحافظين السلفيّ والواحديّ، وفي ذخائر العقبى (ص 88 (والخوارزمي في المناقب (ص 188) والكنجي في الكفاية (ص 55) والنيشابوري في تفسيره، وابن كثير في تفسيره (مج 3 ص 462) قال: ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما أنّها نزلت في علي ابن أبي طالب وعقبة، وذكرها غير هؤلاء من الأساطين.

قال حسّان بن ثابت في ذلك ـ على ما ذكر أبو المظفّر سبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرته (ص 115) والكنجي الشافعي في الكفاية (ص55) وابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل (ص 20) ـ وقال: فشت هذه الأبيات من قول حسّان وتناقلها سمع عن سمع ولسان عن لسان :

في علي وفي الوليد قرانا	أنزل الله والكتاب عزيزٌ
وعليّ مبوّأً إيمانا	فتبوّا الوليد من ذاك فسقاً
كمَن كان فاسقاً خوّانا	ليس مَن كان مؤمناً عرف الله
ووليدٌ يلقى هناك هَوانا	فعليٌّ يلقى لدى الله عزّاً
وعلي لا شكّ يُجزى جِنانا	سوف يُجزى الوليد خِزياً وناراً

رواها ابن أبي الحديد المعتزليّ في شرح النهج (مج 2 ص 103 ط الاولى.(

علي هو الأُذن الواعية في قوله (عز وجل): «وَتَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ »(الحاقة: آية 12.(

قال الفضل بن روز بهان في كتاب إبطال الباطل: روى المفسّرون ـ السنّة ـ أنّه لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي)عليه السلام): سألت الله أن يجعلها أُذنك. قال علي: فما نسيتُ بعد هذا شيئاً، وهذا يدلّ على عِلمه وحِفظه وفضيلته.«

وفي كتاب ذخائر العقبى للمحب الطبري (ص 61 طبعة سنة 1356 هـ (قال الرسول (صلى الله عليه وآله) للإمام علي: يا علي ما سألتُ الله (عز وجل) شيئاً من الخير إلاّ سألتُ لك مثله، ولا استعذتُ الله من الشر إلاّ استعذتُ لك مثله.

علي وقول الله (عز وجل): «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ» ـ (الأنفال: آية 63.(

أخرج الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن مسلم الشافعي، أخبرنا أبو القاسم بن العلا وأبو بكر محمد بن عمر بن سليمان العريني النصيبيّ، حدّثنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد، حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المهدي، حدّثنا عباس بن بكار، حدّثنا خالد بن أبي عمر الأسدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: مكتوب على العرش «لا إله إلاّ الله وحدي لا شريك لي، ومحمّد عبدي ورسولي أيّدته بعليّ» وذلك قوله (عز وجل) في كتابه الكريم: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ»(11) علي وحده.(12(

ورواه بإسناده الكنجي الشافعي في كفايته (ص 110) ثم قال :قلت: ذكره ابن جرير في تفسيره، وابن عساكر في تاريخه في ترجمة علي (عليه السلام(، ورواه الحافظ جلال الدين السيوطي في الدرّ المنثور (مج 3 ص 199) نقلاً عن ابن عساكر، والقندوزي في ينابيعه (ص 94) نقلاً عن الحافظ أبي نعيم بإسناده عن أبي هريرة.

وصدر الحديث أخرجه جمع من الحفاظ، منهم الخطيب البغدادي في تاريخه (مج 11 ص 173) بإسناده عن أنس بن مالك، قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): لمّا عُرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله أيّدته بعلي نصرته بعليّ.«

]اقتران اسم علي (عليه السلام) باسم رسول الله (صلى الله عليه وآله:[(

وروى السيّد الهمداني في مودّة القربى، في المودّة الثامنة عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّي رأيت اسمك مقروناً باسمي في أربعة مواطن: لمّا بلغت بيت المقدس في معراجي إلى السماء وجدت على صخرة بها «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أيّدته بعلي وزيره» ولمّا انتهيت إلى سدرة المنتهى وجدت عليها «إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، محمد صفوتي من خلقي، أيّدتُه بعلي وزيره ونصرته به»، ولمّا انتهيت إلى عرش ربّ العالمين فوجدت مكتوباً على قائمه «إنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، محمد حبيبي من خلقي، أيّدته بعلي وزيره ونصرته به»، فلمّا وصلت الجنّة وجدت مكتوباً على باب الجنّة «لا إله إلاّ أنا ومحمد حبيبي من خلقي أيّدته بعلي وزيره ونصرته به.«

علي في قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (الأنفال: آية 64.(

أخرج الحافظ أبو نعيم في فضائل الصحابة بإسناده أنّها نزلت في علي، وهو المعنيّ بقوله: «الْمُؤْمِنِينَ.«

علي في قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً» (الأحزاب آية 23.(

أخرج الخطيب الخوارزمي في المناقب (ص 188)، وصدر الكنجي في الكفاية ص 122 نقلاً عن ابن جرير وغيره من المفسرين، أنه نزل قوله: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ »في حمزة وأصحابه كانوا عاهدوا الله تعالى لا يولّون الأدبار، فجاهدوا مقبلين حتّى قُتلوا، «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ» علي بن أبي طالب مضى على الجهاد ولم يبدّل ولم يغيّر الآثار.

وفي الصواعق لابن حجر (ص 80)، سئل علي (عليه السلام) وهو على المنبر بالكوفة عن قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ» الآية فقال: اللهمّ غفراً، هذه الآية نزلت فيّ وفي عمّي حمزة وفي ابن عمّي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فأمّا عبيدة فقضى نَحبه شهيداً يوم بدر، وحمزة قضى نحبه شهيداً يوم أُحد، وأمّا أنا فأنتظر أشقاها يخضب هذه من هذه ـ وأشار إلى لحيته ورأسه ـ عهدٌ عهده إلي حبيبي أبو القاسم محمد (صلى الله عليه وآله.(

[تصدق علي (عليه السلام) (بالخاتم:]

علي في قوله تعالى: «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ» (المائدة: 55 .(

أخرج أبو اسحاق الثعلبيّ في تفسيره بإسناده عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) قال: أما إنّي صلّيت مع رسول الله (صلى الله عليه وآله (يوماً من الأيام الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يُعطه أحد شيئاً، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال: اللهمّ اشهد أنّي سألتُ في مسجد نبيّك محمد (صلى الله عليه وآله (فلم يُعطني أحد شيئاً، وكان علي (رضي الله عنه) في الصلاة راكعاً، فأومأ إليه بخُنصره اليمنى وفيه خاتم، فأقبل السائل فأخذ الخاتم من خنصره وذلك بمرأى من النبي)صلى الله عليه وآله) وهو في المسجد، فرفع رسول الله (صلى الله عليه وآله) طرفه إلى السماء وقال: اللهم إنّ أخي موسى سألك فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي» فأنزلت عليه قرآناً «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» اللهمّ وإنّي محمد نبيّك وصفيّك، اللهمّ فاشرح لي صدري ويسّر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدُد به ظهري، قال أبو ذر (رضي الله عنه): فما استتمّ دعاوه حتّى نزل جبرئيل (عليه السلام) من عند الله)عز

وجل) وقال: يا محمد اقرأ «إِنّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا» الآية.(13(

وفي تصدّق علي (عليه السلام) بخاتمه وهو راكع يقول حسّان بن ثابت:

وأسرّها في نفسه إسرارا — من ذا بخاتمه تصدّق راكعاً

ومحمّدٌ أسرى يوَمَ الغارا — من كان بات على فراش محمّدٍ

في تِسع آياتٍ تُلين غِزارا — من كان في القرآن سُمّي مؤمناً

ذكرها أبو المظفّر سبط ابن الجوزيّ الحنفيّ في تذكرته (ص 10 (والكَنجي في الكفاية (ص 123.(

أخرج هذه الآثار ونزول الآية فيها جمع كثير من أئمّة التفسير والحديث، منهم: الطبريّ في تفسيره (ج 6 ص 165) من طريق ابن عباس وعتبة بن أبي حكيم ومجاهد، والرازي في تفسيره (ج3 ص 431)، والخازن في تفسيره (مج 1 ص 496)، وأبو البركات في تفسيره، والنيشابوريّ في تفسيره (3 ص 461) وكثير من الحفّاظ ورجال الحديث.

]مفاخرة علي (عليه السلام (والعباس وشيبة:[

علي في قوله تعالى: «أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ».(14(

أخرج الطبري في تفسيره (ج 10 ص 59) بإسناده عن أنس أنّه قال :قعد العباس وشيبة (ابن عثمان) صاحب البيت يفتخران، فقال له العباس: أنا أشرف منك، أنا عمّ رسول الله ووصي أبيه وساقي الحجيج، فقال شيبة: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه؟ أفلا ائتمنك كما ائتمنني؟ فهما على ذلك يتشاجران، حتّى أشرف عليهما علي، فقال له العبّاس: إنّ شيبة فاخرني فزعم أنّه أشرف مني، فقال: فما قلت له يا عمّاه؟ قال: قلت أنا عمّ رسول الله ووصيّ أبيه وساقي الحجيج، أنا أشرف منك، فقال لشيبة: ماذا قلت أنت يا شيبة؟ قال: قلت: أنا أشرف منك، أنا أمين الله على بيته وخازنه، أفلا ائتمنك كما ائتمنني؟ قال: فقال لهما: اجعلاني معكما فخراً، قالا: نعم، قال: فأنا أشرف منكما، أنا أوّل من آمن بالوعيد من ذُكور هذه الأمة، وهاجر وجاهد، وانطلقوا ثلاثتهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فأخبر كلّ واحد منهم بمفخره، فما أجابهم النبيّ بشيء، فانصرفوا عنه، فنـزل جبرئيل (عليه السلام) بالوحي بعد أيّام فيهم، فأرسل النبيّ (صلى الله عليه وآله) إليهم ثلاثتهم حتّى أتوه، فقرأ عليهم »أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية.

وحديث هذه المفاخرة ونزول الآية فيها أخرجه كثير من الحفّاظ والعلماء مجملاً ومفصّلاً، منهم: القرطبيّ في تفسيره

والرازي في تفسيره والخازن في تفسيره وغير هؤلاء.

علي في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا».(15)

أخرج أبو اسحاق الثعلبيّ في تفسيره بإسناده عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام): قل اللهمّ اجعل لي عنك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة، فأنزل الله هذه الآية.(16)

ورواه أبو المظفّر سبط ابن الجوزيّ الحنفيّ في تذكرته (ص 10 (وقال: وروي عن ابن عباس أنّ هذا الودّ جعله الله لعلي في قلوب المؤمنين. وأخرج الخطيب الخوارزميّ في مناقبه (ص188) حديث ابن عبّاس وبعده بالإسناد عن علي (عليه السلام) أنه قال: لقيني رجل فقال: يا أبا الحسن والله إنّي أُحبّك في الله، فرجعت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبرته بقول الرجل، فقال: لعلّك يا علي اصطنعت إليه معروفاً، قال: فقلت: والله ما اصطنعتُ إليه معروفاً، فقال رسول الله: الحمد لله الذي جعل قلوب المؤمنين تتوق إليك بالمودّة، فنـزل قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا». وأخرجه صدر الحفاظ الكنجي في الكفاية (ص 121)، وأخرجه محب الدين الطبري في رياضه (ج 2 ص 207 (أنّه لا يبقى مؤمن إلا وفي قلبه ودّ لعلي وأهل بيته.

]علي (عليه السلام) وشيعته خير البرية:[

علي في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».(17)

أخرج الطبري في تفسيره (ج 3 ص 146) باسناده عن أبي الجارود، عن محمد بن علي في قوله (عز وجل) «أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ »فقال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): أنت يا علي وشيعتك .

وروى الخوارزمي في مناقبه (ص 66) عن جابر قال: كنّا عند النبي (صلى الله عليه وآله) فأقبل علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال رسول الله)صلى الله عليه وآله): قد أتاكم أخي، ثم التفت إلى الكعبة فضربها بيده ثم قال :والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة، إنّه أوّلكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعيّة، وأقسمكم بالسويّة، وأعظمكم عند الله مزيّة. قال: وفي ذلك الوقت نزلت فيه «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»، وكان أصحاب النبي)صلى الله عليه وآله) إذا أقبل علي قالوا: قد جاء خير البريّة.

]سأل سائل بعذاب واقع:[

علي في قوله تعالى: «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ». ـ سورة المعارج ـ أذعنت

به الشيعة، وجاء مثبتاً في كتب التفسير والحديث لمن لا يستهان بهم من علماء أهل السنّة، ودونك منصوصها: كما جاء في المجلد الاول من الغدير:

الحافظ أبو عبيد الهراتي المتوفّى بمكّة سنة 223، روى في تفسيره غريب القرآن قال: لما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بغدير خُمّ ما بلغ وشاع ذلك في البلاد، أتى جابر بن النضر بن حارث بن كلدة العبديّ، وفي رواية الثعلبيّ التي أصفق العلماء على نقلها سمّاه الحارث بن النعماء الفهريّ، ولا يبعد صحّة ما في هذه الرواية من (جابر بن النضر) حيث أن جابراً قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) والده النضر صبراً بأمر من رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما أسر يوم بدر الكبرى.

الغرض، جاء فقال: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنّك رسول الله، وبالصلاة والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك، ثمّ لم ترضَ بذلك حتّى رفعت بضبع ابن عمّك ففضّلته علينا وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أم من الله ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): والذي لا إله إلا هو إنّ هذا من الله. فولّى جابر يريد راحلته وهو: يقول اللهمّ إن كان ما يقول محمّد حقّاً، فأمطِر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتّى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دُبره وقتله، وأنزل الله تعالى: «سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ» الآية.

وروى هذه القصّة أيضاً أبو بكر النقّاش الموصلي البغدادي المتوفّى 351 في تفسيره شفاء الصدور، وأبو إسحاق الثعلبي النيشابوري المتوفّى 427 في تفسيره الكشف والبيان، والحاكم أبو القاسم الحسكانّي في كتاب دعاة الهداة إلى أداء حقّ الموالاة، وأبو بكر يحيى القطربي المتوفّى 567 في تفسيره في سورة المعارج، وشمس الدين أبو المظفر سبط ابن الجوزي الحنفي المتوفّى 654 في تذكرته (ص 19(، والشيخ إبراهيم اليمني الوصابي الشافعّي في كتابه الإكتفاء في فضل الأربعة الخلفاء .وشيخ الإسلام الحمويني المتوفى 722 في كتابه فرائد السمطين في الباب الثالث عشر، والشيخ محمد الزرنديّ الحنفيّ في كتابَيه معارج الوصول ودُرر السمطَين، إلى كثير وكثير من فطاحل علماء السنة. انتهى نقلاً عن كتاب الغدير.

وهذه الآيات جزو من كلّ، وقليل من كثير، فقد جاء في كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر نقلاً عن ابن عباس (ص 125 طبعة 1375) «أن ما من آية في القرآن إلاّ وعلي أميرها وشريفها» وكذا ذكر السيوطيّ في تاريخ الخلفاء، ولقد عاتب الله أصحاب محمّد في غير مكان وما ذكر علياً إلاّ بخير، وإنّ ابن عساكر قال: ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي، ولقد بلغت الآيات فيه ثلاثمائة آية.«

ولو فرضنا أنّه لم تنـزل آية واحدة بالخصوص في علي، فإنّ كلّ ما في القرآن من ثناء على عامل بخير من أيّ نوع كان فإنّه يشمل علياً ويدلّ عليه صراحة، لأنّه السبّاق في جميع المكرمات.

ولقد أثار دهشتي ظاهرة فريدة في بابها، فاجأتني وأنا أبحث وأنقّب في مصادر هذه الصفات، وهي أنّ ابن حجر صاحب الصواعق وكثير غيره من شيوخ السنة مع اعترافهم بفضائل علي وإعلانها فضيلة فضيلة ومنقبة منقبة يتحاملون على شيعة الإمام بما فيهم الإماميّة ويعدّونهم من أهل البدع والزيغ، ونقدّم مثالاً واحداً من هذا التحامل، لأنّ المقام لا يتّسع للمزيد.

قال الفضل بن روزبهان في (كتاب إبطال الباطل): كلّ ما ذكره الشيعة من الفضائل والمناقب لمولانا علي بن أبي طالب فنحن لا ننكره، لأنّ فضائل أهل البيت لا تُحصى ولا يُنكرها إلاّ منكر نور الشمس والقمر. ولكنّه في نفس الكتاب المذكور قال: إنّ كتب الشيعة من موضوعات يهوديّ كان يريد تخريب بناء الإسلام، فعملها وجعلها وديعة عند الإمام جعفر الصادق، فلمّا توفّي حسب الناس أنّها كلامه...

كنّا نظن أنّ مبدأ (إكذب، واكذب، ثمّ اكذب فلا بدّ أن تجد من يصدّقك) مبدأ حديث من مخترعات الغرب والاستعمار،وإذا به قديم، وربّما نقله الغربيّون من الشرق عن ابن روزبهان وأمثاله فيما نقلوا من فلسفات وحضارات...

إنّ الشيعة اتّصلوا بالإمام جعفر الصادق (عليه السلام (مباشرة، ونقلوا عنه مشافهة، وكلّ راوٍ من رواتهم يقول: سألت الإمام وحدّثني الإمام، ولم يدّعِ واحد من الشيعة أنّه وجد عند الصادق بعد وفاته كتاباً وأوراقاً له ولا لغيره، وهذه كتب الشيعة في الحديث والفقه والتفسير بمنظرٍ لكلّ بصير.

قال مرتزقةٌ هذا القول منذ مئات السنين لغاية الكيد والدسّ، ونقله أحمد أمين وأضرابه جهلاً أو تحاملاً وهم يعيشون في عصر الفضاء والسماء.

وغريبة الغرائب أنّ كلّ شيء في الدنيا تغيّر إلاّ الكذب على الشيعة والافتراء على مذهب التشيّع، منذ زمن مضى وانقضى كتب شيخ سوء أو فقيه شرّ أنّ الشيعة ـ بما فيهم الإماميّة ـ يُغالون، وأنّهم أخذوا دينهم عن ابن سبأ اليهوديّ، رمى هذا المفتري رميته ولكن بعد أن شقّ طريق الضلال والتضليل .

لقد اشترى السفّاكون من أرباب الأقلام دينهم وضمائرهم ليتقوّلوا على الأبرياء الأقاويل، وجاء المتأخّر فرأى الكلمة المطبوعة لـ (السلف الصالح) فقدّسها وركع لها وسجد دون تمحيص وتحقيق، وأخذ يردّدها فكرة وأسلوباً، بل نقلها بالحرف الواحد كأنّها وحي منـزل.

إنّ العالم المنصف إذا تكلّم عمّا تدين به طائفة من الطوائف اعتمد على الكتب المعتبرة عنها وما ثبت من مذهبها، أمّا النقل عن خصومها وبخاصّة خصوم العقيدة والمذهب، فهو تماماً كالحكم على المدّعى عليه بمجرد إقامة الدعوى وقبل الاستماع إلى الشهود والبيّنات.

ومن الصدف أنّي كلّما قرأت افتراء على الشيعة تذكّرت كلمة لسيبويه: اجتمع هذا النحويّ الشهير بنفر من نُحاة الكوفة

فناظروه في مسائل نحويّة، وطال بينه وبينهم الجدال والنقاش ولكن على غير طائل، فسأله سائل عن سبب عجزه عن إقناعهم فقال: أُخطّئهم على مذهب العرب، ويُخطّئوني على مذهبهم» أي أنّه تكلّم هو على مقاييس منطقيّة وتكلّموا على غير أساس.

* * *

(1)شرح نهج البلاغة 15: 181. ومن الطبعة الأولى ج3/ 445.

(2)الحجر: 47.

(3)هود: 17.

(4)تفسير الدر المنشور 3: 324.

(5)تفسير الطبري 12: 22.

(6)المجادلة: 13.

(7)السنن الكبرى للنسائي 5: 142/ ح8504؛ سنن الترمذي 2: 300 - 301/ ح3805؛ المصنّف لابن أبي شيبة 7: 495/ ح6؛ المعجم الكبير للطبراني 6: 213.

(8)الواقعة: 10.

(9)التوبة: 20.

(10)السجدة: 18.

(11)الأنفال: 62.

(12)تاريخ ابن عساكر 2: 353/ ح864 و865. ط الثانية.

(13)تفسير الثعلبي فصول المهمّة لابن الصبّاغ 123، ف 1.

(14)التوبة: 19.

(15)مريم: 96.

(16)تفسير الثعلبي؛ وعنه: مناقب آل أبي طالب2: 289؛ العمدة لابن البطريق: 289/ ح471.

(17)البيّنة: 7.

خطبته (عليه السلام (المعروفة بخطبة اللؤلؤة:[فيها يتعرض لحوادث المستقبل ويذكر فيها الإمام المهدي[

علي بن الحسين بن محمد بن مندة، قال: حدّثنا محمد بن الحسين المعروف بأبي الحكم، قال: حدّثنا إسماعيل بن موسى بن إبراهيم، قال: حدّثني سليمان بن حبيب، قال: شريك عن حكيم بن جبير، عن إبراهيم، عن علقمة بن قيس، قال: خطبنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على منبر الكوفة خطبة اللؤلؤة، فقال فيما قال في آخرها:

»ألا وإنّي ظاعن عن قريب ومنطلق إلى المغيب، فارتقبوا الفتنة الأمويّة والمملكة الكسرويّة، وإماتة ما أحياه الله، وإحياء ما أماته الله، واتّخذوا صوامعكم بيوتكم، وعضّوا على مثل حجر الغضا، واذكروا الله كثيراً، فذكره أكبر لو كنتم تعلمون.

ثم قال: تُبنى مدينة يُقال لها الزوراء بين دجلة ودجيل والفرات، فلو رأيتموها مشيّدة بالجصّ والآجر، مزخرفة بالذهب والفضّة واللازورد المستسقى والمرمر والرخام وأبواب العاج والأبنوس والخيم والقباب والستارات، وقد عليت السلاج والعرعر والصنوبر والشب،وشيدت بالقصور، وتوالت عليها ملوك بني الشيصبان أربعة وعشرون ملكاً على عدد سنّي الملك، فيهم السفّاح والمقلاص، والجموح والهذوع، والمظفّر والمؤنّث والنـزار والكبش والمهتور، والعيار والمصطلم والمستصعب والعلام والرهبانّي والخليع والسيار والمترف والكديد والأكتب والمسرف والأكلب والوسيم والصيلام والعينوق، وتعمل القبّة الغبراء ذات القلاة الحمراء، وفي عقبها قائم الحقّ يسفر عن وجهه بين أجنحة الأقاليم كالقمر المضيء بين الكواكب الدرّيّة.

ألا وإنّ لخروجه علامات عشرة: أولها طلوع الكوكب ذي الذنب ويقارب من الحادي، ويقع فيه هرج ومرج وشغب، وتلك علامات الخصب، ومن العلامة إلى العلامة عجب، فإذا انقضت العلامات العشرة إذ ذاك يظهر منا القمر الأزهر وتمّت كلمة الاخلاص لله على التوحيد...« إلى آخر الخطبة.

عن كفاية الأثر (ص 316) والبحار (مج9 ص 157) وفي الثالث منه أيضاً (ص 171).

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

جاء في تاج العروس أنّ (الشيصبان) اسم للشيطان،(1) والمشهور أنّ عدد خلفاء بني العباس كان سبعة وثلاثين، ولعلّه (عليه السلام) إنّما عدّ منهم من استقرّ مُلكه وامتدّ، لا من تزلزل سلطانه وذهب مُلكه سريعاً: كالأمين، والمنتصر، والمستعين، والمعتزّ وأمثالهم.

)والكديد) أمّا كناية عن المعتزّ فالمراد نسبة أعوام عمره، فإنّ عمره حين مات كان أربعاً وعشرين سنة، فيكون ما

ذكره (عليه السلام) عند العد على خلاف الترتيب، أو كناية عن المقتدر، ويكون بنسبة مدّة خلافته وكانت أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً، وكان ثامن عشرهم، وفي العدّ أيضاً الكديد هو الثامن عشر.

* * *

]الشرح:[

من الجلي البيّن الذي هو بمطلع الأكمة عند الناس أنّ العبّاسيّين كانت سيرتهم معاكسة للدين الإسلاميّ، وأفعالهم مخالفة لما جاء به محمد)صلى الله عليه وآله(، من تغيير الأحكام الإسلاميّة ورفض السُنن وقتل النفوس الزكيّة من أولاد محمد وعترته الأطهار وغيرهم من أبرار الناس وأخيارهم.

فكم من عُجنت طينته بماء الوحي وغُرس بماء الرسالة حتّى فاح منهما مسك الهدى وعنبر التقى، جعلوا جسمه دريئة للسيوف، وحشاه طُعمة للسمّ والحتوف.

]جرائم بني العباس:[

إليك نموذجاً مصغّراً لما فعلته هذه الدولة وما ارتكبته من الجرائم الفظيعة منذ بدء حكومتها إلى انتهائها، فهذا أبو العبّاس السفّاح (لُقّب بهذا اللقب لكثرة سفكه الدماء) لمّا تربّع على دست الخلافة وجلس على منصّة الحكم وانقادت إليه أزمة الأمور، قال المقريزي في النـزاع والتخاصم: فكان أوّل ما فعله أن ولّى ابن أخيه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله سنة ثلاث وثلاثين ومائة الموصل، فدخلها في اثني عشر ألفاً، فأوّل ما بدأ به أن دعا أهل الموصل فقتل منهم اثني عشر رجلاً، فنفر أهل البلد وحملوا السلاح، فنادى: من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام الرجال على أبواب الجامع وقتل الناس فيه قتلاً ذريعاً تجاوز فيه الحدّ وأسرف في المقدار، فيقال أنّه قتل أحد عشر ألف إنسان ممّن له خاتم، سوى من ليس في يده خاتم وهم عدد كثير، بحيث لم ينجُ من رجال الموصل ـ مع كثرتهم ـ إلاّ نحو أربعماءة رجل صدموا الجند فأفرجوا لهم، فلما كان الليل سمع صراخ النساء اللاتي قتل رجالهنّ، فأمر من الغد بقتلهنّ، فأقام رجاله ثلاثة أيام يقتلون النساء والصبيان، وكان في عسكره قائد معه أربعة آلاف عبد زنجيّ فأخذوا النساء قهراً، فلمّا فرغ إبراهيم من قتل الناس في اليوم الثالث ركب في اليوم الرابع وبين يديه الحراب والسيوف المسلولة فأخذت إمرأة بزمام دابّته فأراد أصحابه قتلها فكفّهم عنها، فقالت له: ألستَ من بني هاشم؟ ألست ابن رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟ أما تأنف للعربيّات المسلمات أن ينكحهنّ الزنوج؟ فلم يُجبها وبعث معها من بلّغها مأمنها، ثمّ جمع من الغد الزنوج للعطاء وقتلهم عن آخرهم، فكانت هذه فعلة لم نسمع بأقبح منها إلاّ ما كان من

السفّاح.(2) ولعمري لقد فاق فرعون في فساده وأربى عليه في عتوّه وعناده، وإنّ السفّاح بما فعله ابن أخيه قد صار يسوم أمّة محمد (صلى الله عليه وآله) من سوء العذاب أشدّ وأقبح ما كان فرعون يسوم بني إسرائيل منه، فكيف بها إذا ضمّت مع ما حكاه البلاذريّ قال: كان أبو العبّاس ـ يعني السفّاح ـ يسمع الغناء، فإذا قال للمغنّي: أحسنت! لم ينصرف من عنده إلاّ بجائزة وكسوة، فقيل له: إنّ الخلافة جليلة، فلو حجبت عنك من يشاهدك على النبيذ، فاحتجب عنهم وكانت صلاته قائمة لهم، فأين هذا من هدى النبوّة وسيرة أئمّة الهدى فما أبعده عن هداهم، ولله درّ القائل:

نزلوا بمكّة في قبائل نوفل ونزلتَ بالبيداء أبعد منـزلِ

لا يفترق العبّاسيّون عن بني أميّة في شيء، لا في الظلم والقسوة، ولا في الفسوق والفجور، ولا في الاستهتار والزندقة، فالغاية واحدة عند الجميع، وهي الانتفاع والاستقلال، والمبدأ واحد وهو اللامبالاة بالدين والقيم، فالكلّ ركب متون الأهواء وسلك طريق الضلال، من قطع الرؤوس، ونصب المشانق، وهدم الدور على الأحياء، وما إبراهيم وأخوه السفّاح إلا كمعاوية، وما المنصور والرشيد إلاّ كهشام، وما المتوكّل إلا كيزيد بن معاوية، فلقد عرفنا حاكمين يتّخذون من القتل وسيلة لتوطيد سلطانهم، أو لحفظ الأمن بزعمهم، أمّا من ذكرناه من الأمويّين وسنذكره من العبّاسيّين فقد كان يقتل لا لسبب إلاّ بدافع من الغدر والاسراف في القتل.

حين ضاق الناس ذرعاً بالأمويّين، وبلغ الاستياء ذروته من سياستهم، أرسل إبراهيم الإمام ـ أخو السفّاح ـ أبا مسلم الخراسانّي إلى خراسان وقال له فيما قال: احفظ وصيّتي: انظر هذا الحيّ من اليمن فأكرمهم واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلاّ بهم، واتّهم ربيعة في أمرهم، وأمّا مضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل مَن شككتَ فيه، وإن استطعت ألاّ تدع بخراسان من يتكلّم بالعربية فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه فاقتله!...(3)

وبعد أن نقل المقريزي هذا الكلام من كتاب (النـزاع والتخاصم (قال معقّباً: (فأين ـ أعزّك الله ـ هذه الوصيّة من وصايا الخلفاء الراشدين لعمّالهم، وتالله لو توجّه أبرّ مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يُوصي بهذا، فكيف وإنّما توجّه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب، لينتزع من أيديهم ما فتحه آباؤهم من أرض الشرك، ليتّخذوا مال الله دولاً، وعبيده خولاً؟! وقد عمل أبو مسلم بوصيّة إبراهيم.(4)

وأيّ فرق بين قول إبراهيم العبّاسّي: (واقتُل من شككتَ فيه (وقول معاوية الأمويّ حين كتب إلى عماله: (انظروا من اتّهمتموه بموالاة أهل البيت فنكّلوا به واهدموا داره.(

* * *

]المنصور والعلويّون:[

جاء في كتاب «الشيعة والحاكمون:«

كان البيت العبّاسي بيت جهل وخمول بعد عبد الله بن عباس، ولولا انتسابهم إلى عمّ الرسول لم يرد لأحد منهم ذِكر في التاريخ، أمّا البيت العلويّ فكان في جميع الأدوار بيت العلم والدين، ومهوى أفئدة المسلمين، فمن علي أمير المؤمنين إلى ولديه الحسنَين، ومنهما إلى الإمام زين العابدين، ومنه إلى الصادقَين: محمد الباقر وجعفر الصادق الخ.

وكان العبّاسيّون يعتزّون بقرابتهم من علي بن أبي طالب وأبنائه سلام الله عليهم كاعتزازهم بالنبي الكريم (صلى الله عليه وآله)، وكانوا يحضرون مجالس أبناء علي متأدّبين متعلّمين، وكان محمد بن عبد الله بن الحسن يأخذ المنصور بركابه ويسوّي ثيابه على السرج.

وحين اضطربت أمور بني أميّة اجتمع بنو العبّاس وعقدوا البيعة لمحمد بن عبد الله بن الحسن، وكان فيمن بايعه إبراهيم والسفاح والمنصور، وكان المنصور أشدّهم حماساً لهذه البيعة، وأرسل المجتمعون إلى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، فلمّا حضر رغبوا إليه في أن يبايع محمداً، فقال: إنّ هذا الامر لا يتمّ إلا لهذا ـ وضرب على ظهر السفاح ـ ثمّ لهذا ـ وأشار إلى المنصور ـ وقال لعبد الله بن الحسن: إنّ ولديك إبراهيم ومحمد سيقتلهما المنصور، ثم نهض وخرج من المجلس. (5) (مقاتل الطالبيين.(

ولمّا دارت الدوائر على الأمويّين واستُخلف المنصور اختفى محمد بن عبد الله بن الحسن خوفاً على نفسه، فطلبه المنصور من أبيه وحاول قتله بكلّ وسيلة ليتخلّص من البيعة التي في عنقه، واجتهد في البحث عنه وعن أخيه إبراهيم، ونصب العيون وبذل الأموال، فعرف مكانهما، ولم يعد أمامهما إلاّ الاستسلام أو الخروج، فخرج محمد في المدينة وإبراهيم في البصرة وحاربا حتى قتلا، وكان محمد يُعرف بصاحب النفس الزكيّة، وقُتل معه خلق كثير من أبناء الأنصار والمهاجرين وأبناء جعفر بن أبي طالب ومن أبناء الحسين، وقتل معه الحسين وعلي ابنا زيد بن علي بن الحسين.

قال المسعودي: إنّ المنصور أكل عجّة من مخّ وسكّر فاستطابها وقال: أراد إبراهيم أن يمنعني من هذا وأشباهه.

من أجل هذه العجّة قتل المنصور أبناء الرسول الألوف من الأبرياء...!

قال المسعودي، والمقريزي في (النزاع والتخاصم): جمع المنصور أبناء الحسن وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم وحملهم في محامل مكشوفة وبغير وطاء، تماماً كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين، ثمّ أودعهم مكاناً تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزّأوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلّون على فراغ كلّ واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضروريّة في مواضعهم، فاشتدّت عليهم الرائحة

وتورّمت أجسادهم، ولا يزال الورم من القدم حتّى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضاً وعطشاً وجوعاً.

وقال ابن الأثير ج 4: دعا المنصور محمد بن عبد الله العثمانّي وكان أخاً لأبناء الحسن من أمّهم، فأمر بشقّ ثيابه حتّى بانت عورته، ثم ضُرب مئة وخمسون سوطاً، وأصاب إحدى عينيه سوط فسالت على وجهه، ثمّ قتله، كذا في)النـزاع والتخاصم).(6(

وقال ابن الأثير في الصفحة نفسها، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن، وكان أحسن الناس صورة، فقال له: أنت الديباج الأصغر؟ لأقتلنّك قتلة لم أقتلها أحداً، ثمّ أمر به فبُني عليه أسطوانة وهو حيّ فمات فيها..!

كان معاوية بن أبي سفيان يدفن الأحياء خنقاً تحت الأرض، وكان المنصور يقيم عليهم البناء فوق الأرض، وهذا هو الفارق الوحيد بين خليفة الشام وخليفة العراق، بين الأمويّ والعباسيّ، على أنّنا لا نعرف أمويّاً واحداً سجن جماعة تحت الأرض وتركهم يموت الواحد منهم بعد الآخر بين الفضلات والقذارات، ولهذا قال الشاعر:

والله ما فعلت أميّةُ فيهمُ   مِعشار ما فعلت بنو العبّاسِ

وفي كتاب (النـزاع والتخاصم) أنّه كان للقاسم بن إبراهيم طباطبا ضيعة بالمدينة يقال لها الرس، فلم يسمح له المنصور بالمقام بها حتّى طلبه فقفز إلى السند وقال :

في كلّ أرض فلم يقصر من   لم يروه ما أراق البغي من دمنا

الطلبِ   ولم يطفّ غليلاً في حشاه سوى

أن لا يرى فوقها ابناً لبنت نبي

وكان يفرّ من بلد إلى بلد، يسير حافياً والدم يسيل من قدميه، ومن قوله وهو مشّرد:

سيرتاح للعظم الكسير فيجبرُ   عسى جابر العظم الكسير بلطفه

يُيسّر منه ما يعزّ ويعسر(7(عسى الله لا تيأس من الله إنّه

وفي كتاب (النـزاع والتخاصم): أنّ المنصور دلّ امرأة ابنه المهدي ووليّ عهده على بيت واستحلفها أن لا تفتحه إلاّ بعد وفاته بحضور زوجها، وبعد هلاكه فتحه المهدي وإذا فيه رؤوس من قتل من الطالبيّين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم، وفيهم أطفال.«

قال المقريزي: أنّى هذا الجور والفساد من عدل الشريعة المحمّديّة وسيرة أئمّة الهدى؟! أين هذه القسوة الشنيعة مع القرابة من رحمة النبوّة، وتالله ما هذا من الدين في شيء. بل هو من باب قول الله سبحانه: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ»(8)(9.(

هذا عمل من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر والكتاب المنير، وأنّه أمير المؤمنين خليفة ربّ العالمين، وابن عمّ سيّد المرسلين؟! وهكذا يفعل ما لا تفعله الوحوش والذئاب ويتوكّأ على الأنساب.

الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) والمنصور:

أوّل من أطلق لقب الصادق على الإمام جعفر بن محمد هو المنصور بعد أن تحقّق قوله بأنّ المنصور سيملك بقتل محمّد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن كما قدّمنا، وكان الإمام الصادق (عليه السلام) في عهد المنصور يوصي شيعته ويقول لهم: عليكم بالطاعة والصمت فإنّكم في سلطان مَن مكرهم لتزول منه الجبال (10).

ولكنّ المنصور لا يُرضيه الصمت من الإمام والطاعة من الشيعة مادام الناس يعتقدون بإمامته وتفضيله على المنصور والناس أجمعين.

قال محمد الاسقنطوريّ: دخلت يوماً على الدوانيقيّ - أي المنصور - فوجدته في فكر عميق، فقلت له: ما هذا الفكر؟ قال: قتلتُ من ذريّة فاطمة بنت محمد ألفاً أو يزيدون، وتركتُ سيّدهم ومولاهم، فقلت: ومن ذلك؟ قال: قد عرفت أنّك تقول بإمامته وأنّه إمامي وإمامك وإمام جميع هذا الخلق، ولكن الآن أفرغ منه.(11)

وتدلّنا هذه الرواية على انتشار التشيع لعلي وأولاده حتّى بين حجّاب المنصور وحواشيه، بل إنّ الربيع وزير المنصور كان شيعيّاً.

]كلمات تكفي الإمام الصادق)عليه السلام) شرَّ المنصور:[

جاء في كتاب «الشيعة والحاكمون:»

لما حجّ المنصور مرّ بالمدينة، فقال للربيع: عليَّ بجعفر بن محمد! قتلني الله إن لم أقتله، فمطل به، ثم ألحّ فيه فحضر، فلما دخل همس الإمام بشفتيه ثم تقرّب وسلّم، فقال المنصور: لا سلّم الله عليك يا عدوّ الله! تعمل عليَّ الغوائل في مُلكي! قتلني الله إن لم أقتلك، فقال الإمام: إنّ سليمان أُعطي فشكر، وإنّ أيوب ابتُلي فصبر، وإنّ يوسف ظُلم فغفر، وأنت على ارث منهم وأحقّ بالتأسّي بهم. فنكّس المنصور رأسه ثم رفعه وقال: يا أبا عبد الله أنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشجة، ثمّ عانقه وأجلسه معه على فراشه وأقبل عليه يُسائله ويحادثه، ثم قال: عجّلوا لأبي عبد الله اذنه وكسوته وجائزته.

ولمّا خرج الإمام تبعه الربيع وقال: إنّي منذ ثلاثة أيام أدافع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، وقد

انجلى الأمر، وأنا خادم سلطان ولا غنى عنه، فأحب أن تعلّمنيه.. قال الإمام: قل: اللهمّ احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بكنفك الذي لا يُرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها عليَّ قلّ عندها شكري فلم تحرمني، وكم من بليّة ابتليتني بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني، اللهمَّ بك أدرأ في نحره، وأعوذ بخيرك من شرّه.(12(

وكان المعلّى بن خُنيس من الشيعة المقرّبين لدى الصادق، وكان مولاه ووكيله، فكتب المنصور إلى عامله على المدينة ـ وهو داود بن عروة ـ بقتله، فاستدعاه داود وقال له: اكتب أسماء الشيعة وإلاّ ضربت عنقك، فقال: أبالقتل تهدّدني؟! والله لو كان اسم أحدهم تحت قدمي ما رفعتها، فضرب عنقه وصلبه، فعزّ ذلك على الإمام الصادق ودعى على داود، وما انتهى من دعائه حتّى ارتفع الصياح وجاء الخبر بهلاكه.(13(

وأيضاً كتب المنصور إلى عامله أن يحرق على الإمام الصادق داره، ثم دسّ إليه السم فمات مسموماً.

قتل المنصور من أبناء علي وفاطمة ألفاً أو يزيدون باعترافه، وقتل من شيعتهم ما لا يُعدّ ولا يحصى، وتفنّن في ظلمهم، واخترع أنواعاً من القتل وألواناً من التنكيل، تماماً كما يتفنّن علماء القرن العشرين باختراع الوسائل التي تخفّف آلام البشريّة وتيسّر العسير من شؤونهم، فمن الضرب بالسياط على الأعين حتّى تسيل، إلى هدم البيوت على الأحياء، إلى رصفهم مع الأعجاز في الجدران، إلى تسميمهم بالفضلات والقذارات، إلى ما لا نهاية.

ومهما يكن فيجب أن لا ننسى أنّ المنصور كان يؤمن بالله، وأنّه قرابة نبيّ الرحمة!... والحقّ أنّ المنصور أدّى رسالته كحاقد على الفضيلة وأهلها...!

وبالتالي، فإنّ استقرائي لسيرة الخلفاء المسلمين قد بعث فيَّ شعوراً بأنّ الإسلام لولا المنصور وأمثاله من الحاكمين لعمّ الناس أجمعين واعتنقوه تلقائياً بدون دعوة ودعاية، ولما وجد على هذه الكرة إنسان غير مسلم.

]جرائم المهدي بن المنصور:[

جاء في كتاب «الشيعة والحاكمون:«

»مات المنصور وقام ولده محمّد الملقّب بالمهدي، وبقي في الحكم من سنة ثمان وخمسين ومئة إلى سنة تسع وستين ومئة، وكان أبوه قد أتمّ المهمة وانتهى من تنفيذ ما أعده من خطط الاغتيال والفتك بقرى الخير والصلاح، ولم ينجُ منه إلاّ إثنان: علي بن العباس بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فأخذه المهدي وسجنه، ثم دسّ إليه السم فتفسّخ لحمه وتباينت أعضاؤه.

]قصة عيسى بن زيد:[

وعيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، توارى من المهدي خوفاً على نفسه، قال أبو الفرج في (مقاتل الطالبيّين): «كان عيسى أفضل من بقي من أهله ديناً، وعلماً، وورعاً، وزهداً، وتقشفاً، وأشدّهم بصيرة في أمره ومذهبه، مع علم كثير ورواية للحديث وطلب له، صغيره وكبيره».(14(

هرب عيسى من المهدي واختبأ في دار بعض الشيعة ـ وهو علي بن صالح ـ ثمّ رأى أن يتّخذ عملاً يعتاش منه ولا يكون كلاًّ على أحد، وكان أهل الكوفة ينقلون الماء من الفرات إلى بيوتهم على الجمال وسائر الحيوانات، فاتّفق عيسى مع صاحب الجمل على أن يستقي على الجمل ويدفع له يوم أجراً معيناً ويتقوّت هو بما يبقى، وهكذا بقي أمداً طويلاً وهو متنكّر، وتزوج امرأة من فقراء الكوفة لا تعرفه هي ولا أهلها.

وكان لعيسى أخ اسمه الحسين بن زيد، وله ولد يدعى يحيى، فقال يحيى يوماً لأبيه: يا أبه إنّي أشتهي أن أرى عمّي عيسى فإنّه يقبح بمثلي أن لا يلقى مثله من أشياخه. فقال له: إنّ هذا الأمر يثقل عليه، وأخشى أن ينتقل من منـزله كراهية لقائك إيّاه فتزعجه، فما زال يحيى يلحّ على أبيه حتّى طابت نفسه وقال له :اذهب إلى الكوفة فإذا بلغتها فسل عن دور بني حي، وهناك سكّة تسمّى كذا، وسترى داراً لها باب صفته كذا، فاجلس بالقرب منها، فإنّه سيقبل عليك عند المغرب كهل طويل مسنون الوجه، قد أثّر السجود في جبهته، عليه جبّة صوف، يسقي الماء على جمل، لا يضع قدماً ولا يرفعها إلا ذكر الله ودموعه تنحدر، فقم وسلّم عليه وعانقه، فإنّه سيذعر منك كما يذعر من وحش، فعَرفه نفسك وانتسب له، فإنّه يسكن إليك ويحدّثك طويلاً ويسألك عنّا جميعاً ويخبرك بشأنه ولا يضجر بجلوسك معه ولا تُطل عليه، ودعه فإنّه سوف يستعفيك من العودة إليه، فافعل ما يأمرك به من ذلك، فإنّك إن عدت إليه توارى عنك واستوحش منك وانتقل من موضعه وفيه من ذلك مشقّة.

قال يحيى: ذهبت إلى الكوفة وفعلت ما أمرني به أبي، وحين عانقت عمّي عيسى ذعر مني كما يذعر الوحش من الإنس، فقلت: يا عمّ يحيى بن الحسين بن زيد أنا ابن أخيك، فضمّني إليه وبكى، ثمّ أناخ جمله وجلس معي فجعل يسألني عن أهله رجلاً رجلاً وامرأة امرأة وصبيّاً صبيّاً، وأنا أشرح له أخبارهم وهو يبكي، ثم قال :يا بُني أنا أستقي على هذا الجمل الماء فأصرف ما اكتسب من أجرة الجمل إلى صاحبه وأتقوّت باقيه، وربّما عاقني عائق عن استقاء الماء فأخرج إلى البريّة فألتقط ما يرمي الناس به من البقول فأتقوّته.

وقد تزّوجت إلى رجل ابنته وهو لا يعلم من أنا إلى وقتي هذا، فولدت منّي بنتاً فنشأت وبلغت وهي أيضاً لا تعرفني ولا تدري من أنا، فقالت لي أمها :زوّج ابنتك بابن فلان السقّاء وهو رجل من جيراننا فإنّه أيسر منّا وقد خطبها، وألحّت

علي فلم أزل أستكفي الله أمرها حتّى ماتت البنت بعد أيام، فلم أجدني آسى على شيء من الدنيا أساي على أنّها ماتت ولم تعلم بموضعها من رسول الله (صلى الله عليه وآله). قال يحيى: ثمّ أقسم عليَّ عمّي أن انصرف ولا أعود إليه وودّعني.(15(

هذه أمثولة تعبر عن منهج حكومات الجور والظلم: يعاني فيها الطيّبون الأخيار ضروب الفواجع والشقاء، ويعيش فيها الخونة والجهلاء آمنين مترفين يجدون كلّ عون وحماية!... إنّ البلد الطيب الأمين يحمل القريب والغريب، وتفيض خيراته على المواطنين والمهاجرين على السواء، أمّا البلد الخبيث بحكّامه وقادته فهو شرّ وبلاء على العلماء والأبرياء، ونعمة ورخاء على أهل الجهل والأدعياء.

لم يستطع عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله، لم يستطع هذا العالم المخلص المحدّث الورع الزاهد أن يُظهر نفسه في بلد الإسلام، وحاكمه خليفة المسلمين، وعاش خائفاً مستتراً يخدم الناس وينقل الماء إلى البيوت بأجر زهيد، عاش ابن رسول الله في خلافة المهدي يلتقط ما يرمي به الناس من قشور الخضار والفاكهة يتقوّته هو وزوجته وابنته التي كبرت ثمّ ماتت ولم تعرف مكانها من رسول الله، عاش مشرّداً متنكّراً ينفر من الإنس كما ينفر من الوحش، لا لشيء إلا أنّه عالم زاهد يعرف الحقّ ويعمل به. وعاش المخنّثون والعاثرات وأهل الفسق والفجور في دَعة وأمان، تسهل لهم الأمور، وتغدق عليهم الأموال .

قال المسعودي: بسط المهدي يده في العطاء فأذهب جميع ما خلّفه المنصور، وكان 16 مليون درهم و14 مليون دينار.

قال لي بعض أساتذة الفلسفة في القاهرة: إنّ الشيعة يقولون بالتقيّة. قلت: لعن الله مَن أحوجهم إليها، لقد خرج موسى الكليم من مصر خائفاً يترقّب وقال: «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»(16) وَقال النبيّ (صلى الله عليه وآله): «بئس القوم قوم يعيش المؤمن من بينهم بالتقيّة».(17) إنّكم تنادون بحريّة الرأي والعقيدة، ثمّ إذا رأيتم مظلوماً سكت عن رأيه خوفاً من حكام الجور نعيتم على المظلوم وسكتّم عن الظالم، وصدق من قال: ما اختلف الناس ولكن اطّرد القياس.«

]المهدي ويعقوب بن داود بن طهمان:[

استعمل المهدي يعقوب بن داود بن طهمان حتّى استوزره وفوّض إليه أمر الخلافة، وكان يعقوب ممّن له الميل في محبّة علي وذريّته.

قال الطبري محمد بن جرير في (تاريخ الأمم والملوك): كان المهدي يُجلس عنده مواليه وأصحابه فيشربون النبيذ، وكان يعقوب يعظه في سقيهم النبيذ وفي السماع، قال يعقوب: كنت أعظه وأقول له: إنّه ليس على هذا استوزرتَني ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد يُشرب عندك النبيذ وتسمع السماع، وليّتني أمور المسلمين وإعطاء الجند، وليس دنياك عوضاً من آخرتي، قال فكان يقول لي: اللهمّ غفراً، اللهمّ أصلح قلبه، فقال له شاعره:

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبِل على صهباء طيّبة النشرِ(18(

وكان يعقوب سمحاً جواداً كثير البرّ واصطناع المعروف، جاءته امرأة من اليمامة جعديّة مملوكة لبني جعدة يقال لها وحشيّة، قد كاتبت على ولدها وأخيها وأهل بيتها بألف دينار، فوقفت بين يديه فقالت :

ومُرسي البيت في حرم الإلالِ	أما ومعلم التوراة موسى
فعلّمنا الحرام من الحلال	وباعث أحمدٍ فينا رسولاً
فأدّاني له وقت الهلال	لشهراً نحو يعقوب سرينا
وعمّي لا أحاشيه وخالي	أغثني يا فداك أبي وأمي
جرت لي عن يميني أو شمالي	يبشّرني بنُجحي كلّ طير

فقال لها: صدقت طيرُك، فأعطاها ألف دينار وقال: ارحلي فاشتري أهلك وولدك وأقدميهم، ففعلت، فما زالت في عيال يعقوب هي وأهلها أجمعون حتّى ماتت.(19(

روى الطبري عن إبراهيم المسعودي: قال المهدي: وُصف لي يعقوب بن داود في منامي فقيل لي أن اتّخذه وزيراً، فلما رآه قال: هذه والله الخلقة التي رأيتها في منامي، فاتّخذه وزيراً وما زال يقرّبه ويُدنيه حتّى غلب على أمره، فقال بشّار يهجي المهدي:

إنّ الخليفة يعقوب بن داودِ	بني أمية هبّوا طال نومكم
خليفة الله بين الدفّ والعود(20(	ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا

فجعلت السعاة تسعى إلى المهدي ويحسّنون له عزله وقتله، وكانوا يخلون بالمهدي ليلاً فيقولون له بعد أن يشدّدوا

على يعقوب وينصرفوا عنه على أن يصبح فيثور بيعقوب، فإذا أصبح غدا عليه يعقوب وقد بلغه الخبر، فإذا نظر إليه المهدي تبسّم، فجاء رجل إلى السُعاة وقال لهم: أنا أعرف الطريق الذي أقتله به، ثم جاء المهدي وقال: إنّ هذا يقتلك، قال: يقتلني؟ قال نعم: لأنّه خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على أبيك المنصور وقد حبسه أبوك، وإنّه علويّ الرأي وسيقتلك ويُعطي الخلافة للعلويّين، فإن كنت تكذّبني فادفع إليه أحد العلويّين ليقتله، فإن قتله فهو منك وإلا فصدّقني فيما قلت. قال: نِعم ما جئت به من الرأي.

قال يعقوب: بعث إليّ المهدي يوماً فدخلت عليه، فإذا هو في مجلس مفروش بفرش مورّد ُمتناهٍ في السرور، على بُستان فيه شجر، ورؤس الشجر على صحن المجلس، وقد اكتسى ذلك الشجر بالأوراد والأزهار من الخوخ والتفاح، فكلّ ذلك مورّد يشبه المجلس الذي كان فيه، فما رأيت شيئاً أحسن منه، وإذا عنده جارية ما رأيت أحسن منها ولا أشطّ قواماً ولا أحسن اعتدالاً، عليها نحو تلك الثياب، فما رأيت أحسن من جملة ذلك، فقال لي: يعقوب، قلت: بلى. قال: كيف ترى مجلسنا هذا؟ قلت: يا أمير ما هذا إلاّ من موجدة، وأنا أستعيذ بالله من سخط الأمير، قال: لا، ولكن أحب أن تضمن لي قضاء هذه الحاجة وأن تقضيها لي، فقلت: الأمر للأمير وعليَّ السمع والطاعة، قال :واللهِ؟ قلت: والله ثلاثاً، قال: وحياة رأسي؟ قلت: وحياة رأسك، قال: فضع يدك عليه واحلف به، قال: فوضعت يدي عليه وحلفت له به لأعملنّ بما قال ولأقضينّ حاجته، قال :فلمّا استوثق مني في نفسه قال: هذا فلان بن فلان من ولد علي، أحبّ أن تكفيني مؤونته وتريحني منه وتعجّل ذلك، قال: قلت أفعل، قال: فخذه إليك، فحوّلته إلي وحوّلت الجارية وجميع ما كان في البيت من فرش وغير ذلك، وأمر لي معه بمائة ألف درهم، قال :فحملت جلّه ومضيت به، فلشدّة سروري بالجارية صيّرتها في مجلس بيني وبينها ستر، وبعثت إلى العلويّ فأدخلته على نفسي وسألته عن حاله فأخبرني بها وبمجمل منها، وإذا هو ألب الناس وأحسنهم إباءة، قال: وقال لي في بعض ما يقول: ويحك يا يعقوب، تلقى الله تعالى بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت محمد؟ قال: قلت: لا والله، فهل فيك خير؟ قال: نعم إن فعلتَ خيراً شكرتُك ولك عندي دعاء واستغفار، قال: فقلت له: أيّ الطرق أحبّ إليك؟ قال: طريق كذا وكذا الذي اتّفقوا عليه في وقت كذا وكذا من الليل، فقلت له: إذاً احمل معك هذا المال واسلك الطريق، وإذا بالجارية قد حفظت عليَّ قولي فبعثت به مع خادم لها إلى المهدي وقالت: هذا جزاؤك من الذي آثرته على نفسك وفعل كذا وكذا حتّى ساقت الحديث كلّه، قال: وبعث المهدي من وقته ذلك فشحن ذلك الطريق الذي وصفه العلويّ برجاله، فلم يلبث أن جاؤه بالعلويّ والمال على السجيّة التي حكتها الجارية، قال:

وأصبحت من غد ذلك اليوم فإذا برسول المهدي يستحضرني، وكنت خالي الذرع غير ملقى إلى أمر العلوي، فدخلت على المهدي فوجدته على كرسي بيده مخصرة، فقال: يعقوب، قلت :نعم، قال: ما حال الرجل العلويّ؟ قلت: يا أمير قد

أراحك الله منه، قال: مات؟ قلت :نعم، قال: والله؟ قلت: والله، قال: قم فضع يدك على رأسي، قال: فوضعت يدي على رأسه وحلفت له به، فقال: يا غلام أخرج إلينا ما في هذا البيت، ففتح بابه عن العلويّ، قال: فبقيت متحيّراً وسقط في يدي وامتنع منّي الكلام فما أدري ما أقول، فقال لي المهدي: لقد حلّ لي دمك لو آثرت إراقته، ولكن احبسوه في المطبق ولا أُذكّر به، فحبست في المطبق، واتُّخذ لي فيه بئراً فدلّيت فيها، فكنت كذلك أطول مدّة لا أعرف عدد الأيام، حتّى طالت شعري واسترسل كهيئة شعور البهائم، فمكثت خمسة عشر سنة وكان يدلى إليَّ في كلّ يوم رغيف وكوز من ماء وأؤذن بأوقات الصلاة، فلمّا كان في رأس ثلاث عشرة سنة أتاني آت في منامي فقال:

حنا على يوسف ربّ فأخرجه من قصر جبّ وبيت حوله غُممُ

فحمدت الله لما سمعته وقلت: أتى الفرج، ثمّ مكثت حولاً لا أرى شيئاً، فلمّا كان رأس الحول أتاني ذلك الآتي فقال لي:

عسى فرج يأتي به الله إنّه له كلّ يوم في خليقته أمرُ

ثم أقمت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان آخر الحول أتاني أيضاً ذلك الآتي فقال :

يكون وراءه فرجٌ قريبُ عسى الأمر الذي أمسيتَ فيه

ويأتي أهله النائي الغريبُ فيأمن خائف ويفكّ عانٍ

قال: فلمّا أصبحت نُوديت، فظننتُ أنّي أُوذن بالصلاة، فدلّي لي حبل أسود وقيل لي: أشدد به وسطك، ففعلت فأخرجوني، فلمّا قابلت الضوء غشي بصري، فانطلقوا بي فأُدخلت على الرشيد فقيل لي: سلّم على أمير المؤمنين، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته المهدي، قال: لستُ به، قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الهادي، قال: لست به، قلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته الرشيد، فقال الرشيد: وعليك السلام فأنا الرشيد، يا يعقوب بن داود، إنه والله ما شفع فيك إلي أحد، غير أنّي حملت الليلة صبيّة لي على عُنقي فذكرت حملك إيّاي على عنقك، فرثيت لك من المحلّ الذي كنتَ به، فأخرجتك، فسَل حاجتك. قال: قلت: المقام بمكّة، ففعل الرشيد ذلك، ثمّ قال: فهل غير هذا؟ فقلت :ما بقي مستمع لشيء ولا بلاغ، قال: فراشداً، فخرجت فكان وجهي إلى مكّة، ثمّ لم يزل بمكّة ولم تطل أيامه بها حتّى مات (رحمه الله).(21(

الهادي العباسي:

جاء في كتاب (الشيعة والحاكمون): توفّي المهدي وبويع موسى الملقّب بالهادي، قال المسعودي: كانت خلافته سنة وثلاثة أشهر، وكان قسيّ القلب شرس الأخلاق. وفي عهده كان على المدينة رجل من ولد عمر بن الخطاب اسمه عبد

العزيز، فتحامل على الطالبيّين وأساء إليهم وسامهم صنوف العذاب، فحجر عليهم أن يخرجوا من المدينة، وطالبهم أن يثبتوا وجودهم ويعرضوا عليه أنفسهم كلّ يوم، وكان يُلصق بهم تهمة مُعاقرة الخمرة زوراً وبهتاناً، ويُقيم عليهم الحدّ ويُشهّر بهم، وأرسل يوماً في طلب الحسين بن علي بن الحسن وأسمعه كلاماً قاسياً وتهدده وتوعّده مما أدّى إلى خروجه، فقُتل هو وأكثر من كان معه بمكان يُسّمى فخّ على بعد ستّة أميال من مكة المكرمة، وأقام القتلى ثلاثة أيام لم يُواروا حتّى أكلتهم السباع والطير، ومن أُسر منهم قُتل صبراً. عن مروج الذهب للمسعودي.

وبالرغم من قصر أيامه فقد استطاع أن يقوم بعمل تاريخيّ ويسجّل اسمه مع جلاّدي الشعوب وقتلة أولاد الأنبياء.

قال الاصفهاني في مقاتل الطالبيّن: إنّ أم الحسين صاحب فخ هي زينب بنت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قتل المنصور أباها وأخوتها وعمومتها وزوجها علي بن الحسن، ثمّ قتل الهادي حفيد المنصور ابنها الحسين، وكانت تلبس المسوح على جسدها، لا تجعل بينها وبينه شيئاً حتّى لحقت بالله (عز وجل).(22(

هارون الرشيد:

جاء في كتاب (الشيعة والحاكمون): تولّى الرشيد الحكم بعد أخيه الهادي سنة سبعين ومئة، ومات سنة ثلاث وتسعين ومئة، ولم يشتهر أحد من العبّاسيّين شهرة الرشيد وابنه المأمون، فلقد كانا من أعظم ملوك العالم شأناً وأسماهم مكانة، ولم يبزّهما عبّاسيّ ولا أمويّ في تشجيع العلوم والآداب، ولعبت قصص ألف ليلة وليلة دوراً كبيراً في شهرة هارون الرشيد، وألبسته أساطيرها ثوباً مضافاً من العظمة والجلال، أمّا شهرته في إدارة الملك وما إليها من بناء المساجد والكلّيّات والمستشفيات والمنازل والقناطر والطرق المعبدة وشبكة الجداول، أمّا هذه الادارة والأعمال فتُعزى إلى مهارة البرامكة الذين وكّل إليهم مهام الدولة خلال السبع عشرة سنة. وكانت مقدرة هذه الأسرة ونزاهتها وإخلاصها السبب الوحيد لهلاكها وإنزال النكبة بها على يد الرشيد المعروفة بنكبة البرامكة، أمّا قصّة العبّاسة وجعفر البرمكيّ وحملها منه سراً فإنّها من نسج الخيال للتغطية وتبرير الظلم والتنكيل.

قال صاحب شافية أبي فراس نقلاً عن كتاب (ثمرات الأوراق :(إنّ الرشيد أوّل خليفة لعب بالصولجان والشطرنج والنرد، أمّا سياسته مع العلويّين وشيعتهم فتدلّ الأرقام أنّه كان مصمّماً على أن لا يُبقي منهم على الأرض ديّاراً، ونذكر فيما يلي طرفاً منها :

ستون شهيداً:

جاء في كتاب (عيون أخبار الرضا): إنّ حميد بن قحطبة الطائي الطوسي قال :

طلبني الرشيد في بعض الليل وقال لي فيما قال: خذ هذا السيف وامتثل ما يأمرك به الخادم، فجاء بي الخادم إلى دار مغلقة ففتحها وإذا فيها ثلاثة بيوت وبئر، ففتح البيت الأوّل وأخرج منه عشرين نفساً عليهم الشعور والذوائب، وفيهم الشيوخ والكهول والشبّان، وهم مقيّدون بالسلاسل والأغلال، وقال لي: يقول لك أمير المؤمنين: اقتل هؤلاء، وكانوا كلّهم من ولد علي وفاطمة، فقتلتهم الواحد بعد الواحد والخادم يرمي بأجسادهم ورؤوسهم في البئر، ثمّ فتح البيت الثاني وإذا فيه أيضاً عشرون من نسل علي وفاطمة، وكان مصيرهم كمصير الذين كانوا في البيت الأول، ثم فتح البيت الثالث وإذا فيه عشرون، فألحقهم بمن مضى، وبقي منهم شيخ وهو الأخير فقال :تبّاً لك يا ميشوم أيّ عذرٍ لك يوم القيامة عند جدنا رسول الله!.. فارتعشت يدي وارتعدت فرائصي، فنظر إليّ الخادم مغضباً وهدّدني، فقتلت الشيخ ورمى به في البئر!...(23)

الأسطوانات:

نقل صاحب (مقاتل الطالبيين) عن إبراهيم بن رياح أنّ الرشيد حين ظفر بيحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بنى عليه أسطوانة وهو حي، وقد ورث الرشيد طريقة البناء على الأحياء من جدّه المنصور.(24)

قال صاحب عيون (أخبارالرضا): لمّا بنى المنصور الأبنية ببغداد جعل يطلب العلويّة طلباً شديداً ويضع من ظفر به منهم في الأسطوانات المجوّفة المبنيّة من الجصّ والآجر، فظفر ذات يوم بغلام منهم حسن الوجه وله شعر أسود وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، فسلّمه إلى الباني الذي كان يبني له وأمره أن يجعله جوف أسطوانة ويبني عليه، ووكّل عليه من يراعي ذلك، وحين أراد الباني أن يُدخله حيّاً في الاسطوانة أخذته الرقّة والرحمة، فترك في الأسطوانة فرجة يدخل منها الريح، وقال للغلام: لا بأس عليك، فاصبر فإنّي سأُخرجك في جوف الليل إذا جنّ.
ولمّا دخل الليل أتاه وأخرجه من الاسطوانة وقال له: اتّقِ الله في دمي ودم الفعلة الذين معي، وغيّب شخصك فإنّي أخرجتُك خوفاً أن يكون جدّك خصمي يوم القيامة، قال له الغلام: سأفعل ولكن لي أم، وهي في مكان كذا فاذهب إليها وعرّفها أنّي قد نجوت وأنّ عودي إليها غير ممكن، قال الباني: ذهبت إلى الموضع الذي دلّني عليه فسمعت دويّاً كدويّ النحل من البكاء فعلمت أنّها أمه، فدنوت منها وعرّفتها الخبر وأعطيتها شيئاً من شعره وانصرفت.(25)

يحيى والرشيد:

ولمّا اشتد الرشيد على العلويين خرج عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بالديلم. قال ابن الأثير في الجزء الخامس من الكامل، والاصفهاني في مقاتل الطالبيّين ما ملخصّه، أنّ يحيى استتر مدّة يجول في البلدان ويطلب موضعاً يلجأ إليه حتّى بلغ الديلم، وقد ظهر هناك واشتدّت شوكته وأتاه الناس من الأمصار، فانتدب إليه الرشيد الفضل بن يحيى في خمسين ألف مقاتل، فراسل الفضل يحيى في الصلح فأجابه إليه لما رأى من تفرّق أصحابه وخلافهم عليه، واشترط يحيى أن يكتب له الرشيد أماناً بخطّه يشهد عليه القضاة والفقهاء وجلّة بني هاشم ومشايخهم، فكتب الرشيد الأمان على مارسم يحيى، وأشهد الشهود الذين التمسهم، وجعل الأمان على نسختين: إحداهما مع يحيى والأخرى مع الرشيد. وحين قدم يحيى على الرشيد أكرمه وأجازه بمئتي ألف دينار وخلع وغيرها، ولكنّ الرشيد لم يذهب ما في نفسه وقال له يوماً: أيّنا أقرب إلى رسول الله أنا أو أنت؟ قال: أعفني، قال: لابدّ من الجواب، فقال له يحيى: لو عاش رسول الله وخطب ابنتك أكنت تزوّجه؟ قال:أي والله، قال يحيى: لو عاش رسول الله فخطب إلي أكان يحلّ لي أن أزوّجه؟ قال الرشيد:لا، فقال يحيى: هذا جواب ما سألتَ، فغضب الرشيد وقام من مجلسه.

شيوخ السوء:

أراد الرشيد أن يغدر بيحيى وينقض العهد الذي خطّه بيمينه وأشهد فيه على نفسه فلم يجد مبرّراً ولا عذراً يعتذر به، فأمسك وسكت على مضض، وأخيراً فقد الصبر فالتجأ إلى شيخ من شيوخ السوء الذين يبيعون العلل والحيل ويتسابقون إلى عرضها على من يدفع الثمن، تماماً كما يفعل البزّاز والبقال والفحام، فأتاه الشيخ أبو البختري وهب بن وهب بأنّ هذا العهد باطل منتقض، وأنّ يحيى يحلّ قتله ودمه، وأخذ العهد ومزّقه، فأعطاه مليون وستمئة ألف، وولاّه القضاء.

وإستناداً إلى هذه الفتوى أخذ الرشيد يحيى وضربه مئة عصا، ويحيى يُناشده الله والرحم والقرابة من رسول الله، ثم زجّه في سجن مظلم، وفي اليوم الثاني أحضره وضربه مئة عصا، ثمّ ردّه إلى السجن وضيّق عليه من الطعام والشراب، وأخيراً بنى عليه أسطوانة وهو حيّ حتّى مات(26.(

والشيخ أبو البختريّ موجود في كلّ عصر، في عصر الرشيد وقبله وبعده، جاء في حاشية الكامل لابن الأثير (ج 4 ص 191 طبعة 1357 هـ): إنّ يزيد صاحب حبابة وسلامة القسّ شهد له أربعون شيخاً أنّه ما على الخلفاء من حساب ولا عذاب، وإنّي لأعرف اليوم شيوخاً بأسمائهم وسيماهم ناصروا أمثال الرشيد ويزيد في الفسق والفجور ضدّ من أوقف نفسه لله وسهر الليل لتأييد دين الله والذبّ عن أولياء الله.

الإمام الكاظم (عليه السلام) والرشيد:

جاء في القران الكريم أنّ الأئمّة على نوعين: أئمّة حقّ وهداية، وأئمّة باطل وغواية.قال الله تعالى: «وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ».(27)

وهذه هي صفات علي والأئمة من ولده .

وقال سبحانه «وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ».(28)

وهذه صفات الرشيد وأسلافه الأمويّين والعبّاسيّين، ومن هنا كان الصراع بين الكاظم والرشيد حقيقيّ وواقعيّ. إمام يدعو إلى الله وجنّته، وإمام يدعو إلى الشيطان وغوايته، فكيف يجتمعان؟! أمّا المجاملة والابتسام فرماد وتحته نار مادام القلب يرتعد من الكراهية والبغضاء. وإليك هذه القصّة:

جاء في عيون أخبار الرضا: أنّ المأمون قال: ما زلت أحبّ أهل البيت وأُظهر للرشيد بُغضهم تقرّباً إليه،فلمّا حجّ الرشيد كنت معه، ولمّا كان بالمدينة دخل عليه الإمام موسى بن جعفر فأكرمه وجثى على ركبته، وعانقه يسأله عن حاله وعياله، ولمّا قام الإمام نهض الرشيد وودّعه بإجلال واحترام، فلمّا خرج سألت أبي وقلت له: مَن هذا الذي فعلت معه شيئاً لم تفعله بأحد سواه؟ فقال لي هذا وارث علم النبيّين، هذا موسى بن جعفر، فإن أردت العلم الصحيح فعند هذا.(29)

عانق الإمام وأكرمه وجلس متأدّباً بين يديه وشهد له بأنّه وارث علم النبيّين، ولكن أيّ جدوى بهذه الشهادة وذلك الإكرام مادام يدعو إلى الجنّة، والرشيد يدعو إلى النار؟! إنّ علم النبيّين لم يشفع للإمام عند الرشيد حين رأى من حبّ الناس له وتعلّقهم به ما رأى، فاستعرت في قلبه نيران الحقد وسيطرة عليه الأنانيّة، فقتل من أبناء النبيّين ما لا يبلغه الاحصاء...

وما ذنب الإمام الكاظم إذا أحبّ الناس العلمَ وأهله، والحقَّ ومن انتصر له ؟!.. وهل يجب عليه أن يكون جاهلاً مخنّثاً مستهتراً حتّى يرضى الرشيد عنه كما رضي عن مخارق وأمثاله؟! وإذا كان لك عدّو لا يُرضيه إلاّ موتك، فهل تقتل نفسك وتنتحر حتّى لا يغضب عليك؟!.. إنّ الإمام الكاظم لم يخرج على حاكم ولا دعا أحداً إلى مبايعته، ولم يحّرك ساكناً ضدّ الرشيد ولا غيره، وكلّ ذنبه أنّه وارث علم النبيّين، وأنّه إمام حقّ وهدى، والرشيد إمام باطل وضلال.

أرسل الرشيد جلاوزته إلى الإمام موسى بن جعفر، وكان يتعبّد عند قبر جدّه، فأخرجوه منه وقيّدوه، وأرسله الرشيد إلى البصرة، وكان عليها عيسى بن جعفر بن المنصور، فحبسه عنده سنة، ثمّ كتب عيسى إلى الرشيد أن خُذه مني

وسلَمه إلى من شئت وإلاّ خلّيتُ سبيله، فقد اجتهدتُ أن آخذ عليه حجّة فما قدرت على ذلك، فحبسه ببغداد عند الفضل بن الربيع، ثم عند الفضل بن يحيى، ثمّ عند السندي بن شاهك وأخيراً تخلّص منه بالسم، وقيل أنّ السنديّ لفّه فى بساط وقعد الفرّاشون على وجهه فانتقل إلى ربّه خنقاً.

الإمام الرضا (عليه السلام) والرشيد:

قال السيّد الأمين في كتاب أعيان الشيعة (مج1 ص60 الطبعة الأولى): بعد حياة الإمام الكاظم أرسل الرشيد أحد قوّاده إلى المدينة ـ وهو الجلودي ـ وأمره أن يهجم على دور آل أبي طالب ويسلب نساءهم ولا يدع على واحدة منهن إلاّ ثوباً واحداً، فامتثل الجلودي حتّى وصل إلى دار الإمام الرضا، فجعل الإمام النساء كلّهنّ في بيت واحد ووقف على باب البيت، فقال الجلودي: لا بدّ من دخول البيت وسلب النساء، فتوسّل إليه وحلف له أنّه ياتيه بكلّ ما عليهنّ من حُليّ وحُلل على أن يبقى الجلوديّ مكانه، ولم يزل يلاطفه حتّى أقنعه، ودخل الإمام وأخذ جميع ما على النساء من ثياب ومصاغ وجميع ما في الدار من أثاث وسلّمه إلى الجلودي فحمله إلى الرشيد، وحين ملك المأمون غضب على هذا الجلوديّ وأراد قتله، وكان الإمام الرضا حاضراً، فطلب من المأمون أن يعفو عنه ويهبه له، فظن الجلوديّ أن الإمام يحرّض المأمون على قتله لما سبق من إساءته، فقال الجلوديّ للمأمون: أسالك بالله أن لا تقبل قوله فيّ، فقال المأمون: والله لا أقبل قوله فيك، اضربوا عنقه، فضُربت. وهناك مظالم أخرى للرشيد مع العلويّين وشيعتهم نتركها خوف الاطالة، ولأنّ الشاهد يدلّ على الغائب، وهو كافٍ واف للتعبير عن حقيقة الرشيد وسياسته.

الأمين:

جاء في كتاب (الشيعة والحاكمون): مات هارون الرشيد بطوس سنة ثلاث وتسعين ومئةهـ،وفيها بويع لابنه الأمين، ودامت خلافة الرشيد ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً، وكانت خلافة الأمين أربع سنين وأشهر. وقال أبو الفرج في مقاتل الطالبيّين :كانت سيرة الأمين في أمر آل أبي طالب خلاف من تقدّم، لتشاغله بما كان فيه من اللهو والادمان له، ثمّ الحرب بينه وبين المأمون حتّى قُتل، فلم يحدث على أحد منهم ـ أي من آل أبي طالب ـ في أيامه حدث بوجه ولا سبب.(30)

المأمون:

قتل المأمون أخاه الأمين واستقام الأمر وانبسط التشيّع في عهده وعهد أبيه، وانتشر في كلّ بقعة من بقع الإسلام، حتّى امتدت جذوره إلى البلاط الملكيّ، فكان الفضل بن سهل ذو الرياستين وزير المأمون شيعيّاً، وطاهر بن الحسين الخزاعيّ قائد المأمون الذي فتح له بغداد وقتل أخاه الأمين شيعيّاً، وكثير سواهما، حتّى أنّ المأمون خشي عاقبة هذين فقتل الفضل وولّى طاهراً إمارة هرات، أي عزله من قيادة الجيش إلى وظيفة أدنى، وكانت الطاهريّة كلّها تتشيّع، كما قال ابن الأثير في حوادث عام 350.

وقد ساعد إمعان السلطة في الفساد والمظالم على هذا الانتشار، فكلّما أمعن الحاكمون في الجور كلّما تحرك ساكن الأمة وازداد تمسّكها بأهل البيت الطاهر، ونتج عن قتل كلّ واحد منهم اعتناق الأُلوف لمذهب التشيّع، وحسبك دليلاً على ذلك أنّ السنديّ بن شاهك خادم الرشيد حين سقى الإمام الكاظم السم دعا ثمانين رجلاً من الفقهاء والوجهاء وأدخلهم على الإمام وقال لهم: انظروا هل حدث به حدث، فإنّ الناس يزعمون أنّه فُعل به مكروه، لقد خاف الرشيد من الرأي العام والناس، لا من الله، فدعاهم إلى النظر ليشهدوا على أنّه لا جرح ولا ضرب ولا أيّ أثر للقتل، ثمّ وضُعت جنازة الإمام على الجسر ببغداد حيث يقيم أكثر الشيعة ونودي عليه: هذا موسى بن جعفر قد مات فانظروا إليه، فهاج الشيعة وكادت الفتنة تقع، فتداركها سليمان بن جعفر عمّ الرشيد، فأخذ الجنازة من الشرطة وشيّعها بموكب حافل، ومشى حافياً حاسراً، لا حبّاً للإمام ولا صلة للرحم كما زعم، بل خوفاً من الثورة على ابن أخيه هارون وسلطان العبّاسيّين.

ولمّا جاء المأمون إلى الحكم ورأى ما رأى من كثرة الشيعة وإقبال الناس على الإمام الرضا ونقمتهم على أبيه والحاكمين من أسلافه، حاول أن يُداهن ويستميل الرأي العام، فأظهر التشيّع كذباً ونفاقاً، وأخذ يدافع ويناظر عن إمامة علي أمير المؤمنين وأنّه أحقّ بالخلافة من أبي بكر وعمر، وهو لا يؤمن بشيء إلاّ بتثبيت ملكه وتوطيد سلطانه، والغريب أنّ حيل المأمون قد انطلت على كثير من الشيعة، فظنّوا به خيراً، والحقيقة أنّ الرشيد والمأمون بُنيا على أساس واحد وهو الاحتفاظ بالسلطة وإن اختلف شكل البناء، فلقد دسّ الرشيد السم إلى الإمام الكاظم، ودسّ المأمون السم للإمام الرضا، ولكنّ المأمون كان قد استفاد من أخطاء أبيه الرشيد الذي جاهر بالعداء لأهل البيت وسجن الإمام علناً ثمّ اغتاله بأسلوب يُدينه ويُثبت عليه التبعات، ويثير السخط والاستياء، استفاد المأمون من أخطاء أبيه فأحكم الخطط لإخفاء جرائمه ومآثمه، وقصّته مع الإمام الرضا (عليه السلام) تدلّ على ذلك بوضوح، وهذه خلاصتها:

الإمام الرضا (عليه السلام) والمأمون :

كان الإمام علي بن موسى بن جعفر (عليهم السلام) خير بني آدم في عصره على الاطلاق، وأعظم منـزلة عند الله والناس، نقل المؤرّخون وأهل السير أنّ الإمام الرضا كان إذا مرّ ببلد ازدحم خاصّة الناس وعامّتهم في الطرقات، وأخذ الفقهاء والعلماء بركابه ولجام دابّته، يسألونه أن يُفيض عليهم من علمه ويحدّثهم عن آبائه كما حصل له حين مرّ بنيشابور. وخرج في أحد الأعياد للصلاة فامتلأت الطرقات والسطوح بالرجال والنساء والصبيان، ولما بلغ الجادّة رفع رأسه إلى السماء وكبّر فخيّل إلى الناس أنّ الهواء والحيطان والأرض والسماء تجاوبه، وضجّوا بالبكاء والصياح، وبلغ المأمون ذلك، فقال الفضل بن سهل: إن بلغ الرضا المصلّى على هذا السبيل افتتن به الناس، فالرأي أن تسأله الرجوع، فبعث إليه المأمون يسأله أن يرجع، فرجع.

وقد حاول المأمون أن يحطّ من قدر الرضا عند الناس ويُظهر لهم أنّه ما زهد في الدنيا إلا بعد أن زهدت فيه وامتنعت عنه، ولو وجد السبيل إليها لتقبّلها بغبطة وسرور.

في المجلّد 12 من الوسائل ص 147 أنّ المأمون اجتمع مع الرضا فقال له: يا ابن رسول الله قد عرفتُ فضلك وزهدك وورعك وعبادتك، وأراك أحقّ بالخلافة منّي، فقال الرضا (عليه السلام): بالعبودية لله (عز وجل) أفتخر، وبالزهد في الدنيا أرجو النجاة من شرّ الدنيا، وبالورع عن المحارم أرجو الفوز بالمغانم، وبالتواضع في الدنيا أرجو الرفعة عند الله (عز وجل)، فقال له المأمون: فإنّي قد رأيت أن أعزل نفسي عن الخلافة وأجعلها لك وأبايعك، فقال له الرضا (عليه السلام): إن كانت هذه الخلافة لك وجعلها الله لك فلا يجوز أن تخلع لباساً ألبسك الله وتجعله لغيرك، وإن كانت الخلافة ليست لك فلا يجوز لك أن تجعل لي ما ليس لك، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله لا بدّ لك من قبول هذا الأمر، فقال: لست أفعل ذلك طائعاً أبداً، فما زال يجهد به أيّاماً حتى يئس من قبوله، فقال: إن لم تقبل الخلافة ولم تحبّ مبايعتي لك، فكن وليّ عهدي لتكون لك الخلافة بعدي، فقال الرضا (عليه السلام): والله لقد حدّثني أبي عن آبائه، عن أمير المؤمنين، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنّي أخرج من الدنيا قبلك مقتولاً بالسّم مظلوماً، تبكي عليَّ ملائكة السماء والأرض، وأُدفن في أرض غربة إلى جنب هارون الرشيد، فبكى المأمون وقال: يا ابن رسول الله ومن الذي يقتلك أو يقدر على الإسائة إليك وأنا حيّ؟ فقال الرضا (عليه السلام): أما أنّي لو أشاء أن أقول مَن الذي يقتلني لقلتُ، فقال المأمون: يا ابن رسول الله إنّما تريد بقولك هذا التخفيف عن نفسك ودفع هذا الأمر عنك ليقول الناس أنّك زاهد في الدنيا، فقال له الرضا (عليه السلام): والله ما كذبتُ منذ خلقني الله (عز وجل)، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإنّي لأعلم ما تريد، فقال المأمون: وما أريد؟ قال: الأمان على الصدق، قال: لك الأمان، قال: تريد أن يقول الناس أنّ علي بن موسى الرضا لم يزهد في الدنيا بل زهدت الدنيا فيه، أما ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟ قال :فغضب

المأمون ثم قال: إنّك تتلقّاني أبداً بما أكرهه، وقد أمنتَ سطوتي، فبالله أقسم لئن لم تقبل ولاية العهد وإلاّ أجبرتُك على ذلك، فإن لم تفعل وإلاّ ضربت عُنقك، فقال الرضا (عليه السلام): قد نهاني الله أن أُلقي بيدي التهلكة، فإن كان الأمر على هذا فأفعل ما بدا لك، وإنّما أقبل ذلك على أن لا أُولّي أحداً ولا أعزل أحداً ولا أنقض رسماً ولا سُنّة، وأكون في الأمر من بعيد مُشيراً. فرضي بذلك منه وجعله وليّ عهده على كراهية منه (عليه السلام) لذلك.»

وبالتالي فإنّ موقف المأمون من الإمام الرضا كموقف أبيه الرشيد من الإمام الكاظم وموقف جدّه المنصور من الإمام الصادق وموقف معاوية بن أبي سفيان من الإمام الحسن، لقد هانت دماء الأبرياء والأولياء على حكّام الجور من أجل المُلك، وهانت على المصلحين نفوسهم في سبيل الحقّ، ولذا نوالي هؤلاء، ونبرأ من أولئك.

المتوكّل وعداوه لأهل البيت (عليهم السلام):(

في كتاب (الشيعة والحاكمون): «أنّ المتوكّل كان معروفاً في اللهو والمُجون ومُعاقرة الخمر، قال المسعودي: هو أوّل خليفة من بني عبّاس ظهر في مجلس اللعب والمضاحك والهزل». وقال السيد أمير علي في كتاب (مختصر تاريخ العرب :(وفي عهده بدأ انحلال الامبراطورية العربيّة، وتسرّب الفساد في جسم الدولة، وأمر الناس بالتمسّك بالتقليد، وأقصى أحرار الفكر عن الوظائف، وتغلّب عليه الأتراك، وأصبحوا أصحاب الأمر والنهي.

وقال أبو الفرج في مقاتل الطالبين: كان المتوكّل شديد الوطأة على آل أبي طالب، غليظاً على جماعتهم، شديد الغلظة والحقد عليهم،وسوء الظنّ والتهمة لهم... واستعمل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجيّ فمنع آل أبي طالب من التعرّض للناس، ومنع الناس من البرّ بهم، وكان لا يبلغه أنّ أحداً وصل منهم بشيء وإن قلّ إلا أنهكه عقوبة، وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلّين فيه واحدة بعد واحدة ثم يرقّعنه ويجلسن على مغازلهنّ عواري حاسرات».(31(

هكذا شاء أمير المؤمنين المتوكّل على الله أن تقبع العلويّات في بيوتهنّ عاريات يتبادلن القميص المرقّع عند الصلاة، وأن تختال الفاجرات العاهرات بالحليّ وحلل الديباج بين الإماء والعبيد.

لقد أرسل الرشيد إلى بنات الرسول من يسلب الثياب عن أبدانهنّ، أمّا المتوكّل فقد شدّد وضيق عليهنّ حتّى ألجأهنّ إلى العري، وهكذا تتطوّر الفلسفات والمناهج مع الزمن على أيدي القرشيّين العرب أبناء الأمجاد والأشراف!

لقد تفرّق العلويّون أيام المتوكّل (نيرون العرب) كما سمّاه بعض المؤرّخين، فمنهم من توارى حتّى مات في حال تواريه، كأحمد بن عيسى بن الحسين، وعبد الله بن موسى الحسينيّ، ومنهم من ثار من الضغط والجور كمحمّد بن

صالح، ومحمد بن جعفر.

ولم يكتفِ المتوكّل بتنكيل الأحياء حتّى اعتدى على قبور الأموات، فهدم قبر الحسين) عليه السلام (وما حوله من المنازل والدور ومنع الناس من زيارته، ونادى مناديه: من وجدناه عند قبر الحسين حبسناه في المطبق ـ سجن تحت الأرض ـ فقال الشاعر:

تالله إن كانت أمية قد أتت   قتل ابن بنت نبيّها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثلها   هذا لعمرك قبره مهدوما

أسفوا على أن لا يكونوا شايعوا   في قتله فتتبعوه رميما(32(

وكان المتوكّل يقرّب علي بن جهم لأنه كان يُبغض علياً أمير المؤمنين، وكان ابن الجهم هذا مأبوناً، سمعه يوماً أبو العيناء يطعن على الإمام فقال له: إنّك تطعن عليه لأنّه قتل الفاعل والمفعول من قوم لوط، وأنت أسفلهما (ابن أبي الحديد ج1 ص 363.(

وكان ابن السكّيت من كبار العلماء والأدباء في زمانه، وقد ألزمه المتوكّل تعليم ولده المعتز، فقال له يوماً: أيّهما أحبّ إليك: ابناي هذان المعتزّ والمؤيّد أو الحسن والحسين؟ فقال ابن السكيت: والله إنّ قنبراً خادم عليّ بن أبي طالب خيرٌ منك ومن ابنيك! فقال المتوكّل للأتراك :سلّوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات.

وكان عند المتوكّل مخنّث يُدعى عبادة، فيشدّ على بطنه مخدّة ويرقص بين يدي المتوكّل والمغنّون يغنّون «أقبل البطين خليفة المسلمين» وهم يعنون علياً أمير المؤمنين، والمتوكّل يشرب ويضحك. وفعل ذلك يوماً وابنه المنتصر حاضر، فقال لأبيه: إنّ الذي يحكيه هذا الكلب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك وشيخ أهل بيتك وبه فخرك، فكُل أنت لحمه إذا شئتَ ولا تُطعم هذا الكلب وأمثاله! فقال المتوكّل للمغنّين: غنّوا.

غار الفتى لابن عمّه رأس الفتى في حر أمّه

وسمعه يوماً يشتم فاطمة بنت الرسول، فسأل أحد الفقهاء فقال له: قد وجب عليه القتل، إلاّ أنّ من قتل أباه لم يَطُل عمره، فقال المنتصر: لا أُبالي إذا أطعتُ الله بقتله ألاّ يطول عمري، فقتله فعاش بعده سبعة أشهر.

لقد أمر القرآن بمودّة أهل البيت، وجعلها أجراً وشكراً لمحمّد على ما أسداه لأمّته من الخير، فكانت النتيجة أنّ أقرب الناس إليه الذين حكموا وتحكّموا برقاب الناس باسمه هم الذين استباحوا من دماء أبنائه والتنكيل بهم ما لا يقبل المزيد. إنّ الذين أنكروا محمّداً ورسالته أهون على الإسلام بكثير من المتوكّل وأمثاله الذين أظهروا الإسلام ثمّ كادوا له وخالفوه مخالفة المضادّ المعاند والعدوّ الحاقد.

ونكتفي بما ذكرناه عن العبّاسيين، فإنّ فيه الدلالة الكافية الوافية على قُبح سيرتهم وسوء سياستهم التي تتلخّص بكلمتين: اجتراء على الشرّ والحرام، وشغف بالظلم والفساد، واحتقار للدين والإنسانيّة، والمصدر الوحيد لهذه السيّئات والمنكرات هو حكم الفرد واستقلاله في شؤون الدولة، واستهتاره بحقوق الجماعة.

* * *

(1)تاج العروس 1: 316.

(2)النـزاع والتخاصم للمقريزي: 139 - 140.

(3)تاريخ الطبري 6: 14 - 15.

(4)النـزاع والتخاصم: 135.

(5)مقاتل الطالبيين: 172.

(6)الكامل في التاريخ 3: 579، حوادث سنة 145هـ؛ النـزاع والتخاصم: 142 و143.

(7)النـزاع والتخاصم: 144.

(8)محمد: 22 و23.

(9)النـزاع والتخاصم: 144.

(10)أمالي الطوسي: 667/ ح1398.

(11)الثاقب في المناقب: 208/ ح184، عيون المعجزات: 80.

(12)تاريخ دمشق لابن عساكر 18: 86 - 87.

(13)الإرشاد للمفيد 2: 185.

(14)مقاتل الطالبيين: 269.

(15)مقاتل الطالبيين: 270 - 271.

(16)القصص: 21.

(17)الجامع الصغير للسيوطي 1: 491/ ح3186.

(18)تاريخ الطبري 6: 386.

(19)تاريخ بغداد 14: 264.

(20)تاريخ الطبري 6: 382 - 383.

(21)تاريخ الطبري 6: 384 - 386.

(22)مقاتل الطالبيين: 285.

(23)عيون أخبار الرضا 1: 108؛ بحار الأنوار .178 -176 :48

(24)انظر مقاتل الطالبيين: 319 - 320.

(25)عيون أخبار الرضا 2: 102.

(26)انظر مقاتل الطالبيين: 318 - 320.

(27)الأنبياء: 73.

(28)القصص: 41.

(29)عيون أخبار الرضا 1: 87/ ح12.

(30)مقاتل الطالبيين: 338.

(31)مقاتل الطالبيين: 396.

(32)البداية والنهاية لابن كثير 11: 143.

ومن كلام له (عليه السلام):في النهي عن غيبة الناس

»إِنَّمَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلَامَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ الذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ الْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ أَ مَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عَابَهُ بِهِ وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ فِيمَا سِوَاهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ وَايْمُ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصَاهُ فِي الْكَبِيرِ وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ لَجَرَاءَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لا تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ وَلَا تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلًا لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ«.(1(

* * *

]الشرح:[

من المألوف في الأوساط العاديّة أن يتفشّى النقد للأشخاص، وليس ذلك النقد يستند إلى ناحية تبرره، وإنّما هو التحدّث عن معائب الناس، والافاضة في ذكر النقائص وشرح المعائب، ولن تجد في الحياة الانسانيّة من استوفى الكمال في جسمه، وفي خلقه، وفي أعماله، فكلّ إنسان إذا فتّش نفسه يجد مساغاً للقول ونافذة يلج منها الناقدون من دون مشقّة أو عناء.

]الغيبة وأثرها النفسي والاجتماعي:[

ليس في هذه الأندية سوى الغيبة، وهي أن تذكر إنساناً بما يخدش شعوره ويجرح عاطفته إذا سمعه أو نقله ناقل.

إنّ هؤلاء الذين يألفون الغيبة لا يحسبون أنّهم يعيشون في مجتمع، فالغيبة لابدّ أن تصل إلى صاحبها، فيتغيّر لك قلبه، وتمقتك طبائعه، ويجتنب صحبتك، ويغضّ طرفه عمّن يعيبك، ولا تحسب أنّك بمنجاة أن لا يعيبك مغتاب ولا يهاجمك مهاجم، وقد يتفنّن الناس في الغيبة، فقد يعيبونه في تشويه في جسده أو بمحاكاة في عرج أو انتفاخ بطن، أو تقليده فيما نقص بأعين الناس من خشونة صوت وإمالة عُنق، وقد يرمزون بألقاب وكُنى يتعارفونها فيما بينهم. هذه نماذج تراها وتسمعها، وهناك في واقع الحياة العامّة أشكال وصور أخرى تستطيع أن تعرفها بنظرة سطحيّة.

العاقل الفطن يتصوّن عن الغيبة، حيث إنّ الغيبة تباعد بين القلوب، وتقطع الروابط بين الناس من حبّ ومودّة وصداقة.

وقد تكون صدرت عن دواعٍ غير أصيلة في النفس، وأمّا إذا صدرت من دواعٍ أصيلة فهناك يكون فاعلها بؤرة شرّ، حيث إنّ بواعثها الأصيلة أصول الشرور كالحسد والكبر والحرص والحقد، ومن توجد في نفسه هذه العناصر اللئيمة والمبادئ الأثيمة فهو يعيش وحده تكفيه أدواؤه، ويقضي عليه بلاؤه.

وبالتالي، إنّ هذا الكلام له (عليه السلام) كما نبّه عليه السيّد الرضي (رضي الله عنه) وارد في مقام النهي عن غيبة الناس، وهي من أعظم الموبقات الموقعة في الهلكات، والموجبة لانحطاط الدرجات، لأنّ المفاسد التي تترتّب على ارتكابها أكثر من المفاسد التي تترتّب على سائر المنهيّات، وضررها ضرر نوعيّ، وضرر سائر المعاصي شخصيّ غالباً.

بيان ذلك كما قاله الشارح البحرانيّ: أنّه لمّا كان من المقاصد المهمّة اجتماع النفوس على همّ واحد وطريقة واحد، وهي سلوك سبيل الله بسائر وجوه الأوامر والنواهي، ولن يتمّ ذلك إلاّ بتعاون هممهم وتصافي بواطنهم واجتماعهم على الألفة والمحبّة، حتّى يكونوا بمنزلة عبدٍ واحد في طاعة مولاه، ولن يتمّ ذلك إلاّ بنفي الضغائن والأحقاد والحسد ونحوه، وكانت الغيبة من كلٍّ منهم لأخيه مثيرةً لضغنه، ومستدعيةً منه مثلها في حقّه، لا جرم كانت ضدّ المقصود

الكلّي للشارع، فكانت مفسدة كليّة.«

قال الخوئي ميرزا حبيب الله: هذا هو محصّل قوله سبحانه »وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ».(2(

وسنذكر لك معنى الغيبة والأدلة الواردة في ذمّها ومفاسدها بعد الفراغ من شرح ما رواه السيّد (رضي الله عنه). قوله (عليه السلام): «وإنّما ينبغي لأهل العصمة» وهم الذين عصمهم الله من المعاصي ووقاهم من الجرائر بجعل نفوسهم الأمّارة مقهورة لقوّتهم العقلانية بما عرّفهم من معائب المعاصي ومنافع الطاعات، فحصل لهم بذلك ملكة الارتداع عن الذنوب والامتناع عن اقتحام المحارم، وهم.

»المصنوع إليهم في السلامة:«

أي الذين اصطنع الله سبحانه إليهم وأنعم عليهم بالسلامة من الانحراف عن صراطه المستقيم والاعتساف عن نهجه القويم، ومن الخروج من النور إلى الظلمات والوقوع في مهاوي الهلكات.

»أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية.«

لما رأوا منهم الخطيئة والعصيان والغرق في بحر الذلّ والهوان، والتيه في وادي الضلال والخذلان، والرحمة منهم إنّما تحصل بانقاذهم الغريق من البحر العميق، وإرشاد التائه إلى الرشاد بالتنبّه على السداد في العمل والاعتقاد.

»ويكون الشكر» منهم على ما اصطنع الله إليهم «هو الغالب عليهم» يعني أنّ اللازم على أهل العصمة أن يكون شكرهم على نعم الله سبحانه ـ ومن أعظمها عصمته لهم من الاقتحام في المعاصي ـ هو الغالب عليهم دون غيرهم، والشاغل لهم عن حصائد الألسنة وعن التعريض بعيوب الناس، «والحاجز لهم عنهم» وعن كشف سوآتهم وعوراتهم. وإذا كان اللازم على أهل العصمة مع ما هم عليه من العصمة وترك المعاصي ذلك (فكيف) بمن هو دونهم من أُسراء عالم الحواس والآخذين بهوى الأنفس والمتورّطين في الجرائم وموبقات العظائم، أعني (الغائب الذي عاب) واغتاب (أخاه) بما يكرهه (وعيّره) وقرعه(ببلواه) يعني أنّ اللائق بحال أهل العصمة إذا كان ترك التعرّض بعيوب الناس، فغيرهم مع ما عليهم من العيب أولى بترك التعرّض وأحرى.

وقوله (عليه السلام): «أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه.«

توبيخ ولوم لهم على ترك الذِكر، وتحضيض على تداركه في المستقبل، يعني أنّه ينبغي له أن يذكر مكان ستر الله عليه ذنوبه مع علمه وإحاطته سبحانه بها صغائرها وكبائرها وبواطنها وظواهرها وسوالفها وحوادثها، وقد ستر عليه من ذنوبه «ممّا هو أعظم من الذي عابه به» فإذا ذكر معاملة الله سبحانه مع عبده هذه المعاملة وستره عليه جرائمه

وجرائره له مع علمه بجميع ما صدر عنه من الخطايا والذنوب، فكيف به «وكيف يذمّه بذنب قد ركب مثله» ولا يذمّ نفسه «فإن لم يكن ركب «مثل «ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله سبحانه فيما سواه ممّا هو أعظم منه وأيم الله «قسماً حقّاً «لئن لم يكن عصاه في الكبير وعصاه في الصغير لجرأتُه، على عيب الناس «وغيبتهم «أكبر.«

ومحصل المراد أنّه لا يجوز لأحد أن يعيب أخاه، لأنّه إمّا أن يكون بذنب وقد ارتكب الغائب مثله أو أكبر منه أو أصغر، فإن كان بذنب قد ارتكب مثله أو أكبر كان له في عيب نفسه شغل عن عيب غيره.

وفيه قال الشاعر:

فكِلاكما في جريه مذمومُ	إذا جريتَ مع السفيه كما جرى
في مثل ما تأتي فأنت ظلوم	وإذا عتبتَ على السفيه ولُمته
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم	لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثله

وإن كان بذنب ارتكب أصغر منه فهو ممنوع أيضاً، لأنّ جرأته على الغيبة وإقدامه عليها أكبر المعاصي باعتبار ما يترتّب عليها من المفاسد والمضار الدنيويّة والأُخرويّة.

ثمّ نادى (عليه السلام) نداء استعطاف فقال: «يا عبد الله لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعلّه مغفور له» ولعلّه تائب عنه «ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلّك مُعذَّب عليه» ومعاتب به.

ثم أكّد لهم الوصيّة بقوله: «فليكفف مَن عَلِم منكم عيبَ غيره» عن غيبته وتوبيخه وتفضيحه «لمكان ما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلاً له على» ما أنعم الله سبحانه به عليه من «معافاته» وعصمته له «ممّا ابتُلي به غيره.«

تنبيه: في تحقيق معنى الغيبة والأدلّة الواردة في حرمتها

وما يترتّب عليها من العقوبات ودواعيها ومستثنياتها وعلاجها وكفّارتها.

وقد حقّق الكلام فيها علماؤنا البارعون (قدّس الله أرواحهم (في كتب الأخلاق والفقه في مقدّمات أبواب المعايش بما لا مزيد عليه، بل أفرد بعضهم لتحقيقها رسالة مستقلة، فأحببنا أن نورد بعض ما فيها حسب ما اقتضته الحال، لكونها من أعظم عثرات الإنسان وأوبق آفات اللسان، فأقول وبالله التوفيق: الكلام في المقام في أمور:

الأمر الأوّل: في تحقيق معناها

فأقول: قال الفيّومي: اغتابه اغتياباً: إذا ذكره بما يكره من العيوب وهو حقّ، والاسم الغيبة، فإن كان باطلاً فهو الغيبة في بهت. وفي القاموس :غابه عابه وذكره بما فيه من السوء، كاغتيابه، والغيبة ـ بالكسر ـ فعلة منه. وعن الصحاح:

الغيبة أن يتكلّم خلف إنسان مستور بما يغمّه لو سمعه، فإن كان صدقاً سُمّي غيبة، وإن كان كذباً سُمّي بُهتاناً.

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) ـ وقد سأله أبو ذر عن الغيبة :_ إنّها ذِكرك أخاك بما يكرهه.(3(

وفي رواية أخرى عنه (صلى الله عليه وآله): أتدرون ما الغيبة؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال (صلى الله عليه وآله): إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه.(4(

والظاهر أن يكون المراد بالذكر في كلامه وكلام غيره ـ كما فهمه الأصحاب ـ الأعمّ من الذكر القولّي، وإن كان عبارة الصحاح تفيد الاختصاص، فكلّ ما يوجب التذكّر للشخص من القول والفعل والاشارة وغيرها فهو ذِكر له، وممّن صرّح بالعموم ثاني الشهيدَين وصاحب الجواهر وشيخنا العلاّمة الأنصاريّ في المكاسب .

قال الغزالي: إنّ الذكر باللسان إنّما حُرّم لأنّ فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول، والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكلّ ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة، فمن ذلك قول عائشة: دخلت علينا امرأة، فلما ولّت أومأتُ بيدي أنّها قصيرة، فقال (صلى الله عليه وآله): اغتبتِها. ومن ذلك المحاكاة، كأن يمشي مُتعارجاً أو كما يمشي، لأنّه أعظم في التصوير والتفهيم، ولمّا رأى (صلى الله عليه وآله (عائشة حاكت امرأة قال (صلى الله عليه وآله): «ما يسرّني أنّي حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا» وكذلك الغيبة بالكتابة فإنّ القلم أحد اللسانَين.

قال شيخنا العلاّمة الأنصاري: ومن ذلك تبين المطلب الذي ذكره بعض المصنّفين بحيث يفهم منه الازراء بحال ذلك المصنّف، فإنّ قولك «إنّ هذا المطلب بديهي البطلان» تعريض لصاحبه بأنّه لا يعرف البديهيات، بخلاف ما إذا قيل إنّه مستلزم لما هو بديهي البطلان، لأنّ فيه تعريضاً بأن صاحبه لم ينتقل إلى الملازمة بين المطلب وبين ما هو بديهي البطلان، ولعلّ الملازمة نظريّة.(5) هذا والمراد من الأخ في النبويّين _كما صرح به غير واحد من الأعلام ـ هو المسلم، فإنّ غيبة الكافر وإن تُسمّى غيبة في اللغة إلاّ أنها لا يترتّب عليها حُكم الحرمة، إذ لا أخوّة بينه وبين المسلم، بل لا خلاف في جواز غيبتهم وهجوهم وسبّهم ولعنهم وشتمهم ما لم يكن قذفاً، وقد أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) حسّاناً بهجوهم، وقال: إنّه أشدّ عليهم من رشق النبال. وبذلك يظهر اشتراك المخالفين للمشركين في جواز غيبتهم، كما يجوز لعنهم لانتفاء الأخُوّة بينهم وبين المؤمنين، ولذلك قال ثاني الشهيدَين في حدّها: هو القول وما في حكمه في المؤمن بما يسوءه لو سمعه مع اتّصافه به.

[اختصاص حرمة الغيبة بين المؤمنين:]

وفي جامع المقاصد: وحدّها على ما في الأخبار أن يقول المرء في أخيه ما يكرهه لو سمعه ممّا فيه، ومن المعلوم أنّ الله تعالى عقد الأخوّة بين المؤمنين بقوله «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»(6) دون غيرهم، وكيف تتصوّر الأخوّة بين المؤمن والمخالف بعد تواتر الروايات وتظافر الآيات في وجوب معاداتهم والبرائة منهم. فانقدح بذلك فساد ما عن الأردبيليّ والخراسانّي <من المنع عن غيبة المخالف نظراً إلى عموم أدلّة تحريمها من الكتاب والسنّة، لأنّ قوله تعالى (ولا يغتب) خطاب للمكلّفين أو خصوص المسلمين، وعلى التقديرَين فيعمّ المخالف، والسنّة أكثرها بلفظ الناس والمسلم، وهما معاً شاملان للجميع، ولا استبعاد في ذلك، إذ كما لا يجوز أخذُ مال المخالف وقتله لا يجوز تناول عِرضه.

ووجه ظهور الفساد أنّ ذيل الآية مفيد لاختصاص الخطاب بالمؤمنين، لأنّ تعليل النهي عنها بأنّها بمنزلة أكل لحم الأخ يدلّ على اختصاص الحرمة بمن كان بينه وبين المغتاب أخوّة كما أشرنا.

قال شيخنا العلاّمة: وتوهّم عموم الآية كبعض الروايات لمطلق المسلم مدفوع بما علم بضرورة المذهب من عدم احترامهم وعدم جريان أحكام الإسلام عليهم إلاّ قليلاً ممّا يتوقّف استقامة نظام معاش المؤمنين عليه، مثل عدم انفعال ما يلاقيهم بالرطوبة، وحلّ ذبائحهم ومناكحهم، وحرمة دمائهم، لحكمة دفع الفتنة وفسادهم لأنّ لكلّ قوم نكاحاً أو نحو ذلك.

وقال صاحب الجواهر بعد نقل كلام الأردبيليّ: ولعلّ صدور ذلك منه لشدّة تقاته وورعه، لكن لا يخفى على الخبير الماهر الواقف على ما تظافرت به النصوص ـ بل تواترت ـ من لعنهم وسبّهم وشتمهم وكفرهم وأنّهم مجوس هذه الأمة وأشرّ من النصارى وأنجس من الكلاب، أنّ مقتضى التقدّس والورع خلاف ذلك، وصدر الآية «الَّذِينَ آمَنُوا» وآخرها بأكل لحم الأخ (إلى أن قال): وعلى كلّ حال فقد ظهر اختصاص الحرمة بالمؤمنين القائلين بإمامة الأئمة الإثني عشر دون غيرهم من الكافرين والمخالفين ولو بإنكار واحد منهم.

ثمّ الظاهر من المؤمن المغتاب ـ بالفتح ـ أعمّ من أن يكون حيّاً أو ميّتاً، ذَكَراً أو أُنثى، بالغاً أو غير بالغ، مميّزاً أو غير مميّز، وقد صرّح بالعموم شيخنا السيّد العلاّمة طاب رمسه في مجلس الدرس، ومثله كشف الريبة، حيث صرّح بعدم الفرق بين الصغير والكبير، وظاهره الشمول لغير المميّز أيضاً.

وقال شيخنا العلاّمة الأنصاري: الظاهر دخول الصبيّ المميّز المتأثّر بالغيبة لو سمعها لعموم بعض الروايات المتقدّمة وغيرها، الدالّة على حُرمة اغتياب الناس وأكل لحومهم مع صدق الأخ عليه، كما يشهد به قوله تعالى: «وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ»(7) مضافاً إلى إمكان الاستدلال بالآية وإن كان الخطاب للمكلّفين بناء على عدّ أطفالهم منهم

تغليباً، وإمكان دعوى صدق المؤمن عليه مطلقاً أو في الجملة.(8(

وعلى ما ذكرناه من التعميم فلا بدّ أن يُراد من السماع في تعريفهم لها بأنّها ذِكر المؤمن بما يسوءه لو سمعه الأعمّ من السماع الفعليّ، والمراد بالموصول فيما يسوءه ما يكره ظهوره، سواء كره وجوده كالجذام والبرص ونحوهما أم لا كالميل إلى القبائح.

والمستفاد من بعض الروايات كغير واحد من الأصحاب عدم الفرق في ما يكره بين أن يكون نقصاً في الدين أو الدنيا أو البدن أو النسب أو الخلق أو الفعل أو القول أو ما يتعلّق به من ثوبه أو داره أو دابّته أو غير ذلك.

أما في الدين فكقولك: هو سارق، أو كذّاب، أو شارب الخمر، أو خائن، أو ظالم، أو متهاون بالصلاة أو الزكاة، أو لا يحسن الركوع أو السجود، أو لا يحترز من النجاسات، أو ليس بارّاً بوالديه .

وأمّا في الدنيا فكقوله: إنّه قليل الأدب متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقّاً، أو يرى لنفسه الحقّ على الناس، أو أنّه كثير الكلام، أو كثير الأكل، أو كثير النوم ينام في غير وقته.

وأمّا البدن فكما تقول: إنّه طويل أو قصير أو أعمش أو أحول أو أقرع أو لونه أصفر أو أسود ونحن ذلك ممّا يسوئه .

وأمّا النسب فكقولك: أبوه فاسق أو خسيس أو حجّام أو زبّال أو ليس بنجيب.

وأمّا الخلق فبأن تقول: إنّه سيّء الخلق بخيل متكبّر مختال مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهوّر وما يجري مجرى ذلك.

وأمّا الفعل فإمّا أن يكون متعلّقاً بالدين أو الدنيا، وقد مرّ مثالهما.

وأما القول: فكقولك: إنّه كذّاب أو سبّاب أو أنّه نمّام أو أعجم أو ألكن أو ألثغ أو أليغ ونحو ذلك.

وأمّا في ثوبه: فكقولك إنّه واسع الكمّ طويل الذيل وسخ الثياب ونحوها .

وأمّا في داره فكما تقول: إنّه مفحص قطاة، أي في الصغر، أو كدير النصارى أو نحوهما.

وأمّا في دابّته فكقولك لحصانه: إنّه برذون، أو لبغلته إنّها بغلة أبي دلامة أي كثيرة العيوب.

الثاني: في الأدلّة الدالّة على حرمة الغيبة:

وما ترتّب عليها من الذمّ والعقوبة فأقول: إنّها محرّمة بالأدلّة الأربعة ـ أعني الكتاب والسنّة والاجماع والعقل، فأمّا الاجماع فواضح، وأمّا العقل فلأنّها موجبة لفساد النظام وانفصام عروة الانتظام، وعليها تُبنى القبائح، ومنها يظهر العدو المكاشح، على ما مرّ توضيحه في شرح كلام الإمام (عليه السلام.(

]الدليل القرآني:[

وأمّا الكتاب فمنه قوله تعالى: «وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ»(9) فجعل سبحانه المؤمن أخاً، وعِرضه كلحمه، والتفكّه به أكلاً، وعدم شعوره بذلك بمنـزلة حالة موته .

قال الفخر الرازي: الحكمة في هذا التشبيه الاشارة إلى أنّ عِرض الإنسان كدمه ولحمه، وهذا من باب القياس الظاهر، وذلك لأنّ عرض المرء أشرف من لحمه، فإذا لم يَحسُن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى، لأنّ ذلك آلم، وقوله «لحم أخيه» آكد في المنع، لأنّ العدّو يحمله الغضب على مضغ لحم العدّو، فقال تعالى أصدق الأصدقاء من ولدته أمّك، فأكل لحمه أقبح ما يكون، وقوله تعالى «ميتاً» إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال: القول في الوجه يؤلم فيحرم، وأمّا الاغتياب فلا اطّلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم، فقال: أكل لحم الأخ وهو ميّت أيضاً لا يؤلم، ومع هذا هو في غاية القبح لما أنّه لو اطّلع عليه لتألّم، كما أنّ الميّت لو أحسّ بأكل لحمه لآلمه ذلك...

ومن الكتاب أيضا قوله سبحانه: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ»(10) قال الليث: الهُمزة هو الذي يعيبك بوجهك، واللُمزة الذي يعيبك بالغيب، وقيل: الهمز ما يكون باللسان والعين والاشارة، واللمز لا يكون إلاّ باللسان، وقيل: هما بمعنى واحد.

ومنه أيضاً قوله: «لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ»(11) وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ»(12) روى في الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله (عز وجل): «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ».(13)

]الدليل الروائي:[

وأمّا السنّة فيدلّ عليها منها أخبار لا تُحصى:

مثل ما رواه في الكافي عن ابن إبراهيم عن النوفليّ، عن السكونيّ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله :(الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه.(14)

قال: وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): الجلوس في المجلس انتظار(15) الصلاة عبادة ما لم يحدث، قيل: يا رسول الله وما يحدث؟ قال :الاغتياب.(16)

وفيه مسنداً عن مفضّل بن عمر قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): من روى على مؤمن رواية يريد بها شينهُ،

وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان.(17(

وفي الوسائل من المجالس بإسناده عن أبي بصير، عن النبي (صلى الله عليه وآله) في وصيّة له قال: يا أبا ذر إيّاك والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا، قلت: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: لأنّ الرجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب الله عليه، والغيبة لا تُغفَر حتّى يغفرها صاحبُها، يا أبا ذر سباب المسلم فُسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معاصي الله، وحُرمة ماله كحرمة دمه، قلت: يا رسول الله وما الغيبة ؟ قال: ذِكرك أخاك بما يكرهه، قلت: يا رسول الله فإن كان فيه الذي يُذكر به؟ قال: اعلم أنّك إذا ذكرتَه بما هو فيه فقد اغتبتَه، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه.(18(

وفي الوسائل أيضاً عن الحسين بن سعيد في كتاب الزهد مسنداً عن زيد بن علي، عن آبائه (عليهم السلام)، عن النبيّ (صلى الله عليه وآله) قال: تحرم الجنّة على ثلاثة: على المنّان، وعلى المغتاب، وعلى مُدمن الخمر.(19(

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله الشامي، عن نوف البكالي أنّه قال: أتيت أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو في رحبة مسجد الكوفة فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقلت :يا أمير المؤمنين عظني، فقال: يانوف أحسِن يُحسَن إليك... إلى أن قال: قلت: زدني قال: اجتنب الغيبة فإنّها أدام كلاب النار، ثم قال: يانوف كذب من زعم أنّه وُلد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة.(20(

وفي المكاسب لشيخنا العلاّمة الأنصاريّ (طاب رمسه) عن النبي)صلى الله عليه وآله) أنّه خطب يوماً فذكر الربا وعظّم شأنه فقال: إنّ الدرهم يُصيبه الرجل أعظم من ستّة وثلاثين زنية، وإنّ أربى الربا عِرض الرجل المسلم.

وعنه (صلى الله عليه وآله): من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين صباحاً، إلاّ أن يغفر له صاحبه.

وعنه (صلى الله عليه وآله): من اغتاب مؤمناً بما فيه لم يجمع الله بينهما في الجنّة، ومن اغتاب مؤمناً بما ليس فيه انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب خالداً في النار وبئس المصير.

وعنه (صلى الله عليه وآله): كذب من زعم أنّه وُلد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، فاجتنب الغيبة فإنّها أدام كلاب النار.

وعنه (صلى الله عليه وآله): مَن مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أوّل خطوة خطاها وضعها في جهنم.

وروي أنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنّة، وإن لم يَتُب فهو أوّل من يدخل النار.

وعنه (صلى الله عليه وآله): إنّ الغيبة حرام على كلّ مسلم، وإنّ الغيبة لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.(21(

قال شيخنا (قدس سره): وأكل الحسنات إمّا أن يكون على وجه الاحباط لاضمحلال ثوابها في جنب عقابه، أو لأنّها تنقل

الحسنات إلى المغتاب كما في غير واحد من الأخبار، ومن جملتها النبويّ: يؤتى بأحد يوم القيامة فيوقف بين يدي الربّ (عز وجل)، يدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته فيه، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي لا أرى فيه حسناتي، فيقال له: إنّ ربّك لا يضلّ ولا ينسى، ذهب عملُك باغتياب الناس، ثم يؤتى بآخر ويُدفع إليه كتابه فيرى فيه طاعات كثيرة فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإنّي ما عملت هذه الطاعات، فيقال له: إنّ فلاناً اغتابك، فدُفعت حسناته إليك».(22(

وفي عقاب الأعمال بإسناده عن أبي بردة قال: صلّى بنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم انصرف مسرعاً حتى وضع يده على باب المسجد، ثم نادى بأعلى صوته: يا معشر الناس لا يدخل الجنّة من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتّبعوا عورات المؤمنين، فإنّه من تتبّع عورات المؤمنين تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته فيفضحه ولو في جوف بيته.(23(

وفيه أيضاً بإسناده عن حفص بن غياث، عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):أربعة يؤذون أهل النار من الأذى، يُسقون من الحميم والجحيم، ينادون بالويل والثبور، فيقول أهل النار بعضهم لبعض: ما لهؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى: فرجل معلّق عليه تابوت من جمر، ورجل تجري أمعاؤه صديداً ودماً أسود نتناً، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه، فيقال لصاحب التابوت: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد مات وفي عُنقه أموال الناس لا يجد لها في نفسه أداء ولا وفاء، ثم يقال للذي تجري أمعاؤه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول من جسده، ثم يقال للذي يسيل فوه قيحاً ودماً: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان يُحاكي فينظر إلى كلّ كلمة خبيثة ويحاكي بها ثم يغتاب الناس، ثم يقال للذي يأكل لحمه: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: إنّ الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة.(24(

وفي الأنوار النعمانيّة للمحدّث الجزائري عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: مررت ليلة أسري بي إلى السماء على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرائيل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم.(25(

وفيه أيضاً: وروي أنّه أمر بصوم يوم وقال: لا يفطرنّ أحد حتّى آذن له، فصام الناس حتّى أمسوا، جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائماً فأذن لي لأفطر فيأذن له، والرجل والرجل حتّى جاء رجل فقال: يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين فإنّهما تستحيان أن يأتيانك فأذن لهما أن تفطرا، فأعرض عنه، ثمّ عاوده فأعرض عنه، ثمّ عاوده فقال (صلى الله عليه وآله): إنّهما لم تصوما، وكيف صام من ظلّ هذا اليوم يأكل لحوم الناس؟ اذهب فمُرهما إن

كانتا صائمتين أن تستقيئا، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقائتا فقائت كلّ واحدة منهما علقة من دم، فرجع إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فأخبره، فقال (صلى الله عليه وآله): والذي نفس محمد بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار.(26(

وفي رواية أنّه لما أعرض عنه جائه بعد ذلك وقال: يا رسول الله إنّهما والله لقد قائتا وكادتا أن تموتا، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ائتوني بهما، فجاءتا، فدعى بقدح فقال لإحداهما: قيئي! فقاءت من قيح ودم صديد حتّى ملأت القدح؛ وقال للأخرى: قيئي، فقاءت كذلك، فقال (صلى الله عليه وآله): إنّ هاتين صامتا عمّا أحلّ الله وأفطرتا على ما حرّم الله عليهما: جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس.(27(

وروى الغزالي في إحياء علوم الدين عن أنس مثلها.

قال شيخنا العلاّمة (طاب رمسه): ثم إنّه قد يتضاعف عقاب المغتاب إذا كان ممّن يمدح المغتاب في حضوره، وهذا وإن كان في نفسه مباحاً، إلاّ أنّه إذا انضمّ مع ذمّه في غيبته سُمّي صاحبه «ذا اللسانين» يوم القيامة وتأكّد حرمته، ولذا ورد في المستفيضة أنّه يجيء ذو اللسانين يوم القيامة وله لسانان من نار؛ فإنّ لسان المدح في الحضور وإن لم يكن لساناً من نار، إلاّ أنّه إذا انضمّ إلى لسان الذمّ في الغياب صار كذلك.

وفي المجالس بسنده عن حفص بن غياث، عن الصادق (عليه السلام(، عن أبيه، عن آبائه (عليهم السلام)، عن عليّ (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من مدح أخاه المؤمن في وجهه واغتابه من ورائه فقد انقطعت العصمة بينهما.

وعن الباقر (عليه السلام): بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يُطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أُعطي حسده، وإن ابتُلي خذله.(28(

الثالث: في دواعي الغيبة:

وهي كثيرة، وقد أشار إليها الصادق (عليه السلام) إجمالاً بقوله: الغيبة تتنوّع عشرة أنواع: شفاء غيظ، ومساعدة قوم، وتصديق خبر بلا كشف، وتهمة، وسوء ظنّ، وحسد، وسخرية، وتعجّب، وتبرّم، وتزيّن. رواه في المكاسب(29 (والأنوار النعمانيّة.

وأمّا تفصيلها فقد نبّه عليها أبو حامد الغزالي في إحياء العلوم فقال: فالأول: تشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنّه إذا هاج غضبه يشتفي بذلك بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن دين رادع، وقد يمتنع

تشفِّي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب، بالباطن فيصير حقداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي، فالحقد والحسد من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنّهم إذا كانوا يتفكّهون بذكر الأعراض فيرى أنّه لو أنكر عليهم أوقطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظنّ أنّه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب بغضبهم إظهاراً للمساهمة في السرّاء والضراء، فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنّه سيقصده ويطوّل لسانه عليه أو يقبّح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل أن يقبّح هو حاله، ويطعن فيه ليُسقط أثر شهادته، أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأوّل ويستشهد به ويقول: ما من عادتي الكذب، فإنّي أخبرتكم بكذا وكذا عن أحواله فكان كما قلت.

الرابع: أن يُنسب إلى شيء فيريد أن يتبرّأ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقّه أن يبرّئ نفسه ولا يذكر الذي فعل، فلاينسب غيره إليه، أو يذكر غيره بأنّه كان مشاركاً له في الفعل ليمهّد بذلك عذر نفسه في فعله.

الخامس: إرادة التصنّع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك، وغرضه في ضمن ذلك فضل نفسه ويوهم أنّه أفضل منه، أو يحذر أن يعظّم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

السادس: الحسد وهو أنّه ربّما يحسد من يُثني الناس عليه ويحبّونه ويكرمونه، فيريد زوال تلك النعمة عنه، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه، فيريد أن يُسقط ماء وجهه عند الناس حتّى يكفّوا عن الكرامة والثناء عليه.

السابع: اللعب والهزل والمطايبة وتوجيه الوقت بالذكر وتزيين الوقت بالذكر، فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة، ومنشؤه التعجّب والتعجيب.

الثامن: السخرية والاستهزاء استحقاراً له، فإنّ ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة، ومنشؤه التكبّر واستصغار المستهزء به.

التاسع: الرحمة وهو مأخذ دقيق ربّما يقع فيه الخواصّ، وهو أن يغتمّ بسبب ما يُبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمّني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويلهيه الغمّ عن الحذر عن ذكر اسمه، فيصير بذكره مغتاباً، فيكون غمّه ورحمته خيراً، لكنّه ساقه الشيطان إلى شرّ من حيث لا يدري، والترّحم والاغتمام ممكن من دون ذكر اسمه، فهيّجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحّمه .

العاشر: الغضب لله تعالى، وهو كسابقه في غموض إدراكه وخفائه على الخواصّ فضلاً عن العوام، فإنّه قد يغضب

على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه، فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يذكر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يظهر على غيره أو يستره ولا يذكر اسمه بالسوء.

* * *

الرابع: في عدم جواز استماع الغيبة:

قال شيخنا في المكاسب: يحرم استماع الغيبة بلا خلاف، فقد ورد أنّ السامع للغيبة أحد المغتابَين، والأخبار في حرمته كثيرة، إلاّ أنّ ما يدلّ على كونه من الكبائر كالرواية المذكورة ونحوها ضعيفة السند.(30)

أقول: ومن جملة الأخبار الدالّة على حرمته ما رواه الصدوق في عقاب الأعمال بإسناده عن أبي الورد، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: من اغتيب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعانه نصره الله وأعانه في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته حقّره الله (عز وجل) في الدنيا والآخرة.(31)

وفيه أيضاً في حديث طويل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) (قال: ومن ردّ عن أخيه غيبة سمعها في مجلس ردّ الله (عز وجل) عنه ألف باب من الشرّ في الدنيا والآخرة، وإن لم يردّ عنه كان عليه كوزر من اغتاب.(32)

وفي الوسائل عن الصدوق بإسناده عن شعيب بن واقد، عن الحسين بن زيد، عن الصادق، عن آبائه (عليهم السلام) في حديث المناهي، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) نهى عن الغيبة والاستماع إليها، ونهى عن النميمة والاستماع إليها، وقال: لا يدخل الجنة قتّات ـ يعني نمّاماً ـ ونهى عن المحادثة التي تدعو إلى غير الله (عز وجل)، ونهى عن الغيبة وقال: من اغتاب امرءاً مسلماً بطل صومه، ونقض وضوءه، يوم القيامة تفوح من فيه رائحة أنتن من الجيفة يتأذّى بها أهل الموقف، وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً لما حرّم الله (عز وجل). ألا ومن تطوّل على أخيه في غيبة سمعها فيه في مجلس فردّها عنه، ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدنيا والآخرة، فإن لم يردّها وهو قادر على ردّها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة.(33)

قال شيخنا: ولعلّ وجه زيادة عقابه أنّه إذا لم يردّه تجرّأ المغتاب على الغيبة، فيصّر على هذه الغيبة وغيرها، ثم قال: والظاهر أنّ الردّ غير النهي عن الغيبة، والمراد به الانتصار للغائب بما يناسب تلك الغيبة، فإن كان عيباً دنيويّاً انتصر له بأنّ العيب ليس إلا ما عاب الله به من المعاصي التي من أكبرها ذكرك أخاك بما لم يُعبه الله به، وإن كان عيباً دينيّاً وجّهه بمحامل تُخرجه عن المعصية، فإن لم يقبل التوجيه انتصر له بأنّ المؤمن قد يُبتلى بالمعصية، فينبغي أن يُستغفر له ويهتمّ له لا أن يُعيّر عليه، لأنّ تعييرك إيّاه لعلّه أعظم عند الله من معصيته ونحوه.(34)

ثم اعلم أنّ المحرّم إنّما هو سماع الغيبة المحرمة دون ما علم حليّتها ولو كان متجاهراً عند المغتاب مستوراً عند

المستمع، وقلنا بجواز الغيبة حينئذٍ للمتكلّم، فالأقوى جواز الاستماع لأنّه قول غير منكر، فلا يحرم الاصغاء إليه للأصل، والرواية الدالّة على كون السامع أحد المغتابَين تدلّ على أنّ السامع للغيبة كقائل تلك الغيبة، فإن كان القائل عاصياً كان المستمع كذلك، فيكون دليلاً على الجواز فيما نحن فيه.

الخامس: في مستثنيات الغيبة:

إنّ الموارد التي يجوز فيها الغيبة جوازاً بالمعنى الأعمّ، فإنّ المستفاد من الأخبار أنّ حرمتها إنّما هو لأجل ما فيها من هتك عرض المؤمن وانتقاصه وتأذّيه، فلو لم توجب هتكاً لكونه مهتوكاً بدونها، ككونه متجاهراً بالفسق أو لم يقصد بها الانتقاص بالذات فلا.

قال في جامع المقاصد: وضابط الغيبة كلّ فعل يقصد به هتك عرض المؤمن والتفكّه به أو إضحاك الناس منه، وأمّا ما كان لغرض صحيح فلا يحرم، كنصيحة المستشير والتظلّم... الخ.(35)

قال الشيخ العلاّمة: حرمة الغيبة لأجل انتقاص المؤمن وتأذّيه منه، فإذا فُرض هناك مصلحة راجعة إلى المغتاب بالكسر أو الفتح أو ثالث، دلّ العقل أو الشرع على كونها أعظم من مصلحة احترام المؤمن بترك ذلك القول فيه، وجب كون الحكم على طبق أقوى المصلحتَين كما هو الحال في كلّ معصية من حقوق الله وحقوق الناس.(36)

إذا عرفت ذلك فنقول: إن مسوّغاتها أمور:

الأول: التظلّم، أي تظلّم المظلوم بذكر ظلم الظالم عند من يرجو رفع الظلم منه، قال سبحانه: «لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ»(37) فعن تفسير القمّي: أي لا يحبّ أن يجهر الرجل بالظلم والسوئة ويظلم إلاّ من ظُلم، فأطلق أن يعارض بالظلم.(38)

قال شيخنا العلاّمة: ويؤيّد الحكم فيه أنّ في منع المظلوم من هذا الذي هو نوع من التشفّي حرجاً عظيماً، ولأنّ في تشريع الجواز مظنّة ردع للظالم، وهي مصلحة خالية عن مفسدة، فيثبت الجواز لأنّ الأحكام تابعة للمصالح، ويدلّ عليه ما رُوي عن النبي (صلى الله عليه وآله): مطل الواجد يحلّ عقوبته وعرضه.(39)

الثاني: نصح المستشير، فإنّ النصيحة واجبة للمستشير، فإنّ خيانته قد تكون أقوى مفسدة من مفسدة الغيبة، فقد قال النبي (صلى الله عليه وآله (لفاطمة بنت قيس المشاورة في خطّابها: معاوية صعلوك لا مال له، وأبو الجهم لا يضع العصا على عاتقه.(40)

قال شيخنا: وكذلك النصح من غير استشارة، فإنّ من أراد تزويج إمرأة وأنت تعلم بقبائحها التي توجب وقوع الرجل

في الغيبة والفساد لأجلها، فلا ريب أنّ التنبيه على بعضها ـ وإن أوجب الوقيعة فيها ـ أولى من ترك نصح المؤمن، مع ظهور عدّة من الأخبار في وجوبه.(41(

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان حقي فكيف طريقي في الخلاص؟ قال أبو حامد: أو أخوه أو زوجته، ولكنّ التعيين مباح بهذا القدر، وقيّده شيخنا العلاّمة بما إذا كان الاستفتاء موقوفاً على ذكر الظالم بالخصوص، وإلاّ فلا يجوز، وظاهر الأخبار كظاهر كثير الأصحاب هو الاطلاق.

واستدلّوا عليه بما روى عن هند زوجة أبي سفيان أنّها قالت للنبي (صلى الله عليه وآله): إنّ أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذ من غير علمه؟ فقال (صلى الله عليه وآله): خُذي ما يكفيك وولدك بالمعروف، فذكرت الظلم والشحّ لها لولدها، ولم يزجرها إذ كان قصدها الاستفتاء.

وبصحيحة عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام (قال: جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: إنّ امي لا تدفع يد لامس، فقال)صلى الله عليه وآله): احبسها، قال: قد فعلت، فقال: فامنع من يدخل عليها، قال: قد فعلت، قال: فقيّدها فإنّك لا تبرّها بشيء أفضل من أن تمنعها عن محارم الله (عز وجل). واحتمال كونها متجاهرة مدفوع بالأصل.(42(

الرابع: تحذير المسلم من الشرّ وعن الوقوع في الضرر لدنيا أودين، لأنّ مصلحة دفع فتنة الشر والضرر أولى من هتك شرّ المغتاب، مثل من يريد أن يشتري مملوكاً وأنت تعلم بكونه موصوفاً بالسرقة أو بعيب آخر، فسكوتُك عن ذكر عيبه إضرار بالمشتري، وكذلك المبتدع الذي يخاف من إضلاله الناس، فإذا رأيتَ من يتردّد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدّى إليه بدعته أو فسقه فلك أن تكشف مساويه.

ويدلّ عليه ما عن الكافي بسنده الصحيح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهِروا البراءة منهم، وأكثِروا من سبّهم والقول فيهم والوقيعة، وباهتوهم كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، وتحذرهم الناس ولا يتعلّموا من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة.(43(

هذا وربّما يجعل هذا المورد من باب نصح المستشير بعد تعميمه بالنسبة إلى النصح المسبوق بالاستشارة وغيره.

الخامس: قصد ردع المغتاب عن المنكر الذي يفعله إذا لم يمكن الردع إلاّ به، فإنّه أولى من ستر المنكر عليه، فهو في الحقيقة إحسان في حقّه، مضافاً إلى عموم أدلّة النهي عن المنكر.

السادس: باب الترجيح والتعديل في الرواية لأجل معرفة قبول الخبر وعدمه ومعرفة صلاحيّته للمعارضة وعدمها، وإلاّ

لانسدّ باب التعادل والترجيح الذي هو أعظم أبواب الاجتهاد وجرت السيرة عليه من قديم الزمان كجريانها على الجرح في باب الشهادة وعلى ترجيح ما دلّ على وجوب إقامتها على ما دلّ على حرمة الغيبة على وجه الإشكال فيه، وإلاّ لضاعت الحقوق في الدماء والأموال وغيرها، ولغلب الباطل، ويلحق بذلك الشهادة بالزنا وغيره لإقامة الحدود.

السابع: دفع الضرر عن المغتاب في دم أو عرض أو مال، وعليه يحمل ما ورد في ذمّ زرارة من عدة أحاديث، وقد ورد التعليل بذلك في بعض الأحاديث، ويلحق بذلك الغيبة للتقيّة على نفس المتكلّم أو ماله أو عرضه، فإنّ الضرورات تُبيح المحظورات.

الثامن: ذكر الشخص بعينه الذي صار بمنـزلة الصفة المميّزة التي لا يعرف إلاّ بها، كالأعمش والأعرج والأشتر والأحول ونحوها، فلا بأس بها إذا صارت الصفة في اشتهار يوصف بها الشخص إلى حيث لا يكره ذلك صاحبها، وعليه يُحمل ما صدر عن العلماء الأعلام.

التاسع: إظهار العيوب الخفيّة للمريض عند الطبيب للمعالجة.

العاشر: ردّ من ادّعى نسباً ليس له، فإنّ مصلحة حفظ الأنساب أولى من مراعاة حرمة المغتاب.

الحادي عشر: إذا علم إثنان عن رجل معصية وشاهداها، فأجرى أحدهما ذكره في غيبة ذلك العاصي جاز، لأنّه لا يؤثر عند السامع شيئاً، وإن كان الأولى تنـزيه اللسان عن ذلك لغير غرض من الأغراض الصحيحة، خصوصاً مع احتمال نسيان المخاطب لذلك أو خوف اشتهاره.

الثاني عشر: غيبة المتجاهر بالفسق في ما تجاهر به، فإنّ من لا يُبالي بظهور فسقه بين الناس لا يُكره ذِكره بالفسق، وقد قال الإمام (عليه السلام): إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حُرمة له ولا غيبة،(44) وفي رواية أخرى: من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له».(45) وأما جواز غيبته في غير ما تجاهر به فقد منع منه الشهيد الثاني، وحُكي عن الشهيد الأول أيضاً، واستظهر الفاضل النراقي الجواز.

قال شيخنا العلاّمة الأنصاري (قدس سره): ظاهر الروايات النافية لاحترام المتجاهر وغير الساتر هو الجواز.

واستظهره في الحدائق من كلام جملة من الأعلام، وصرّح به بعض الأساطين. قال شيخنا العلاّمة: وينبغي إلحاق ما يتستّر به بما يتجاهر فيه إذا كان دونه في القبح، فمن تجاهر (والعياذ بالله) باللواط جاز اغتيابه بالتعريض للنساء الأجانب، ومن تجاهر بقطع الطرق جاز اغتيابه بشرب الخمر، ومن تجاهر بالقبائح المعروفة جاز اغتيابه بكلّ قبيح، ولعلّ هذا هو المراد بمن ألقى جلباب الحياء، لا من تجاهر بمعصية خاصّة وغدا مستوراً بالنسبة إلى غيرها كبعض عمّال الظلمة.(46(

هذا، وهذه الموارد المذكورة هو المعروف استثناؤها بين جمع من الأصحاب، وبعضهم قد زادوا عليها، وبعضهم قد نقصوا، ولا حاجة إلى الاطناب بعد ما عرفت أنّ مدار الحرمة على قصد الانتقاص والأذى بالذات، والله أعلم.

السادس: في معالجة الغيبة:

وعلاجها إنّما هو بالعلم بما يترتّب عليها من المفاسد الدنيويّة والأُخرويّة، وبالتدبير في المضارّ المترتّبة عليها عاجلاً وآجلاً.

أما المضارّ الدنيويّة: فهو أنّها تورث العداوة والشحناء، وتوجب غضب المغتاب، فيكون في مقام المكافاة والمجازاة لشنيع قولك، فيغضبك ويؤذيك ويُهينك، ومن ذلك ينبعث الفساد، وربّما يؤول الأمر إلى ما لا يمكن علاجه، بل قد يؤل إلى القتل والجرح والاستيصال وإتلاف الأموال وغيرها.

وأما المضار الأُخرويّة: فيحصل التنبّه عليها بالتفكّر والتدبّر في الآيات والأخبار الواردة في ذمّها وعقوبتها، وبالعلم بأنّها توجب دخول النار وغضب الجبار ومقته، وتحبط الحسنات وتنقلها إلى ميزان حسنات المغتاب، فإن لم تكن له حسنة نقل الله من سيّئات خصمه بقدر ما استباحه من عرضه، قال (صلى الله عليه وآله): ما النار في اليبس أسرع من الغيبة في حسنات العبد.(47)

وإن كانت الغيبة في العيب بالخلق فليعلم أنّه عيب على الخالق، فإنّ من ذم الصنعة فقد ذمّ الصانع. قيل لحكيم: يا قبيح الوجه، قال: ما كان خلق وجهي إليّ فأُحسّنه. وروي أنّ نوحاً (عليه السلام) مرّ على كلب أجرب فقال: ما هذا الكلب؟ فنطق وقال: يا نبيّ الله هكذا خلقني ربي، فإن قدرتَ أن تغيّر صورتي بأحسن من هذه الصورة فافعل، فندم نوح على ما قال وبكى أربعين سنة، فسمّاه الله نوحاً، وكان اسمه عبد الملك أو عبد الجبّار.

وروي أيضاً أنّه مر عيسى (عليه السلام) ومعه الحواريّون بجيفة كلب فقال الحواريّون: ما أنتن ريح هذا الكلب، فقال (عليه السلام) ما أشدّ بياض أسنانه، كأنّه نهاهم عن غيبة الكلب وتعيبه،(48) فانظر إلى عظم الخطر في تعييب الناس، فإذا لم يرض أولياء الدين بعيب ميتة حيوان، فكيف بعيب النفوس المحترمة. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): طوبى لمن شغله عيب نفسه عن عيوب الناس.(49) فإذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك، قال الشاعر:

وأجرء من رأيت بظهر غيب ... على عيب الرجال وذو العيوب

فلربّما تبصر في عين أخيك القذى ... ولا تبصر الجذع في عينيك

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ... فإن لاح عيبٌ من أخيه تبصّرا

وقد قيل للربيع بن خيثم: ما نراك تعيب أحداً: قال: لستُ راضياً عن نفسي فأتفرّغ لذكر عيوب الناس، ثمّ قال:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها   لنفسي في نفسي عن الناس شاغلُ

نعوذ بالله من زلاّت البيان وهفوات اللسان وسقطات الألفاظ ورمزات الألحاظ.

السابع: في كفّارة الغيبة:

قال المحدّث الجزائري (قدس سره): اعلم أنّ الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويأسف على ما فعل ليخرج من حقّ الله تعالى، ثم يستحلّ المغتاب فيحلّه ليخرج عن مظلمته، وينبغي أن يستحلّه وهو نادم حزين، وإلاّ فالمرائي قد يطلب المحالّة فيكون عليه ذنب آخر، وقد ورد في كفّارته حديثان:

أحدهما: قوله (عليه السلام): كفّارة من اغتبته أن تستغفر له.(50) وفي حديث آخر: كلّما ذكرته.(51) ومعنى قوله «كلّما ذكرته» على طريقة الغيبة أو كلّما عنّ في خاطرك أو جرى ذكره على لسانك بعد المحالّة الأولى.

الثاني: قوله (صلى الله عليه وآله): من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فيتحلّلها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيّئات صاحبه فزيد على سيّئاته.(52)

وجمع بين الحديثين شيخنا الشهيد الثاني قدس الله روحه بحمل الاستغفار له على من يبلغ غيبة المغتاب، فينبغي الاقتصار على الدعاء له والاستغفار، لأنّ في محالّته إثارة للفتنة وجلباً للضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه لموت أو غَيبة، وحمل المحالّة على من يمكن الوصول إليه مع بلوغه.

قال الجزائري: ويمكن الجمع بينهما بوجهَين:

أحدهما: أنّ الاستغفار له كفّارة معجّلة تكون مقارنة للغيبة، والمحالّة متأخّرة عنه غالباً، فيجب عليه المبادرة بذلك لعدم توقّفه على التمكّن وعدمه، والمحالّة إذا تمكّن بعد هذا، فيكون الواجب اثنين لا واحد كما هو مذكور في القول الأول.

الثاني: حمل الاستغفار له على الاستحباب، والواجب إنّما هو المحالّة لا غير، وإذا جاء إلى المغتاب فينبغي أن لا يظهر له الكلام الذي اغتاب خوفاً من إثارة الشحناء وتجديد العداوة، بل يقول له: يا أخي لك حقوق عرضيّة وأريد أن تحالّني منها، ونحو ذلك من العبارات المجملة، ويستحب للمعتذر إليه قبول العذر والمحالّة استحباباً مؤكّداً، انتهى.

أقول: والأظهر في وجه الجمع ما حكاه عن الشهيد، بل وهو الأقرب.

والتحقيق ما حقّقه شيخنا العلاّمة الأنصاري (قدس سره) في المكاسب، حيث قال: مقتضى كون الغيبة من حقوق الناس توقّف رفعها على إسقاط صاحبها، أمّا كونها من حقوق الناس فلأنّه ظلم على المغتاب، وللأخبار في أنّ من حق

المؤمن على المؤمن أن لا يغتابه، وأنّ حرمة عرض المسلم كحرمة دمه وماله، وأمّا توقّف رفعها على إبراء ذي الحقّ فللمستفيضة المعتضدة بالأصل، ثمّ ذكر جملة من المستفيضة.

ثمّ قال: ولا فرق في مقتضى الأصل والأخبار بين التمكّن من الوصول إلى صاحبه وتعذّره، لأنّ تعذّر البراءة لا يوجب سقوط الحقّ كما في غير هذا المقام، لكن روى السكوني عن أبي عبد الله، عن النبي (صلى الله عليه وآله): إنّ كفّارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته كلّما ذكرته،(53) ولو صحّ سنده أمكن تخصيص الاطلاقات المتقدّمة به، فيكون الاستغفار طريقاً إلى البراءة مع احتمال العدم أيضاً، لأنّ كون الاستغفار كفّارة لا يدلّ على البراءة، فلعلّه كفارة الذنب من حيث كونه حقّاً لله، نظير كفّارة قتل الخطأ التي لا توجب براءة القاتل إلاّ أن يُدّعى ظهور السياق في البراءة.

ثمّ ذكر كلام الشهيد الثاني (قدس سره) وجمعه بين الخبَرين المتقدّمين المتعارضين على ما تقدّم ذكره في كلام المحدّث الجزائري (قدس سره)، ثمّ أورد عليه بأنّه إن صحّ النبويّ ـ أي مارواه السكونّي عن أبي عبد الله (عليه السلام)، عن النبي (صلى الله عليه وآله) مسنداً فلا مانع عن العمل به بجعله طريقاً إلى البراءة مطلقاً في مقابل الاستبراء، وإلاّ تعيّن طرحه والرجوع إلى الأصل وإطلاق الأخبار المتقدّمة، وتعذّر الاستبراء أو وجود المفسدة فيه لا يوجب وجود مبرء آخر.

نعم أرسل بعض من قارب عصرنا عن الصادق (عليه السلام): إنّك إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحلّ منه، وإن لم يبلغه فاستغفِر الله له.(54)

وفي رواية السكوني المرويّة في الكافي في باب الظلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ومن ظلم أحداً ففاته فليستغفر الله له فإنّه كفارة له.(55)

والانصاف أنّ الأخبار في هذا الباب كلّها غير نقيّة السند، وأصالة البراءة تقتضي عدم وجوب الاستحلال ولا الاستغفار، وأصالة بقاء الحقّ الثابت للمغتاب ـ بالفتح ـ على المغتاب ـ بالكسر ـ تقتضي عدم الخروج منه إلاّ بالاستحلال خاصّة، لكن المثبت لكون الغيبة حقّاً بمعنى وجوب البراءة منه ليس إلاّ الأخبار الغير النقيّة السند، مع أنّ السند لو كان نقيّاً كانت الدلالة ضعيفة لِذكر حقوق أخر في الروايات لا قائل بوجوب البراءة منها، فالقول بعدم كونه حقّاً للناس بمعنى وجوب البرائة نظير الحقوق الماليّة لا تخلو من قوّة، وإمكان الاحتياط في خلافه، بل لا يخلو عن قرب من جهة كثرة الأخبار الدالّة على وجوب الاستبراء منها، بل اعتبار سند بعضها، والأحوط الاستحلال إن تيسّر، وإلاّ فالاستغفار «غفر الله لنا ولمن اغتبنا بحقّ محمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين».(56)

انتهى ما نقلناه حرفيّاً عن كتاب (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) للسيّد العلاّمة ميرزا حبيب الله الخوئي تغمّده

الله برحمته.

(1)شرح النهج لابن أبي الحديد مج 2، ص 412، ط 1. ومن الطبعة الأولى ج2/ 413.

(2)المائدة: 2.

(3)أمالي الطوسي: 537؛ مكارم الأخلاق للطبرسي: 470.

(4)عوالي اللئالي 1: 275؛ بحار الأنوار 222.72 :

(5)المكاسب 1: 331.

(6)الحجرات: 10.

(7)البقرة: 220.

(8)المكاسب 1: 319 - 320.

(9)الحجرات: 12.

(10)الهمزة: 1.

(11)النساء: 148.

(12)النور: 19.

(13)الكافي 2: 357/ ح2.

(14)الكافي 2: 357/ ح1.

(15)في بعض المصادر: «لانتظار»، وفي بعضها »انتظاراً للصلاة.«

(16)الكافي 2: 357/ ح1.

(17)الكافي 2: 358/ ح1.

(18)وسائل الشيعة 12: 281/ ح16308.

(19)وسائل الشيعة 12: 281/ ح16209.

(20)وسائل الشيعة 12: 283/ ح 16315.

(21)وردت هذه الأحاديث في المكاسب 1: 317.316 -

(22)المكاسب 1: 317 - 318.

(23)ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: 241، عقاب من تتبّع عورة المؤمن.

(24)ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: 246 .247 -

(25)رواه المجلسي في بحار الأنوار 72: 222.

(26)انظر تفسير ابن كثير 4: 230؛ الدرّ المنثور للسيوطي 6: 96.

(27)انظر أيضاً تفسير ابن كثير 4: 230؛ تفسير الدّر المنثور 6: 95.

(28)المكاسب للأنصاري 1: 363 - 364.

(29)المكاسب 1: 331.

(30)المكاسب 1: 359.

(31)ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: 250، عقاب من اغتيب عنده المؤمن.

(32)ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: 285280 - ، عقاب مجمع عقوبات الأعمال. فلم ينصره.

(33)وسائل الشيعة 12: 282/ ح16312.

(34)المكاسب للأنصاري 1:362 - 363.

(35)جامع المقاصد 4: 27.

(36)المكاسب للشيخ الأنصاري 1: 342.

(37)النساء: 148.

(38)تفسير القمّي 1: 157.

(39)بحار الأنوار 72: 231.

(40)جواهر الكلام 22: 66؛ بحار الأنوار 232.72 :

(41)المكاسب 1: 352.

(42)المكاسب 1: 352 - 353.

(43)الكافي 2: 375/ ح4.

(44)أمالي الصدوق: 93/ ح68؛ وسائل الشيعة /289 :12ح16327.

(45)تحف العقول: 45، الاختصاص للمفيد: 242.

(46)المكاسب 1: 345 - 346.

(47)بحار الأنوار 72: 229.

(48)مستدرك الوسائل 9: 121/ ح10417.

(49)بحار الأنوار 72: 229.

(50)بحار الأنوار 72: 313/ ح27.

(51)بحار الأنوار 72: 341/ ح4.

(52)بحار الأنوار 72: 343.

(53)بحار الأنوار 72: 341/ ح4.

(54)بحار الأنوار 72: 342/ ح4.

(55)بحار الأنوار 72: 313/ ح27.

(56)المكاسب 1: 336 - 341.

ومن كلام له (عليه السلام] :(في العرفان والسلوك إلى الله[

»قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ وَأَمَاتَ نَفْسَهُ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ وَلَطُفَ غَلِيظُهُ وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ وَتَدَافَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ وَدَارِ الْإِقَامَةِ وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وَأَرْضَى رَبَّهُ«. (ابن أبي الحديد مج 3 ص 42 ط الاولى.(

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

»دقّ« الشيء يدقّ دقّة ـ من باب ضرّ ـ خلاف غلظ فهو دقيق، وغَلُظ الشيء بالضم غلظاً ـ وزان عنب ـ والاسم الغلظة وهو غليظ، و(أبان) وبيّن وتبيّن واستبان كلّها بمعنى الوضوح والانكشاف، وجميعها تستعمل لازماً معتدّياً، إلاّ بأنّ الثلاثيّ فلا يستعمل إلا لازماً، قاله الفيّومي.

* * *

الشرح:

جاء في منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (مج 14 ص 192:(

إنّ هذا الكلام على غاية وجازته جامع لجميع صفات العارف الكامل، لكيفيّة سلوكه وكمال أمره، ولعمري إنّه لا يوجد كلام أوجز من هذا الكلام في أداء هذا المعنى، وهو في الحقيقة قطب دائرة العرفان وعليه مدارها، وفي الإيجاز الذي هو فنّ نفيس من علم البلاغة تالي كلام الملك الرحمن، مثل قوله: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ»(1) الجامع للزهد كلّه، وقوله» :خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ»(2) الجامع لمكارم الأخلاق جميعاً، وشرحه يحتاج إلى بسط في المقال، فأقول مستعيناً بالله ووليّه (عليه السلام:(

قوله (عليه السلام): «قد أحيا عقله وأمات نفسه» المراد بعقله العقل النظريّ والعمليّ، وبنفسه النفس الأمّارة بالسوء، والمراد بحياة الأوّل كونه منشأً للآثار المترتّبة عليه، مقتدراً على تحصيل الكمالات والمعارف الحقّة ومكارم الأخلاق المحصّلة للقُرب والزلفى لديه تعالى، وبموت الثاني بطلان تصرّفاته وآثاره المبعدّة عنه (عز وجل) بحذافيرها، فإنّ الحياة والموت عبارة أخرى عن الوجود والعدم لا أثر له أصلاً.

وأراد بإحيائه الأوّل وإماتته الثاني تقويته وتغليبه له عليه، بحيث يكون الأوّل بمنـزلة سلطان قادر قاهر يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والثاني بمنـزلة عبد ذليل مقهور لا يرد ولا يصدر إلاّ بإذن مولاه.

ولا يحصل تقوية الأوّل وتذليل الثاني إلاّ بملازمة الكمالات العقلانّية والمجاهدة والرياضة النفسانيّة، والمجاهدة عبارة عن ذبح النفس بسيوف المخالفة، كما قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى»،(3) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمّا بعث سرية ورجعوا: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس.(4(

وقال بعض أهل العرفان: جاهد نفسك بأسياف الرياضة، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام، فيتولّد من قلّة الطعام موت الشهوات، ومن قلّة المنام صفو الإرادات، ومن قلّة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحرّكت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة فضول الكلام، جرّدت عليها سيوف قلّة الطعام من غمد التهجّد وقلّة المنام، وضربتها بأيدي الخمول وقلّة الكلام، حتّى تنقطع عن الظلم والانتقام، فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عند ذلك نظيفة ونوريّة خفيفة روحانية، فتجوّل في ميدان الخير، وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان، وكالملك المتنـزّه في البستان.

وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته،

ومن النفس بترك الشهوات.

]شروط السالك:[

وتفصيل ذلك على ما قُرّر في علم السلوك أنّ للسالك لطريق الحقّ المريد للوصول إلى حظيرة القدس شروطاً ووظائف لابدّ من ملازمتها.

أمّا الشروط التي لابدّ من تقديمها في الارادة: فهي رفع الموانع والحجب التي بينه وبين الحقّ، فإنّ حرمان الخلق من الحقّ سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق، قال الله تعالى: «وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ».(5)

والسدّ بين المريد وبين الحقّ ثلاثة: المال، والجاه، والمعصية، ورفع حجاب المال إنّما يحصل بالخروج منه إلاّ قدر الضرورة، فما دام يبقى له درهم ملتفت إليه فهو مقيّد به محجوب عن الله (عز وجل)، ورفع حجاب الجاه إنّما يحصل بالبعد من موضع الجاه والهرب منه وإيثار خمول الذكر، ورفع حجاب المعصية إنّما يحصل بالتوبة والندم على ما مضى من المعاصي وتدارك ما فات من العبادات وردّ المظالم وإرضاء الخصوم.

]وظائف السالك:[

وإذا قدّم هذه الشروط فلا بدّ له من المواظبة على وظائف السلوك، وهي خمس: الجوع، والصمت، والسهر، والعزلة، والذكر.

]الجوع:[

أمّا الجوع فإنّه يُنقص دم القلب ويبيّضه ويلطّفه، وفي بياضه وتلطيفه نوره، ويذيب شحم الفؤاد، وفي ذوبانه رقّته، ورقّته مفتاح انكشاف الحجب، كما أنّ قساوته سبب الحجاب، ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدوّ الشيطان، فإنّ مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات، ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق، فضيّقوا مجاريه بالجوع.(6)

ففائدة الجوع في كسر شهوات المعاصي كلّها والاستيلاء على النفس الأمّارة بالسوء أمر ظاهر، لأنّ منشأ المعاصي كلّها الشهوات والقوى، ومادّة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة، فتقليلها يضعف كلّ شهوة وقوّة، ويكسر سَورة النفس الأمّارة، كالدابّة الجموح إذا شبعت شردت وجمحت لا يمكن ضبطها باللجام، وإذا جاعت ذللت وانقادت، وكان

يقال: ينابيع الحكمة من الجوع وكسر عادية النفس بالمجاهدة، وقال يحيى بن معاذ: لو أنّ الجوع يُباع في السوق لما كان ينبغي لطلاّب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

وقال سهل بن عبد الله: لمّا خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع الطاعة والحكمة. وقال يحيى بن معاذ: الجوع للمريدين رياضة، وللتائبين تجربة، وللزهاد سياسة، وللعارفين تكرمة.

قال ابن أبي الحديد: واعلم أنّ السبب الطبيعي في كون الجوع مؤثّراً في صفاء النفس، أنّ البلغم الغالب على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة وإبطاء الفهم لكثرة الأرضيّة فيه وثقل جوهره وكثرة ما يتولّد عنه من البخارات التي تسدّ المجاري وتمنع نفوذ الأرواح، ولا ريب أنّ الجوع يقتضي تقليل البلغم، لأنّ القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه عملت في الرطوبة الغريبة الكائنة في الجسد، فكلّما انقطع الغذاء استمر عملها في البلغم الموجود في البدن، فلا تزال تعمل فيه وتذيبه الحرارة الكائنة في البدن حتّى يفنى كلّ ما في البدن من الرطوبات الغريبة، ولا يبقى إلاّ الرطوبات الأصليّة، فإن استمر انقطاع الغذاء أخذت الحرارة والقوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصليّة من جوهر البدن، فإن كان ذلك يسيراً وإلى حدّ ليس بمفرط لم يضرّ ذلك بالبدن كلّ الاضرار، وكان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: «حتّى دقّ جليلُه ولَطُف غليظُه» وإن أفرط وقع الحيف والاجحاف على الرطوبة الأصليّة وعطب البدن ووقع صاحبه في الدقّ والذبول، وذلك منهيّ عنه لأنّه قتل النفس، فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالسكّين.(7)

وبالتالي فالشبع يورث القسوة والشهوة والسبعيّة، والجوع يوجب الرقّة وانكسار الشهوة والصولة، وهو مشاهد بالتجربة، ومن هنا قيل: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، وقال النبي (صلى الله عليه وآله): من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه،(8) وقال أيضاً: أحيوا قلوبكم بقلّة الضحك وقلّة الشبع، وطهّروها بالجوع تصفو وترقّ.(9)

[الصمت:]

وأمّا الصمت فينبغي أن لا يتكلّم إلاّ بقدر الضرورة، لأنّ الكلام يشغل القلب، وميل القلوب إلى الكلام عظيم، فإنّه يستروح إليه ويستثقل التجرّد للذكر والفكر. وفي الحديث: طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من كلامه.(10) هذا في الكلام المباح وأمّا الكلام الغير المباح من الكذب والنميمة والبهت وغيرها فبينه وبين السلوك إلى الحقّ بَون بعيد بُعد المشرقَين.

[السهر:]

وأمّا السهر فإنّه يجلو القلب ويصفّيه وينوّره، ولذلك مدح الله سبحانه المستغفرين بالأسحار، لأنّها أوقات صفاء الذهن

ونزول الرحمة والألطاف الإلهية، فيضاف صفاء السهر إلى الصفاء الحاصل من الجوع، فيصير القلب كالكوكب الدّريّ والمرآة المجلّوة مستعدّاً لإفاضة الأنوار الإلهيّة، فيلوح فيه سبحات جمال الحقّ، ويشاهد رفعة الدرجات الأُخرويّة وعظم خطرها وخسّة الزخارف الدنيويّة وحقارتها، فتتمّ بذلك رغبته عن الدنيا وشوقه إلى الآخرة، والسهر أيضاً من خواصّ الجوع، وبالشبع غير ممكن.

[العزلة والخلوة:]

وأمّا العزلة والخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، فإنّهما دهليز القلب، والقلب بمنـزلة حوض تنصبّ إليه مياه كريهة كدرة من مجاري الحواس، والمقصود بالرياضة تفريغ مياه الحوض من الطين الحاصل منها، فينفجر أصل الحوض فينبع منه ماء نظيف سائغ صاف، ولا يمكن نزح ماء الحوض والأنهار إليه مفتوحة، فيتجدّد في كلّ حال أكثر ممّا ينتقص.

قال الرضا (عليه التحية والثناء): إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يقول: «طوبى لمن أخلص لله العبادة ولم يشغل قلبه بما تراه عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسع أُذناه الحديث».(11)

فلا بدّ من ضبط الحواس إلاّ عن قدر الضرورة، ولا يتمّ ذلك إلا بالعزلة والخلوة.

قال بعض السياحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين عن الخلق: كيف الطريق إلى الحقّ؟ قال: أن تكون في الدنيا كأنّك عابر طريق. وقلت له مرّة: دُلّني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام، فقال لي: لا تنظر إلى الخلق، فإنّ النظر إليهم ظلمة، قلت: لا بدّ لي من ذلك، قال: فلا تسمع كلامهم، فإنّ في سماع كلامهم قسوة، قلت: لا بدّ لي من ذلك، قال: فلا تعاملهم فإنّ معاملتهم وحشة، قلت :أنا بين أظهرهم لا بدّ لي من معاملتهم، قال: فلا تسكن إليهم فإنّ السكون إليهم هلكة، قال: قلت: لعلّه يكون، قال: يا هذا أتنظر إلى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطّالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام؟! ولا يمكن ذلك إلاّ بأن يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره إلاّ بطول المجاهدة.

وقد عرفت أنّ طريق المجاهدة مضادّة الشهوات ومخالفة هوى النفس، فإذا حصل للسالك هذه المقدّمات اشتغل بذكر الله تعالى بالأذكار الشرعيّة، من الصلاة وتلاوة القرآن والأدعية المأثورة والتسبيح والتهليل وغير ذلك بلسانه وقلبه، فلا يزال يواظب عليها حتّى لا يبقى على قلبه ولسانه غير ذكره تعالى، ولا يكون له منظور غيره أصلاً، فعند ذلك يتجلّى له من أنوار جماله وسبحات عظمته وجلاله ما لا يحيط به لسان الواصفين، ويقصر عنه نعت الناعتين .

[شعر عرفاني:]

وممّا يُنسب للإمام زين العابدين وسيد الساجدين في هذا المقام:

تحيى وتعيش بها المهجُ نسمات هواك لها أرجُ

عن الأرواح ويندرج وبنشر حديثك يُطوى الغمّ

كمال صفاتك أبتهج وببهجة وجه جمال جلال

على ذكراك وينـزعج لا كان فؤاد ليس يهيم

فليس على الأعمى حرج لا أعتب قلب الغافل عنك

وغيرهم همج همج ما الناس سوى قوم عرفوك

وعلى درج العليا درجوا قوم فعلوا خيراً فعلوا

فبذكر الله لهم لَهَجوا فَهِموا المعنى فَهُمُ المعنى

وكما دخلوا منها خرجوا دخلَ الفقراء إلى الدنيا

من صرف هواه وما مزجوا شربوا بكؤوس تفكّرهم

قوّم فطريقك منعوج يا مدّعياً لطريقهمُ

وحقّك ذا طلب سمج تهوى ليلى وتنام الليل

* * *

]سيماء الشيعة:[

جاء في كتابنا «مسند الإمام علي (عليه السلام:»(

روى صاحب الوسائل من أمالي ابن الشيخ قال: روي أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) خرج ذات ليلة من المسجد وكانت ليلة قمراء، فأمّ الجبانة ولحقه جماعة يقفون أثره، فوقف عليهم ثمّ قال: من أنتم؟ قالوا: شيعتك يا أمير المؤمنين، فتفرّس في وجوههم قال: فما لي لا أرى عليكم سيماء الشيعة؟ قالوا: وما سيماء الشيعة يا أمير المؤمنين؟ قال (عليه السلام): صُفر الوجوه من السهر، عُمش العيون من البكاء، حُدب الظهور من القيام، خُمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، عليهم غبرة الخاشعين.(12(

وقال (عليه السلام): «فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ وَظَلَّفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ

السَّبِيلِ وَسَلَكَ أَقْصَدَ الْمَسَالِكِ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ».(13(

ثم لا يخفى أنّ مطلوبيّة الاعتزال والخلوة إنّما هي للفراغ للذكر والخلوة والعبادة وكون المعاشرة مانعة منه، وأمّا إذا تكن لم المعاشرة مانعة منه بل تبعثه على سلوك الصراط المستقيم، كالجمعة والجماعة وزيارة الاخوان المؤمنين والاجتماع في مجالس الذكر ونحوها فهي من أعظم العبادات، وسلوك نهج الحق.

وأمّا غيرها ممّا ذكره الصوفيّة من الآداب والوظائف في المجاهدة والرياضة وكيفيّة السلوك، مثل قولهم بالجلوس في بيت مظلم والخلوة أربعين يوماً واشتراطهم الاعتصام بالشيخ وكون السلوك بإرشاده، وقولهم بالمداومة على ذكرٍ مخصوص ألقاه الشيخ إلى المريد من الأذكار الفتحيّة أو غيرها من الأذكار المبتدعة أو من الأذكار الشرعيّة لكن على هيئة مخصوصة وعدد مخصوص لم يرد به نصّ، وقولهم بأنّ المريد إذا أتمّ مجاهدته ولم يبق في قلبه علاقة تشغله يلزم قلبه علىالدوام ويمنعه من تكثير الأوراد الظاهرة، بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده ورداً واحداً وهو ملازمة القلب لذكر الله بعد الخلو عن ذكر غيره، فعند ذلك يلزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويلقّنه ذكراً من الأذكار حتّى يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلاً :الله الله، أو سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، فلا يزال يواظب عليه حتّى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنّها جارية على اللسان من غير تحريك، ثمّ لا يزال يواظب عليه حتّى يسقط الأثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثمّ لا يزال كذلك حتّى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ من كلّ ما سواه ونحو ذلك ممّا قالوه فشيء لم يرد به إذن من الشارع، بل هو من مبتدعاتهم التي أبدعوها، اللهمّ إلاّ أن يُستدلّ على الأخير ـ أعني المواظبة على الذكر باللسان والقلب ـ على ما وصل بعمومات أدلّة الإكثار من ذكر الله والتفكّر في الله.

* * *

(1)الحديد: 23.

(2)الأعراف: 199.

(3)النازعات: 40 و41.

(4)الكافي 5: 12/ ح3.

(5)يس: 9.

(6)عوالي اللئالي 1: 273/ ح97؛ بحار الأنوار 60: 332.

(7)شرح نهج البلاغة 11: 137.

(8)وجاء في بحار الأنوار 74: 29: يا أحمد، إنّ العبد إذا أجاع بطنه وحفظ لسانه علّمته الحكمة، وإن كان كافراً تكون حكمته حجّة عليه ووبالاً.

(9)تذكرة الموضوعات للفتني: 151.

(10)مستدرك الوسائل 9: 27؛ بحار الأنوار /68: 283ح34.

(11)بحار الأنوار 67: 229.

(12)وسائل الشيعة للحر العاملي 1: 92 /ح218، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي ص: 219.

(13)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 263.6 :

ومن خطبة له (عليه السلام):[في التحذير من الدنيا والاعتبار بالامم السالفة ووحشة القبر]

»دارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ لا تَدُومُ أَحْوالُهَا وَلَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا أَحْوالٌ مُخْتَلِفَةٌ وَتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ وَالْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ وَإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وَتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً وَأَعْمَرَ دِيَاراً وَأَبْعَدَ آثَاراً أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً وَرِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً وَأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً وَدِيَارُهُمْ خَالِيَةً وَآثَارُهُمْ عَافِيَةً فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ وَالنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ الصُّخُورَ وَالْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ وَالْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ الَّتِي قَدْ بُنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاؤُهَا وَشُيِّدَ بِالتُّرَابِ بِنَاؤُهَا فَمَحَلُّهَا مُقْتَرِبٌ وَسَاكِنُهَا مُغْتَرِبٌ بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ وَأَهْلِ فَرَاغٍ مُتَشَاغِلِينَ لا يَسْتَأْنِسُونَ بِالْأَوْطَانِ وَلا يَتَوَاصَلُونَ تَوَاصُلَ الْجِيرَانِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْجِوَارِ وَدُنُوِّ الدَّارِ وَكَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ وَقَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْكَلِهِ الْبِلَى وَأَكَلَتْهُمُ الْجَنَادِلُ وَالثَّرَى وَكَأَنْ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ وَارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ وَضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ تَنَاهَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ وَبُعْثِرَتِ الْقُبُورُ، «وَرُدُّوا إِلى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»».(1) (شرح ابن أبي الحديد مج 3، ص 8، ط الأولى.)

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

)بالبلى محفوفة) أي قد أحاط بها من كلّ جانب. وسلم المسافر يسلم: نجا وخلص من الآفات. و(تارات) جمع تارة وهي

المرّة الواحدة، و(الأغراض) جمع الغرض وهو الهدف تُرمى إليه السهام. و(المستهدَفَة) أي منتصبة للرمي إليها . و(المشيّدة) بضم الميم وتشديد الياء وفتحها كما في قوله تعالى «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»(2) أي قصور مصونة وقيل محصنة، و(النمرق) والنمرقة بتثليث النون وضمّ الراء: الوسادة وهي المتّكأ، والجمع نمارق، قال تعالى: «وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ».(3) والقبور الملحدة ذوات اللحود.

الشرح:

إنّ الغرض من هذه الخطبة الشريفة التنفير عن الدنيا والتحذير منها والتنبيه على مساويها ومخازيها الموجبة للنفرة والحذر.

]خداع الدنيا:[

قال (عليه السلام): «دار بالبلاء محفوفة» أي حُفّت بالمكاره والبليّات، وأحاطت بها من كلّ جانب الآلام والآفات، وفي نسبة «محفوفة» إلى الدار توسّع، والمراد كون أهلها محفوفة بها.

»وبالغدر معروفة» قال الشارح البحراني: استعار لفظ الغدر عمّا يتوهم الإنسان دوامها عليه من أحوالها المعجبة له، كالمال والصحّة والشباب، فكأنّه في مدّة بقاء تلك الأحوال قد أخذ منها عهداً، فكأنّ التغيّر العارض لها المستلزم لزوال تلك الأحوال أشبه شيء بالغدر.

قال الميرزا الخوئي صاحب منهاج البراعة: مراده (عليه السلام (أنّها مشهورة بالغدر والخداع، معروفة بالمكر والغرور، غير مختفية حيلتها ومكيدتها على أهل البصيرة، لأنّها بكونها حلوة خضرة محفوفة بالشهوات ومهيّأة للآمال والأمنيات، أعجبت الناس بشهوتها العاجلة، وتحبّبت اليهم بلذّاتها الحاضرة، وتزّينت بالغرور، فاغترّ بها كلّ من كان غافلاً عن مكيدتها، وافتتن بحبّها كلّ من كان جاهلاً بحقيقتها، حتّى إذا أوقعتهم في حبائل محبّتها أبدت كلّ ما كان مضمراً في باطنها من مكرها وحيلتها، فلم يكن امرؤ منها في حبرة إلاّ أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرّائها بطناً إلا منحته من ضرّائها ظهراً، ولم ينل أحد من غضارتها رغباً إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً، فكم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة قد صرعته، وذي أُبهّة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردّته ذليلاً.

وكفى في إيضاح غدرها ما قاله بعض قدماء أهل الحقيقة والبصيرة: من أنّها الآخذة ما تُعطي والمورثة بعد ذلك التبعة، السلاّبة لمن تكسو والمورثة بعد ذلك العري، الواضعة لمن ترفع والمورثة بعد ذلك الجزع، التاركة لمن يعشقها والمورثة بعد ذلك الشقوة، المغوية لمن أطاعها، الغدّارة بمن ائتمنها، هي المحبوبة التي لا تحبّ أحداً، الملزومة التي

لا تلزم أحداً، يوف إليها وتغدر، ويصدق لها وتكذب، وينجز لها فتختلف، هي المعوجّة لمن استقام بها، والمتلاعبة بمن استمكنت منه.

بينا هي تُطعمه إذ حوّلته مأكولاً، وبينا هي تخدمه إذ جعلته خادماً، وبينا هي تُضحكه إذ ضحكت منه، وبينا هي تشمّه إذ شمّت منه، وبينا هي تبكيه إذ بكت عليه، وبينا هي قد بسطت يده بالعطية إذ بسطتها بالمسألة، وبينا هو فيها عزيز إذ أذلّته، وبينا هو فيها مكرم إذ أهانته، وبينا هو فيها معظّم إذ حقّرته، وبينا هو فيها شبعان إذ أجاعته، وبينا هو فيها حيّ إذ أماتته.

فأفٍّ لها من دار هذه صفتها، تضع التاج على رأسه غدوة وتعفّر خدّه بالتراب عشيّة، وتحلّي الأيدي بالأسورة عشيّة، وتجعلها في الأغلال غدوة، تعقد الرجل على السرير غدوة، وترمي به في السجن عشيّة، تفرش له الديباج عشيّة، وتفرش له التراب غدوة، وتجمع له الملاهي والمعازف غدوة، وتجمع عليه النوائح والنوادب عشيّة، تحبّب إلى أهله قُربه عشيّة، وتحبّب إليهم بُعده غدوة، تطيّب ريحه غدوة، وتنتن ريحه عشيّة.

فهو في كلّ ساعة متوقّع لسطوتها، غير آمن غدرها وخديعتها، غير ناجٍ من بلائها وفتنتها، تمتّع نفسه من أحاديثها وعينه من أعاجيبها ويده مملوءة من جمعها، ثمّ تصبح الكفّ صفراً والعين هامدة ذهب ما ذهب، وهوى ما هوى...(4(

ومن ذلك كلّه علم أنّها (لا تدوم أحوالها) بل تصير حياتها موتاً، وغناؤها فقراً، وفرحها ترحاً، وصحّتها سقماً، وقوّتها ضعفاً، وعزّها ذلاً، إلى غير هذه من حالاتها المتبدّلة المتغيّرة .

قوله (عليه السلام): «ولا تسلم نزّالها» أي لا يسلم النازل في تلك الدار من آلامها وآفاتها وصدماتها، بل هو في كلّ آن مترقّب لاصابة مكروه، وَجِلٌ من كل بلاء.

فإن كلّ ذي جسد فيها لا ينفكّ جسده من أنّ الحرّ يذيبه، والبرد يجمده، والسموم يتخلّله، والماء يغرقه، والشمس تحرقه، والهواء يُسقمه، والسباع تفترسه، والطير تنقره، والحديد يقطعه، والصدم يحطمه.

ثمّ هو معجون بطينة من ألوان الأسقام والأوجاع والأمراض، فهو مرتهن بها مترصّد لها دائماً، لكونه مخلوقاً من الأخلاط الأربعة التي لو غلب أحدها على الآخر أحدث أنواعاً من المرض، ألا ترى أنّ أصحّ الأخلاط وأقربها إلى الحياة هو الدم، فإذا خرج عن حدّ الاعتدال يموت صاحبه بموت الفجأة والطاعون والأكلة والسرسام.

هذه كلّه مع ما له من مقارنة الآفات السبع التي لا يتخلّص منها ذو جسد، وهي الجوع، والظمأ، والحرّ، والبرد، والخوف، والجوع، والمرض، والموت.

أحوالها (أحوال مختلفة) إن اعذوذب منها جانب واحلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لم تطل على أحد فيها ديمة رخاء إلاّ

هتنت عليه مزنة بلاء، ولم يُمسِ امرؤ منها في جناح أمن إلاّ أصبح على قوادم خوف.

)وتارات متصرّفة) يعني أنّ حالاتها تتغيّر بأهلها تارة بعد أخرى، ومرّة بعد مرّة، فإنّها تنقل أقواماً من الجدب إلى الخصب، ومن الرجلة إلى الركب، ومن البؤس إلى النعمة، ومن الشدّة إلى الرخاء، ومن الشقاء إلى الراحة، ثم تنقلب بهم فتسلبهم الخصب، وتنـزع منهم النعمة والراحة.

ومحصّله أنّها دار تصرّف وانتقال وتقلّب من حال إلى حال، صحّتها تتبدّل بالسقم، وشبابها بالهرم، وغناها بالفقر، وفرحها بالترح، وسرورها بالحزن، وعزّها بالذّل، وأمنها بالخوف.

بينا يرى المرء فيها مغتبطاً محبوراً وملكاً مسروراً في خفض ودعة ونعمة ولذّة وأمن وسعة، في بهجة من شبابه وحداثة من سنّه، وبهاء من سلطانه، وصحّة من بدنه، إذ انقلبت به الدنيا أشرّ ما كان فيها قلباً، وأطيب ما كان فيها نفساً، وأقرّ ما كان فيها عيناً، وألذّ ما كان فيها عيشاً، فأخرجته من ملكها وغبطتها وخفضها ودعتها وبهجتها، فأبدلته بالعزّ ذلاًّ، وبالسرور حزناً، وبالنعمة نقمة، وبالغنى فقراً، وبالسعة ضيقاً، وبالشباب هرماً، وبالشرف ضعة، وبالحياة موتاً .

ففارق الأحبّة وفارقوه، وخذله إخوانه وتركوه، وصار ما جمع فيها مفرّقاً، وما عمل فيها متبرّءاً، وما شيّد فيها خراباً، وصار اسمه مجهولاً، وذِكره منسيّاً، وحسبه خاملاً، وجسده بالياً، وشرفه وضيعاً، ونعمته وبالاً، وكسبه خساراً، وورث أعداؤه سلطانه، واستذلّوا عقبه، واستباحوا حريمه، وتملّكوا أمواله، ونقضوا عهده، وملكوا جنوده، فأفٍّ لدار حالها هذا وشأن ساكنها ذلك، وفّقنا الله تعالى للزهد فيها والاعراض عنها.

وبما ذكرنا ظهر أنّ (العيش فيها مذموم) وأراد بالعيش الترفّه فيها والتنعّم بلذّاتها والالتذاذ بشهواتها، وإنّما كان هذا مذموماً لكونه شاغلاً عن التوجّه إلى الحقّ وعن الالتفات إلى الآخرة، ومعقباً للندم والحسرة الطويلة والعذاب الشديد يوم القيامة.

وقد وقع ذمّ هذا في كتاب الله تعالى وعلى ألسنة الأنبياء والرسل متجاوزاً عن حدّ الاحصاء، قال تعالى: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَْمْوالِ وَالأَْوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الآْخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ».(5) وقال أيضاً: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ».(6(

]مثال الدنيا:[

وقد وقع تشبيه المتنعّم باللذّات الدنيويّة والمتلذّذ بشهوتها، الملهية له عن التوجّه إلى عاقبة أمره والالتفات إلى مآل حاله في كلام الحكماء، برجل حمل عليه فيلٌ مغتلم، فانطلق مولّياً هارباً، فاتبعه الفيل فغشيه حتّى اضطّره إلى بئر، فتدلّى فيها وتعلّق بغصنَين نابتَين على شفير البئر، فإذا في أصلها جرذان يقرضان الغصنين، أحدهما أبيض والآخر أسود، فلمّا نظر إلى تحت قدميه فإذا رؤوس أربع أفاعٍ قد طلعن من حجرهنّ، فلمّا نظر إلى قعر البئر إذا تنين فاغر فاه نحوه يريد التقامه، فلمّا رفع رأسه إلى الغصنين إذا عليهما شيء من عسل النحل، فألهاه ما طعم منه وما نال من لذّة العسل وحلاوته عن الفكر في أمر الأفاعي اللواتي لا يدري متى يبادرنه، وألهاه عن التنين الذي لا يدري كيف مصيره بعد وقوعه في لهواته.

أمّا الفيل فهو الأجل، وأمّا البئر فالدنيا المملوءة من الآفات والبلايا والشرور، وأمّا الغصنان فالعمر، وأمّا الجرذان فالليل والنهار يسرعان في قطع العمر، وأمّا الأفاعي الأربعة فالأخلاط الأربعة التي هي السموم القاتلة من المرّة والبلغم والريح والدم التي لا يدري صاحبها متى تهيج به، وأمّا التنين الفاغر فاه ليلتقمه فالموت الراصد الطالب، وأمّا العسل الذي اغترّ بأكله فما ينال الناس من عيش الدنيا ولذّتها وشهواتها ونعيمها ودعتها، من لذّة الطعام والشراب واللباس والشمّ واللمس والبصر، هذا هو العيش المذموم.

]العيش الممدوح:[

ويقابله العيش الممدوح: وهو العيش الهنيء الذي أشير إليه في الحديث القدسيّ المرويّ في البحار من إرشاد القلوب للديلميّ، عن أمير المؤمنين)عليه السلام): إنّ الله تعالى شأنه قال للنبيّ (صلى الله عليه وآله) ليلة المعراج في جملة مخاطباته: «يا أحمد هل تدري أيّ عيش أهنى وأيّ حياة أبقى؟ قال: اللهمّ لا، قال: أمّا العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذِكري، ولا ينسى نعمتي، ولا يجهل حقّي، يطلب رضائي في ليله ونهاره، وأمّا الحياة الباقية فهي التي تعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه، وتعظم الآخرة عنده، ويؤثر هواي على هواه، ويبتغي مرضاتي، ويعظم حقّ عظمتي، ويذكر عملي به، ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيئة أو معصية، وينقّي قلبه عن كلّ ما أكره، ويبغض الشيطان ووسواسه، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً ولا سبيلاً، فإذا فعل ذلك أسكنتُ قلبه حبّاً، حتّى أجعل قلبه لي وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبّتي من خلقي، وأفتح عين قلبه وسمعه، حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي، وأضيّق عليه الدنيا وأبغّض إليه ما فيها من اللّذات،

وأحذّره من الدنيا وما فيها كما يحذر الراعي على غنمه مراتع الهلكة، فإذا كان هكذا يفرّ من الناس فراراً، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن. يا أحمد لأزيّننّه بالهيبة والعظمة، فهذا هو العيش الهنيء والحياة الباقية، وهذا مقام الراضين... الحديث.(7)

]عدم الأمان في الدنيا:[

)والأمان فيها معدوم) لأنّها إذا كانت بالبلاء محفوفة وبالخديعة موصوفة، مختلفة الحالات ـ متصرّفة التارات ـ حسبما عرفت تفصيلاً وتوضيحاً ـ فكيف يُؤمن من بوائقها ويطمئنّ من طوارقها؟ وكيف يسلم من فجعتها ويستراح من خدعتها، ويتخلّص من غيلتها؟!

فهي غرّارة ضرّارة حائلة زائلة نافذة بائدة أكّالة غوّالة، حيُّها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، مُلكها مسلوب، ومالها منهوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، كيف لا وقد رأينا تنكّرها لمن أمن بها ودان لها واطمئنّ إليها حتّى ظعنوا عنها فراق الأبد، هل زوّدتهم إلاّ السغب، أو أحلّتهم إلا الضنك، أو تورث لهم الظلمة، أو أعقبتهم إلاّ الحسرة والندامة، فبئست الدار لمن لم يتّهمها ولم يكن فيها على وجل.

قوله (عليه السلام) «وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها، وتُفنيهم بحمامها، واعلموا عباد الله أنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا «من متاعها وحطامها وزبرجها وزخارفها (على سبيل مَن قد مضى قبلكم) من أهل الديار الخالية والربوع الخاوية.

]التاريخ وطول العمر:[

)ممّن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية.«

منهم عوج بن عناق كان جبّاراً عدوّاً لله، له بسطة في الجسم والخلق.(8)

ومنهم عاد قوم هود، فقد كانت بلادهم في البادية وكان لهم زرع ونخل كثير، ولهم أعمار طويلة، فعبدوا الأصنام وبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد، فأبوا فأهلكهم الله.(9)

ومنهم شدّاد بن عاد الذي بنى إرم ذات العماد في مدة ثلاثمائة سنة،وكان عمره تسعمائة سنة، قال في إكمال الدين: وجدت في كتب معمر أنّه ذكر عن هشام بن سعيد الرحّال، قال: إنّا وجدنا حجراً بالاسكندرية مكتوباً فيه: أنا شدّاد بن عاد، أنا شيّدت إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد، وجنّدت الأجناد، وشددت بساعديّ الواد.(10)

ومنهم لقمان بن عاد وكان من بقيّة عاد الأولى، فقد روي أنّه عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة.(11)

ومنهم فرعون ذو الأوتاد، قال في مجمع البيان: قال الضحّاك :إنّه عاش أربعمائة سنة، وكان قصيراً ذميماً، وهو أوّل من خضب السواد.(12)

ومنهم عمرو بن عامر الملقّب بمزيقنا وماء السماء، ملك أرض سبأ، فقد عاش ثمانمائة سنة، أربعمائة سنة سوقة في حياة أبيه، وأربعمائة سنة ملكاً، وكان يلبس كلّ يوم حليتين في سنيّ ملكه، فإذا كان بالعشيّ مزّق الحليتين حتّى لا يلبسها أحد غيره، سُمّي مزيقيا وسمّي بماء السماء أيضاً لأنّه كان حياة أينما نزل كمثل ماء السماء.(13)

ومنهم هبل بن عبد الله بن كنانة، عاش ستمائة سنة.(14)

ومنهم جلهمة بن أدد، ويقال له طيء وإليه تُنسب قبيلة طيء كلها، وكان له ابن أخ يقال له: يحابر بن ملك بن أود، وقد عاش كلّ منهما خمسمائة سنة.(15)

ومنهم عبيد بن الأبرص، عاش ثلاثمائة سنة حتّى قال:

فنيت وأفناني الزمان وأصبحت لديّ بنو نعش وزهر الفراقد(16)

ومنهم عزيز مصر الذي كان في زمن يوسف وأبوه وجدّه، وهو الوليد بن الريّان بن دومغ، وكان عمر العزيز سبعمائة سنة وعمر الريّان ألف وسبعمائة سنة، وعمر دومغ ثلاثة آلاف سنة.(17)

ومنهم الضحّاك صاحب الحيّتين عاش ألفاً ومأتي سنة.(18)

ومنهم أفريدون العادل عاش فوق ألف سنة.(19)

ومنهم الملك الذي أحدث المهرجان، فقد زعمت الفرس أنّه عاش ألفي سنة وخمسمائة سنة.(20)

[ذو القرنين:]

ومنهم الاسكندر عاش خمسمائة عام، وقد ملك الدنيا بأسرها وأخذ بقرني الشمس شرقها ومغربها، وقد ذكر الله تعالى قصّته في القرآن في سورة الكهف بقوله: «وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ

وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا».(21(

تفسير: قال الطبرسي (رحمه الله) في قوله تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ»، أي بسطنا يده في الأرض وملّكناه حتّى استولى عليها .وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: سخّر الله له السحاب فحمله عليها، ومدّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء، فهذا معنى تمكينه في الأرض، »وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً» أي وأعطيناه من كلّ شيء علماً وقدرة وآلة يتسبّب بها إلى إرادته «فَأَتْبَعَ سَبَباً »أي فأتبع طريقاً وأخذ في سلوكه، أو فأتبع سبباً من الأسباب التي أوتيها في المسير إلى المغرب «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ »أي آخر العمارة من جانب المغرب، وبلغ قوماً لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غرب الشمس «وَجَدَها تَغْرُبُ »أي كأنّها تغرب «فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ »وإن كانت تغرب وراءها، لأنّ الشمس لا تزايل الفلك ولا تدخل عين الماء، ولكن لمّا بلغ ذلك الموضع تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عين، كما أنّ من كان في البحر يراها كأنّها تغرب في الماء، ومن كان في البرّ يراها كأنّها تغرب في الأرض الملساء، والعين الحمئة: هي ذات الحمأ، وهي الطين الأسود المنتن، والحامية الحارة «إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ »أي بالقتل من أقام منهم على الشرك «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» أي تأسرهم وتمسكهم بعد الأسر لتعلّمهم الهدى «أَمَّا مَنْ ظَلَمَ »أي أشرك »فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ» أي نقتله إذا لم يُسلم «ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً »أي منكراً غير معهود في النار «وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى» أي المثوبة الحسنى، جزاءاً «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً »أي قولاً جميلاً، وسنأمره بما يتيسّر عليه، «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً» أي طريقاً آخر من الأرض يوصله إلى مطلع الشمس «حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ »أي إبتداء العمارة من جانب المشرق.(22(

وكذلك قال البيضاوي: أي أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار »وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ» من الجنود والآلات والعدد والأسباب «خُبْراً» أي علماً تعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أنّ كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلاّ علم اللطيف الخبير «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً» يعني طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب آخذاً من الجنوب إلى الشمال «حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ» بين الجبلين المبنيّ عليهما سدّه، وهما جبلا أرمينية وأذربايجان، وقيل: جبلان في أواخر الشمال في منقطع أرض الترك، من ورائهما يأجوج ومأجوج «لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً »لغرابة لغتهم وقلّة فطنتهم «قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ» أي قال مترجمهم »فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

خَرْجاً» أي جعلاً نخرجه من أموالنا؟ «قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ »أي ما جعلني فيه مكيناً من المال والملك خير ممّا تبذلون لي من الخراج ولا حاجة بي إليه «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ »أي بفعلة، أو بما أتقوّى به من الآلات «رَدْماً» أي حاجزاً حصيناً وهو أكبر من السد «زُبَرَ الْحَدِيدِ» أي قطعه «بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ» أي بين جانبي الجبلين بتنضيدها «قالَ انْفُخُوا» أي قال للعملة: انفخوا في الأكوار والحديد «حَتَّى إِذا جَعَلَهُ» أي جعل المنفوخ فيه »ناراً» أي كالنار بالاحماء «قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً» أي آتوني قطراً، أي نحاساً مذاباً أفرغ عليه قطراً، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه «فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ» أي أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وانملاسه «وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً» لثخنه وصلابته، قيل حفر للأساس حتّى بلغ الماء، وجعله من الصخرة والنحاس المذاب عليها فاختلط والتصق بعضها ببعض وصار جبلاً صلداً، وقيل بناه من الصخور مرتبطاً بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها «قالَ هذا «السد أو الإقدار على تسويته «رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي» على عباده «فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي »وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة »جَعَلَهُ دَكًّا» مدكوكاً مسوّياً بالأرض.(23(

قال الطبرسي (رحمه الله): قيل: إنّ هذا السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلي مؤخّرهما البحر المحيط، وقيل إنّه وراء دربند وخزران من ناحية أرمينية وآذربيجان، وقيل: إنّ مقدار ارتفاع السدّ مائتا ذراع، وعرض الحائط نحو من خمسين ذراعاً... وجاء في الحديث أنّهم يدأبون في حفره نهارهم، حتّى إذا أمسوا وكادوا يُبصرون شعاع الشمس قالوا: نرجع غداً ونفتحه ولا يستثنون، فيعودون من الغد وقد استوى كما كان، حتّى إذا جاء وعد الله قالوا: غداً نفتح ونخرج إن شاء الله، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه بالأمس فيخرقونه فيخرجون على الناس فينشفون المياه، وتتحصّن الناس في حصونهم منهم، فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع وفيها كهيئة الدماء فيقولون: قد قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً (أي دود يدخل في أنوف الإبل والغنم) في أقفائهم فتدخل في آذانهم فيهلكون بها، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): والذي نفس محمّد بيده إنّ دواب الأرض لتسمن وتسكر من لحومهم سكراً.(24(

محمد بن هارون الزنجاني، عن معاذ بن المثنى العنبري، عن عبد الله بن أسماء، عن جويرية، عن سفيان، عن منصور، عن أبي وائل، عن وهب قال: وجدت في بعض كتب الله (عز وجل) أنّ ذا القرنين لما فرغ من عمل السدّ انطلق على وجهه، فبينا هو يسير وجنوده إذ مرّ على شيخ يصلّي، فوقف عليه بجنوده حتّى انصرف من صلاته، فقال له ذو القرنين: كيف لم يردعك ما حضرك من جنودي؟ قال: كنت أناجي من هو أكبر جنوداً منك وأعزّ سلطاناً وأشدّ قوة، ولو صرفت وجهي إليك لم أُدرك حاجتي قبله، فقال له ذو القرنين: هل لك في أن تنطلق معي فأواسيك بنفسي،

وأستعين بك على بعض أمري؟ قال: نعم إن ضمنتَ لي أربع خصال: نعيماً لا يزول، وصحّة لا سقم فيها، وشباباً لا هرم فيه، وحياة لا موت فيها، فقال ذو القرنين: وأيّ مخلوق يقدر على هذه الخصال؟ فقال الشيخ :فإنّي مع من يقدر عليها ويملكها وإيّاك.

ثم مرّ برجل عالم فقال لذي القرنين: أخبرني عن شيئين منذ خلقهما الله (عز وجل) قائمين، وعن شيئين جاريين، وشيئين مختلفين، وشيئين متباغضين .فقال له ذو القرنين: أمّا الشيئان القائمان فالسماوات والأرض، وأمّا الشيئان الجاريان فالشمس والقمر، وأمّا الشيئان المختلفان فالليل والنهار، وأمّا الشيئان المتباغضان فالموت والحياة. فقال: انطلق فإنّك عالم، فانطلق ذو القرنين يسير في البلاد حتّى مر بشيخ يقلّب جماجم الموتى، فوقف عليه بجنوده فقال له: أخبرني أيّها الشيخ لأيّ شيء تقلّب هذه الجماجم؟

قال: لأعرف الشريف من الوضيع، والغنيّ من الفقير فما عرفت، وإنّي لأقلّبها منذ عشرين سنة. فانطلق ذو القرنين وتركه فقال: ما عنيت بهذا أحداً غيري.

فبينا هو يسير إذ وقع على الأمّة العالمة من قوم موسى الذين يهدون بالحقّ وبه يعدلون، فلمّا رآهم قال لهم: أيّها القوم أخبروني بخبركم فإنّي قد دُرت الأرض شرقها وغربها وبرّها وبحرها وسهلها وجبلها ونورها وظلمتها فلم ألقَ مثلكم، فأخبروني ما بال قبور موتاكم على أبواب بيوتكم؟ قالوا: فعلنا ذلك لئلاّ ننسى الموت ولا يخرج ذكره من قلوبنا، قال: فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب؟

قالوا: ليس فينا لصّ ولا ظنين، وليس فينا إلاّ أمين. قال :فما بالكم ليس عليكم أمراء؟ قالوا: لا نتظالم. قال: فما بالكم ليس بينكم حكّام؟ قالو: لا نختصم. قال: فما بالكم ليس فيكم ملوك؟ قالوا: لا نتكاثر. قال: فما بالكم لا تتفاضلون ولا تتفاوتون؟ قالوا: من قِبل أنّا متواسون متراحمون. قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟ قالوا: من أُلفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا. قال: فما بالكم لا تستبّون ولا تقتتلون؟ قالوا: من قِبل أنّا غلبنا طبائعنا بالعزم وسسنا أنفسنا بالحلم. قال: فما بالكم كلمتكم واحدة وطريقتكم مستقيمة؟ قالوا: من قبل أنا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يغتاب بعضنا بعضاً. قال: فأخبروني لم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟ قالوا: من قبل أنا نقسم بالسويّة. قال: فما بالكم ليس فيكم فظّ ولا غليظ؟ قالوا: من قِبل الذلّ والتواضع. قال: فلم جعلكم الله (عز وجل) أطول الناس أعماراً؟ قالوا: من قبل أنّا نتعاطى الحقّ ونحكم بالعدل. قال: ما بالكم لا تقحطون؟ قالوا: من قبل أنا لا نغفل عن الاستغفار. قال: فما بالكم لا تحزنون؟ قالوا: من قبل أنا وطّنّا أنفسنا على البلاء فقوينا أنفسنا. قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات؟ قالوا: من قبل أنا لا نتوكّل على غير الله (عز وجل)، ولا نستمطر بالأنواء والنجوم. قال: فحدّثوني أيّها القوم هكذا وجدتم آباءكم يفعلون؟ قالو: وجدنا آباءنا

يرحمون مسكينهم، ويواسون فقيرهم، ويعفون عمّن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، ويستغفرون لمسيئهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدّون أمانتهم، ويصدقون ولا يكذبون، فأصلح الله لهم بذلك أمرهم. فأقام عندهم ذو القرنين حتّى قُبض، وكان له خمسمائة عام.(25(

روى الصدوق عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: حجّ ذو القرنين في ستمائة ألف فارس، فلمّا دخل الحرم سبقه بعض أصحابه إلى البيت، فلمّا انصرف قال :رأيت رجلاً ما رأيت رجلاً أكثر نوراً ووجهاً منه، قالوا: ذلك إبراهيم خليل الرحمن)عليه السلام) قال: أسرجوا فأسرجوا ستمائة ألف دابة في مقدار ما يسرج دابّة واحدة، ثم قال ذو القرنين: نمشي إلى خليل الرحمن، فمشى ومشى معه أصحابه حتّى التقيا، قال إبراهيم (عليه السلام): بِم قطعت الدهر؟ قال: بإحدى عشرة كلمة: سُبحان من هو باق لا يفنى، سبحان من هو عالم لا ينسى، سبحان من هو حافظ لا يسقط، سبحان من هو بصير لا يرتاب، سبحان من هو قيّوم لا ينام، سبحان من هو مَلِك لا يُرام، سبحان من هو عزيز لا يُضام، سبحان من هو محتجب لا يُرى، سبحان من هو واسع لا يتكلّف، سبحان من هو قائم لا يلهو، سبحان من هو دائم لا يسهو.(26 (

وجاء عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ملك الأرض كلّها أربعة: مؤمنان، وكافران، فأمّا المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين، والكافران :نمرود وبخت نصر.(27 (

]الاسكندر والملكة الذكية:[

فالاسكندر ملك الأرض شرقها وغربها ولم يبق قطر إلاّ وقد استولى عليه، فذكروا له يوماً بأنّ مملكة في الاقليم الفُلاني لم تملكه ولم تستولي عليه، فقال: نسير إليه، وكان الذي يملك ذلك الاقليم امرأة بصيرة حاذقة من الفهم والذكاء فوق ما يوصف، فعرفت أنّ الاسكندر لا يتركها وشأنها، فقالت يوماً للمصوّرين :من رأى منكم الاسكندر فليصوِّر لي صورته، فخطّوا لها صورته، فجعلتها أمامها في المقصورة المطلّة على مدخل البلد، فكانت تنظر مرّة إلى الصورة ومرّة إلى الشارع الرئيسي حذراً من أن يدخل الاسكندر البلد من غير أن تظفر به، فسار الاسكندر بجيشه الجرّار الذي لا يقابله شيء حتّى حاذى المملكة، فأقام الجيش على بعد مسافة وغيّر لباس الملك ولبس ملبوس الناس المتعارف كي لا يُعرف، وكانت هذه عادته ليختبر القطر الذي يقصده فيعلم معدّاته واستعداده وقواه الحربيّة، فدخل بهذه الهيئة البلد، ولما نظرت إليه عرفته، فقالت للشرطة: انزلوا إلى ذلك الرجل بسرعة واقبضوا عليه قبل أن يدخل البلد، فزجّوه في السجن وامنعوا عنه الطعام والشراب ليله ونهاره، وما أسرع ما أُلقي القبض عليه وزُجّ في السجن من دون معرفة سابقة، ولا يعلم السبب لذلك، فكان يطلب منهم الطعام والشراب فلا يُعيروه سمعاً، حتى ضعف وأخذ بالارتعاش،

فأخبروها بذلك، وكان في قصرها غُرف واسعة فأمرت بأن توضع في إحداهن مائدة ويملؤوها بنفائس المجوهرات من اليواقيت والفلزات، ووضعت في آخرها قرص شعير يابس وإناء فيه قليل من الماء، وأمرت بأن توضع في إحدى الغرف مائدة تملئ بأنواع الطعام وما خلق الله من أنواع الفواكه، ولمّا كمل ذلك أخبروها بأن هُيّئ جميع ما أمرت به، فقالت: عليَّ به، فلما مثل بين يديها قالت له: من أنت؟ قال: رجل سائح، فقالت: أفهم ما تقول رجل سائح فمن أنت؟ فقال أيضاً: رجل سائح في البلدان، فقالت: سبحان الله أقول له من أنت فيجيب رجل سائح في البلدان، فقالت: أنت رجل سائح؟ قال: بلى، قالت: فهل رأيت أثناء سياحتك صاحب هذه الصورة وهل تعرفه؟ قال: لا ـ أي لا أخبرك ـ فقالت: عليَّ بمرآة، ثم قالت :ضعوها إلى جنب الصورة، فقالت له: قف أمام المرآة وانظر الصورتين هل تحسّ بفارق بينهما، فقال: دعينا من هذا القول وعجّلي لنا بالطعام والشراب فقد ضعفت، فقالت: ولم لم تقل من أوّل الأمر إنّي الاسكندر لتدفع عنك هذه المشقّة، ثم جائت به إلى المائدة التي فيها المجوهرات فقالت له: كُل، فقال: إن هذه لا تؤكل، ولمّا وقع بصره على قرص الشعير في آخر المائدة أسرع إليه فأكله وشرب عليه الماء، فانتظرته إلى أن فرغ، فأسرعت إليه وقالت: ما صنعت؟ هذا ليس بطعام لك ولا مأكولك، فذهبت به إلى مائدة الطعام وقالت: له كُل، فقال: إنّي شبعت، فقالت له: كيف وقد أعطاك الله الدنيا بأسرها فلم تشبع حتّى جئت تزاحمني على ما أملك؟! فقال: والله لقد جبتُ الدنيا بأسرها فما رأيت أذكى منك ولا أبصر بالأمور، فالقطر وما فيه لك وها أنا منصرف عنك، فقالت: احملوا معه هذه المجوهرات لعلّه يشبع .

]ذو القرنين وبلقيس:[

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن مجاهد قال: إنّ ذا القرنين ملك الأرض كلّها إلاّ بلقيس صاحبة مأرب، فإنّ ذا القرنين كان يلبس ثياب المساكين ثمّ يدخل المدائن فينظر من عورتها قبل أن يقتل أهلها، فأُخبرت بذلك بلقيس، فبعثت رسولاً ينظر إليه فيصوّر لها صورته في مُلكه حين يقعد، وصورته في ثياب المساكين، ثمّ جعلت كلّ يوم تُطعم المساكين وتجمعهم، فجاءها رسولها في صورته، فجعلت إحدى صورتَيه تليها والأخرى على باب الأسطوانة، فكانت تطعم المساكين كلّ يوم فإذا فرغوا عرضتهم واحداً واحداً فيخرجون، حتّى جاء ذو القرنين في ثياب المساكين فدخل مدينتها ثمّ جلس مع المساكين إلى طعامها، فقرّبت إليهم الطعام فلمّا فرغوا أخرجتهم واحداً واحداً وهي تنظر إلى صورته في ثياب المساكين، حتّى مرّ ذو القرنين فنظرت إلى صورته فقالت: أجلسوا هذا وأخرجوا من بقي من المساكين، فقال لها: لم أجلستيني وإنّما أنا مسكين؟ قالت: لا أنت ذو القرنين، هذه صورتك في ثياب المساكين، والله لا تفارقني حتّى تكتب لي أماناً بمُلكي أو أضرب عنقك، فلمّا رأى ذلك كتب لها أماناً، فلم ينجُ أحد منه غيرها» (تفسير

السيوطي مج 4 ص 247 ط 1.)

]الاسكندر وفيلسوف الهند:[

وذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب (مج 1 ص 182 ط سنة 1346 هـ مطبعة البهية بمصر): ولمّا قتل الاسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند، وانقاد إليه جميع ملوك الهند حسب ما ذكرنا من حمل الأموال والخراج إليه، بلغه أنّ في أقاصي أرض الهند ملكاً من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وإنصاف للرعيّة، وأنّه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين، وأنّه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله، يقال له كند، وكان قاهراً لنفسه، مُميتاً لصفاته من الشهوة الغضبيّة وغيرها، حاملاً لها على خُلق كريم وأدب زائن، فكتب إليه كتاباً يقول فيه: أمّا بعد، فإذا أتاك كتابي هذا، فإن كنت قائماً فلا تقعد، وإن كنت ماشياً فلا تلتفت، وإلاّ مزقتُ ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند.

فلمّا ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر بأحسن جواب وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنّه قد اجتمع له قِبله أشياء لا يجتمع عند غيره مثلها إلاّ من صارت إليه عنده، فمن ذلك ابنة له لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها، وفيلسوف يُخبرك بمرادك قبل أن تسأله، لحدّة مزاجه وحسن قريحته واعتدال بُنيته واتّساعه في علمه، وطبيب لا تخشى معه داء ولا شيئاً من العوارض إلاّ ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية وحلّ العقدة التي عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحيّ، وإن كانت بنية الإنسان وهيكله قد نُصبت في هذا العالم عرضاً للآفات والحتوف والبلايا، وقدح عندي إذا أنا ملأته شرب منه عسكرك بجميعه ولا ينقص شيء، ولا يزيده الوارد عليه إلاّ دهاقاً، وأنا مُنفذ جميع ذلك إلى الملك وصائر إليه.

فلمّا قرأ الاسكندر الكتاب ووقف على ما فيه، قال: تكون هذه الأشياء الأربعة عندي ونجاة هذا الحكيم من صولتي أحبّ إلي من أن لا تكون عندي ويهلك.

فأنفذ إليه الاسكندر جماعة من حكماء اليونانيّين في عدّة من الرجال، وتقدّم إليهم: إن كان صادقاً فيما كتب به فاحملوا ذلك إليّ ودعوا الرجل في موضعه، وإن تبيّنتم أنّ الامر بخلاف من ذلك وأنّه أخبر عن الشيء على خلاف ما هو به فقد خرج عن حدّ الحكمة، فأشخصوه إليّ، فمضى القوم حتّى انتهوا إلى الملك، فتلقّاهم بأحسن لقاء وأنزلهم أحسن منزل، فلمّا كان في اليوم الثالث جلس لهم مجلساً خاصّاً للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة، فقال بعض الحكماء لبعض: إن صدقنا في الأولى صدقنا فيما بعدها ممّا ذكر.

فلمّا أخذت الحكماء مراتبها واستقرّت بها مجالسها، أقبل عليهم مباحثاً لهم في أصول الفلسفة والكلام في الطبيعيّات وما فوقها من الإلهيّات، وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته، فطال الخطب في المبادي الأول وتشاح القوم ونظروا في موضوعات العلماء وترتيبات الحكماء على غير مراء، وتناهى بهم الحكماء إلى غاية كان إليها صدورهم من العلويّات، ثمّ أخرج الجارية فلمّا ظهرت لأبصارهم رمقوها بأعينهم، فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها ممّا ظهر فأمكنه أن يتعدّى ببصره إلى غيره، وشغله تأمّل ذلك وحسنه عن تأمّل حسن شكلها وإتقان صورتها، فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر إليها، ثمّ إنّ كلّ واحد منهم رجع إلى نفسه وفهمه وقهر سلطان هواه ودواعي طبعه، ثمّ أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به، وسيّرهم وسيّر الفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم وشيّعهم مسافة من أرضه .

فلمّا وردوا على الاسكندر وأمر بإنزال الطبيب والفيلسوف، ونظر إلى الجارية فحار عند مشاهدتها وبهرت عقله، وأمر قيّمة جواريه بالقيام عليها، ثمّ صرف همّته إلى الفيلسوف وإلى علم ما عنده وإلى علم الطبيب ومحلّه من صنعة الطب وحفظ الصحّة، وقصّ الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندي ومن أحضره من فلاسفته وحكمائه، فأعجبه ذلك وتأمّل أغراض القوم ومقاصدهم والغاية التي إليها كان أصدرهم، وأقبل ينظر إلى مطاردة الهند في عللها ومعلولاتها ومايصفه اليونانيّون من عللها وصحة قياسها على ما قدّمنا من أوضاعها، ثمّ أراد محنة الفيلسوف على حسب ما أُخبر عنه، فخلا بنفسه وأجال فكره، فسنح له سانح من الفكر بإيقاع معنىً يختبره به، فدعا بقدح فملأه سمناً وأدهقه ولم يجعل للزيادة عليه سبيلاً ودفعه إلى رسولٍ له وقال له: امضِ به إلى الفيلسوف ولا تُخبره بشيء، فلمّا ورد الرسول بالقدح ودفعه إلى الفيلسوف قال بصحّة فهمه وتبيّنه للأمور المتقنة المحكمة في نفسه: لأمرٍ ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن إليّ، وأجال فكره وسبر المراد به، ثم دعا بنحو ألف ابرة فغرز أطرافها في السمن وأنفذها إلى الاسكندر، فأمر الاسكندر بسبكها كرة مدوّرة ململمة متساوية الأجزاء وأمر بردّها إلى الفيلسوف، فلمّا نظر إليها الفيلسوف وتأمّل فِعل الاسكندر فيها، أمر ببسطها وبأن يُتّخذ منها مرآة بحضرته وصقلها، فصارت جسماً صقيلاً تردّ صورة من قابلها من الأشخاص لشدّة صفائها وزوال الدون عنها وأمر بردّها إلى الاسكندر، فلمّا نظر إليها وتأمّل حسن صورته فيها، دعا بطست فجعل المرآة فيه وأمر بإراقة الماء فيه عليها حتّى رسبت وأمر بحمل ذلك إلى الفيلسوف. فلمّا نظر الفيلسوف إلى ذلك أمر بالمرآة فجعل منها مشربة كالطرجهارة وجعلها في الطست فوق الماء فطفت فوقه وأمر بردّها إلى الاسكندر، فلمّا نظر الاسكندر إلى ذلك أمر بتراب ناعم فمُلئت منه وردّها إلى الفيلسوف، فلمّا نظر الفيلسوف إلى ذلك تغيّر لونه وحاله وجزع وتغيّرت صفاته وأسبل دموعه على خدّه وكثر شهيقه وطال أنينه وظهر

حنينه، وأقام بقيّة يومه غير منتفع بنفسه، ثمّ أفاق من ذلك الحال وزجر نفسه وأقبل عليها كالمعاتب لها وقال: ويحك يا نفسي ما الذي قذف بك في هذه السلافة؟ وأصار بك إلى هذه الغمّة؟ ووصلك بهذه الظلمة؟ أنسيتِ وأنت في النور تسرحين وفي العلوم تمرحين، وتنظرين في الضياء الصادق وتتفسّحين في العالم المشرق، أنزلت إلى عالم الظلم والمعاندة والغشم والمفاسدة، تخطفك الخواطف وتنتهرك العواصف، قد حرمت علم الغيوب والكون في العالم المحبوب، ورميت بشدائد الخطوب ورفضت كلّ مطلوب، أين مصادرك الطبّيّة وراحتك القوية، حللت في الأجساد فقوى عليك الكون والفساد. حللت يا نفس بين السباع القاتلة والأفاعي المهلكة والنيران المحرقة والريح العاصفة، وصيّرتك الأعمار علي قرارات الأجسام، لا تشاهدين إلاّ غافلاً، ولا ترين إلاّ جاهلاً قد زهد في الخيرات ورغب عن الحسنات.

ثمّ رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر، فقال بأعلى صوته :يا لك من نجوم سائرة وأجسام زاهرة، من عالم شريف طلعتِ، ولشيءٍ ما وُضعت، إنّك من عالم نفيس قد كانت النفس في أعاليه ساكنة وفي أكنافه قاطنة، فقد أصبحت عنه ظاعنة.

ثمّ أقبل على الرسول وقال: خُذه وردّه إلى الملك - يعني التراب - ولم يُحدث فيه حادثة، فلمّا ورد الرسول على الاسكندر وأخبره بجميع ما شاهد فتعجّب الاسكندر من ذلك وعلم مرامي الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة ممّا علا من العوالم إلى هذا العالم، ولمّا كان في صبيحة تلك الليلة، جلس له الاسكندر جلوساً خاصاً ودعا به ولم يكن رآه قبل ذلك، فلمّا أقبل ونظر إلى صورته وتأمّل قامته وخلقته، نظر إلى رجل طويل الجسم رحب الجبين معتدل البنية، فقال في نفسه: هذه بنية تضادّ الحكمة، فإذا اجتمع حُسن الصورة وحُسن الفهم كان أوحد زمانه، ولست أشكّ أنّ هذا الشخص قد علم كلّ ما راسلته به وأجابني عليه من غير مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة، فليس في وقته أحد يدانيه في حكمته، ولا يلحقه في علمه.

وتأمّل الفيلسوف الاسكندر فأدار اصبعه السبّابة على وجهه ووضعها على أرنبة أنفه وأسرع نحو الاسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه، فحيّاه بتحيّة الملوك، فأشار إليه الاسكندر بالجلوس، فجلس حيث أمره، فقال له الاسكندر: ما بالك حين نظرت إليَّ ورميتَ بطرفك نحوي أدرت اصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك؟ قال: تأمّلتُك أيّها الملك بنوريّة عقلي وصفاء مزاجي فتبيّنت فكرتك وتأمّلك لصورتي وأنّها قلّما تجتمع مع الحكمة، فإذا كان ذلك كان صاحبها أوحد زمانه، فأدرت أصبعي مصداقاً لما سنح لك، وأريتك مثالاً شاهداً، كما أنّه ليس في الوجه إلاّ أنف واحد، فكذلك ليس في دار مملكة الهند غيري، ولا يلحق أحد من الناس بي في حكمتي.

فقال له الاسكندر: ما أحسن ما تأتى لك ما ذكرت وانتظم لك بحسن الخاطر ما صنعت، فدع عنك هذا. ما بالك حين

أنفذت إليك قدحاً مملوءاً سمناً غرزت فيه إبراً ورددته إلي؟ قال الفيلسوف: علمت أيها الملك أنّك تقول: إنّ قلبي امتلأ، وعلمي قد انتهى كامتلاء هذا الإناء من السمن، فليس لأحد من الحكماء فيه مستزاداً، فأخبرت الملك أنّ علمي يستزيد في علمه ويدخل فيه دخول هذه الابر في هذا الإناء، قال: فأخبرني ما بالك حين عُمل من الابر كرة وأقدمتها إليك صيّرتها مرآة ورددتها إلي صقيلة؟ قال: علمت أيّها الملك أنّك تريد أنّ قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة، فلا يقبل العلم ولا يرغب في فهم الغايات والعلوم والحكمة، فأخبرتك مجيباً ممثّلاً بسبك الكرة والحيلة في أمرها بجعلي منها مرآة صقيلة مؤدّية إلى الاجسام عند المقابلة لحسن الصفاء، قال له الاسكندر: صدقتَ، قد أجبتني عن مرادي، فأخبرني أيّها الفيلسوف حين جعلت المرآة في الطست ورسبت في الماء جعلتها قدحاً فوق الماء طافية ثمّ رددتها إليَّ؟ قال الفيلسوف: علمتُ أنّك تريد بذلك أنّ الأيام قد انقضت وقصرت، وأنّ الأجل قد قرب، ولا يدرك العلم الكثير في المهل القليل إلى قلبه وتقريبه من فهمه كاحتيالي للمرآة من بعد كونها راسبة في الماء حتّى جعلتها طافية عليه، قال له الاسكندر: وصدقت، فأخبرني ما بالك حين ملأتُ الاناء تراباً رددتَه إليّ ولم تحدث فيه حادثة كفعلتك فيما سلف؟ قال: علمت أنّك تقول: ثمّ الموت وإنّه لا بدّ منه، ثمّ لحوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس المعتلّ الذي هو الأرض ودثورها وتفرّق أجزائها، ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئيّ.

قال الاسكندر: صدقت، ولأحسننّ إلى الهند من أجلك، وأمر له بجوائز كثيرة، وأقطعه قطائع واسعة، فقال له الفيلسوف: لو أحببتُ المال لما أردت العلم، ولست أُدخل على علمي ما يضاده وينافيه، واعلم أيّها الملك أنّ الغنية توجب الخدمة، ولسنا نجد عاقلاً من خدم غير ذاته واستعمل غير ما يصلح نفسه، والذي يصلح النفس الفلسفة، وهي صقالها وغذاؤها، وتناول الحيوانيّة وغيرها من الموجودات ضدّ لها، والحكمة سبيل إلى العلوّ وسلّم إليه، ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه.

واعلم أيّها الملك أنّ بالعدل رُكّب جميع العالم بجزئيّاته ولا يقوم بالجور، والعدل ميزان البارئ جلّ وعزّ، فكذلك حكمته مبرّأة عن كلّ ميل وزلل، وأشبه الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الاحسان إلى الناس، وقد ملكتَ أيّها الملك بسيفك وصولة ملكك وتأنّيك في أمورك وانتظام سياستك أجسام رعيتك، فتحرّ أن تملك قلوبهم بإحسانك إليهم وإنصافك لهم وعدلك فيهم، فهي خزانة سلطانك، فإنّك إن قدرت أن تقول قدرت أن تفعل، فاحترز من أن تقول تأمن من أن تفعل. فالملك السعيد من تمّت له رياسة أيامه، والملك الشقيّ من انقطعت عنه، فمن تحرّى في سيرته العدل استنار قلبه بعذوبة الطهارة. وأمّا القدح فامتحنه حين أدهقه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه شيئاً وكان معمولاً

بضرب من خواص الهند والروحانيّة والطبايع التامّة والتوهّم وغير ذلك من العلم ممّا يدّعيه الهند، وقد قيل أنّه كان لآدم أبي البشر (عليه السلام) بأرض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيها، فورث عنه وتداولته الملوك إلى أن انتهى إلى كند هذا الملك العظيم سلطانه وما كان عليه من الحكمة، وقيل غير ذلك من الوجوه.»

)في المجلد الثاني من كتاب الشاهنامه للفردوسي ص 16 ط مصر وقد ترجمها إلى اللغة العربية نثراً الفتح بن علي البنداري.(

* * *

(1)يونس: 30.

(2)النساء: 78.

(3)الغاشية: 15.

(4)كمال الدين للصدوق: 577، من كلام للناسك مع أحد ملوك الهند.

(5)الحديد: 20.

(6)هود: 16.

(7)البحار للمجلسي 74: 21 - 28/ ح6، نقلاً عن إرشاد القلوب للديلمي.

(8)راجع قصّته في البحار للمجلسي 11: 243 /ح36، باب 5.

(9)مجمع البيان للطبرسي 4: 287.

(10)كمال الدين للصدوق: 555.

(11)كتاب الغيبة للطوسي: 114/ ح87.

(12)مجمع البيان للطبرسي 7: 414.

(13)كمال الدين للصدوق: 560.

(14)البحار للمجلسي 51: 240.

(15)كتاب الغيبة للطوسي: 124.

(16)كمال الدين للصدوق: 558.

(17)المصدر السابق: 563.

(18)الغيبة للطوسي: 123.

(19)المصدر السابق.

(20)المصدر السابق.

(21)الكهف: 83 - 98.

(22)مجمع البيان للطبرسي 6: 382.

(23)أنوار التنـزيل للبيضاوي 2: 11 - 12، كما في البحار 12: 172 - 173.

(24)مجمع البيان للطبرسي 6: 389.

(25)الأمالي للصدوق: 235/ ح251/ 7.

(26)رواه أيضاً الراوندي في قصص الأنبياء /125: ح124.

(27)الخصال للصدوق: 255/ ح130.

]ذكر طواف الاسكندر في أقطار العالم وما رآى فيها من العجائب:[

»قال صاحب الكتاب: ثمّ أنّ الاسكندر سار في عساكره إلى أن وصل إلى مدينة البراهمة، فلمّا علموا بوصوله خلصوا نجيّاً، واجتمع رأيهم على أن كتبوا إليه كتاباً يقولون فيه: أيّها الملك ماذا تريد من مدينة سكّانها عباد الله؟ فإن كنت تريد منهم المال فما أنقص عقلك، وهم قوم ليس عندهم سوى الصبر والعلم، وذلك ممّا لا يُسلبونه. ولو أقمتَ ها هنا لاحتجتَ أن تأكل الحشيش كما يأكلون.

وكان الواصل بهذا الكتاب إلى الاسكندر رجلاً حافياً حاسراً ملتحفاً بإزار منسوج من الحشيش، فلمّا قرأ الكتاب ترك العسكر في مكانه، وركب في جماعة من فلاسفته، وصار إليهم إلى مدينتهم، فاستقبلوه وأحضروه من قُوتهم الذي كانو يُزجون به وقتهم، ودعوا له وأثنوا عليه، فرآهم قوماً حفاة عراة قد ستروا عوراتهم بأُزر من الحشيش، ورأى فيهم عابداً قد اتّزر بجلد غزال، فخاطبهم الاسكندر في أمر ملبوسهم، فقال: من وُلد عرياناً فلا ينبغي له أن يكون حريصاً على الملبوس، على أنّه إذا واراه التراب فهو على خوف من العذاب والبؤس، فسأله الاسكندر عن أعظم الذنوب فقال: الحرص على الدنيا، وإن أردت أن تقف على حقيقة ذلك فاعتبر بنفسك، فإنّك مع احتوائك على جميع ممالك الأرض طالب إليها الزيادة، غير قانع بعظيم ما أُوتيت من الملك والسيادة، ثم قال لهم: ارفعوا إليّ حوائجكم فلن ادّخر عنكم

شيئاً، وأسعفكم بمطالبكم عفواً، فقال له أحدهم: أيّها الملك! أغلق دوننا باب الشيب والموت، فقال له: كيف تسلم من الموت وهو لا محالة يهدم بناء عمرك وإن كان من حديد؟ وكيف تنعم بالشباب ومشرعه لا بدّ أن يكدّر برنق المشيب؟ فقال له البرهمي: إذا كنت تعلم أنّه لا مفرّ من الموت ولا سلامة من غصّة الشيب، فما بالك قد صرت تطلب الاحتواء على العالم بجهدك، وتعرض للسمّ القاتل نفسك، وتتعب لغيرك، وتجمع لمن يفرّقه من بعدك؟ والشيب بين يدَي الموت نذير، وإذا طمعت في الحياة بعده فليس لك عذير. ثمّ أنّ الاسكندر وهب لهم هبات كثيرة فما قبلوها، واستعرضهم حوائجهم فما عرضوها. فانصرف عنهم.

وسار حتّى وصل إلى بحر عظيم فرأى عنده رجالاً متنقّبين كالنساء لا يعرف لسانهم عربي ولا فهلوي. ليس لسانهم العربي ولا الفارسية القديمة ولا الفهلويّة ولا التركيّة ولا الصينيّة، وكان قُوتهم من السمك وحيوان البحر، ثمّ أنّه لمح وسط البحر جبلاً أصفر كالشمس، فأمر بإلقاء سفينة في الماء ليركبها ويشاهد عجائب ذلك الجبل. فمنعه من ذلك بعض الفلاسفة وقال: لا تخاطر بنفسك، وليركبها غيرك ممّن يأتي بخبره.

فأركب تلك السفينة ثلاثين شخصاً من الروم وغيرهم، فلمّا قربت السفينة الجبل تحرّك، وإذا به حوت، فالتقم السفينة بمن فيها وانساب في البحر، فتعجّب وقال: العلماء حفظة أرواح الملوك، فطوبى لمن عرف قدرهم واتّبع أمرهم.

فسار الاسكندر إلى أرض قصباء عظيمة القصب كأنّها أشجار الدلب عظماً، وفيها غدير عظيم ماؤه زعاق كأنّه سمّ ذعاف، فعبر منه وانتهى إلى ساحل بحر آخر عظيم، فصادف أرضاً طيّبة العرف كأنّها تتأرّج بأريج المسك، وماء عذب المذاق في حلاوة الشهد، فنـزلوا واستراحوا وأراحوا، فبينما هم من منـزلهم إذ خرجت من الماء أفاعٍ كثيرة، وطلعت من الأجمة عقارب كالفأر ملتهبة، فأتتهم من جميع جوانبهم فُحول من الخنازير ذوو أنياب كالحراب، وضواري سباع ما لأحد بها طاقة، فهلك من الأكابر والامراء خلق كثير، فارتحلوا وانحازوا عن ذلك المكان، وطرحوا فيما كان هناك من القصب حتّى احترق، وقتلوا كثيراً من تلك السباع.

فسار من ذلك المكان إلى أرض الحبشة، فاجتمعت منهم آلاف مؤلّفة من كلّ غرابي ترتجّ الأرض بنعيبه، ويمتلئ الجو بنعيقه، فقاتلوه برماح أسنّتها من العظام فقتلوا كثيراً من أصحابه، فأمر عند ذلك رجاله بالجدّ في قتالهم، فتدبّجوا وصافّوهم فكانت الدبرة على الحبشة وأفناهم القتل، ولما جنّ الليل سمعوا صوت الكركدن فتصدّى لهم ـ وهو حيوان أعظم من الفيل له قرن في أمّ رأسه في لون النيل، فأهلك خلقاً من أصحابه، ثمّ رشقوه بالسهام فانهدّ كأنه جبل من حديد.

ثمّ لمّا أصبح رحل وسار حتّى وصل إلى أرض فيها خلق عراة كأنّهم أشجار باسقة، فلمّا رأوا الاسكندر صاحوا

واجتمعوا وقاتلوهم بالحجارة وأمطروها عليهم، فواقعهم أصحاب الاسكندر وقتلوهم حتّى لم يبق منهم إلاّ قليل.

وسار حتّى وصل إلى مدينة كبيرة بين يديها جبل عظيم يكاد يمسّ السماء، فاستقبله أهلها بالتحف والمبارّ والخدم، فأحسن إليهم، ثمّ سائلهم عن الطريق فقالوا: أيّها الملك كان الطريق على هذا الجبل، وقد قطعه الآن ثعبان عظيم لا يتجاسر معه أحد على العبور فيه، وله علينا كلّ يوم وظيفة خمسة ثيران نُلقيها إليه فيبتلعها وينكفّ بذلك عن أن يتقدّم إلى هذا الجانب، فأمر الاسكندر بخمسة ثيران فذُبحت وسلخت جلودها وحُشّيت سماً ونفطاً، فأمر بإصعادها إلى الجبل وإلقائها إلى الثعبان، فابتلعها فلم يلبث أن تقطّعت أمعاؤه من السم، وصعد بخار السم والنفط إلى دماغه فأخذ يضرب رأسه على الجبل حتّى انفلق وتشقق، فقطعوه بالسيوف.

وعبر الاسكندر بعساكره وسار حتّى وصل إلى جبل آخر عال في السماء، فأصعدوا فيه فرأوا على رأس الجبل تختاً من الذهب منصوباً وعليه شيخ ميّت مسجّى بديباج، على رأسه تاج مرصع بجواهر تزهر العيون، فلم يتجاسر أحد على القرب منه، وكان كلّ من يقدم إليه تأخذه الرعدة في مكانه ويموت في وقته، فلما صعد الاسكندر ذلك الجبل ورأى التخت سمع هاتفاً يقول: أيّها الملك قد جهدت زماناً طويلاً وأفنيت من الملوك كثيراً، وقد دنا وقتك وحان حينك، فعظم عليه ذلك واصفرّ لونه.

وسار قاصداً قصد مدينة هروم، وهي مدينة سكّانها بنات أبكار لا يمكن أحداً من القرب من المدينة، لم يخلق للواحدة منهن إلاّ ثدي واحد وهو الأيمن فحسب، وهنّ في الأيسر كالرجال. قال: فكتب الاسكندر إليهن كتاباً يدعوهنّ إلى الطاعة ويذكر أنّه ما جاء لقصد قتالهنّ ولا لنهب بلادهنّ، وأنّه لم يرد سوى رؤية المدينة والاعتبار بأحوالها، ونفذ الكتاب فيلسوفاً وأمره أن يُلاطفهنّ في الخطاب ويرجع إليه بالجواب، فصادف الرسول أهل المدينة نساء كلّهنّ ليس فيها رجل، فاستقبلنه على الخيول في آلات الحرب، فقرأن الكتاب وقلن في جوابه: إنّك رجل كبير وصيتك عال رفيع فلا تفسدنّه بأن يقال أنّك قاتلت النساء وانهزمت منهنّ، فإنّ ذلك يجرّ عليك عاراً لا يزول أبداً، ولكن إن جئت للتطواف في مدينتنا والنظر إليها والوقوف على أحوالها، أكرمنا مقدمك وتلقّينا بالجميل موردك، وختمن الكتاب وأنفذنه على يدي امرأة عاقلة في ملابس الملوك ومعها عشر فوارس منهنّ، فلمّا أتت الاسكندر ووقف على ما صحبها من الجواب أكرمها وقال: ما لي حاجة في مدينتكنّ سوى النظر إليها، إذا حصل ذلك عبرت وتجاوزت إلى طرف آخر. فعادت وأعلمت صواحبها بما جرى، فاجتمعن واتفقن على إعداد تحف برسم الملك، من التيجان المرصعة والجواهر النفيسة وغير ذلك ممّا يصلح أن يخدم الملوك.

ثمّ رحل الاسكندر من منزله وسار، فهاج عليهم بعد مرحلتين هواء شديد وتغيّمت السماء وسقط عليهم ثلج أهلك خلقاً

من أصحاب الاسكندر، فسار في ذلك الزمهرير منـزلين، ثمّ شاهدوا دخاناً مرتفعاً في السماء وسحاباً أسود كأنّه يمطر النار، فحمى الهواء وعظم الحرّ حتّى حميت الدروع على أكتاف الرجال فأحرقتها، فسار على ذلك فوصل إلى مدينة فيها ناس سود الوجوه كالسبج، هدل الشفاه، تتوقّد النار من أحداقهم وتخرج من أفواههم، فاستقبلوا الاسكندر وخدموه بفيلة عظيمة وتحف كثرة وقالوا: إنّا لم نر أحداً وصل إلى هذه المدينة، ولم نر راكب فرس قطّ، فأقام الملك فيها شهراً. ثمّ سار قاصداً قصد مدينة النساء، فعبر إليه البحر جلائل أهلها في ألفين من فوارسهنّ مستقبلات له، فقدّمن إليه برسم الهدية تيجاناً مرصّعة وجواهر نفيسة وثياب وشي، ثم ركب الاسكندر ووصل إلى المدينة فأكرمن مقدمه ونثرن عليه نثارات، وخدمنه بتحف ومبرّات، ولمّا رأى المدينة وأهلها، ووقف على أحوالها، خلع عليهنّ وأحسن إليهنّ وارتحل.

]وصول الاسكندر مغرب الشمس:[

وسار قاصداً قصد مغرب الشمس، فوصل إلى مدينة فيها ناس حمر الوجوه صفر الشعور، فسايلهم الاسكندر عمّن يعرف عجائبها؟ فقال له من أهل تلك المدينة شيخ طاعن في السن: إنّ وراء مدينتنا عيناً كبيرة فيها تغرب الشمس وتغيب، ووراء هذه العين ظلمات، وفيها من العجائب ما لا يحيط به الوصف، وقد قال بعض عبادنا :إنّ فيها عيناً يقال لها عين الحياة، من شرب منها يخلد ولا يموت، لأنّ مدد مائها من أنهار الفردوس، ومن اغتسل فيها تساقطت عنه ذنوبه، فقال له الاسكندر: كيف تسلك الدواب طريق هذه الظلمة؟ فقال: من أراد أن يسلك طريقها لا ينبغي أن يركب إلا مهراً.

فأمر الاسكندر بجمع الخيل فاختار منها عشرة آلاف مهر رباع قوي، وسار في عساكره حتّى وصل إلى مدينة كبيرة فيها نعم كثيرة وبساتين وسيعة وقصور رفيعة فنـزل فيها، وصار وحده إلى مغرب الشمس، فبقي ينتظر غروبها، فلمّا كان عند الغروب شاهد قرص الشمس وهو يغيب في تلك العين، فجعل يسبّح الله تعالى ويقدّسه، ثمّ انصرف إلى معسكره فانتخب من أصحابه من عرفه بالعقل والصبر، وتزوّد لأربعين يوماً، واختار من يصلح أن يتقدّم أمامهم ويسير بين أيديهم، فوقع الاختيار على الخضر صلوات الله وسلامه عليه فإنّه كان سيد الجماعة وصاحب الرأي فيما هم بصدده، ففوّض الاسكندر إليه أمره، وقال: أيّها الرجل المتيقّظ! نبّه قلبك لهذا الأمر، فإنّا إن عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى إلى آخر الأبد.

وإنّ معي خرزتين تتّقدان كالشمس في جنح الليل، فخذ إحداهما وسر قدّام القوم، وتكون الأخرى معي، وأنا والعسكر نقتفي أثرك، ونبصر ماذا قسم الله تبارك وتعالى لنا.

]الخضر وعين الحياة:[

فتقدّم الخضر وسار الاسكندر في أثره حتّى سار في الظلمات مرحلتين، ولما كان المنـزل الثالث عرض لهم في الظلمات طريقان فسار الخضر في احدى الطريقين ووصل إلى عين الحياة فشرب منه واغتسل وفاز بالمطلوب، وضلّ الاسكندر عنه فسلك الطريق الآخر فأفضى به إلى الضوء، وخرج من الظلمة فرأى جبلاً شاهقاً في السماء على رأسه أشجار من العود، وعلى كلّ شجرة طائر أخضر، فلمّا رأته الطيور نطقن بإذن الله باللسان الروحيّ، فدنا من طائر وأصغى يسمع كلامه فقال له: ماذا تريد أيها الثعبان (أو التعبان) من الدنيا الفانية، وأنت لو بلغت السماء لم يكن لك بدّ من الموت، ثمّ قال للاسكندر: هل حدث الزنا؟ وهل استُعمل الآجر في البناء؟ فقال: نعم، فقال: وهل قرع سمعك صوت المزهر وصياح السكران ونغم الغناء؟ فقال: نعم، فنـزل إليه الطائر عند ذلك وقال: أيّما أكثر العلم مع السداد أم الجهل مع الفساد؟ فقال: العالم بين الناس عزيز، فرجع الطائر إلى مكانه وقال له: هل يسكن العباد في بلادكم الجبال؟ فقال: وهل لهم سكن إلاّ في الجبال. ثم قال له: اصعد إلى رأس هذا الجبل وحدك راجلاً ليس معك أحد فأبصر ما هنالك.

فصعد الاسكندر وحده فرأى إسرافيل (عليه السلام) على رأس ذلك الجبل وبيده الصور، وقد نفخ شدقيه وملأ من الدموع عينيه ينتظر حتّى يأتيه الأمر فينفخ، قال فلمّا نظر إلى وجه الاسكندر صاح عليه وقال: يا عبد الحرص لا تجهدّن هذا الجهد فسوف يأتيك الأمر بالمسير، ويقرع سمعك النداء بالرحيل، فقال الاسكندر: لم يُقسم لي غير الحركة والطواف في أقطار الأرض، ثم نزل من الجبل حليف كآبة ورنين وعاد القهقرى إلى الظلمات، فلما توغّلها هتف هاتف من الجبل الأسود الذي كان هنالك وقال :من يحمل من حجارة هذا المكان يندم، ومن لا يحمل منها فهو أيضاً يندم، فحمل منها بعضهم وأعرض عنها بعضهم، فلمّا خرجوا من تلك من الظلمات رأوا تلك الحجارة جواهر ويواقيت، فندم من حمل حيث لم يستكثر، وندم من لم يحمل حيث لم يحمل.

]وصول الاسكندر إلى مشرق الشمس وقصة يأجوج ومأجوج:[

قال: ثمّ إنّ الاسكندر أقام بعد خروجه من الظلمات مقدار أسبوعين، ثمّ ارتحل متوجّهاً نحو المشرق، فسار حتّى انتهى إلى مدينة كبيرة، فاستقبله أكابر أهلها فأكرمهم الاسكندر وأحسن إليهم، ثمّ سايلهم عن عجائب ما هنالك، فأجهشوا إليه بالبكاء وقالوا: أيّها الملك: إنّ أمامنا أمراً عظيماً لا بدّ لنا عن عرضه على رأيك، ونحن منه في عناء وتعب شديد، وذلك أنّ وراء هذا الجبل يأجوج ومأجوج وهم يُفسدون في أرضنا ويعيثون في بلادنا، وهم في خلقهم بحيث لا تتجاوز

قامة أحدهم شبراً، ومع ذلك فقد ملأوا الأرض فساداً وشراً، ولهم وجوه كوجوه الإبل وأنياب كأنياب الخنازير، ألسنتهم سود وأعينهم حمر، وعلى أبدانهم شعور في لون النيل، ولهم آذان كآذان الفيلة، إذا نام أحدهم افترش إحدى أُذنيه والتحف بالأخرى، لا تموت الأنثى منهم حتّى تلد ألف مولود، وهم في الكثرة بحيث لا يعرف عددهم إلا الله (عز وجل(، وإذا كان فصل الربيع وجاش البحر وأرعد الجوّ احتمل السحاب التنين من البحر فألقاه إليهم، فيجتمعون إليه ويأكلون منه حتّى تعبل أجسامهم وتسمن أبدانهم، ويكون ذلك من السنة إلى السنة، وفي سائر السنة يجتزئون بنبات الأرض وبما يختطفونه من كلّ جانب، وإذا كانت أيّام الشتاء اعتراهم الضعف حتّى يصير صوت أحدهم في رز صوت الحمام، وإذا أقبلت أيّام الربيع عادوا كالذئاب الضارية.

فإن أنعم الملك بالتدبير في كفاية شرّهم وكفّ معرّتهم شُكر سعيه بكلّ لسان، ودام ذكره إلى آخر الزمان.

فتعجّب الاسكندر ممّا أوردوا واهتم لذلك، ثمّ غاص في بحر الفكر فقال لهم: إنّي أعاونكم منّي بالأموال والكنوز، فعاونوني بنفوسكم حتّى أعمل دونهم سدّاً بقدرة الله الذي لا إله إلاّ هو سبحانه وتعالى، فدعوا له وقالوا: إنّا كلّنا عبيدك فيما تأمر به، فجاء الاسكندر في علماء فلاسفته وأصحاب رأيه، فنظر إلى الجبل فأمر باستدعاء الحدّادين والفعلة، وأمر باحضار النحاس والرصاص والجصّ والحجارة والحطب، فجمعوا في كلّ واحد ما لا يحيط به الحصر، وحشر صناع الأقاليم فسدّ ما بين الجبلين بسدّين من قرار الأرض إلى رأس الجبل، وجعلوا الأساس في عرض مائة ذراع، فكانوا يصفّون من زبر الحديد صفاً في مقدار ذراع، ويضعون عليه الفحم والنحاس، ويجعلون الكبريت فوقه، ثم صفاً آخر فوقه كذلك، ثم آخر وآخر حتّى انتهى إلى رأس الجبل وساوى ما بين الصدفين، ثمّ خلطوا النفط والدهن وأفرغوه على رأس الجميع، ثمّ صبّوا عليه الفحم، ثمّ ألقوا فيه النار.

واجتمع عليه مائة ألف حدّاد ينفخون فيه، فارتفع الدخان في السماء وتمكّنت النار فيه وبقيت كذلك تتقّد زماناً حتّى تراصّت الأجزاء وتهدّم البناء، فتخلّص العالم بالسدّ الاسكندري من شرّ يأجوج ومأجوج وعاديتهم ولله الحمد، قال: وطول هذا السد خمسمائة ذراع في عرض خمسمائة ذراع.

ولمّا أحكم الاسكندر ذاك ارتحل من تلك المدينة وسار مسيرة شهر فوصل إلى جبل من اللازورد على رأسه بيت من الياقوت الأصفر، فيه قناديل معلّقة من البلّور، وفي وسطه عين ماء مالح فيه جوهر أحمر، له أشعّة تنبثّ أنوارها على الماء فيمتلئ البيت منه بالأضواء، وعند العين تخت من الذهب منصوب، عليه شخص مسجّى مضطجع، رأسه كرأس خنزير، وبدنه كبدن إنسان، قد فرش تحته الكافور، وكان من أخذ شيء من ذلك البيت تأخذه الرعدة ويموت في مكانه.

فسمع الاسكندر هاتفاً من تلك العين يقول: أيّها الرجل الحريص، لا تحرصنّ هذا الحرص كلّه فقد رأيت ما لم يره أحد،

فالواجب أن تصرف الآن عنانك فقد دنت أيّامك، وشارف الانقضاء ملكك.

ففزع الاسكندر وأسرع الانصراف إلى معسكره.

ثمّ ارتحل وسار حتى خرج من البرّيّة وانتهى إلى مدينة آهلة ففرح حين سمع صوت الإنس واستأنس، فتلقّاه أهل المدينة وأظهروا السرور بمقدمه ونثروا عليه النثار الكثير، وقالو: نحمد الله حين جعل عبورك علينا، فإنّه لم يأت هذه المدينة عسكر قط، ولا سمع فيها اسم ولا ذكر لملك، فسايلهم عن عجائب مدينتهم؟ فقال بعضهم: أيّها الملك! إنّ هاهنا عجباً لا يوجد في العالم مثله، وذلك أنّ هاهنا شجرتين ذكر وأنثى، ينطق الذكر بالنهار والأنثى بالليل، فركب الاسكندر واستصحب ترجماناً منهم في جماعة من أصحابه، فسأل الترجمان وقال: متى تتكلّم الشجرة؟ فقال :إذا عبر تسع ساعات من النهار تكلّم الذكر، وإذا جنّ الليل تكلّمت الأنثى، فقال له :وإذا تجاوزنا ما بين الشجرتين فما الذي نراه بعدهما؟ قال: إنّ الدنيا تنتهي عند ذلك، وما بعدها يسمى طرف العالم.

ولمّا قرب من الشجرتين رأى الأرض ملأى من جلود السباع، فسأله عن ذلك فقال: إنّ لهاتين الشجرتين عبّاداً يعبدونهما، وإذا جاؤها للعبادة فلا يأكلون إلاّ لحوم السباع، قال: فلمّا انتصف النهار سمع الاسكندر من إحدى الشجرتين صوتاً أزعجه، فسأل الترجمان عمّا قالت؟ فقال: إنّها تقول: ما بال الاسكندر يجول في أقطار الأرض وقد استوفى نصيبه من العيش، وعند استكمال أربع عشرة سنة من سلطانه يحين حين ارتحاله، فبكى الاسكندر وامتلأ همّاً وحزناً وبقي واجماً لا يتكلّم إلى نصف الليل. فتكلّمت الشجرة الأنثى، فسأله عمّا قالت، فقال: إنّها تقول: إنّك تجول حول الأرض من حرصك، ولم يبقَ إلاّ قليل من عمرك، فلا تتعب نفسك ولا تضيق عليها أمرك، فقال له الاسكندر: سلها هل تكون أمي حاضرة عند رأسي إذا أتاني أمر ربّي؟ فسألها عن ذلك فقالت: شدّ رحالك وأقصر عن ظنّك فإنّه لا تحضرك أمك ولا قرابتك ولا نساء بلدك، ولا تموت إلا غريباً في بلاد غيرك.

فانصرف الاسكندر وقيد القلب منخزل النفس نحو معسكره.

فقدم إليه أهل تلك المدينة جواشن ودروعاً وتحفاً كثيرة فيها مائة بيضة من الذهب، وزن كلّ بيضة ستّون منّاً، وصورة كركدن من الذهب مرصّعة بالجوهر، فقبل هداياهم.

]الاسكندر وملك الصين:[

وارتحل نحو العين فلمّا قرب منها نزل في عسكره واستحضر الكاتب فأمره أن يكتب إلى بغبور كتاباً مملوءاً بالوعد والوعيد، وختمه، واستصحب بعض ثقاته وأصحاب رأيه، وركب منهم في خمسة فرسان حتّى أتى ملك الصين في زيّ

رسول، فلمّا وصل إليه أكرمه وأنزله في موضع يليق به، ثمّ لمّا كان من غده أنفذ إليه مركوباً خاصّاً بآلات الذهب واستحضره، فحضر وأدنى إليه الرسالة، ودعاه أن يُبادر إلى خدمة الاسكندر ويسارع إلى حضرته، وإن لم يفعل ذلك فلينفذ إليه طوائف الصين من فيل وأسلحة وثياب وذهب وفضة ليصرفه بذلك عن أذاه، فضحك بغبور وسأله أن يصف له الاسكندر وينعت له صورته وشكله، ويصف مكارمه وسيرته.

فاندفع الرسول يورد ذلك ويسرده، ثمّ أنّه استحضر الطعام والشراب، ولمّا ثملوا صرف الرسول وقال: سنجيب غداً عن رسالة صاحبك، فانصرف إلى منـزله وهو بين الصاحي والسكران وبيده أترجة، ولمّا طلعت الشمس من غده ركب إلى حضرة بغبور فسايله ولاطفه، ثمّ استحضر الكاتب وأجاب في كتب الاسكندر، وفتح أبواب خزائنه وأخرج خمسين تاجاً مرصّعاً بالجواهر وعشرة تخوت من العاج، وأوقر ألف جمل من الديباج والخزّ والحرير والكافور والمسك والعنبر إلى غير ذلك من الذهبيّات والفضيّات وجلود السنجاب والقاقم والسمور.

ثمّ اختار رجلاً من أكابر الصين موصوفاً بالعقل والرأي، ونفذه بكلّ ذلك في صحبة الرسول. فلمّا انتهى إلى ساحل البحر بادر الملاّح فحمله في مركب وعبر به إلى المعسكر، فلمّا أحس أصحابه بوصوله استقبلوه، ولمّا رأوه ترجّلوا وسجدوا بين يديه، فعلم رسول بغبور أنّه هو الاسكندر نفسه، فنـزل وسجد له. ثمّ لمّا أصبح جلس مجلسه من تخت السلطنة، فخلع على رسول بغبور وأعطاه عطايا كثيرة وصرفه إلى صاحبه، ثمّ أقام الاسكندر في ذلك الموضع شهراً من الزمان. فلمّا برد الهواء ارتحل وسار حتّى وصل إلى مدينة جغوان ورحل منها قاصداً قصد السند. فركب ملكهم ـ وكان يسمى بنداه ـ في رجاله السود برزوا إلى قتاله في أمثال الأُسود، فجرت ملحمة أفنت السودان عن آخرهم وأتى الأسر والنهب على نسائهم وذراريهم. ثمّ سار الاسكندر إلى نيمروز، وصار منها إلى اليمن، فاستقبله صاحب اليمن بالهدايا الجليلة والتحف الكثيرة، فأكرمه الاسكندر وأحسن إليه .

ثمّ ارتحل من اليمن قاصداً قصد بابل، فوصل في طريقه إلى جبل عظيم فأتعبهم العبور فيه، فلمّا قطعوه وأسهلوا أفضوا إلى بحر عظيم، فعثر بعض أصحابه في ساحله على رجل متسربل البدن بالشعر، له أذنان كآذان الفيلة، فاجتروّه إلى خدمة الاسكندر، فقال له الاسكندر: ما اسمك ومن أنت؟ فقال: أيّها الملك إنّ أبي وأمّي سمّياني بستركوش يعني لحافيّ الأُذن، فقال له: ما هذا الذي نرى في وسط البحر؟ فقال :مدينة طيبة، وفيها خلق طعامهم من السمك وأبنيتهم من عظام السمك، فإن أمر الملك عبرت إليهم وأخبرتهم بمقدمه وحملت منهم جماعة إلى خدمته.

فأذن له الملك في ذلك، فعبر إليهم في ساعة وانصرف ومعه ثمانون شخصاً من عقلاء تلك المدينة في ملابس الخزّ والحرير، بعضهم شبّان وبعضهم شيوخ، مع كلّ شيخ منهم جام مملوء من الدّر، ومع كلّ شاب تاج من الذهب،

فحضروا بين يدي الملك فخدموه وسايلهم عن أمور أجابوه عنها، وأقاموا في منزله على البحر إلى طلوع الفجر من الغد، فارتحل متوجّهاً نحو بابل وقد علم أنّ أجله قد قرب.

وكان يخاف من الكيانيين على بلاد الروم بعد موته، فعزم ألاّ يُبقي منهم أحداً، فكتب كتاباً إلى الحكيم أرسطاطاليس وذكر فيه حاله وما هم به، ثم استقدم جميع أكابر الكيانيّة من أوطانهم وأمرهم بالمبادرة إلى حضرته، فوصل كتاب أرطاطاليس وهو يقول فيه: قد آن لك أن ترتدع عن الشرّ، فاستسلم لأمر الله (عز وجل(، وفوِّض إليه أمورك، ولا تزرع في مُلكك غير الحسن، وما أشرت إليه فلا تجزع منه ولا تهتمّ له، فإنّا لم نولد إلا للموت، وما استصحب أحد فارق الدنيا مالاً ولا ملكاً، وإيّاك أن تمسّ أحداً من الكيانيّة فإنّه لا يحسن غرس العداوة في القلوب، فاتّق الله ولا تسفك دماء الأكابر فإنّه يثمر اللعن إلى يوم القيامة، ولا يورث غير الحسرة والندامة، والرأي أن تستحضر أكابر بيت الملك، وتملّك كلّ واحد منهم بلداً أو إقليماً، ولا تجعل لبعضهم على بعض حكماً ولا يداً، ولا تسمّين منهم للسلطنة أحداً حتّى تشغلهم بحربهم عن بلاد الروم.

فلمّا قرأ الاسكندر كتاب الحكيم استحضر الأكابر الكيانية وأجلسهم في مراتبهم في خدمته، ثمّ فرّق عليهم الممالك، وأمرهم أن يكتب كلّ واحد منهم كتاب عهد يُعاهد فيه على ألاّ يطلب الزيادة على ما في يده، ولا يتعرّض لمملكة غيره، ويجتزي بما في حكمه وتحت يده، فاستتبّ منهم ذلك فُسمّوا ملوك الطوائف.

ذكر وفاة الاسكندر: قال في)الشاهنامة:(

ثمّ إنّه وصل إلى بابل فاتّفق أنّه وُلد في تلك الليلة مولود له رأس كرأس الأسد، وحافر كحافر الدوابّ، وذنب كذنب الثور، لا يشبه الإنس إلاّ في صدره وكتفه، فلمّا وضعته أمه مات في الحال، فحملوه إلى حضرة الملك فتطيّر منه واستحضر المنجّمين وسألهم عن طالع ذلك المولود وما تدلّ عليه أحكام النجوم في ولادته، فاظلمت الدنيا في عيونهم لما فهموه، وكتموا الاسكندر ما علموه، فأوعدهم وهددهم، فقال له بعض المنجّمين: أيّها الملك! إنّك وُلدت على طالع الأسد، فإذ قد رأيت رأس المولود الميت مثل رأس الأسد فقد دلّ على زوال ملكك وانتهاء عمرك، واتّفقت كلمة سائر المنجّمين على ذلك.

فاغتمّ الاسكندر ثمّ قال: إنّه لا بدّ من الموت، ولست أهتمّ لذلك، ثمّ مرض في يومه ذلك وهو ببابل، فاستحضر كاتبه وكتب إلى أمّه كتاباً يعزّيها فيه عن نفسه ويوصي إليها ويأمرها بالصبر والرضاء بما قدّر له من قصر العمر، والتسليم لقضاء الله النافذ في الخلق، وقال: إنّي قد أمرت أكابر الروم إذا انصرفوا من هذه البلاد بالتمسّك بطاعتك والانقياد

لأمرك.

وأمّا أكابر إيران الذين كان يُخاف على بلاد الروم من معرّتهم، فقد ملّكت كلّ واحد منهم إقليماً من الأقاليم حتّى يمنعه الشغل بما في يده عن بلاد الروم. وإذا متّ فادفنوني في تراب مصر وفرّقوا من خزائني مائة ألف دينار في هذه السنة على المشتغلين بأنفسهم من عباد الله، وروشنك ـ يعني زوجته ـ إن ولدت ابناً فهو ملك الروم لا غير، وإن ولدت بنتاً فلتزوّج من ابن فيلقوس، واتّخذيه ولداً، وجدّدي به ذكر الاسكندر أبداً، وأمّا إبنة كيد ملك الهند فردّوها إن أرادت إلى أبيها مع خزائنها التي جائت معها، في عماريتها ومع تاجها وتختها، وأنا قد استسلمت للموت عن رأس العجز بعد أن فرغت من أشغالي كلها.

وقد أمرت أن يعمل لي تابوت من الذهب، ويملأ من العسل، ثمّ أُضجع فيه مكفّناً في الديباج والحرير، وعند الانتهاء إلى ذلك ينتهي الكلام، ثم احفظي وصيّتي ولا تخالفي موعظتي، ولا تمسكي من الأموال التي جمعتها من الهند والصين وسائر الأقاليم أكثر من القوت، وفرّقي الباقي على المحتاجين.

ثمّ حاجتي إليك ألاّ تجزعي علي ولا تؤذي نفسك، واشفعي إلى الله (عز وجل) وأغيثيني بدعائك فإنّه لا يأخذ بيدي غير ذلك ثمّ ختم الكتاب ونفذه إلى الروم على يدي بعض المسرعين.

قال: ولمّا علم العسكر بمرض الاسكندر تسارعوا إلى خدمة تخته واجتمعوا على بابه وضجّوا من وراء حجابه، فأمر الاسكندر بإخراج تخته من أيوانه إلى الفضاء، فلمّا رأوه على ما به من الضعف أجهشوا إليه بالنحيب والبكاء، فقال لهم الاسكندر: استشعروا الخوف وتسربلوا لباس الحياء، ولا تعدلوا عن المحجّة البيضاء، واحفظوا وصيّتي، ولا تخلعوا ربقة طاعتي. فلمّا فرغ من كلامه خرجت روحه، فوقع العويل والنحيب في العسكر، وقام الصراخ عليه، فأحرقوا داره التي كانت مستقره، وحذفوا من دوابّه ألف فرس، ثمّ جاؤا بتابوت من الذهب مملوء من العسل وغسله سكوباً بالماورد، وغمره بالكافور، وكفّنه في ثوب ديباج مذهّب، ووضعه في وسط العسل من الرأس إلى القدم، وأطبقوا عليه التابوت.

فلمّا رفعوه من ذلك المكان اختلفت الفرس والروم، فقالت الفرس: لا يُدفن الاسكندر إلاّ حيث مات، وقالت الروم: لا يُدفن الاّ حيث وُلد، فقال شيخ من فارس: إنّ هاهنا موضعاً يقال له جرم (أو خرم) وهناك جبل مَن سأله عن شيء أجابه عنه بإذن الله (عز وجل)، فاسألوا الجبل حتى يحكم بينكم، فتوجّهوا نحو الجبل فسألوا فأجاب وقال: ما لكم تحبسون تابوت الملك؟ إنّ تراب الإسكندر في أرض الاسكندرية التي بناها في حياته، فبادروا عند ذلك إلى حمله وحملوه إلى الاسكندرية، فلمّا وصلوا إليها خرج الخلائق واجتمعوا على تابوته، حتّى لو حسبهم المهندس لوجدهم يزيدون على

مائة ألف.

فجاء الحكيم الأوسط (أرسطاطاليس) ووضع يده على تابوته وقال» :أين رأيك وعقلك أيّها الملك حتّى صار مسكنك هذا المكان الضيّق؟ وكيف أفضيت بنضارة الشباب إلى مضاجعة التراب؟.«

وقال آخر: »أيّها الملك! مازلت تدفن الذهب حتّى دُفنت فيه، ووقعت في خطب لا سبيل إلى تلافيه.«

واجتمعت علماء الروم فخاطبه كلّ واحد منهم بحكمة، وأبنّه بموعظة.

ثمّ جاءت أمه ووضعت وجهها على تابوته وهي تبكي وتنتحب وتقول» :ما أبعدك منّي مع قربك! وما أعظم خطبك على صحبك.«!

ثمّ جاءت زوجته روشنك بنت دارا وطفقت تبكي وتندبه وتنتحب وتنوح عليه. ثمّ دفنوه ولم تكن أيامه إلاّ كبرق ومض، وطرف غمض.

وهذا آخر الخبر عن قصّة الاسكندر، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله أجمعين.«

يقول مؤلف الكتاب الفقير إلى عفو ربّه وغفرانه حسن السيد علي القبانچي النجفي: هذا آخر ما نقلناه عن الشاهنامه وذلك في سنة 1410 هـ في النجف الأشرف على ساكنها أفضل التحيّات.

* * *

ثلاثون قولاً قيل عند موت الاسكندر:

ذكر المسعودي في المجلّد الأوّل من كتابه «مروج الذهب:«

»إنّه لما مات الاسكندر، طافت به الحكماء ممّن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم، وكان يجمعهم ويستريح إلى كلامهم، ولا يصدر الأمور إلاّ عن رأيهم، وجعل بعد أن مات في تابوت من الذهب ووضع بالجوهر بعد أن طلي جسمه بالأطلية الماسكة لأجزائه.

فقال عظيم الحكماء والمتقدّم فيهم: ليتكلّم كلّ واحد منكم بكلام يكون للخاصّة معزّياً وللعامّة واعظاً، وقام فوضع يده على تابوت فقال: أصبح آسر الأُسراء أسيراً، ثم قام حكيم ثان فقال: هذا الاسكندر الذي كان يُخبئ الذهب فصار الذهب يخبؤه. وقال الحكيم الثالث: ما أزهد الناس في هذا الجسد وأرغبهم في هذا التابوت. وقال الحكيم الرابع: من أعجب العجب أنّ القويّ قد غلب والضعفاء لاهون مغترّون. وقال الخامس: يا ذا الذي جعل أجله ضماناً وجعل أمله عياناً، هلاّ باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك، هلاّ حقّقت من أملك الامتناع عن فوت أجلك. وقال السادس: أيّها الساعي المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره وفارقت أيّامه، فمغناه لغيرك ووباله عليك. وقال السابع: قد كنت لنا

واعظاً فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك، فمن كان له عقل فليعقل، ومن كان مغترّاً فليغترّ. وقال الثامن: ربّ هائب لك كان يغتابك من ورائك وهو اليوم بحضرتك لا يخافك. وقال التاسع: ربّ حريص على سكوتك إذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلّم. وقال العاشر: أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت.

وقال الحادي عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة: قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك، فاليوم لا أقدر على الدنوّ منك.

وقال الثاني عشر: هذا اليوم عظيم العِبر أقبل من شرّه ما كان مدبراً، وأدبر من خيره ما كان مقبلاً، فمن كان باكياً على من زال مُلكه فليبك. وقال الثالث عشر: يا عظيم السلطان اضمحلّ سلطانك كما اضمحلّ ظلّ السحاب، وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب. وقال الرابع عشر: يا من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضاً، ليت شعري كيف حالك فيما احتوى عليك منها. وقال الخامس عشر: عجب لمنَ كانت هذه سبيله كيف نفسه بجمع الحطام الهائد والهشيم البائد .

وقال السادس عشر: أيّها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذّته، فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغيّ والفساد. وقال السابع عشر :انظروا إلى حلم النائم كيف انقضى، وظلّ الغمام كيف انجلى.

وقال الثامن عشر: قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضي فليّتعظ به الآن هذا الباقي. وقال العشرون: هذا الذي دار كثيراً والآن يقرّ طويلاً.

وقال الحادي والعشرون: إنّ الذي كانت الآذان تُنصت له قد سكت، فليتكلّم الآن كلّ ساكت. وقال الثاني والعشرون: سيلحق بك مَن سرّه موتُك كما لحقتَ من سرّك موته. وقال الثالث والعشرون: ما لك لا تقلّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلّ ملك الأرض! بل ما لك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذي أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد؟

وقال الرابع والعشرون ـ وكان من نُسّاك الهند وحكمائها _: إنّ دنياً يكون هكذا آخرها فالزهد أولى أن يكون في أوّلها.

وقال الخامس والعشرون ـ وكان صاحب مائدته _: قد فُرشت النمارق ونُضدت الوسائد وهيّئت الموائد، ولا أرى عميد المجلس. وقال السادس والعشرون ـ وكان صاحب بيت ماله _: قد كنت تأمرني بالجمع والادّخار، فإلى من أدفع ذخائرك؟ وقال السابع والعشرون ـ وكان خازناً من خزّانه :_ هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أوُخذ بما لم آخذ منها. وقال الثامن والعشرون :هذه الدنيا الطويلة العريضة طويت منها في سبعة أشبار التاسع والعشرون: قول زوجته روشنك بنت دارا ملك فارس: ما كنت أحبّ أنّ غالب دارا الملك يُغلب، وإن كان هذا الكلام الذي سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شرابه فقد خلّف الكأس الذي تشرب به الجماعة. القول الثلاثون ما يُحكى عن أمّه أنّها قالت حين جاءها نعيه: لئن فقدت من ابني أمره، فما فقدت من قلبي ذِكره .

وقُبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثون سنة، وكان ملكه تسع سنين.

]قصة أخرى في وفاة الاسكندر:[

ولمّا تمّ للاسكندر مُلك الدنيا، وقبض على جميع ما في الأرض، وعاد متوجّهاً إلى الاسكندرية إلى أمّه فلمّا وصل إلى شهر زورا أحسّ بالموت ـ أي اعتلّ علّة الموت _، فقال للحكماء الذي كانوا معه ـ وهم أربعمائة حكيم ـ إنّي لمائت، فإذا متّ فاطلوا جسدي بالصبر، واجعلوني في تابوت من ذهب، وأخرجوا يدي من التابوت وهي مبسوطة ـ يشير بذلك إلى أنّي خرجت من الدنيا بلا شيء، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) مشيراً إلى ذلك:

دليلٌ على الحرص المؤبّد في الحيِّ	وفي قبض كفّ الطفل عند ولادةٍ
	وفي بسطها عند الممات دلالةٌ
ألا فانظروني قد خرجتُ بلا شيّ	

قال الاسكندر: فإذا تمّ ذلك فابعثوا رسولاً إلى أمّي يخبرها أن تولم وليمة وتدعو لها كلّ من لم يُصَب بمصيبة ـ أراد أن يُعلم أمه بموته قبل أن يعلمها أحد ـ فلمّا جاء الرسول إليها، قالت له: أين ولدي؟ قال: هو خلفي، ولكن أوصى أن تصنعي وليمة وتدعين إليها كلّ من لم يُصَب بمصيبة، فصنعت ذلك وأمرت المنادي ينادي في الناس أن يحضر الوليمة كلّ من لم يُصَب بمصيبة، فلم يأتها أحد من الناس .قالت: ما لي لا أرى أحداً من الناس؟ قالوا: من يأتي وليس أحد من الناس إلاّ وأُصيب بمصائب، فلا يأتي أحد، فقالت: إنّ ولدي قد مات، ثمّ حُمل إلى أمه بالاسكندرية فطاف به من معه من الحكماء الذي كان يجمعهم ويستريح إلى كلامهم، فتقدّم كبير الحكماء وقال: ليتكلّم كلّ واحد منكم بكلام يكون موعظة للعامّة وتعزية للخاصّة، ووضع يده على التابوت وقال: أصبح آسر الأسراء أسيراً. وقال آخر: هذا الذي كان يُخبئ الذهب فصار الذهب يخبؤه، وقال آخر: قد كنتَ لنا واعظاً فما وعظتنا بموعظة أبلغ من الموت .وقال آخر: رب هائب لك من وراء الغيب وهو اليوم بحضرتك فلا يهابك. وقال صاحب دار حكمته: قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك، واليوم لا أقدر على الدنّو منك. وقال آخر: يا عظيم السلطان قد اضمحلّ سلطانك كما اضمحلّ ظلّ السحاب، وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الذئاب. وقال آخر: ما لك لا تقلّ عضواً من أعضائك وكنت تستقلّ بملك الأرض، وقال صاحب مائدته: قد فُرشت النمارق ونُضدت النضائد ولا أرى عميد القوم، وقال صاحب بيت المال: قد كنت تأمرني بالادّخار، فإلى من أدفع ذخائرك؟ وقالت زوجته روشنك :ماكنت أحسب أنّ غالب دارا يُغلب، وإنّ الكلام الذي سمعته من الجماعة لا يخلو من شماتة، وإنّ الكأس الذي شربت به ـ أي كأس الموت ـ لا بدّ وأن تشرب به الجماعة، وقالت أمّه: إن فُقد من عيالي شخصه لم يُفقَد من قلبي ذِكره.

ذكر ابن أبي الحديد في المجلد الثاني من شرح النهج ص 434: من كلام الحكماء الذين تكلّموا عند تابوت الأسكندر فقال أحدهم: حرّكنا بسكونه. وقال الآخر: قد كان سيفك لا يجفّ، وكانت مراقيك لا ترام، وكانت نقماتك لا تؤمن، وكانت عطاياك يفرح بها، وكان ضياؤك لا ينكسف، فأصبح ضوؤك قد خمد، وأصبحت نقماتك لا تخشى، وعطاياك لا ترجى، ومراقيك لا تمنع، وسيفك لا يقطع. وقال الآخر: انظرا إلى حلم المنام كيف انجلى، وإلى ظلّ الغمام كيف انسرى. وقال آخر: ما كان أحوجه إلى هذا الحلم وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته. وقال آخر: القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة طُويت في ذراعين. وقال الآخر: أصبح آسر الاسراء أسيراً، وقاهر الملوك مقهوراً، كان بالأمس مالكاً فصار اليوم هالكاً.

* * *

ومن خطبة له (عليه السلام] :(في التحذير من الغفلة عمّا بعد الموت[

»فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ وَهُدِيتُمْ إِنِ اهْتَدَيْتُمْ وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ الْعِبَرُ وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا الْبَشَرُ». (شرح النهج مج 1 ص 99.)

* * *

الشرح:

من جملة حكم الله تعالى أن أخفى على خلقه ما يجري عليهم حين الموت وبعده، وفي عالم البرزخ، لمصالح لا يعلمها إلاّ هو، ولا يعلم الإنسان ما يجري عليه غداً في حياته، فكيف يعلم ما يجري عليه بعد موته، والموت انتقال من هذا العالم إلى عالم آخر، وشتّان بين العالمين.

والأخبار والأحاديث الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام (تبيّن وتشير إشارة إجماليّة إلى ما يشاهده الإنسان حين الاحتضار وبعد الموت من التجهيز والتغسيل والتكفين والدفن وسؤال منكر ونكير، وأين تذهب الأرواح وتنعم وتعذّب، وأين تجتمع الأرواح، وهل تشعر الروح وتعقل وتسمع وتبصر، وهل لها علاقة بالبدن بعد أن صار تراباً واستحال إلى مادّة أخرى.(1(

]حقيقة الموت:[

ولنا مجال في المستقبل لبيان هذا السرّ وشرحه على ضوء الأخبار والأحاديث. والآن نقول: إنّ الموت هو انتقال إلى عالم غير مرئيّ، وهذا الانتقال مخوف مرعب، وهو مفارقة الروح للبدن بصورة مؤقّتة، ومفارقة الإنسان عن كلّ ما يحب من الأهل والاولاد والمال، فإذا انتقل إلى ذلك العالم ورأى أرواح ملايين الملايين من البشر كيف تعذّب وكيف تنعم، ورأى أرواح الأنبياء والأولياء وأرواح الفراعنة والكفّار والمشركين، وما هناك من صياح وصراخ وعجيج وضجيج وبكاء وعويل وغير ذلك غلب عليه الخوف والفزع، ولهذا يقول (عليه السلام): «فإنّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم ووهلتم» كما هو شأن الأنبياء والأولياء، فإنّهم بسبب علمهم واطّلاعهم على ذلك العالم كانوا يبكون البكاء الشديد ويبيتون الليالي خائفين وجلين، والناس لو كانوا يعلمون ذلك لما وجد إنسان عاصي، ولكان الناس كلهم مؤمنين متّقين، ولهذا قال (عليه السلام): «وسمعتم وأطعتم». ولو كان الناس كلّهم يعلمون ويطّلعون على ذلك العالم لاختلّ النظام الاجتماعي، ولما زرع الزارع، وما اتّجر التاجر، وصارت الأشغال معطّلة والحالة مضطربة، «ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يُطرح الحجاب» فإنّ الروح إذا خرجت من البدن وطارت من قفص الجسد ظهر لها كلّ ما كان محجوباً مخفيّاً، ثم قال (عليه السلام): «ولقد بُصِّرتم إن أبصرتم» أي صُيِّرتم مُبصرين، أي لكم عيون إن نظرتم بها، «وأُسمِعتم إن سمعتم» أي جُعل لكم السمع إن كنتم تسمعون كلام الله ومواعظه البالغة ونصائح الأنبياء والأوصياء المنجية «وهُديتم إن اهتديتم» أي علمتم الطريق إن وصلتم إلى المطلوب والمقصود، ومشيتم في الطريق المؤدّي إلى رضوان الله «بحقٍّ أقول: لقد جاهرتكم العِبَر» أي العبر - وهي ما يعتبر به الإنسان - قد أعلنت لكم بشأن الدنيا بما جرى على الأمم السالفة والفراعنة والقياصرة والعمالقة وسائر الملوك والسلاطين، وأجهرت العبر بما حلّ بآبائكم وبسائر الناس من المصائب والنوائب والشدائد. «وزُجرتم بما فيه مُزدَجَر» كلّ ما كان فيه زجر، كالنهي الأكيد عن المعاصي، والأمر الشديد بالواجبات قد زجركم الله به، وما يبلّغ عن الله بعد الملائكة ملائكة الوحي ورسل السماء إلاّ الأنبياء والأوصياء ومن سلك طريقتهم وبلّغ عنهم.

* * *

قال العلاّمة ابن ميثم (رضي الله عنه) في شرح هذه الفقرات :واعلم أنّ الإنسان ما دام ملتحفاً بجلباب البدن فإنّه محجوب بظلمة الهيئآت البدنيّة والمعارضات الوهميّة والخياليّة عن مشاهدة أنوار عالم الغيب والملكوت، وذلك الحجاب أمر قابل للزيادة والنقصان والقوّة والضعف،والناس فيها على مراتب، فأعظمهم حجباً وأكثفهم حجاباً الكفّار كما أشار إليه القرآن الكريم مثلاً في حجبهم «أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ

بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ» الآية،(2) فمثل الكافر كرجل وقع في بحر لَجّيّ صفته كذلك، فأشار بالبحر اللجّيّ إلى الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة، فالموج الأول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيميّة، وبالحريّ أن يكون هذا الموج مظلماً، إذ حُبّك الشيء يُعمي ويُصمّ، والموج الثاني موج الصفات السبعيّة الباعثة على الغضب والعداوة والحقد والحسد والمباهاة، فبالحريّ أن يكون مظلماً، لأنّ الغضب غول العقل، وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى، لأنّ الغضب في الأكثر مستولٍ على الشهوات، حتّى إذا هاج أذهل عنها، والسحاب هو الاعتقادات الباطلة والخيالات الفاسدة التي صارت حجباً لبصيرة الكافر عن إدراك نور الحقّ، إذ خاصّيّة الحجاب أن يحجب نور الشمس عن الأبصار الظاهرة، وإذا كانت هذه كلّها مظلمة، فبالحريّ أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض.

وأمّا أخفّهم حجباً وأرقّهم حجاباً فهم الذين بذلوا جهدهم في لزوم أوامر الله ونواهيه، وبالغوا في تصفية بواطنهم وصقال ألواح نفوسهم وإلقاء حجب الغفلة وأستار الهيئآت البدنيّة، فأشرقت عليهم شموس المعارف الإلهيّة، وسالت إلى أودية قلوبهم مياه الجود الربّاني المعطي لكلّ قابل ما يقبله، فهؤلاء وإن كانوا قد بلغوا الغاية من الجهد في رفع الحجب وغسل درن الباطل عن نفوسهم، إلاّ أنّهم ما دامت الأبدان فهم في أغطية من هيئاتها وحجب من أستارها، وإن ضعفت تلك الحجب ورقّت تلك الأغشية، وما بين هاتين المرتبتين درجات من الحجب متفاوتة ومراتب متصاعدة ومتنازلة، وبحسب تفاوتها يكون تفاوت النفوس في الاستضاءة بأنوار العلوم وقبول الانتقاش بالمعارف الإلهيّة والوقوف على أسرار الدين، وبحسب تفاوت هذه الحجب يكون تفاوت ورود النار، كما قال تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها»(3) ولن يخلص الإنسان من شوائب هذه الحجب وظلمتها إلا بالخلاص عن هذا البدن وطرحه، وحينئذٍ «تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً»،(4) فتكون مُشاهِدةً بعين اليقين ما أُعدّ لها من خير وما هُيّء لها من شرّ بحسب استعدادها بما كسبت من قبل، فأمّا قبل المفارقة فإنّ حجاب البدن مانع لها عن مشاهدة تلك الأمور كما هي، وإن حصلت على اعتقاد جازم برهانّي أو نوع من المكاشفة الممكنة كما في حقّ كثير من أولياء الله، إلاّ أنّ ذلك الوقوف والاطلاع يكون كالمشاهدة، لا أنّها مشاهدة حقيقيّة خالصة، إذ لا تنفكّ عن شائبة الوهم والخيال، ولذلك قال (صلى الله عليه وآله) حاكياً عن ربّه» :أعددُت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بَلَه ما أطلعتهم عليه»(5) أي وراء ما أطلعتهم عليه، وهو إشارة إلى طور المشاهدة الخالصة عن الشوائب التي هي عين اليقين بعد الموت، وقد يُسمّى ما أدركه أهل المكاشفات بمكاشفاتهم في حياتهم الدنيا عين اليقين، فأما إدراك مَن دون هؤلاء لتلك الأمور فما كان منها مؤكّداً بالعقوبة بالشعور بعدم إمكان النقيض فهو علم اليقين، وقد يختص علم اليقين في عرف الصوفيّة بما تميل النفس إلى التصديق به ويغلب عليها

ويستولي حتى يصير هو المتحكّم المتصرّف فيها بالتحريص والمنع، فيقال: فلان ضعيف اليقين بالموت، إذا لم يهتمّ بالاستعداد له، فكأنّه غير موقن به مع أنّه لا يتطرّق إليه فيه شكّ.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «ما رأيت إيماناً مع يقين أشبه منه بشكّ إلاّ هذا الإنسان، إنّه كلّ يوم يُودَّع، والى القبور يُشيَّع، وإلى غرور الدنيا يرجع، وعن الشهوات واللذات لا يُقلع، فلو لم يكن لابن آدم ذنب يتوقّعه ولا حساب يوقف عليه إلاّ موت يبدّد شمله ويفرّق جمعه ويؤتم ولده لكان ينبغي له أن يحاذر ما هو فيه بأشدّ التعب، ولقد غفلنا عن الموت غفلة أقوام غير نازل بهم، وركنّا إلى الدنيا وشهواتها ركون أقوامٍ لا يرجون حساباً ولا يخافون عقاباً».(6)

وقيل له (عليه السلام): صف لنا الموت، فقال: على الخبير سقطتم، هو أحد ثلاثة أمور يرد عليه: أمّا بشارة بنعيم الأبد، وأمّا بشارة بعذاب الأبد، وأمّا تحزين وتهويل وأمر مبهم لا يدري من أيّ الفرق هو، فأمّا وليّنا المطيع لأمرنا فهو المُبشَّر بنعيم الأبد، وأمّا عدوّنا المخالف علينا فهو المُبشَّر بعذاب الأبد، وأمّا المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه لا يدري ما يؤول إليه حاله، يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً، ثم لن يسوّيه الله (عز وجل) بأعدائنا، لكن يخرجه من النار بشفاعتنا، فاعملوا وأطيعوا ولا تتّكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله (عز وجل)، فإن المسرف مَن لا تلحقه شفاعتنا إلاّ بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة(7).

وكتب (عليه السلام) لمحمد بن أبي بكر: «عباد الله إنّ الموت ليس منه فوت، فاحذروا قبل وقوعه وأعدّوا له عُدّته، فإنّكم طرد الموت، إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظِلّكم، الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى خلفكم، فأكثروا ذِكر الموت عندما تنازعكم إليه أنفسكم من الشهوات، وكفى بالموت واعظاً، وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كثيراً ما يوصي أصحابه بذكر الموت فإنّه هادم اللذات، حائل بينكم وبين الشهوات».(8)

[حالات ذكر الموت:]

نقلاً من كتابنا «علي والأسس التربويّة:»

للإنسان في ذكر الموت حالان: حال قبله، وأخرى عنده:

[الحالة الأولى: قبل الموت]

ينبغي للانسان قبل الموت أن يكون دائم الذكر له، ولذلك كان من أوّل هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت وحثّهم على دوام تذكّره، ومن أكبر همّ الفلاسفة تفكيرهم به، وبسط القول في أنّ الحياة باطلة والموت حقّ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أكثروا من ذِكر هادم اللذّات فإنّه ما ذكره أحد في ضيق إلاّ وسّعه عليه، ولا في سعة إلاّ ضيّقها

عليها»(9) وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم سنّة أجروها بينهم مجرى العادة في وجوب تذكّر الموت كلّ حين، فإذا وُلد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً بقدره، ووضعوه بجانب المهد يجدّدونه على مقدار النموّ في الطفل، ولا يزالون يفعلون ذلك حتّى إذا بلغ أشدّه وضعوا النعش بجانب السرير إلى أن يحلّ يوم أجله، فيحملونه عليه، يشيرون بذلك إلى أنّ يوم الولادة ويوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متّصلان، وأنّ الإنسان يمشي في هذه الدنيا وكأنّه عابر جسر: عن يمينه الموت، وعن شماله الحياة، وأنّه كما يدبّ بنموّه في الحياة يدبّ بأنفاسه نحو الممات، وأنّه يجب على العاقل أن يحضره على الدوام ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة، وأنّ اليقين كلّ اليقين في أعواد النعش، والشكّ كلّ الشكّ في أساطين القصر، وهم يلبسون السواد حداداً في يوم الولادة، والبياض فرحاً عند حلول الأجل، ولم يعتبروه شرّاً بل هو الخير كلّه عندهم، فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتّخذ في كلّ منبت شعرة من جسمه حبلاً من الأمل يعلّقه بالبقاء في الحياة الدنيا ويمحو عن ذاكرته كلّ سبب يربطه بصفائح القبر، فما الدنيا في الآخرة ـ كما روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إلاّ مثل ما يجعل الواحد إصبعه في اليمّ، فلينظر بم يرجع».(10(

ما عليه الناس في هذه الحالة:

الناس في الحالة السابقة ينقسمون ثلاثة أقسام: قسم لا يذكره البتة، وقسم يذكره رعباً وخشية، وآخر يذكره عقلاً وحكمة.

القسم الأوّل: هو ذلك الأحمق الذي لا يتذكّر الموت ولا يجري له على خاطر، كأنّه قد رسخ في ذهنه أن لا فناء، فلا يحسّ هذه الحقيقة إلاّ عند المشاهدة، ولا يذكر الموت إلاّ ريثما تنقضي تلك المشاهدة، كأن يشتدّ به المرض أو يختطف الموت أحد أهله أو جيرانه .

فهو لا يفكّر في الموت وما بعده إلاّ نظراً في حال أولاده وتركاته عند موته، ولا ينظر ويتدبّر في أحوال نفسه وعندما يرى جنازة إلاّ بقوله بلسانه (إنّا لله وإناّ إليه راجعون) ولا يرجع إلى الله بأفعاله، بل بأقواله فقط، فيكون كاذباً فيها تحقيقاً.

القسم الثاني: وهو ذلك الذي يذكر الموت دائماً لخشيته من وقوعه وخوفه من نزوله، فيتولاّهم الرعب ويستولي عليهم الفزع، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم وانتقلوا إلى أوقات فراغهم، فيكدّرون صفاء هنائهم، ويسوّدون بياض معيشتهم، وأشدّ ما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة إثر النعمة، وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة، فتراهم في همّ دائم وعناء مقيم للتوقّي من الأخطار والتحرّز من أسباب الهلاك، ويتغالون في ذلك التوقّي إلى حال الجنون، فيحاذرون هبوب النسيم وحرارة الضياء، ويتوهمّون في كلّ لقمة تخمة، وفي كلّ جرعة غصّة، حتّى

تمرض الأجسام من تلك الوساوس والأوهام التي قد تؤدّي إلى الموت الزؤام.

القسم الثالث: وهو العاقل الكيّس الذي لا يفارقه ذِكر الموت، كالمسافر إلى مقصد الحجّ مثلاً، فإنّه لا يفارق ذكر المقصد، وأشغال المنازل في الحلّ والترحال لا تنسيه مقصوده، وذلك لأنّه يعلم أنّ ذكر الموت يطرد فضول الأمل، ويكفّ غرب المنى، ويهوّن المصائب، ويحول بين الإنسان والطغيان.

ومن ذكر الموت تتولّد القناعة بما رُزق، والمبادرة إلى التوبة وترك المحاسدة والحرص على الدنيا، والنشاط في العبادة، ولا ينبغي أن يهمل الإنسان نفسه من تذكّر الموت كلّ يوم، فيصبح في كلّ يوم على تقدير الاستعداد للرحلة. فكلّ من ينتظر أن يدعوه ملك من الملوك كلّ ساعة ينبغي أن يكون مستعدّاً للاجابة، فإن لم يكن فربّما يأتيه الرسول وهو غافل فيُحرم السعادة، فما من وقت إلاّ والموت فيه ممكن.

الحالة الثانية] :عند الموت[

هي حال الإنسان عند الموت، والناس عنده ثلاثة أقسام أيضاً:

الأوّل: ذو بصيرة وعلم أنّ الموت يعتقه والحياة تسترقّه، وأنّ الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ثم عادت للاختفاء، فلا يثقل عليه الخروج من الدنيا إلاّ بقدر ما يفوت من خدمة ربّه (عز وجل (والازدياد من تقرّبه والاشفاق ممّا يقول أو يقال له، كما قال بعضهم لمّا قيل له :لِم تجزع؟ قال: لأنّي أسلك طريقاً لم أعهده، وأقدم على ربٍّ لم أره، ولا أدري ما أقول وما يقال لي. ومثل هذا الشخص لا ينفر من الموت، بل إذا عجز عن زيادة العبادة ربّما اشتاق إليه. وقال بعضهم في مناجاته: إلهي إن سألتُك الحياة في دار الممات فقد رغبتُ في البعد عنك، وزهدتُ في القُرب منك، فقد قال نبيّك وصفيك (صلى الله عليه وآله): «من أحبّ لقاءَ الله أحب اللهُ لقاءَه، ومن كره لقاءَ الله فقد كره اللهُ لقاءه».(11(

والثاني: رجل رديء البصيرة متلطّخ السريرة، منهمك في الدنيا منغمس في علائقها، رضي بالحياة الدنيا واطمأنّ بها ويئس من الدار الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور، فإذا خرج إلى دار الخلود أضرّ ذلك له كما تضرّ رياح الورد بالجعل، وإذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلاء ومصباح الملأ الأعلى، فكان كما قال الله تعالى: «وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً»(12) فالدنيا سجن الأوّل وجنّة الثاني، والأوّل كعبدٍ دعاه مولاه فأجابه طوعاً وقدم عليه مسروراً يتوافر على خدمته. والثاني كعبد آبق رُد ّإلى مولاه مأسوراً، وقيد إلى حضرته مقهوراً، فبقي ناكس الرأس بين يدي مولاه، مختزياً من جنايته، وشتّان بين الحالين .

والثالث: رتبة بين الرتبتين: رجل عرف غوائل هذا العالم وكره صحبته ولكن أنس به وألفه، فإذا خرج ورأى ما اتّخذ الله للصالحين لم يتأسّف على ما كره فواته، بل قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ».(13)

ولا يبعد أن يكره الإنسان مفارقة شيء ثمّ إذا فارقه لا يتأسّف عليه، فالصبيّ وقت الولادة يبكي لما يناله من ألم الانتقال، ثمّ إذا عقل لا يتمنّى العود إليه، والموت ولادة ثانية يستفاد بها كمالاً لم يكن له قبل، بشرط ألاّ يكون تقدّم قبل ذلك الكمال من الآفات والعوارض ما أبطل قبول المحلّ للكمال، كما أنّ الولادة سبب لكمال مغبوط لم يكن عند الاجتنان، بشرط ألاّ يصيبه وقتئذ من الأسباب والعلل ما يمنع قبول الكمال.

والموت من العقائد الراسخة والاعتقاديّة يكاد يكون عامّاً بين الأمم والأجيال، فلا تكاد تخلو كلّ أمّة أيّاً كانت من اعتقاد بموت، ولكنّ هذه الفكرة وأوصاف الموت تختلف بين هذه الأمم اختلافاً كبيراً. والقرآن يصف الموت بأوصاف نلخّصها ممّا ورد فيه، فهو ليس موتاً لا حياة بعده، ولا هو من البساطة بصفة يشبه النوم، وإنّما هو انتقال من دار إلى أخرى، فهو موت بعده حياة أخرى وراء هذه الحياة، ويومها يوم القيامة يوم الدين «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ»(14) «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ»(15) «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ»(16).

وليس من الموت من مهرب أو ملجأ مهما عظم شانه «أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»(17).

وليس الموت ينظر إلى الناس بعين التمييز بين الأفراد الواطئة والطبقات الراقية، بل هو ينظر إليهم كموجودات طبيعيّة تعرض عليها عوارض الطبيعة »إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ».(18)

ومن كلام له (عليه السلام (قبل موته] :في المحافظة على الشهادتين والاعتبار بموته[

»أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّ امْرِئٍ لاقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرارِهِ الْأَجَلُ مَساقُ النَّفْسِ وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوافَاتُهُ كَمْ أَطْرَدْتُ الْأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الْأَمْرِ فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا إِخْفَاءَهُ هَيْهَاتَ عِلْمٌ مَخْزُونٌ أَمَّا وَصِيَّتِي فَاللَّهَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَمُحَمَّداً (صلى الله عليه وآله) فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ وَخَلاكُمْ ذَمٌّ مَا لَمْ تَشْرُدُوا حُمِّلَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ مَجْهُودَهُ وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ رَبٌّ رَحِيمٌ وَدِينٌ قَوِيمٌ وَإِمَامٌ عَلِيمٌ أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ وَغَداً مُفَارِقُكُمْ غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ وَمَهَابِّ رِيَاحٍ وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفَّقُهَا وَعَفَا فِي الْأَرْضِ مَخَطُّهَا وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلَاءً سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي وَسُكُونُ أَطْرَافِي فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ

الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي».(19)

* * *

الشرح:

إنّ هذا الكلام قاله (عليه السلام) لمّا ضربه ابن ملجم المرادي عليه لعائن الله، وهو مسوق في معرض الوعظ والاعتبار والتوصية والتذكير، فحذّر الناس ونبّههم على لحوق ضرورة الموت المنفور منه طبعاً: «أيّها الناس كلّ امرئٍ لاقٍ ما يفرّ منه في فراره» فإنّه لمّا كان الإنسان دائماً فارّاً من الموت ومتوقّياً له، وكان لا بدّ منه، لا جرم كان ضروري اللقاء له في فراره، والأجل قد يراد به غاية الحياة الدنيا كما قال تعالى: «فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ»(20) وقد يراد به المدّة المضروبة للقاء الإنسان وهي مدّة عمره، وإيّاه عنى (عليه السلام) بقوله: «الهرب منه ـ أي من الأجل ـ موافاته» وذلك أنّ الفارّ من الموت مثلاً بالحركات والعلاجات ونحوها تستلزم حركاته في ذلك فناء الأوقات وتصرّمها، وقطع تلك الأوقات مستلزم لملاقاته وموافاته.

وقوله صلوات الله عليه: «كم اطّردت الأيام» أي صيّرتها طريدة إلى أن أتبع بعضها بعضاً بالبحث وتعرّف مكنون هذا الأمر ـ أي الذي وقع له من القتل ـ وذلك المكنون هو وقته المعيّن بالتفصيل ومكانه، فإنّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى بعلمه كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»(21) وقوله: «وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ»(22) وإن كان قد أخبره الرسول (صلى الله عليه وآله) بكيفيّة قتله مُجملاً كما روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنّه قال له :ستُضرب على هذه ـ وأشار إلى هامته ـ فتخضب منها هذه ـ وأشار إلى لحيته.(23) وعنه)صلى الله عليه وآله) أنّه قال له: أتعلم من أشقى الأوّلين؟ قال: نعم، عاقر الناقة، فقال له: أتعلم من أشقى الآخرين؟ قال: لا، قال: من يضربك ها هنا فيخضب هذه.(24)

وأمّا بحثه هو صلوات الله عليه عن تفصيل الوقت الذي يُقتل فيه والمكان الذي يُقتل فيه ونحوهما من القرائن المشخّصة، وذلك البحث أما بالسؤال من الرسول (صلى الله عليه وآله) مدّة حياته وكتمانه إيّاه، أو بالفحص والتفرّس من قرائن أحواله في سائر أوقاته مع الناس، فأبى الله تعالى إلاّ أن تخفى عنه تلك الحال.

هذا ما ذهب إليه الشارح المعتزليّ والبحرانيّ، ويظهر من قول المعتزليّ أنّه زعم أنّ مراده (عليه السلام) بمكنون هذا الأمر وقت قتله ومكانه المعيّنان بالتفصيل.

وحذا حذوه الشارح البَحرانيّ حيث قال: وذلك المكنون هو وقت قتله المعيّن بالتفصيل ومكانه، فإنّ ذلك ممّا استأثر الله

به.

]علم علي (عليه السلام) بزمان ومكان قتله:[

لا يكاد ينقضي العجب من هذين الفاضلين كيف توهّما أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يكن عالماً بزمان موته ولا بمكانه إلاّ إجمالاً، وأنّه لم يكن يعرفهما تفصيلاً، إن هذا إلاّ وهم فاسد.

أمّا الشارح المعتزلي فمع روايته الأخبار الغيبيّة له (عليه السلام) وإذعانه على صحّتها كيف خفي عليه وجه الحقّ، وكيف يتصوّر في حقّ من هو عالم بما كان وما يكون، ومن يقول: «فاسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة أو تُضلّ مائة إلاّ أنبئتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحطّ رحالها ومن يُقتل من أهلها قتلاً ويموت منهم موتاً» أنّه لم يكن يعرف زمان موته ومكانه.!!

وأمّا الشارح البحراني: فمع كونه من فضلاء علماء الإماميّة ـ قدّس الله ضرائحهم ـ كيف قصرت معرفته عن علم الأئمّة (عليهم السلام) بما كان وما يكون وما هو كائن، ولمعرفتهم (عليهم السلام) بوقت موتهم وموت شيعتهم، وأنّهم يعلمون علم المنايا والبلايا والأنساب، وهذه الأخبار قريبة من التواتر بل متواترة، وقد روى المخالف والمؤالف قول أمير المؤمنين (عليه السلام) للحارث الأعور الهمدانيّ:

يا حارِ همدان مَن يَمُت يرني	من مؤمنٍ أو منافق قبلا
يعرفني طرفُه وأعرفه	بنعته واسمه وما فعلا(25(

فإن من كان حاضراً عند كلّ ميت، عارفاً بوقت موته كيف لا يعرف وقت موت نفسه؟! وقد عقد الكليني محمد بن يعقوب (رضي الله عنه) في كتابه ـ أصول الكافي ـ باباً خاصّاً في ذلك وقال: باب أنّ الأئمة (عليهم السلام) يعلمون متى يموتون.(26) وروى في ذلك الباب عن علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن محمد بن عبد الحميد، عن الحسن بن الجهم قال: قلت للرضا (عليه السلام) إنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قد عرف قاتله والليلة التي يُقتل فيها، والموضع الذي يُقتل فيه، وقوله لمّا سمع صياح الأوز في الدار: صوائح تتبعها نوائح، وقول أم كلثوم: لو صلّيتَ الليلةَ داخل الدار وأمرتَ غيرك يصلّي بالناس، فأبى عليها، وكثر دخولُه وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عرف أنّ ابن ملجم قاتله بالسيف؟ فقال الرضا (عليه السلام): ذلك كان، ولكنّه خُيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير الله(عز وجل).(27(

قال المجلسي: الظاهر من سائر الأخبار أنّه (عليه السلام) كان عالماً بشهادته ووقتها، وكان ينتظرها ويُخبر بوقوعها

ويستبطئها في الليلة التي وُعدها، ويقول: ما منع قاتلي من قتلي؟ انتهى.

فقد ظهر واتّضح بذلك كلّه أنّه كان يعرف تفصيلاً زمان قتله ومكانه.

فإن قلت: سلّمنا هذا كلّه وذلك، ما تصنع بقوله (عليه السلام): «كم اطّردتُ الأيام أبحثها عن مكنون هذا الأمر فأبى الله إلاّ إخفاءه»؟

قلت: يمكن توجيهه بأن يكون المراد بهذا الامر خفاء الحقّ ومظلوميّة أهله وظهور الباطل وغلبة أصحابه وكثرة أعوانه، لأنّه (عليه السلام) سعى في أوّل الأمر في أخذ حقّه غاية السعي فلم يتيسّر، وجرت أمور لم تكن تخطر ببال أحد وقوع مثلها، وفي آخر الأمر لمّا انتهى إليه وحصل له الأنصار والأعوان وجاهد في الله حقّ الجهاد وغلب على المنافقين سنحت فتنة التحكيم التي كانت من غرائب الأمور، ثم بعد ذلك لمّا جمع العساكر وأراد الخروج إليهم وقعت الطّامّة الكبرى، فالمراد بالمكنون سبر ذلك وسببه، فظهر لي وأبى الله إلاّ إخفاءه عنكم لضعف عقولكم عن فهمه، إذ هي من غومض مسائل القضاء والقدر.

وهذا التوجيه أورده المجلسيّ في مرآة العقول نقلاً عن بعضهم واستحسنه.

وبالتالي فإنّ المراد بالأمر المكنون في كلامه (عليه السلام (سرّ غلبة الباطل على الحقّ وعلّة مظلوميّة أهل الحقّ.

والمراد بإخفاء الله إيّاه إخفاؤه منهم لا منه (عليه السلام)، فيكون هذا الكلام منه نظير قوله:

»بل اندمجتُ على مكنونِ عِلمٍ لو بُحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة».(28(

وقوله (عليه السلام): «هيهات علم مخزون» أي بعد الاطّلاع على ذلك السر فإنّه علم مخزون، ومن شأن المخزون أن يُستر ويُخفى.

]وصايا أمير المؤمنين (عليه السلام:[(

ثم شرع (عليه السلام) بالوصيّة فقال: «أمّا وصيّتي فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمّد (صلى الله عليه وآله) فلا تضيّعوا سُنّته» فبدأ بالأهمّ فالأهمّ، فالأوّل هو الإخلاص لله بالإعراض عن كلّ ما سواه، وفي ذلك لزوم أوامره ونواهيه وسائر ما نطق به كتابه العزيز، والثاني: لزوم سنّة محمد (صلى الله عليه وآله) وعدم إهمالها، وهو لزوم شرائع الدين وسلوك نهج الشرع المبين. ثم أكّد الأمر باتّباع التوحيد المطلق والسنّة النبويّة بقوله: «أقيموا هذين العمودَين، وأوقدوا هذين المصباحَين» واستعار لهما لفظ العمودين لأنّ مدار الإسلام ونظام أمور المسلمين في المعاش والمعاد على توحيد الله سبحانه ولزوم ما جاء له رسوله، كما أنّ مدار الخيمة وقيامها بالعمد، والمراد بإقامتهما الاعتقاد بهما

والعمل بمقتضيات الايمان بهما، ووجه الثانية: أنّ توحيد الله والاقتداء بما جاء به رسوله مستلزمان للهداية في طريقه من ظلمات الجهل، قائدان إلى جواره في جنّات النعيم، وهو المطلوب الحقيقيّ، كما يهدي المصباح في الظلام على الطريق المطلوب.

وقوله (عليه السلام): «وخلاكم ذمّ مالم تُشرّدوا» أي سقط عنكم ذمّ وتجاوزكم فلا ذمّ يلحقكم ما لم تتفرّقوا.

قال المجلسي ـ في مرآة العقول _: والغرض النهي عن التفرّق واختلاف الكلمة، أي لا ذمّ يلحقكم ما دمتم متّفقين في أمر الدين، متمسّكين بحبل الأئمّة الطاهرين، أو المراد النهي عن الرجوع عن الدين وإقامة سُننه.

ثمّ لمّا كان قد أمرهم (عليه السلام) بلزوم هذين الأمرين اللذين يدور عليهما التكليف، بيّن لهم بقوله: «حمل كلّ امرئٍ منكم مجهوده، وخفّف عن الجهلة، ربّ رحيم ودين قويم وإمام عليم.»

هذا الكلام بظاهره يعطي أنّ الله سبحانه كلّف كلّ أحد بما هو مبلغ طاقته ونهاية وسعه، فبيّن (عليه السلام) أنّ التكليف على حسب العلم يتفاوت، فكلّ امرئٍ من العلماء وأهل النباهة ومن هو بصدد العلم مجهوده وطاقته منه على الأدلّة وتعليماً، وأمّا الجهّال كالنساء وأهل البادية والزنج ونحوهم من أهل الغباوة فتكليفهم دون ذلك، وهو بالمحسوس من العبادات دون الأمر في التفكير في مقاصدها.

وعقّب (عليه السلام) وصيّته بالتنبيه على مجاري حالاته لاعتبار الحاضرين واتّعاظ المشاهدين، فقال: «أنا بالأمس صاحبكم» في الحرب ومنازعة الأقران وصاحب الأمر والنهي فيهم، واليوم عبرة لهم بحال مصرعه وضعفه عن الحراك، وغداً مفارقهم بالموت.

* * *

]دخول حبيب على عليٍ (عليه السلام) في مرضه:[

روى الصدوق في أماليه: عن حبيب بن عمرو قال: دخلت على أمير المؤمنين على بن أبي طالب (عليه السلام) في مرضه الذي قُبض فيه، فحلّ عن جراحته، فقلت: يا أمير المؤمنين ما جرحُك هذا بشيء وما بك من بأس، فقال لي: يا حبيب أنا والله مفارقكم الساعة، فبكيت عند ذلك وبكت أم كلثوم وكانت قاعدة عنده، فقال لها: ما يُبكيك يا بُنيّة؟ فقالت: ذكرت يا أبه أنّك تفارقنا الساعة فبكيت، فقال لها: يا بنيّة لا تبكين، فوالله لو ترين ما يرى أبوك ما بكيت، قال حبيب: فقلت له: وما الذي ترى يا أمير المؤمنين؟ فقال: يا حبيب أرى ملائكة السماوات والنبيّين بعضهم في أثر بعض وقوفاً إلى أن يتلقّوني، وهذا أخي محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس عندي يقول: أقدم فإنّ ما أمامك خير لك ممّا

أنت فيه. قال حبيب: فما خرجت من عنده حتّى توفّي من الغد.(29(

دخول عمرو بن الحمق على عليّ (عليه السلام) في مرضه:

وفي كتابنا ـ مسند الإمام علي (عليه السلام) نقلاًَ عن الخرائج والجرائح ـ عن عمرو بن الحمق الخزاعيّ قال: دخلت على علي (عليه السلام) حين ضُرب الضربة بالكوفة، فقلت: ليس عليك بأس، إنما هو خدش. قال: لعمري إنّي مفارقكم، ثم قال: إلى السبعين بلاء، قالها ثلاثاً، قلت: فهل بعد البلاء رخاء؟

فلم يُجبني وأُغمي عليه، فبكت أم كلثوم فلمّا أفاق قال: لا تؤذيني يا أم كلثوم، فإنّك إن تري ما أرى لم تبكِ، إنّ الملائكة من السماوات السبع بعضهم خلف بعض والنبيّون يقولون: انطلق فما أمامك خير لك ممّا أنت فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين إنّك قلت إلى السبعين بلاء، فهل بعد السبعين رخاء؟ قال: نعم، وإنّ بعد البلاء رخاء، يمحو الله ما يشآء ويثبت وعنده أمّ الكتاب.(30(

]دخول الأصبغ على علي (عليه السلام):[(

وفي كتاب «الروضة» بالإسناد يرفعه إلى الأصبغ قال: لمّا ضُرب أمير المؤمنين (عليه السلام) الضربة التي كانت وفاته فيها اجتمع إليه الناس بباب القصر، وكان يُراد قتل ابن ملجم ـ لعنه الله ـ فخرج الحسن (عليه السلام) فقال : معاشر الناس إنّ أبي أوصاني أن أترك أمره إلى وفاته، فإن كان له الوفاة وإلاّ نظر هو في حقّه، فانصرفوا رحمكم الله، قال: فانصرف الناس ولم أنصرف، فخرج ثانية وقال لي: يا أصبغ أما سمعت قولي عن أمير المؤمنين؟ قلت: بلى ولكنّي رأيت حاله فأحببت أن أنظر إليه فأستمع منه حديثاً، فاستأذن لي رحمك الله، فدخل ولم يلبث أن خرج فقال لي : ادخل، فدخلت فإذا أمير المؤمنين معصّب بعصابة صفراء وقد علت صفرة وجهه على تلك العصابة، وإذا هو يرفع فخذاً ويضع أخرى من شدّة الضربة وكثرة السم، فقال لي: يا أصبغ، أما سمعت قول الحسن عن قولي؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، ولكني رأيتك في حالةٍ فأحببت النظر إليك وأن أسمع منك حديثاً. فقال لي: أقعد فما أراك تسمع مني حديثاً بعد يومك هذا:

اعلم يا أصبغ أنّي أتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله (عائداً كما جئتَ الساعة، فقال لي: يا أبا الحسن أخرج فنادي في الناس الصلاة جامعة واصعد المنبر وقم دون مقامي بمرقاة، وقل للناس: ألا من عقّ والديه فلعنة الله عليه، ألا من أبق من مواليه فلعنة الله عليه، ألا من ظلم أجيراً أجرته فلعنة الله عليه، يا أصبغ ففعلت ما أمرني به حبيبي رسول الله

(صلى الله عليه وآله)، فقام من أقصى المسجد رجل فقال: يا أبا الحسن تكلّمت بثلاث كلمات وأوجزتهنّ فاشرحهنّ لنا، فلم أردّ جواباً حتّى أتيتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقلت ما كان من الرجل .

قال الأصبغ: ثم أخذ بيدي وقال: يا أصبغ أبسط يدك، فبسطت يدي، فتناول أصبعاً من أصابع يدي وقال: يا أصبغ كذا تناول رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصبعاً من أصابع يدي كما تناولت أصبعاً من أصابع يدك، ثم قال: يا أبا الحسن، ألا وإنّي وأنت أبوا هذه الأمّة، فمن عقّنا فلعنة الله عليه، ألا وإنّي وأنت موليا هذه الأمّة، فعلى من أبق عنّا فلعنة الله عليه، ألا وإنّي وأنت أجيرا هذه الأمة فمن ظلمنا أجرتنا فلعنة الله عليه، ثم قال: قل «آمين» فقلت: آمين. قال الأصبغ: ثم أغمي عليه فلمّا أفاق فقال لي: أقاعد أنت يا أصبغ؟ قلت: نعم يا مولاي، قال: أزيدك حديثاً آخر؟ قلت: نعم زادك الله من مزيدات الخير، قال: يا أصبغ، لقيني رسول الله (صلى الله عليه وآله) في بعض طرقات المدينة وأنا مغموم قد تبيّن الغمّ في وجهي، فقال لي: يا أبا الحسن أراك مغموماً، ألا أحدّثك بحديث لا تغتمّ بعده أبداً؟ قلت: نعم. قال: إذا كان يوم القيامة نصب الله منبراً يعلو منابر سائر النبيّين والشهداء ثم يأمرني الله أصعد فوقه، ثم يأمرك الله أن تصعد دوني بمرقاة، ثم يأمر الله ملكين فيجلسان دونك بمرقاة، فإذا استقللنا على المنبر لا يبقى أحد من الأوّلين والآخرين إلاّ حضر، فينادي الملك الذي دونك بمرقاة: معاشر الناس ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا رضوان خازن الجنان، ألا إنّ الله بمنّه وكرمه وفضله وجلاله أمرني أن أدفع مفاتيح الجنة إلى محمد، وإنّ محمداً أمرني أن أدفعها إلى علي بن أبي طالب، فاشهدوا لي عليه.

ثم يقوم ذلك الذي تحت ذلك الملك بمرقاة منادياً يسمع أهل الموقف: معاشر الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرّفه بنفسي، أنا مالك خازن النيران، ألا إنّ الله بمنّه وفضله وكرمه وجلاله أمرني أن أدفع مفاتيح النار إلى محمد، وإنّ محمداً أمرني أن أدفعها إلى عليّ بن أبي طالب، فاشهدوا لي عليه، فآخذ مفاتيح الجنان والنيران، ثم قال: يا علي فتأخذ بحُجزتي، وأهل بيتك يأخذون بحجزتك، وشيعتك يأخذون بحُجزة أهل بيتك، قال: فصفقت بكلتا يدي: وإلى الجنّة يا رسول الله؟ قال: أي وربّ الكعبة. قال الأصبغ: فلم أسمع من مولاي غير هذين الحديثين ثم تُوفّي صلوات الله عليه.(31(

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: لمّا احتضر أمير المؤمنين)عليه السلام) جمع بنيه فأوصاهم، ثم قال: «يا بُنيّ إنّ القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودّة وتتناجى بها، وكذلك هي في البغض، فإذا أحببتم الرجل من غير خيرٍ سبق منه إليكم فارجوه، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه».(32(

وعن الحسن بن علي عليه السلام قال: دخلت على أمير المؤمنين)عليه السلام) وهو يجود بنفسه لمّا ضربه ابن ملجم

فجزعت لذلك، فقال لي: أتجزع؟ فقلت: وكيف لا أجزع وأنا أراك على حالك هذه، فقال: ألا أعلّمك خصالاً أربع إن أنت حفظتهنّ فلك النجاة، وإن أنت ضيّعتهنّ فاتك الداران؟ يا بُنّي لا غنىً أكبر من العقل، ولا فقر مثل الجهل، ولا وحشة أشدّ من العجب، ولا عيش ألذّ من حسن الخُلق».(33)

]دخول صعصعة على علي (عليه السلام):[

وفي كتابنا ـ مسند الإمام علي ـ نقلاً عن المناقب عن صعصعة بن صوحان أنّه دخل على أمير المؤمنين (عليه السلام) لمّا ضُرب فقال: يا أمير المؤمنين أنت أفضل أم آدم أبو البشر؟ قال علي (عليه السلام): «تزكية المرء نفسه قبيح، لكن قال الله تعالى لآدم: «يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمِينَ» وأنا أكثر الأشياء أباحنيها الله لي وتركتُها وما قاربتها. ثم قال: أنت أفضل يا أمير المؤمنين أم نوح؟ قال علي (عليه السلام): إنّ نوحاً دعا على قومه، وأنا ما دعوت على ظالمي حقّي، وابن نوح كان كافراً وابناي سيّدا شباب أهل الجنّة، قال: أنت أفضل أم موسى؟ قال (عليه السلام): إنّ الله تعالى أرسل موسى إلى فرعون فقال: «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ»(34) حتّى قال الله تعالى: «لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ»(35) وقال «رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ»(36) وأنا ما خفت حين أرسلني رسول الله)صلى الله عليه وآله) بتبليغ سورة براءة أن أقرأها على قريش في الموسم مع أنّي كنت قتلت كثيراً من صناديدهم، فذهبت إليهم وقرأتها عليهم وما خفتهم، ثم قال: أنت أفضل أم عيسى ابن مريم؟ قال (عليه السلام): عيسى كانت أمّه في بيت المقدس فلمّا جاء وقت ولادتها سمعت قائلاً يقول: اخرُجي، هذا بيت العبادة لا بيت الولادة، وأمّا أمّي فاطمة بنت أسد لمّا قرب وضع حملها كانت في الحرم، فانشقّ حائط الكعبة وسمعت قائلاً يقول: ادخلي، فدخلت في وسط البيت وأنا ولدت به، وليس لأحد هذه الفضيلة لا قبلي ولا بعدي.(37)

وفي كتاب ـ معاني الأخبار ـ عن أنس بن مالك قال: كنت عند علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الشهر الذي أُصيب فيه ـ وهو شهر رمضان ـ فدعا ابنه الحسن (عليه السلام) ثم قال له: «يا أبا محمد أُعلو المنبر فاحمد الله كثيراً وأثنِ عليه، واذكر جدّك رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأحسن الذكر وقل: «لعن الله ولداً عقّ أبويه، لعن الله ولداً عقّ أبويه، لعن الله ولداً عقّ أبويه، لعن الله عبداً أبق من مواليه، لعن الله غنماً ضلّت عن الراعي» وانزل، فلمّا فرغ من خطبته ونزل اجتمع الناس إليه فقالوا: يا بن أمير المؤمنين وابن بنت رسول الله نبئنا الجواب، فقال: الجواب على أمير المؤمنين (عليه السلام)، فقال أمير المؤمنين: إنّي كنت مع النبي (صلى الله عليه وآله) في صلاةٍ صلاّها، فضرب بيده

اليمنى إلى يدي اليمنى فاجتذبها فضمّها إلى صدره ضمّاً شديداً، ثم قال لي: يا علي، قلت: لبيّك يا رسول الله قال: أنا وأنت أبوا هذه الأمة، فلعن الله من عقّنا، قل آمين، قلت: آمين، ثم قال: أنا وأنت موليا هذه الأمة، فلعن الله من أبق عنّا، قُل آمين، قلت: آمين، ثم قال: أنا وأنت راعيا هذه الأمة، فلعن الله من ضلّ عنّا، قل آمين، قلت: آمين. قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: وسمعت قائلين يقولان معي «آمين» فقلت: يا رسول الله ومن القائلان معي آمين؟ قال: جبرئيل وميكائيل (عليهم السلام).(38(

وفي كتاب ـ الخرائج والجرائح ـ عن أبي جعفر (عليه السلام (قال: جمع أمير المؤمنين (عليه السلام) بنيه ـ وهم اثنا عشر ذكراً ـ فقال لهم: «إنّ النبي يعقوب (عليه السلام) كان له من البنين اثنا عشر ذكراً فلمّا حضره الموت جمعهم وقال لهم: إنّي أُوصي إلى يوسف فاسمعوا له وأطيعوا، وأنا أُوصي إلى الحسن والحسين فاسمعوا لهما وأطيعوا، فقال له عبد الله ابنه: أدون محمد بن علي؟ ـ يعني محمد بن الحنيفة ـ فقال (عليه السلام): أجرأةً عليَّ في حياتي، كأنّي بك وقد وُجدتَ مذبوحاً في فسطاطك لا يُدرى من قتلك.«

وقد صدّقت الحوادث هذه النبوءة فإنّه لمّا كان في زمان المختار أتاه عبد الله فقال له: أعطني قيادة الجيش، قال له المختار: لست هناك، فغضب ولحق بمصعب بن الزبير ـ وهو بالبصرة ـ فقال له: ولّني قتال أهل الكوفة، فكان في مقدّمة مصعب بن الزبير، فالتقوا بحوراء فلمّا حجز الليل بينهم أصبحوا فوجدوه مذبوحاً في فسطاطه لا يُدرى من قتله.(39(

وفي أصول الكافي عن سليم بن قيس قال: شهدت وصيّة أمير المؤمنين صلوات الله عليه حين أوصى إلى ابنه الحسن (عليه السلام) وأشهد على وصيّته الحسين (عليه السلام) ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال له: «يا بُنيّ أمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن أوصي إليك وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليّ رسول الله ودفع إلي كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين (عليه السلام)، ثمّ أقبل على ابنه الحسين فقال: وأمرك رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن تدفعها إلى ابنك هذا ـ وأخذ بيد علي بن الحسين ـ ثم قال لعليّ بن الحسين: وأمرك رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي، وأقرأه من رسول الله ومنّي السلام».(40(

وفي كتاب (مسند الإمام علي صلوات الله عليه): عن علي بن الحسين ومحمد بن علي (عليهما السلام) أنّهما ذكرا وصيّة علي صلوات الله عليه ـ وساقا الحديث إلى أن قالا: قال صلوات الله عليه: «أيّها الناس هل فيكم أحد يدّعي قِبلي جوراً في حكم أو ظلماً في نفس أو مالٍ، فليقُم أُنصفه من ذلك؟ فقام رجل من القوم فأثنى عليه ثناءً حسناً وأطراه وذكر

مناقبه في كلام طويل، فقال علي صلوات الله عليه: أيّها العبد المتكلّم، ليس هذا حين إطراء وما أحبّ أن يحضرني أحد في هذا المحضر بغير النصيحة، والله الشاهد على مَن رأى شيئاً يكرهه فلم يُعلمنيه، فإنّي أحبّ أن استعتب من نفسي قبل أن تموت، إلى أن قال: أيّها الناس أنا أحبّ أن أشهد عليكم ألاّ يقوم أحد فيقول «أردت أن أقول فخفتُ» فقد أعذرت بيني وبينكم، اللهمّ إلاّ أن يكون أحد يريد ظلمي والدعوى قبلي بما لم أجُر، أما أنّي لم أستحلّ من أحد مالاً ولم أستحلّ دماً بغير حقّ، إلى أن قالا: ثمّ لم يزل يقول: اللهمّ اكفنا عدوّك الرجيم، اللهمّ إنّي أشهدك أنك لا إله إلاّ أنت، وأنت الواحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فلك الحمد عدد نعمائك لديّ وإحسانك عندي، فاغفر لي وارحمني وأنت خير الراحمين، ثمّ لم يزل يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمد عبده ورسوله عدة لهذا الموقف ولما بعده من المواقف، اللهم أجزِ محمد عنّا أفضل الجزاء، وبلِّغه منّا أفضل السلام، اللهمّ وألحقني به ولا تَحُل بيني وبينه إنّك سميع الدعاء غفور رحيم، ثمّ نظر إلى أهل بيته فقال: حفظكم الله وحفظ فيكم نبيّكم واستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام، ثمّ لم يزل يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتّى قُبض صلوات الله عليه.(41(

روى المجلسي في البحار: قال صلوات الله عليه في وصيّته: ثم تقدّم يا أبا محمد صلّ علي يا بُنيّ، وكبّر علي سبعاً، واعلم أنّه لا يحلّ ذلك لأحد غيري إلاّ على رجل يخرج في آخر الزمان اسمه القائم المهدي من ولد أخيك الحسين يُقيم اعوجاج الحقّ.(42(

وروى الشيخ المفيد: لما حضرت أمير المؤمنين صلوات الله عليه الوفاة قال للحسن والحسن (عليهما السلام): «إذا أنا متّ فاحملاني على سريري، ثمّ أخرجاني واحملا مؤخّر السرير فإنّكما تُكفيان مقدّمه، ثمّ ائتيا بي الغريّين فإنّكما ستريان صخرة بيضاء تلمع نوراً، فاحتفرا فيها فإنّكما تجدان فيها ساجة، فادفناني فيها.«

قال: فلمّا مات صلوات الله عليه أخرجناه وجعلنا نحمل مؤخّر السرير ونُكفى مقدّمه، وجعلنا نسمع دويّاً وحفيفاً حتّى أتينا الغريّين، فإذا صخرة بيضاء يلمع نورها، فاحتفرنا فإذا ساجة مكتوب عليها «هذه ممّا ادّخرها نوح لعلي بن أبي طالب صلوات الله عليه» فدفنّاه فيها وانصرفنا ونحن مسرورون بإكرام الله (عز وجل) لأمير المؤمنين (عليه السلام).(43(

* * *

(1)راجع الكافي للكليني 3: 231، باب (أن الميت يمثل له ماله وولده وعمله قبل موته)، ح41، و235، باب (المسألة في القبر /(...ح1 - 18...

(2)النور: 40.

(3)مريم: 71.

(4)آل عمران: 30.

(5)بحار الأنوار 8: 92. و«بله» من أسماء الأفعال بمعنى دع واترك.

(6)فلاح السائل لابن طاووس: 214.

(7)معاني الأخبار للصدوق: 287، باب (معنى الموت)/ ح 2.

(8)الأمالي للطوسي: 24: 31/ 31.

(9)كنـز العمال للمتقي الهندي 15: 700 /ح42798.

(10)البحار للمجلسي، 70: 119/ ح110.

(11)الكافي 3: 134/ ح12.

(12)الإسراء: 72.

(13)فاطر: 34 و35.

(14)المؤمنون: 15.

(15)المؤمنون: 16.

(16)العنكبوت: 57.

(17)النساء: 78.

(18)الزمر: 31.

(19)نهج البلاغة، ج2: 34 - خ149.

(20)الأعراف: 34.

(21)لقمان: 34.

(22)لقمان: 34.

(23)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 117.9 :

(24)بحار الأنوار 11: 393 نقلاً عن تفسير الثعلبي.

(25)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 299.1 :

(26)الكافي للكليني 1: 258، باب (أن الأئمّة يعلمون متى يموتون.(...

(27)المصدر السابق: ح4.

(28)نهج البلاغة 1: 39/ الخطبة الخامسة.

(29)الأمالي للصدوق: 396/ ح510/ 4.

(30)الخرائج والجرائح للراوندي 1: 178، باب /2ح11.

(31)بحار الأنوار 42: 44 - 46.

(32)أمالي الطوسي: 595/ ح1232.

(33)بحار الأنوار 75: 111.

(34)الشعراء: 12.

(35)النمل: 10.

(36)القصص: 33.

(37)اللمعة البيضاء: 99.

(38)معاني الأخبار: 118/ ح1.

(39)الخرائج والجرائح 1: 183 - 184/ ح17.

(40)الكافي 1: 297 - 298/ ح1.

(41)دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي .356 - 349 :2

(42)بحار الأنوار 42: 215.

(43)الإرشاد 1: 23 - 24.

من كلام له (عليه السلام (كان يوصي به أصحابه: [في بيان أهمية الصلاة[

»تَعاهَدُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ وَحافِظُوا عَلَيْهَا وَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا وَتَقَرَّبُوا بِهَا فَإِنَّهَا كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً أَلَا تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ الْوَرَقِ وَتُطْلِقُهَا

إِطْلَاقَ الرِّبَقِ وَشَبَّهَهَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وآله (بِالْحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لا تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ وَلَا قُرَّةُ عَيْنٍ مِنْ وَلَدٍ وَلَا مَالٍ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ.»...«

)شرح النهج لابن أبي الحديد مج2 ص569.(

* * *

الشرح:

قوله (عليه السلام): «تعاهدوا أمر الصلاة» أي جدّدوا العهد بها وراقبوا عليها في أوقاتها المخصوصة ولا تضيّعوها ولا تغفلوا عنها، لأنّها عماد الدين ومعراج المؤمنين، وقربان كلّ تقي ومؤمن نقي، وأوّل ما يُحاسَب به العبد، إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدّت ردّ ما سواها.

وقد ذمّ الله أقواماً توانوا عنها واستهانوا بأوقاتها فقال» :وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ» قال أمير المؤمنين)عليه السلام): يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها»(1.(

»وحافظوا عليها» أي على أوقاتها ورعاية آدابها وسُننها وحدودها ومراسمها وشروطها وأركانها، فلقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من ترك صلاته متعمّداً فقد هدم دينه»(2) وقال: «لا تضيّعوا صلاتكم فإنّ من ضيّع صلاته حشره الله تعالى مع قارون وفرعون وهامان لعنهم الله وأخزاهم، وكان حقّاً على الله أن يُدخله النار مع المنافقين، فالويل لمن لم يحافظ على صلاته».(3(

وقال أبو جعفر (عليه السلام): «إنّ الصلاة إذا ارتفعت في أوّل وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة تقول: حفظتَني حفظك الله، وإذا ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيّعتني ضيّعك الله».(4(

وقد أمر الله (عز وجل) بمحافظتها في الكتاب العزيز بقوله» :حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ».(5) قال أمين الإسلام الطبرسي: أي داوموا على الصلوات المكتوبات في مواقيتها بتمام أركانها.

وزبدة القول: إنّ الصلاة جوهر الدين، والدين أمر فطريّ كما صرّح به الكتاب والسنّة .

إنّ الصلاة شكر لإحسان المنعم، وشعور الإنسان بالشكر للمحسن شعور قديم. ومن الأمثال العربيّة المعروفة فيه قولهم: (الإنسان عبد الاحسان .(

إنّ الصلاة خضوع لمكوّن عظمة السماء والأرض، والخضوع للعظماء أمر ارتكازيّ في جِبلّة كلّ فرد من الناس .

والصلاة هي من أهمّ مزايا الأنبياء وصفات رسل الله التي جاءت في القرآن الكريم، والتي مدحهم بها الله تعالى...، وفي هذا إشارة إلى وحدة الأديان السماويّة في الأثر والغاية، وإنّ أكثر الأحكام التي جاء بها القرآن كانت متّبعة لدى الأنبياء المتقدّمين، ومن جهة أخرى فيه إشارة بالحثّ على السير بطريقتهم والتمسّك بصفاتهم وأفعالهم التي منها الصلاة، كما تجد ذلك في الآيات التالية :

قال الله تعالى، يمدح إسماعيل (عليه السلام): «وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا».(6(

وقال تعالى على لسان إبراهيم (عليه السلام) حين دعى ربّه» :رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ».(7) وقال تعالى حكاية عن عيسى: «وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا»(8)

وقال تعالى على لسان لقمان يُوصي ولده: «يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ».(9(

ففي هذه الآيات الكريمة تجد أثر الصلاة عند قدماء الأنبياء وأهميّتها الكبيرة في نفوسهم، حيث كان إسماعيل (عليه السلام) أوّل ما يأمر أهله بالصلاة، وإبراهيم (عليه السلام) يدعو ربّه لأن يكون في المقيمين للصلاة، وعيسى)عليه السلام) يفتخر حيث أوصاه تعالى بالصلاة، ولقمان (عليه السلام) يؤكّد في وصيته لولده بالمحافظة على الصلاة .

وكانت الصلاة هواية نبيّنا محمّد (صلى الله عليه وآله (ومعشوقته الكبرى، حتّى قال لأصحابه: «حُبّب إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجُعل قرّة عيني الصلاة»(10) فترى قد جعلها قرّة عينه ونور بصره لمنـزلتها عنده وكبرها في نفسه وأهميّتها لديه.

الصلاة هي سفينة شاطئ الأمان وسبيل مجتمع السلام وباب جنة الخلد. هذه الصلاة جعلها الله تعالى في القرآن الكريم سبباً من أسباب الفلاح، قال تعالى في سورة المؤمنون: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»(11)

وقال تعالى في سورة الأعلى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى».(12(

والصلاة هي أهمّ مظهر من مظاهر الإسلام، وأعظم ركن منه، وهي لباسه التي يعرف إسلامه بها وإيمانه منها، وهي جنسيّته التي بها يُعلم انتماؤه إلى دولة الإسلام، وأنّه من أتباع محمد (صلى الله عليه وآله)، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لكلّ شيءٍ وجه، ووجه دينكم الصلاة»(13) فترى قد جعل الصلاة وجه الدين ولباس الشريعة. وفي حديث آخر جعلها الحدّ الفاصل بين الكفر والإيمان فقال: «ما بين الكفر والإيمان إلاّ ترك الصلاة».(14(

والإمام الخامس محمّد الباقر(عليه السلام) شبّه الصلاة في الدين بالعمود للخيمة، فقال (عليه السلام): «الصلاة عمود

الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبتت الأطناب والأوتاد، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طنب».(15(

وأبعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) تارك الصلاة منه، ونفى أن يكون من المسلمين، وإن ادّعى ذلك، وحرمه من شفاعته يوم الحساب الأكبر، فقال وهو على فراش الموت: «ليس مِنّي من استخفّ بصلاته، لا يرد علي الحوض لا والله».(16 (وأكّد هذا المعنى الإمام الصادق (عليه السلام) فقال: «إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة».(17(

وشرّعت الصلاة لأجل تأييد قوّة الخير ودعم الفضيلة وطرد الرذيلة وإزالة الشرّ في قلب الإنسان، لأنّه عندما وُجد، وجد معه قوّتان: قوّة الخير وقوّة الشر، كما قال تعالى: «وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها»(18) وجعل الله بين القوّتين صراعاً ونزاعاً، كما جعل بيد المرء زمامهما، لأجل امتحان البشر وأن يدخلوا الجنة أو النار أزاء عمل يعملونه في دار الحياة، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

وشرّعت الصلاة لتحذير الإنسان من هوى النفس ومغرياتها وشياطينها، وشرّعت لتقف إلى جنب العقل ناصراً ومرشداً ومعيناً، ولدعم الفضيلة وقوّتها المستودعة في الإنسان، ولا شكّ أنّ الصلاة هي أقوى أفعال الدين لمكافحة إرادة النفس وشيوع الرذيلة وانتشار الشرّ، ولهذا السرّ شرّع تكرار الصلاة مرّات مختلفة في اليوم، لتضعف بذلك هوة الشرّ وتنكسر شوكتها، ولعلّ من هذا المعنى أُخذ اسم ـ المِحراب ـ لمكان المصلّي، حيث فيه يحارب المصلّي الهوى والنفس والشيطان .

والصلاة هي روح الدين الإسلاميّ، والدين الذي بابه الصلاة مدرسة تعليميّة كبرى تتلقّى برنامجها من الله تعالى وينزل منهاجها من السماء، فيوقف البشر في الأرض على خفايا لم تدركها عقولهم، ويوصلهم إلى نقاط في الإرشاد العالي لا يمكن أن تتوصّل إليها أفكارهم مهما بلغوا من التقدّم والرقي، والجدير بالذكر أنّ التقدّم الماديّ الذي يعرفه أهل الأرض لا يزيدهم إلا تأخّراً عن روحيّة السماء وحقيقة الحياة .

وتمتاز الصلاة بإطلاقها سراح الفكر بالتجوال الفكريّ الصحيح، وبحثّها على العمل الناتج والتمرين على حركة الفكر والجسد معاً، والإسلام طالما حثّ على ذلك، ومن حثّه على الأوّل قوله (صلى الله عليه وآله): «تفكير ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة»(19) ومن الثاني قوله تعالى: «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ».(20(

والصلاة حوت كلا العملين وجمعت بين الجنسين، وأشارت إلى كلّ من الجهدين بصورة عمليّة كاملة لا نظريّة فحسب، ومن هنا جاء النقص إلى أكثر المسلمين اليوم، حيث اعتبروا الصلاة كعمل خارجيّ خالٍ من التفكير بالغرض الذي شُرّعت لأجله الصلاة، وقد ورد في الحديث عن آل البيت (عليهم السلام) «إنّ الله لا يقبل من العبد صلاته إلاّ ما أقبل

عليه فيها».(21(

وقد أشار الإمام الرضا (عليه السلام) إلى تلك الفوائد، كما بيّن بعض أسرار مشتملات الصلاة في حديث نذكره بطوله، قال (عليه السلام): «إنّما أمر الله بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدَي الجبّار وعند مناجاته إيّاه مطيعاً له فيما أمره، نقيّاً من الأدناس والنجاسة؛ مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس، وإنّما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين؛ لأنّ العبد إذا قام بين يدَي الجبّار فإنّما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوجوه، وذلك بوجهه يسجد ويخضع، وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويبتهل، وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد».(22(

والصلاة هي وديعة السماء في الأرض وأمانة الله عند خلقه، وقد أمرهم بالاهتمام بها والمحافظة عليها، فقال تعالى: «حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى وَقُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ».(23(

وهذه الأمانة هي التي تعرّفنا بالدين الحنيف، وتعلّمنا المحافظة على أموال الناس وعلى حقوقهم الفرديّة والاجتماعيّة؛ لأنّ الإسلام أعطى المرء حقوقه من نتاج الحياة، وجعل سياجاً قويّاً يفصل بين تلك الحقوق، وحرّم التعدّي والنهب والكذب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لا يحلّ مال امرئٍ إلاّ من طيب نفس».(24(

والإمام زين العابدين (عليه السلام) ضرب للمسلمين مثلاً علياً في المحافظة على الأمانات، حيث يقول: «والله لو أنّ قاتل أبي الحسين ائتمنني على السيف الذي قُتل به لأدّيتُه إليه».(25(

فالصلاة والدين يعلّمان المرء كيف يعيش في الحياة عيشة فيها السعادة للفرد والجماعة، وكيف يحافظ على الحقوق والأموال، وكيف يؤدّي الودايع والأمانات، لأنّ المحافظة على الأمانة الكبرى ـ وهي الصلاة ـ تستلزم المحافظة على الأمانة الصغرى وتدرّب على تأديتها. ولعلّ أوّل من أطلق الأمانة على الصلاة من الناس هو أمير المؤمنين صلوات الله عليه بعد إشارة القرآن الكريم إلى ذلك، حيث كان صلوات الله عليه إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»(26) وهو بهذا يشير إلى قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الأْ◌َمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأْ◌َرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها» الآية.(27(

وقد بيّن الإسلام ما للصلاة من أثر كبير في إدراك النجاح وتحصيل الفلاح، قال الله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»(28) وفي الحديث الشريف عن أعرابيّ جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال له (صلى الله عليه وآله): أسلم تسلم، قال: وما الإسلام؟ قال)صلى الله عليه وآله): شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمد رسول الله، قال: ثمّ ماذا؟ قال: الصلاة خمس مرّات في اليوم والليلة، إلاّ أن تتطوّع، قال: ثمّ ماذا؟ قال: صوم رمضان إلاّ أن

تتطوّع...الخ، فولّى الأعرابي وهو يقول: والله لا أزيد عليها ولا أنقص، فلمّا بلغ قوله النبي (صلى الله عليه وآله) قال: أفلح الأعرابيّ إن صدق».(29)

ويحسب البعض أنّ الصلاة صخرة عثرة في طريق الحياة، وأنّ الدين عدو الدنيا، وهذا وهم فاسد وافتراء وكذب على الدين والإسلام؛ لأنّ القرآن يقرّر عكس هذا حيث يقول تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ»(30) وقوله تعالى: «وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا»(31) ولم يكتفِ بآية أو آيتين بل أورد سلسلة من الآيات الكريمة في الموضوع نفسه قائلاً: «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ».(32) «لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ».(33» (وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً».(34) «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ»(35) و«أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ».(36) «كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً».(37)

وفي الحديث الشريف: «اعمل لدُنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً»(38) وقال (صلى الله عليه وآله) «مَن لا دُنيا له لا دين له». وفي الكافي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: «لا خير فيمن لا يحبّ جمع المال من حلال يكفّ به وجهه ويقضي به دَينه ويصل به رحمه».(39) وعن أبي جعفر الباقر(عليه السلام) قال: «إنّي لأبغض الرجل أن يكون كسلاناً في أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دُنياه فهو عن أمر آخرته أكسل».(40) والأخبار في الحثّ على تحصيل الدنيا وإصلاح أمر العيشة بحدّ التواتر.

وبالتالي قصدنا بهذا البحث التقريب لأفكار شبابنا المسلمين وجيلنا الناشئ الجديد الذي جعل الصلاة وراء ظهره. هذا الجيل الذي عليه كلّ آمالنا في الدعوة لاستمرار رسالة الإسلام وتبليغها للعالم البعيد، ونشر دعوة السماء الحقّة في الأرض، وبثّ فكرة نبيّ الإسلام في العالم، وتطبيق نظام القرآن بين الناس، والقيام بالعبادات الإلهيّة فُرادى وجماعات.

نسأل الله تعال أن يوفّق الجميع لمراضيه.

]الصلاة تحتّ الذنوب:[

قوله صلوات الله عليه: «إنّها لتحتّ الذنوب حتّ الورق». إلى قوله: «فما عسى أن يبقى عليه من الدرن.«

يدلّ هذا الكلام بظاهره على أنّ الصلاة حسنة لا تضرّ معها سيئة، وأنّ الله يغفر سيّئآت المصلّي مهما تضاعفت وتنوّعت!. وليس من شكّ أنّ هذا الظاهر يصطدم مع حكم العقل والبديهة، ومع قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».(41)

فما هو وجه الجمع؟

الجواب: لا أحد يجرأ على الزعم والادّعاء أنّه منـزّه عن التقصير والخطأ إلاّ جاهل مغرور حاشا الأنبياء... والخطيئة أنواع، ولكلّ نوع درجات، فهناك حقّ الله وحقّ الناس، وهناك الكبيرة والصغيرة، وبعض الخطايا تقبل المغفرة والتسامح ويختصر فيها على اللوم والعتاب أو التوبيخ.

وبعضها يوجب العقاب الخفيف، وثالثة العقاب الوسط، ورابعة العذاب الأكبر، وأفحش الخطايا على الإطلاق الشرك بالله، والاعتداء على حريّات الناس بكمّ الأفواه وتعذيب الأرواح والأجسام ونهب الثروات وما إلى ذلك من الجرائم التي يرتكبها الأقوياء ضدّ الضعفاء الذين لا قدرة لهم ولا حيلة ولا وسيلة. وهذا النوع من الذنوب لا يُغفر إطلاقاً، وإن صلّى المذنب الظالم وصام وحجّ إلى بيت الله الحرام .

وما عدا هذا النوع من الذنوب يقبل الغفران، شريطة أن لا يكون فيه شائبة اعتداء على الأخرين، وإن كانت مثقال ذرة. ومن الأمثلة التي تقبل التسامح والمغفرة سقطات اللسان مع عدم الإضرار بالآخرين، وأكل الخبائث أو شُربها بلا ضرورة، وصناعة التماثيل، والنظرة الآثمة، والعصبيّة إذا لم يترتّب عليها فساد؛ بل وحلق اللحية، والإسراف في الأموال على القول بالتحريم.

وغير بعيد أن يكون المراد بالذنوب التي تحتّها الصلاة وتطهّر المصلي منها هذا النوع بالخصوص، ومن الجائز أيضاً أن يكون القصد من حتّ الذنوب أنّ الصلاة من طبيعتها تحثّ المصلي على التوبة التي تطهّره من الذنوب. ويومي إلى ذلك ويؤيّده قوله تعالى: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ»(42 (أي تنهى المصلي عنهما بمجرد الدعوة والإرشاد، ولا تدفعه عنهما قسراً، أو تخلق في نفسه النفور منهما قهراً.. لأنّ هذا لم يحدث بشهادة العيان، وليس من شكّ أنّ إهمال التوبة من المنكرات، فيشمله نهي الصلاة عن المنكر .

قوله صلوات الله عليه: «وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين «الذين وجدوا حلاوة الإيمان بالله، وبرد اليقين، وجلال القرب منه، وعقلوا أسرار الصلاة وأهدافها، وأنّ الله سبحانه يكتب لهم من ثوابها على قدر محافظتهم عليها واهتمامهم بها، وإذن فلا عجب إذا أعطوها عن طيب نفس كلّ همهم واهتمامهم، وجعلوها شغلهم الشاغل حتّى عن الولد والمال . ونحن نعرف الكثير من عظمة الصلاة عند الله، وأنّها عمود الدين وقربان كلّ تقيّ... وأيضاً نتحدّث عن فضلها ونكتبه ونذيعه، ولكنّ صلاتنا ـ ويالسوء العمل ـ أشبه بحركة آليّة أو تلقائيّة... أبداً لا شيء فيها من الخضوع والخشوع، نحن نصلّي ـ والله ـ بقصد القربة لله، ولكن بماذا نفكّر أثناء الصلاة؟ ...بالتافهات وزينة الحياة. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إنّ خير أعمالكم الصلاة»(43) وتقول أنفسنا الأمّارة: لا، إنّ خير أعمالكم الشهرة والسمعة، والجمع للوارث التارك للصلاة، اللهمّ هدايتك وغفرانك.

* * *

فصل ووصل :الصلاة وطرق التقدّم الثلاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

»إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ.«

إنّ سورة الكوثر أقصر سورة في القرآن الكريم لعرض خير الفضائل والتبشير بها بغاية الايجاز، وذلك بعض ما امتاز به الكتاب المجيد.

تتألّف هذه السورة من ثلاثة آيات: تحتوي الأولى والثالثة على جملة واحدة، أمّا الثانية فعلى جملتين! وتعني الآية الأولى «إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ» يا رسول الله لقد منحناك الخير، وتعني الآية الثالثة «إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ»: إنّ عدّوك الذي يروم محوك سوف يُحرم من كلّ خير. والباقي »فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» تعني أقم الصلاة وقدّم الضحية.

وهذه هي الطرق الوحيدة للوصول إلى الخير. وقد بيّن الله سبحانه غاية الدين الجوهريّة والسبيل إلى نيلها بصورة واضحة مجملة.

إنّ غاية الدين أو الإيمان لا تتعدّى جلب السعادة والخير للعالم، وقد فسّر ابن عباس وابن جبير «الكوثر» بالخير.(44) وفي الواقع أنّ المقصود بهذه الكلمة خير المادة وخير الروح.

ولا ريب في أنّ هذا الوحي الإلهيّ وإن كان قد خوطب به النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) ولكنّه في الحقيقة موجّه إلى كلّ مؤمن؛ بل إنّ كلّ وحي مذكور في القرآن موجّه في الواقع إلى كافّة المؤمنين. فمعنى السورة إذن :أيّها الإنسان لقد منحناك كلّ خير بوحينا، ولا يمكن تحقيق ذلك إلاّ بالصلاة والتضحية، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإيصال البشر إلى الرفعة والسمّو المادّيّ والمعنويّ.

لقد تحقّق لدى العالم بعد طول الاختبار أنّه ما من أمّة تستطيع التقدّم إلاّ بالتضحية، فكلّما زادت من هذه زيد لها من ذلك، ولكنّ الظاهر أنّ الله تعالى قد قدّم الصلاة عليها .

إنّ التضحية عمل، وفي الحقّ أنّ التقدّم والرفعة يتوقّفان على أعمال الإنسان، بمعنى أنّ الإنسان ينال الشيء بعد أن يسعى إليه «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى»(45) كما أنّ أعمال الإنسان نتيجة لاحساسه وعواطفه وآماله، وبدونها لا يقدم على أيّ عمل .

إنّ العواطف تؤدّي إلى أعمال مثلها إن رديئة فرديئة، أو حسنة فحسنة، فالقتل بسبب الطمع ومعاونة ذوي الحاجة سلوكان يؤدّي إليهما نوعان من الأفكار رديء وحسن.

وإنّ القرآن الكريم والنبي محمد (صلى الله عليه وآله) هما اللذان نبّها إلى ذلك، قال الله تعالى في كتابه المجيد: «أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ».(46(

إنّ غاية المجد والرفعة لتكمن في نبل وسمّو أفكارنا وعواطفنا وشعورنا، وهذا هو السبب في أنّ الصلاة تعتبر علاجاً شاملاً لكلّ شرور البشر «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»(47) ويصف الحديث الصلاة بأنّها نهر جارٍ يطهّر منّا أرجاسنا، وقد وصفت بحقّ بأنّها معراج المؤمنين، وهي في الواقع أيسر سبيل لبلوغ هذه الرفعة؛ بل إنّ الأمر بالصلاة قد عاصر المعراج ـ أي صعود النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله) إلى السماء، حيث فيه تلقّى الأمر من الله تعالى بالصلاة .

إنّ الكلمات المقدّسة التي نكرّرها عادة في صلاتنا هي «الله أكبر»، وبذلك تفتح الصلاة بهذا التكبير لله، كما أنّ الإنسان يُقرّ عند وقوفه أمام الله بأن لا قيمة لأيّة عظمة في الدنيا أزاء عظمة الله، وهذا الشعور بالله يستتبع تحوّلاً وانقلاباً لا نظير لهما في الصلاة التي نقيمها، وإنّ الإنسان إذ يشعر شعوراً دافقاً بضعته أمام الخالق؛ إذ يسجد أمامه ويُعفّر جبهته بالتراب، وفي كلّ لحظة يكرّر من أعماق قلبه «الله أكبر» ليقوّي في نفسه الشعور بقوّة الله وتتمكّن جذوره في قلبه.

إنّ أوّل خطو الإنسان نحو التقدّم الروحيّ بعد مدح الله تعالى والاقرار بعظمته يكمن في الابتداء بالصلاة حيث يعترف الإنسان بضعفه، ويتوق أن ينطلق ليسمو.

وما الصلاة إلاّ دعاء، وليس الدعاء إلاّ تلاوة بعض الكلمات المرسومة، ولكنّ الدعاء ما أُريد به أن يخلق حركة في صميم عقل الإنسان. إنّه رغبة حافز ونشاط، بل دافع يُعبّر عنه بكلمات، ويكمن خلف هذا النشاط ووراء هذه العواطف قوّة عظيمة تعبّر عن طبيعتها أمام الله، فيشعّ من حنايا ضمائرنا نور، وتجيش نفوسنا بثورة، وفي خلال هذه الثورة نتضرّع بطلب الرحمة من الله القدير، وإنّ هذه القوّة الإلهيّة تعين الضعيف فترتوي بها روحه وتقوى.

وفي الصلاة اعتراف بسيطرة الإله الجبّار على خلقه، وأنّه لا يسيطر على أجسامنا فحسب، ولكنّه يحكم عقولنا وضمائرنا أيضاًَ.

وفي الصلاة رابطة بين الله والإنسان، وفي الصلاة اعتراف الإنسان بالعبوديّة لله تعالى، فيقوم بطبيعة الحال بواجبات هذه العبوديّة للإله .

إنّ الصلاة هي التي تبيّن بواعث الإنسان الحقيقيّة واعترافه بذنبه وخطاياه وضعفه, وإنّه ليبدي رغبته في أن يرتفع من هذه الوهدة، ويطلب المعونة من الله تعالى للخلاص منها ومن انحطاطه وطاعته لأفكار السوء .

هكذا تخلق الصلاة في الإنسان نشاطاً وقوّة بحيث يمتنع عن ركوب الخطايا والمآثم، وربّما أبعدت عنه المعاصي بُعد ما

بين المشرق والمغرب، وجعلت روحه نقيّة نقاء القماش الأبيض من الأوضار والأقذار، وقد يغفر الله للانسان ما ارتكب من ذنب ويمحوه كما يغسل الماء أيّ شيء.

وعندما يصلّي الإنسان لربّه الصلاة الحقيقيّة تشعّ من داخل نفسه رغبة بأن يتنـزّه عن الظلم والقسوة والكذب والدعاوى الخادعة، ومن كلّ الظنون السيّئة والأعمال الرديئة، وبذلك يقف سدّاً منيعاً ضدّ نزعات الشيطان .

وقد أضفى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) أهميّة خاصّة على الصلوات، وقد وُصفت في الوحي بأنّها طعام الروح، «وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقى»(48) ووسيلة لاستمداد المعونة من عند الله، «اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ»،(49) وإنّها أسلوب لكبح جماح النفس واجتثات الرذائل والنوازع المنحطّة من جذورها، «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ»،كما أنّها واسطة للنجاح في الدنيا والآخرة، «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ.«

كان الفساد والانحطاط فاشيين في العرب قبل الإسلام، وقد استقامت أخلاقهم في ضمن مدّة قصيرة وهي ثلاثة وعشرون عاماً في الإسلام، وانتشروا في الأرض متقمّصين أثواباً من القداسة، يبشّرون بالأخلاق السامية والشهامة، ومردّ ذلك كلّه إلى الصلاة؛ إذ لم تكن هناك مدارس ولا جامعات ولا أيّة واسطة لترقية الزراعة والتجارة، وإنّما هي «سبحان ربّي العظيم وبحمده» «وسبحان ربّي الأعلى وبحمده» غذّت أرواحهم وأوصلت كلّ واحد منهم إلى ذروة المجد الذي لا يمكن نيله بواسطة أخرى.

إنّ نيل الفضائل عمل جبّار، وما أندر أن تتصاحب العظمتان الدنيويّة والأخلاقيّة .

وما ينال الفضائل إلاّ الذين ينحنون أمام الله، ويصغون باهتمام إلى أقوال رُسله، بينما تنحني أمامهم الأمم متطلّعة إلى أمجادهم الدنيويّة والخلقيّة والروحيّة التي لم يسبق لها مثيل، ذلكم هو تأثير «سبحان ربّي العظيم وبحمده» و«سبحان ربّي الأعلى وبحمده» عندما تُتلى من أعماق القلوب.

هذه ناحية من نواحي الصلاة نحو التقدّم الماديّ والروحيّ، وهناك شكل ثانٍ للتقدّم الذي تعبّد الصلاة إليه الطريق: فهو التقدّم الجمعي أو الاجتماعيّ، وحجر الزاوية فيه سورة الفاتحة .

إنّ الانحناء أمام الله يرفع من شأن الأفراد؛ ولكنّ الانتظام بصفوف مرتّبة أمامه يدفع للنجاح الجمعيّ.

إنّ الصلابة والجمود يقلّلان من أثر الصلاة في تقدّم الفرد، إذ يجب الإفصاح عن كلّ ما يطرأ على ذهن الإنسان عند الصلاة؛ لأنّ فيها يتلائم العمل والتعبير.

ويشتدّ تأثير الصلاة إذا اقترنت بحركات جسميّة تُنبئ عن تواضع عظيم أمام الله، وقد قال الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وآله): «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد».(50(

إنّ آية «الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» حجر الزاوية في التقدّم الجمعيّ، وتتّحد عند تلاوتها أفكار الإنسانيّة جمعاء في الخضوع لله، ويشعر الإنسان باتّصاله التام بالجنس البشريّ، على الرغم من انتسابه إلى عائلته وعنصره وأمّته وبلاده، فهو يشعر بشعورهم ويتمنّى خلودهم جميعاً، وإذا حلّ الهدم والتخريب والموت بأفراد جنسه في أيّة بقعة من بقاع الأرض يغشى قلبه أسى، ويردّد في غمرة هذا الألم «الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» ويدعو الله ضارعاً طالباً خير كلّ ذي حياة في هذا الوجود، وتلك نفس الصرخة التي تخرج من قلوب القدّيسين والحكماء والأنبياء، فتغدو بلسماً شافياً لأدواء الأمم.

إنّ رفع السلاح ضدّ العدّو ضرورة ماسّة، ولكنّ هناك سلاحاً آخر هو سلاح الصلاة الجبّار الذي فرضه الله تعالى على المسلمين، إن أيّ انتصار ناله المسلمون في بدر لم يكن بسبب تفوّق قوّتهم أو عددهم، ولكن بسبب الصلاة التي صلّوها، ودعاء المضطرّ الذي دعوه طيلة تلك الليلة.

ويشبه حالة المسلمين اليوم ونقصهم في القوّة والنفوذ، ولو أفادوا من سلاح الدعاء الذي لا يخيب وخشعوا أمام الله تعالى طالبين منه النصر لفتح سبحانه لهم أبواباً من حيث لا يحتسبون النصر .

إنّ في القنبلة الذريّة ـ والحقيقة أولى أن تقال ـ لبأساً شديداً، وفي مقدورها أن تدمّر مدناً وأقطاراً، ولكنّ الدموع المسفوحة أمام الله القويّ الجبّار أكثر بأساً، ويمكن أن تغيّر مجرى الحوادث بصورة مدهشة تبلغ حدّ الإعجاب.

وتمهّد الصلاة السبيل ـ فضلاً عن التقدّم الفرديّ والجمعيّ ـ إلى تقدّم ثالث: هو نشر الإسلام والأخذ بنُصرة الحقّ، ولا خير في التقدّم الفرديّ أو الجمعيّ ما لم يكن في نفوسنا ميل لهذا التقدّم الثالث.

]الصلاة لغة واصطلاحاً:[

إنّ لفظ الصلاة من الأسماء الشرعيّة، ولا شبهة في أنّها عربيّة، فلا يجوز أن يكون الشرع ارتجلها ابتداء من غير نقل، وإلاّ لم يصحّ قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا»(51) فلا بدّ أن يكون له في اللغة معنى آخر.

فاختلفوا في أصله، فقيل: الدعاء، وقيل أصلها من الصَلا ـ وهي عظم العجز لرفعه في الركوع والسجود.(52(

وعلى القول الأوّل أكثر العلماء، إذ لا صلاة إلاّ ويقع فيها الدعاء أو ما يجري مجراه. وقال بعض الصوفيّة: اشتقاق الصلاة قيل من الصِلى النار، والخشبة المعوجّة إذا أرادوا تقويمها تُعرض على النار ثمّ تقوّم، وفي العبد اعوجاج لوجود نفسه الأمّارة بالسوء، وسبحات وجه الله الكريم ـ أي أنواره ـ التي لو كشف حجابها لأحرقت من أدركته، يُصيب بها المصلّي من رهج السطوة الإلهيّة والعظمة الربّانيّة ما يزول به اعوجاجه؛ بل يتحقّق به معراجه، فالمصلّي

كالمصطلي بالنار، ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يُعرض على نار جهنم إلاّ تحلّة القَسَم .

روى الصدوق في كتاب «من لا يحضره الفقيه» أنّه قال رسول الله)صلى الله عليه وآله(: «ما من صلاة يحضر وقتها إلاّ نادى مَلَك بين يدي الناس :أيّها الناس قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم فأطفؤها بصلاتكم».(53(

وقد ورد أنّ الله تعالى إذا تجلّى لشيء من خلقه خضع له،(54 (ومن تحقّق الصلة في الصلاة تلمع له طوابع التجلّي فيخشع، والفلاح للذين هم في صلاتهم خاشعون، وبانتفاء الخشوع ينتفي الفلاح، وشهد القرآن بالفلاح للمصلّين.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «الصلاة مرضاة الربّ، وحبّ الملائكة، وسنّة الأنبياء، ونور المعرفة، وأصل الإيمان، وإجابة الدعاء، وكراهة الشيطان، وشفيع بين صاحبها وملك الموت، وسراج في القبر، وفراش تحت جنبه، وجواب منكر ونكير، ومؤنس في السراء والضرآء، وصائرة معه في قبره إلى يوم القيامة».(55(

وأقبل أمير المؤمنين صلوات الله عليه ذات يوم على الناس فقال: «أيّة آية في كتاب الله أرجى عندكم؟ فقال بعضهم:«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»(56) قال:حسنة وليست إيّاها. فقال بعضهم: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً»(57) فقال: حسنة وليست إيّاها، فقال بعضهم: «يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(58) قال: حسنة وليست إيّاها، وقال بعضهم» :وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ»،(59) قال: حسنة وليست إيّاها، ثمّ أحجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين! قالوا: لا والله ما عندنا شيء، قال صلوات الله عليه: «سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أرجى آية في كتاب الله «وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ»(60) وقال: يا علي والذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً، إنّ أحدكم ليقوم إلى الوضوء فتساقط عن جوارحه الذنوب، فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل عن صلاته وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمّه، فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتّى عند الصلوات الخمس. ثم قال:يا علي إنّما منـزلة الصلوات الخمس لأمّتي كنهرٍ جارٍ على باب أحدكم، فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات في اليوم، أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي.(61(

وقال الإمام الباقر(عليه السلام): «يا باغي العلم صلِّ قبل أن لا تقدر على ليل ولا نهار تصلّ فيه، إنّما مثل الصلاة لصاحبها كمثل رجل دخل على ذي سلطان فأنصت له حتّى فرغ من حاجته، وكذلك المرء المسلم بإذن الله (عز وجل)، ما دام في الصلاة لم يزل الله (عز وجل) ينظر إليه حتّى يفرغ من صلاته».(62(

وكان سلمان الفارسي (رضي الله عنه) مع جماعة من أصحابه تحت شجرة، فأخذ غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه،

فقال: ألا تسألوني عمّا صنعت؟ فقلنا :خبرّنا، قال: كنّا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ظلّ شجرة فأخذ غصناً منها فنفضه فتساقط ورقه، فقال: ألا تسألوني عمّا صنعت؟ قلنا: خبّرنا يا رسول الله، قال :إنّ العبد المسلم إذا قام إلى الصلاة تحاتت عنه خطاياه كما تحاتت ورق هذه الشجرة.(63)

* * *

(1)الخصال للصدوق: 621.

(2)جامع الأخبار: 86، وعنه في البحار، ج20282 :، ح1.

(3)جامع الأخبار: 87، وعنه البحار، ج20379 :، ح2.

(4)الكافي للكليني 3: 268، ح4.

(5)البقرة: 238.

(6)مريم: 54 و55.

(7)إبراهيم: 40.

(8)مريم: 31.

(9)لقمان: 17.

(10)الخصال للصدوق: 165، ح218.

(11)المؤمنون: 1 و2.

(12)الأعلى: 14 و15.

(13)الكافي للكليني 3: 270، ح16.

(14)ثواب الأعمال للصدوق: 231.

(15)المحاسن للبرقي 1: 44/ ح60.

(16)الكافي للكليني 3: 268/ ح7.

(17)الأمالي للصدوق: 572/ ح779.

(18)الشمس 7 :و8.

(19)مشكاة الأنوار للطبرسي: 544.

(20)التوبة: 105.

(21)المحتضر لابن سليمان الحلي: 37.

(22)عيون أخبار الرضا للصدوق 1: 111، باب /34ح1.

(23)البقرة: 238.

(24)البحار للمجلسي 73: 348.

(25)أمالي الصدوق: 319/ ح374.

(26)مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب 1.389 :

(27)الأحزاب: 72.

(28)المؤمنون: 1 و2.

(29)صحيح البخاري 20: 225.

(30)الأعراف: 32.

(31)القصص: 77.

(32)المؤمنون: 51.

(33)المائدة: 78.

(34)المائدة: 88.

(35)البقرة: 57.

(36)المائدة: 4.

(37)البقرة: 168.

(38)كفاية الأثر للخزاز القمي: 228.

(39)الكافي للكليني 5: 72، ح5.

(40)الكافي للكليني 5: 85، ح4.

(41)الزلزلة: 7 و8.

(42)العنكبوت: 45.

(43)كنز العمال للمتقي الهندي 3؛ 44 /ح5399.

(44)الدّر المنثور للسيوطي 2: 133.

(45)النجم: 39.

(46)العنكبوت: 45.

(47)المؤمنون: 1 و2 .

(48)طه: 131.

(49)البقرة: 153.

(50)مسند أحمد 2: 421.

(51)يوسف: 2.

(52)مجمع البيان للطبرسي، ج1: 189.

(53)من لا يحضره الفقيه، ج1: 208، ح624.

(54)الإصابة لابن حجر، ج5: 313.

(55)الخصال للصدوق: 522/ ح11، رواه بلفظ آخر...

(56)النساء: 48.

(57)النساء: 110.

(58)الزمر: 53.

(59)آل عمران: 135.

(60)هود: 114.

(61)مجمع البيان للطبرسي 5: 345.

(62)دعائم الإسلام للقاضي المغربي 1: 134.

(63)البحار للمجلسي 79: 208، ح16.

جاء في خطبته (عليه السلام) (المعروفة بالقاصعة:] وفيها يذكر موضعه وقربه من رسول الله (صلى الله عليه وآله[(

»وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي

كَذْبَة فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ (صلى الله عليه وآله) - مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً - أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (صلى الله عليه وآله (فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ.«

)شرح النهج لأبن أبي الحديد مج 3 ص250 ط الأولى بمصر.(

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

هذه الخطبة خطب بها صلوات الله عليه بعد انقضاء أمر النهروان، والعَرف بالفتح الريح الطيّبة. ومضغ الشيء يمضغه بفتح الضاد، والخطلة في الفعل الخطأ فيه وإيقاعه على غير وجهه، وحراء اسم جبل بمكّة معروف، والرنّة الصوت . والقرابة القريبة بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله (دون غيره من الأعمام كونه ربّاه في حجره، ثمّ حامى عنه ونصره عند إظهار الدعوة دون غيره من بني هاشم، ثمّ ما كان بينهما من المصاهرة التي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار.

* * *

]الشرح:[

]علي وليد الكعبة:[

قال العلاّمة الحلي (رضي الله عنه) في كشف الحقّ: ولد علي صلوات الله عليه يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة في الكعبة، ولم يولد فيها أحد سواه لا قبله ولا بعده، وكان عمر النبي (صلى الله عليه وآله) يوم ذلك ثلاثين سنة، وكان (صلى الله عليه وآله) يوجره اللبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويُناغيه في يقظته، ويحمله على صدره ويقول: هذا أخي ووليّي وناصري وصفيّي وذُخري وكهفي وصهري ووصيّي وزوج كريمتي وأميني على وصيّتي وخليفتي، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكّة وشعابها وأوديتها.(1(

يحدّثنا الكليني أعلا الله مقامه في كتابه (أصول الكافي) في باب مولد علي صلوات الله عليه عن المفضّل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: لمّا وُلد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فُتح لأمّته بياض فارس وقصور الشام، فجاءت فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى أبي طالب)عليه السلام) ضاحكة مستبشرة

فأعلمته ما قالت آمنة، فقال أبو طالب: وتتعجّبين من هذا، إنّك لتحبلين وتلدين وصيّه ووزيره، ثم قال لها: اصبري سَبتاً أبشّرك بمثله إلاّ النبوّة، قال: السبت ثلاثون سنة، وكان بين مولد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومولد أمير المؤمنين ثلاثون سنة.(2(

وفي كتاب (روضة الواعظين) قال جابر بن عبد الله الأنصاري :سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن ميلاد أمير المؤمنين صلوات الله عليه فقال)صلى الله عليه وآله): آه آه لقد سألتني عن خير مولود وُلد بعدي على سنة المسيح)عليه السلام)، إنّ الله خلقني وعليّاً من نور واحد قبل أن خلق الخلق بخمسمائة ألف عام، فكنّا نسبّح الله تعالى ونقدّسه، فلمّا خلق الله آدم (عليه السلام) قذفنا في صُلبه، فاستقررت أنا في جنبه الأيمن وعلي في الأيسر، ثم نقلنا من صلبه في الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الطيّبة، فلم نزل كذلك حتّى أطلعني الله تعالى من طُهر طاهر ـ وهو عبد الله بن عبد المطلب ـ فاستودعني خير رحم وهي آمنة، ثم أطلع الله تعالى عليّاً من طُهر طاهر ـ وهو أبو طالب (عليه السلام) ـ واستودعه خير رحم وهي فاطمة بنت أسد، ثم قال (صلى الله عليه وآله): يا جابر ومن قبل أن يقع علي في بطن أمه كان في زمانه رجل عابد راهب يقال له المثرم بن دعيب، وكان مذكوراً في العبادة، وقد عبد الله تعالى مائة وتسعين سنة ولم يسأله حاجة، فسأل ربّه يوماً أن يريه وليّاً له، فبعث الله تعالى بأبي طالب إليه، فلما أن بصر به المثرم قام إليه وقبّل رأسه وجلس بين يديه فقال له: من أنت يرحمك الله؟ قال: رجل من تهامة، فقال: من أيّ تهامة؟ قال :من مكّة. قال: ممّن؟ قال: من عبد مناف، قال: من أيّ عبد مناف؟ قال: من بني هاشم، فوثب إليه الراهب فقبّل رأسه ثانياً وقال: الحمد الله الذي أعطاني مسألتي ولم يُمتني حتّى أراني وليّه، ثم قال: أبشر يا هذا فإنّ العليّ الأعلى قد ألهمني إلهاماً فيه بشارتك، قال أبو طالب (عليه السلام): وما هو؟ قال: ولدٌ يخرج من صُلبك هو وليّ الله تعالى، وهو إمام المتّقين ووصيّ رسول رب العالمين، فإن أدركتَ ذلك الولد فاقرأه منّي السلام وقل له: إنّ المثرم يقرأ عليك السلام وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّك وصيّه حقّاً، بمحمد)صلى الله عليه وآله) يتمّ النبوّة وبك يتمّ الوصيّة، فبكى أبو طالب وقال: ما اسم هذا المولود؟ قال: اسمه علي، فقال أبو طالب: إنّي لا أعلم حقيقة ما تقول إلاّ ببرهان بيّن ودلالة واضحة، قال المثرم: فما تريد أن أسأل الله تعالى لك أن يعطيك في مكانك هذا ما يكون دلالة لك؟ قال أبو طالب: أريد طعاماً من الجنة في وقتي هذا، فدعا المثرم ربّه بذلك فما استتمّ دعاؤه حتّى أُتي بطبق عليه من فاكهة الجنة رطب وعنب ورمان، فتناول أبو طالب رمّانة ونهض فرحاً مسروراً ورجع من ساعته إلى منزله فأكلها، فتحوّلت ماءاً في صُلبه، فجامع فاطمة بنت أسد فحملت بعلي صلوات الله عليه.

وارتجّت الأرض وزلزلت بهم أياماً حتّى لقيت قريش شدّة وفزعوا وقالوا: قوموا بآلهتكم إلى ذروة جبل أبي قبيس، فأقبلوا بآلهتهم إلى أبي قبيس، فجعل يرتجّ ارتجاجاً حتّى تدكدت بهم صمّ الصخور وتناثرت وتساقطت الآلهة على

وجهها، فلمّا بصروا ذلك قالوا: لا طاقة لنا بما حلّ بنا، فصعد أبو طالب إليهم وهو غير مكترث بما هم فيه، فقال: أيّها الناس إنّ الله تعالى قد أحدث في هذه الليلة حدثاً وخلق فيها خلقاً إن لم تطيعوه وتقرّوا بولايته وتشهدوا بإمامته لم يسكن ما بكم ولا يكون لكم بتهامة مسكن، فقالوا: يا أبا طالب إنّا نقول بمقالتك، فبكى أبو طالب ورفع الله تعالى يديه وقال: إلهي وسيدي أسألك بالمحمّدية المحمودة والعلويّة العالية وبالفاطميّة البيضاء إلا تفضّلت على تهامة بالرأفة والرحمة، قالوا: فوالذي فلق الحبة وبرء النسمة لقد كانت العرب تكتب هذه الكلمات فتدعو بها عند شدائدها في الجاهليّة وهي لا تعلمها ولا تعرف حقيقتها، فلمّا كانت الليلة التي ولد بها أمير المؤمنين صلوات الله عليه أشرقت السماء بضيائها وتضاعف نور نجومها، وأبصرت من ذلك قريش عجباً، فهاج بعضهم في بعض قالوا: في السماء حادثة، وخرج أبو طالب يتخلّل سكك مكة وأسواقها ويقول: أيّها الناس تمّت حجّة الله، وأقبل الناس يسألونه عن علّة ما يرونه من إشراق السماء وتضاعف نور النجوم، فقال: أبشروا فقد ظهر في هذه الليلة وليّ من أولياء الله تعالى يكمل الله فيه خصال الخير ويختم به الوصيّين وهو إمام المتّقين، وناصر الدين، وقامع المشركين، وغيظ المنافقين، وزين العابدين، ووصيّ رسول ربّ العالمين، ولم يزل يكرّر هذه الكلمات والألفاظ إلى أن أصبح.(3(

وعن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت علي بن الحسين (عليه السلام (يقول: إنّ فاطمة بنت أسد ضربها الطلق وهي تطوف بالبيت فدخلت الكعبة فولدت علياً صلوات الله عليه.(4(

وذكر شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي (رضي الله عنه) في أماليه :إنّ العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قعنب كانا جالسين ما بين فريق بني هاشم إلى فريق عبد العزى بأزاء بيت الله الحرام، إذ أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم ـ أم أمير المؤمنين صلوات الله عليه وكانت حاملة بأمير المؤمنين لتسعة أشهر، وكان تمام اليوم، فوقفت بأزاء البيت الحرام وقد أخذها الطلق فرمت بطرفها نحو السماء وقالت: أي ربّ إنّي مؤمنة بك وبما جاء به من عندك الرسول وبكلّ نبيّ من أنبيائك وبكلّ كتاب أنزلت، وإنّي مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل وأنّه بنى البيت العتيق، فأسألك بحقّ هذا البيت ومن بناه، وبهذا المولود الذي في أحشائي الذي يكلّمني ويُؤنسني بحديثه، وأنا مؤمنة أنّه إحدى آياتك ودلائلك لَمّا يسّرت عليَّ ولادتي .

قال العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قعنب: لمّا تكلّمت فاطمة بنت أسد ودعت بهذا الدعاء رأينا البيت قد انفتح من ظهره ودخلت فاطمة فيه وغابت من أبصارنا، ثمّ عادت الفتحة والتزقت بإذن الله تعالى، فرمنا أن نفتح الباب لتصل إليها بعضُ نسائنا فلم ينفتح الباب، فعلمنا أنّ ذلك أمر من الله تعالى، وبقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيام وأهل مكّة يتحدّثون بذلك في أفواه السكك وتتحدّث المخدّرات في خدورهنّ. قال: فلمّا كان بعد ثلاثة أيام انفتح البيت من الموضع الذي كانت دخلت فيه، فخرجت فاطمة وعلي صلوات الله عليه على يديها، وهي تقول: معاشر الناس إنّ الله (عز وجل)

اختارني من خلقه وفضّلني على المختارات ممّن مضى منكنّ قبلي.

وقد اختار الله آسية بنت مزاحم فإنّها عبدت الله سراً في موضع لا يحبّ أن يُعبد الله فيه إلاّ اضطراراً، ومريم بنت عمران حيث هانت ويسرت عليها ولادة عيسى فهزّت الجذع اليابس من النخلة في فلاة من الأرض حتّى تساقط عليها رطبا جنيّاً، وإنّ الله اختارني وفضّلني عليها وعلى كلّ من مضى قبلي من نساء العالمين، لأنّي وَلدت في بيته العتيق وبقيت فيه ثلاثة أيام آكل من ثمار الجنّة وأرزاقها، فلمّا أردتُ أن أخرج وولدي على يدي هتف بي هاتف وقال: يا فاطمة سمّيه عليّاً، فأنا العليّ الأعلى، وإنّي خلقته من قدرتي وعزّتي وجلالي، واشتققت اسمه من اسمي وأدّبتُه بأدبي، وفوّضت إليه أمري، وأوقفته على غامض علمي، ووُلد في بيتي، وهو أوّل من يؤذّن فوق بيتي، ويكسر الأصنام ويرميها على وجهها، ويعظّمني ويهلّلني، وهو الإمام بعد حبيبي ونبيّي وخيرتي من خلقي محمد رسولي، ووصيّه، فطوبى لمن أحبّه ونصره، والويل لمن عصاه وخذله وجحد حقّه.

فلما رآه أبو طالب سرّه: قال علي صلوات الله عليه: السلام عليك يا أبه ورحمة الله وبركاته، قال: ثم دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) اهتزّ له أمير المؤمنين وضحك في وجهه وقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ...» إلى آخر الآيات، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): قد أفلحوا بك، وقرأ تمام الآيات إلى قوله: «أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ» فقال رسول الله: أنت ـ والله ـ أميرهم، تميرهم من علومك فيمتارون، وأنتَ ـ والله ـ دليلهم وبك يهتدون، ثم قال (صلى الله عليه وآله) لفاطمة: إذهبي إلى عمه حمزة فبشّريه به،قالت: فإذا خرجت أنا فمن يرويه؟ قال (صلى الله عليه وآله): أنا أرويه، قالت فاطمة: أنت ترويه؟ قال: نعم، فوضع رسول الله لسانه في فيه فانفجرت منه اثنتا عشر عيناً.(5)

]قصيدة العمري في مدح علي (عليه السلام:[(

يقول عبد الباقي العمري في مدح أمير المؤمنين صلوات الله عليه:

ببطن مكّة وسط البيت إذ وضعا	أنت العليّ الذي فوق العلا رُفعا
معشارها فلك الأفلاك ما وسعا	وأنت ذاك البطين الممتلي حكماً
أيّ الجهات انتحى يلقاهمُ تبعا	وأنت يعسوب نحل المؤمنين
بها جميع الذي في الذِكر قد جُمعا	إلى

كشفُ الغطاء يقيناً أنّه انقشعا وأنت نقطة باءٍ معْ توحّدها

ضرع الفواطم في مهد الهدى رضعا وأنت عين يقينٍ لم يزده به

حجر براهين تعظيم بها قطعا لله درّ فتى الفتيان منك فتىً

كان المربّي له طاها فقد برعا لقد ترعرعت في حِجرٍ عليه لذي

بهذه وأبيك الحقّ فيك رعى ربيب طاها حبيب الله أنت ومن

رعاه مولاه من راعٍ لأمّتـه

قال شهاب الدين أبو الثناء السيد محمود الآلوسي المفسّر في شرح قول العمري:

أنت العليّ الذي فوق العلا رفعا ببطن مكّة وسط البيت إذ وضعا

ما لفظه: «وفي كون الأمير كرّم الله وجهه وُلد في البيت أمر مشهور في الدنيا، وذكر في كتب الفريقَين السنّة والشيعة... إلى قوله: ولم يشتهر وضع غيره كرّم الله وجهه كما اشتهر وضعه، بل لم تتّفق الكلمة عليه، وأحرى بإمام الأئمّة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين، سبحان من يضع الأشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين.(6(

وأيّد قوله العلامة الشريف السيد حيدر الحسيني العبدلي الآملي أنّه قال:ولد صلوات الله عليه في الكعبة بالحرم الشريف، فكان شرف مكّة وأصل بكّة، لامتيازه بولادته في ذلك المقام المنيف، فلم يسبقه أحد ولا يلحقه أحد بهذه الكرامة، ولا بلغ أحد ما بلغ من السيادة والنباهة عامّة، وهو بالأصالة صاحب الإمامة الإبراهيميّة.(7(

وبمقربة من هذا القول ما قاله العلاّمة البارع السيد محمد الهادي الموسوي في كتاب أصول العقائد: «كان مولده صلوات الله عليه في جوف الكعبة، ولم يشرّف المولى سبحانه أحداً من الأنبياء والأوصياء بهذا الشرف، فهو مخصوص به صلوات الله عليه.

وقول الوزير الإربلي في (كشف الغمّة): ولم يولد في البيت أحد سواه لا قبله ولا بعده، وهي فضيلة خصّه الله بها إجلالاً له، وإعلاء لرتبته، وإظهاراً لتكرمته.(8(

وقول الحافظ الثقة رشيد الدين محمد بن علي السروي قال :فالولد الطاهر من الطاهر وُلد في الموضع الطاهر، فأنّى توجد هذه الكرامة لغيره، فأشرف البقاع الحرم، وأشرف الحرم المسجد، وأشرف بقاع المسجد الكعبة، ولو يولد فيها مولود سواه، فالمولود فيها يكون غاية الشرف.(9(

[كلمة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء:]

وهناك محاضرة لسماحة الحجّة المرحوم الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (تغمّده الله برحمته) ألقاها ببغداد عاصمة العراق في مسجد براثا بمناسبة ميلاد أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال (قدّس الله روحه):

إنّما المناسب في هذا المقام هو التعرّض لولادته صلوات الله عليه في هذه الليلة المباركة، وإنّما نتعرض لشأن واحد من شؤون ولادته صلوات الله عليه وهو ولادته في الكعبة على أشهر الروايات، ولعلّ غيرها من مدسوسات النواصب الذين يريدون أن يستروا ضوء الشمس بأكفّهم، وولادته صلوات الله عليه في الكعبة طفحت بها الكتب ونظمها الشعراء حديثاً وقديماً، وآخرهم عبد الباقي الشهير في مستهلّ قصيدة له:

أنت العلي الذي فوق العلا رفعا ببطن مكة وسط البيت إذ وضعا

وهي منقبة لم يشاركه فيها أحد في الإسلام. وقد ذكروا أنّ مريم لما جاءها المخاض بعيسى (عليه السلام) أوت إلى بيت المقدس لتضعه فيه، فنوديت :اخرُجي يا مريم فهذا بيت العبادة لا بيت الولادة، وفاطمة بنت أسد لمّا أحسّت بالطلق ـ وهي في الكعبة ـ انسدت أبوابها ولم تقدر على الخروج حتى وضعت علياً صلوات الله عليه.

ولعلّ في هذه الحادثة الظريفة أسراراً ورموزاً أجلّها وأجلاها :

إنّ الله سبحانه كأنّه يقول: أيّتها الكعبة إنّي سأطهّرك من رجس الأوثان وعبادة الأصنام والأنصاب والأزلام بهذا المولود فيك، وهكذا فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله) دخلها عالم الفتح والأصنام منضودة ومعلّقة على جدرانها، ولكلّ قبيلة من قبائل العرب صنم، فأصعد علياً صلوات الله عليه على منكبيه وصار يحطّمها ويرمي بها إلى الأرض، والنبي (صلى الله عليه وآله) يقول: جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً، وقد نظم الشافعي هذه الفضيلة بأبيات مشهورة تُنسب له يقول في آخرها:

وعليٌّ واضع أقدامه في محلٍّ وضع الله يده(10)

فإنّ النبي (صلى الله عليه وآله) كان يحدّث عن المعراج قائلاً: إنّ الله عزّ شأنه وضع يده على كتفي حتّى وجدت بردها بين ثديي.(11)

وفي ولادته صلوات الله عليه رمز آخر لعلّه أدقّ وأعمق: وهو أنّ حقيقة التوجّه إلى الكعبة التوجّه إلى ذلك النور المتولّد فيها، ولو أنّ القصد مقصور على محض التوجّه إلى البنية وتلك الأحجار لكان أيضاً نوع من عبادة الأصنام (معاذ الله)، ولكن التناسب يقضى بأنّ البدن ـ وهو تراب ـ يتوجّه إلى الكعبة التي هي تراب، والروح ـ التي هي جوهر مجرّد ـ تتوجّه إلى النور المجرّد، وكلّ جنس لاحق بجنسه، النور للنور، والتراب للتراب، وإلى بعض هذا أشار بعض شعراء الفاطميّين إذ يقول:

من طريق العقل نور وهدى	بشرٌ في العين إلاّ أنّه
وتعالى أن تراه جسدا	جلّ أن تُدركه أبصارنا
سمع الله به من حمدا	فهو في التسبيح زلفى راكع
كاد من إجلاله أن يُعبدا	تدرك الأفكار منه جوهراً
وحّد الله به من وحّدا(12)	فهو الكعبة والوجه الـذي

وهذا الطراز من الشعر وإن كان فيه شيء من الغلوّ ففيه كثير من الحقيقة، وفيه لمعات من التوحيد.

نعم نتوجّه بأبداننا في صلاتنا إلى الكعبة وبأرواحنا إلى النور، إلى النور الذي أشرق وأضاء فيها، نتوجّه إليه فنجعله الوسيلة إلى الله تعالى كما قال عزّ شأنه: «اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»،(13) نتوجّه إليه كي يوجّهنا إلى الخير والسداد، فالتوجّه منا إليه والتوجيه منه لنا.»

[ولادة علي (عليه السلام) في الكعبة في الشعر الإسلامي:]

يقول العلاّمة الورع الشيخ حسين نجف المتوفى سنة 1252 من قصيدة علوية:

مولداً يا لَه عُلىً لا يُضاهى	جعل الله بيته لعليٍّ
سيّدُ الرُّسْل لا ولا أنبياها	لم يُشاركه في الولادة فيه
عِلمه بالذي به من هواها	علم اللهُ شوقها لعلي
فأراها حبيبه وأراها	إذ تمنّت لِقاءَه وتمنّى
من ترى في الورى يروم ادّعاها	ما ادّعى مُدّعٍ لذلك كلاّ
وكذا المشعران بعد مناها	فاكتست مكّةٌ بذاك افتخاراً
فغدت أرضُها مطافَ سَماها	بل به الأرض قد علت إذ حوته
ونهاراً تطوفُ حول حِماها	أو ما تنظر الكواكبَ ليلاً
وبذاك الطواف دام بقاها(14)	وإلى الحشر في الطواف عليه

* * *

للمولى محمّد مسيح المعروف (بمسيحا الشيرازي) المتوفّى سنة 1127 في قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين.

وليس يشغله شأنٌ عن الشأنِ	ما كان ربّاً ولكن ليس من بشرٍ
فطهّر البيتَ من أرجاس أوثان	هو الذي كان بيتُ الله مولدَه
مقامُ هارون من موسى بن	هو الذي مِن رسول الله كان لـه
عمران	هو الذي صار عرش الربّ ذا
إذ صار قُرطيه إبناه	شنف
الكريمان(15(	

وقال صاحب الفضيلة والأدب ميرزا محمد تقي التبريزي الشهير بحجّة الإسلام، المتوفّى في سنة 1312 من لاميّة علويّة:

عن بُطون الكرام جيلاً فجيلا	سِرْ حنانيك في البلاد وباحِث
أو عديّ يا سعد فيها محلاّ	فانظرن هل ترى لتيم بن مرّ
دخلت فيه أمُّه وهي حُبلى	لا ومن شقّ جانب البيت حتّى
بُوركتْ حاملاً وبوركتَ حملا	فتخلّت عن أسجحٍ هاشميّ
عنه أصنامهم وحسبك نُبلا	وسما غارب النبي فنحّى

* * *

يتحدّث إلينا المجلسي ـ أعلا الله مقامه ـ في البحار عن محمد بن العبّاس مرفوعاً إلى محمد بن زياد، قال: سأل ابن مهران عبد الله بن العبّاس عن تفسير قوله تعالى: «وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ»(16) فقال ابن عباس: إنّا كنّا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله (فأقبل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فلمّا رآه النبي تبسّم في وجهه وقال: مرحباً بمن خلقه الله تعالى قبل آدم (عليه السلام) بأربعين ألف عام. فقلت: يا رسول الله أكان الابن قبل الأب؟ قال (صلى الله عليه وآله): نعم، إنّ الله تعالى خلقني وخلق عليّاً قبل أن يخلق آدم بهذه المدّة، خلق نوراً فقسمه نصفَين، فخلقني من نصفه وخلق عليّاً من النصف الآخر قبل الأشياء كلّها، ثمّ خلق الأشياء فكانت مظلمة، فنورها من نوري ونور علي، ثمّ جعلنا عن يمين العرش، ثمّ خلق الملائكة، فسبّحنا وسبّحت الملائكة، وهلّلنا فهلّلت الملائكة، وكبّرنا فكبّرت الملائكة، فكان ذلك من تعليمي وتعليم علي، وكان ذلك في علم الله السابق أن لا يدخل النار محبّ لي ولعلي، ولا يدخل الجنة مُبغض لي ولعلي، ألا وإنّ الله تعالى خلق الملائكة بأيديهم أباريق اللجين مملوّة من ماء الحياة من الفردوس، فما أحد من شيعة علي إلاّ وهو طاهر الوالدين تقيّ نقيّ مؤمن بالله تعالى، فإذا أراد أبو أحدهم أن يواقع

أهله جاء ملك من الملائكة الذين بأيديهم أباريق ماء الجنة فيطرح من ذلك الماء في آنيته التي يشرب منها، فيشرب من ذلك الماء فينبت الماء في قلبه كما ينبت الزرع، فهم على بيّنة من ربّهم ومن نبيّهم ومن وصيّه عليّ ومن ابنتي الزهراء ثمّ الحسن ثمّ الحسين (عليه السلام) ثمّ الأئمة من وُلد الحسين. فقلت: يا رسول الله من الأئمّة؟ قال (صلى الله عليه وآله):أحد عشر منّي، وأبوهم علي بن أبي طالب ثمّ قال (صلى الله عليه وآله): «الحمد لله الذي جعل محبّة علي والإيمان به سببين».(17)

* * *

يقول العمري في مدح أمير المؤمنين صلوات الله عليه مخمّساً لهمزيّة التميمي:

حين لا أعصر ولا أحيان — كنت في جُيُب الغيب معنىً يُصانُ

ولقد كنت والسماء دخان — أيقلّ الأسرار منك مكان

ما بها فرقد ولاجوزاء

فاستضاء الوجود من ظلمة الغي — بك ليل العماء ضاء بلائي

في دُجى بحر قدرة بين بردي — درّة كنت والجواهر لا شي

صدف فيه الوجود الضياء

مُلئت حكمة ولا إجلاءُ — نقطة أفرغت وليس وعاء

لا الخلا يوم ذاك فيها خلاء — تحت باء لها العباء غطاء

فيُسمّى ولا الملاء ملاء

ولناموسهم هديت سبيلا — طالما للأملاك كنتَ دليلا

قائلاً: من أنا فروّى قليلا — يوم نادى ربّ السما جبرئيلا

وهو لولاك فاته الاهتداء(18)

* * *

[عليٌّ (عليه السلام) معلم جبرئيل:]

وذكر المجلسي أيضاً في (البحار) أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) كان جالساً ذات يوم وجبرئيل بين يديه إذ دخل أمير

المؤمنين صلوات الله عليه فلمّا نظر اليه جبرئيل (عليه السلام) تصاغر بين يديه، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): ما سبب ذلك؟ قال: لأنّ لعلي عليَّ حقّ التعليم، قال: كيف هو؟ قال: اعلم يا رسول الله لمّا خلقني الله تعالى سألني: من أنا ومن أنت؟ تحيّرت في الجواب، قلت :أنا أنا وأنت أنت، فأعاد القول عليّ الجليل جلّ وعلا، أيضاً لم أعلم ما أقول، فلاح شخص هذا ـ يعني أمير المؤمنين ـ فقال: قل الجواب «أنت ربّي الجليل وأنا عبدك الذليل جبرئيل»، فلمّا أجبت ربّي بهذا قرّبني، وذلك من تعليم علي صلوات الله عليه وأنا من ذلك أعظّمه، قال له النبيّ (صلى الله عليه وآله): كم مضى من عمرك؟ قال: لا أعلم، سوى أنّي أعلم في السماء السابعة تخرج نجمة في كلّ ثلاثين ألف سنة مرّة واحدة وأنا رأيتها ثلاثين ألف مرّة، قال: فقال النبي (صلى الله عليه وآله): يا علي أدنُ مني، فدنى منه فرفع عمامة أمير المؤمنين وحكّ جبهته بجبهته فلاحت نجمة منيرة بجبين أمير المؤمنين صلوات الله عليه فخرّ جبرئيل ساجداً وهو يقول: سبّوح قدّوس هي هي والله تلك النجمة .«

وهذه النجمة المنيرة خمد ضوءُها وأظلم سناؤها عندما ضُرب علي على أُمّ رأسه بالسيف حتّى وصل السيف إلى موضع سجوده، فسالت دماؤه على كريمته المباركة، فسقط في محرابه وهو يقول: فُزت وربّ الكعبة.

* * *

(1)كشف الحق للعلاّمة الحلي: 109 (ط :بغداد.)

(2)الكافي للكليني 1: 452، باب (مولد أمير المؤمنين (عليه السلام)/ ح3.)

(3)روضة الواعظين للفتال النيسابوري: 77.

(4)روضة الواعظين للفتال النيسابوري: 100.

(5)أمالي الطوسي: 707/ ح1511 .

(6)راجع الغدير للأميني، ج6، 22.

(7)الكشكول في ما جرى على آل الرسول: 189.

(8)كشف الغمة للأربلي، ج1: 8.

(9)مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، ج23.2 :

(10)شرح إحقاق الحق للمرعشي النجفي 8: 681)الهامش.)

(11)فتح القدير للشوكاني 4: 444، المعجم الكبير للطبراني، 20: 109، ولا يخفى أن وضع الله سبحانه وتعالى يده

على كتف النبيّ)صلى الله عليه وآله) من باب التجليّات الأسمائيّة لله (عز وجل) بطريق اللمس، لأنّ الله سبحانه ليس جسماً وليس كمثله شيء. انظر للتفصيل: شرح الأسماء الحسنى للمولى هادي السبزواري 2: 53.

(12)هذه الأبيات من شعر الأخفش في مدح الخليفة الفاطمي.

(13)المائدة: 35.

(14)الغدير للأميني 6: 29.

(15)الغدير للأميني 11: 368.

(16)الصافات: 166 و167.

(17)البحار 24: 89/ ح4.

(18)الغدير للأميني 7: 252.

من كتاب له (عليه السلام (إلى معاوية ابن أبي سفيان: [يحذره فيه من سيئات عمله[

»وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ وَمَتَى كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.«

)شرح ابن ابي الحديد مج 3 ص409(.

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

)الجلابيب) جمع جلباب وهي الملحفة في الأصل، واستُعير لغيرها من الثياب. قوله: وتبهّجت بزينتها: صارت ذات بهجة أي زينة وحسن. ويقفك واقف يعني الموت. قوله: (فاقعس) عن هذا الأمر أي تأخّر. وأُهبة الحساب عُدّته، (وتأهّب (استعدّ وشمّر لما قد نزل بك، أي جدّ واجتهد وخف. (والغواة) جمع غويّ وهو الضالّ .قوله: «وإلاّ تفعل» يقول: وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتك ووعظتك به فإنّي أعرّفك من نفسك ما أغفلتَ معرفته: إنّك مُترَف ـ والمترف الذي

قد أترفته النعمة أي أطغته. قد أخذ الشيطان منك مأخذه أي تناول الشيطان منك لبّك وعقلك. قوله: وجرى منك مجرى الروح والدم، هذه كلمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم».(1(

الشرح: [علي ومعاوية]

لم تنفع عظات علي صلوات الله عليه في معاوية ولم تؤثّر فيه ولم تأخذ مفعولها من نفسه، وكيف يتّعظ من اتّخذ إلهه هواه «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ»(2) كيف يرعوي من طبع الشيطان على قلبه فأنساه ذكر الله »وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»(3) فهو مختلف السريرة والعلانية، يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر.

ذكر ابن أبي الحديد المعتزلي عن عمرو بن هند، عن أبيه، أنّ علياً صلوات الله عليه لمّا نظر إلى أصحاب معاوية وأهل الشام قال: والذي فلق الحبّة وبرء النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر، فلمّا وجدوا عليه أعواناً رجعوا إلى عداوتهم لنا، إلاّ أنّهم لم يتركوا الصلاة.(4(

وعن حبيب بن ثابت قال: لمّا كان قتال صفّين قال رجل لعمّار بن ياسر: يا أبا اليقظان ألم يقل رسول الله (صلى الله عليه وآله): قاتلوا الناس حتّى يُسلموا، فإذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم؟ قال: بلى ولكن ـ والله ـ ما أسلموا ولكن استسلموا وأسرّوا الكفر حتّى وجدوا عليه أعواناً.(5(

قال ابن أبي الحديد في ج2، 97 من شرح النهج عن الحكم بن عمير الثمالي ـ كانت أمّه بنت أبي سفيان ـ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لمعاوية :كيف بك إذا وليت؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال رسول الله: أنت الحطم ومفتاح الظلم حصباً وحقباً، تتّخذ الحسن قبيحاً، والسيئة حسنة، يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، أجلك يسير وأمرك عظيم. فكان كما قال (صلى الله عليه وآله) فهو مفتاح الظلم ورأس الجور .

ولمّا رجع أمير المؤمنين صلوات الله عليه من حرب البصرة ودخل الكوفة وكان معه أشراف الناس وذلك لاثنتي عشر ليلة خلت من رجب، فاستقبله أهل الكوفة وفيهم قرّآئهم وأشرافهم، فدعوا له بالبركة وقالوا: يا أمير المؤمنين أتنـزل القصر؟ قال: لا ولكنّي أنزل الرحبة، فنـزلها حتّى دخل المسجد الأعظم فصلّى فيه ركعتين ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثم قال: «أمّا بعد يا أهل الكوفة، فإنّ لكم في الإسلام فضلاً ما لم تبدّلوا وتغيّروا، ألا إن أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة، اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حساب، ولا عمل، الحمد لله الذي نصر وليّه، وخذل عدّوه، وأعزّ الصادق المحقّ، وأذلّ الناكث المُبطل» فقام جماعة ممّن تخلّف عن وقعة الجمل منهم سليمان بن صرد الخزاعي واعتذروا عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه فقبل عذرهم، ونزل بالكوفة على جعدة بن هبيرة المخزومي ـ وجعدة ابن أخت أم هاني بنت أبي طالب كانت تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأولدها جعدة وكان شريفاً ـ وبعد أن نزل صلوات الله عليه على باب المسجد

فدخل وصلّى وتحوّل فجلس إليه الناس، ولمّا لحقه ثقله قالوا له: انزل القصر، قال: قصر الخبال لا تنـزلوا فيه، واتّخذ الكوفة دار خلافته.

قال الشني في ذلك:

قل لهذا الإمام: قد خبت الحرب وتمّت بذلك النعماءُ
وفرغنا مِن حرب مَن نقض العهدَ وبالشام حيّة رقطاء
تنفث السم ما لمن نهشته فارمِها قبل أن تعضّ شفاء
إنّه والذي يحجّ له الناس ومن دون بيته البيداء
لضعيف النخاع إن رُمي اليوم بخيلٍ كأنّها أشلاء
إن تذره فما معاوية الدهر بمُعطيك ما أراك تشاء
ولنيل السماء أقرب من ذاك ونجم العيّوق والعوّاء
فاغدُ بالجدّ والحديد إليهم ليس والله غير ذاك دواء(6)

* * *

]الوفود على معاوية:[

ووفد على معاوية ممّن خالف أمير المؤمنين صلوات الله عليه جماعة كمروان بن الحكم والوليد بن عقبة وعبيد الله بن عمر، أمّا الوليد فلحق بالمدينة وجعل يكاتب معاوية يستبطئه في الطلب بدم عثمان ويحرّضه وينهاه عن قطع الوقت بالمكاتبة، ويرسل إليه بقوله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنّك من أخي ثقة مُليمُ
قطعت الدهر كالسَدَم المُعنّى تهدّر في دمشق ولاَ تريم
فإنّك والكتاب إلى علي كدابغة وقد حلم الأديم
لك الويلات أقحِمها عليهم فخير الطالب الترة الغشوم

فكتب معاوية إليه الجواب بيتاً من شعر أوس بن حجر:

ومستعجب ممّا يرى من أناتنا ولو زيّنته الحرب لم يترمرم(7)

وقدم بعد ذلك على معاوية وشهد معه صفّين.

]عبيد الله بن عمر:[

وأمّا عبيد الله عمر لمّا ألزمه أمير المؤمنين صلوات الله عليه قتل الهرمزان وعرف أنّه يُقيده به توجّه إلى معاوية، فقال معاوية لعمرو بن العاص: إنّ الناس قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر، فقد رأيت أن أُقيمه خطيباً يشهد على عليٍ بقتل عثمان وينال منه .

فقال: الرأي ما رأيت، فبعث إليه فأتاه، فقال له: يا بن أخي إنّ لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك وانطق بملء فيك فأنت المأمون المصدق، فاصعد المنبر واشتم علياً واشهد عليه أنّه قتل عثمان. فقال: أيّها الأمير أمّا شتمه فإنّ أباه أبو طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسبه، وأمّا بأسه فهو الشجاع المطرق وقد عرفت أيّامه، ولكنّي مُلزمه دم عثمان، فقال عمر بن العاص: قد ـ وأبيك ـ إذن نكأتَ القُرحة، فلمّا خرج عبيد الله قال معاوية: أما والله لولا قتله الهرمزان ومخافته عليّاً على نفسه ما أتانا أبداً، ألا ترى تقريظه علياً، فقال عمرو: يا معاوية لم تغلب فاخلب، قال: فخرج حديثهما إلى عبيد الله فقام خطيباً وتكلّم بحاجته فلمّا انتهى إلى علي صلوات الله عليه أمسك ولم يقل شيئاً، فلمّا نزل بعث إليه معاوية يقول: يا بن أخي إنّك بين عيّ وخيانة. فبعث إليه: إنّي كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان، وعرفتُ أنّ الناس محتملوها عنّي فتركتُها، فهجره معاوية واستخفّ به وفسّقه، فقال عبيد الله:

ولم أكُ عياً في لؤيّ بن غالب ... معاوي لم أحرص بخطبة
على قذف شيخ بالعراقين غائب ... خاطبِ
كِذاب وما طبعي سجايا المكاذب ... ولكنّني زاولت نفساً أبيّة
ودبّوا حواليه دبيب العقارب ... وقذفي علياً بابن عفّان
وأطرق إطراق الشجاع المواثب ... جهرة
أصُيب بريئاً لابساً ثوب تائب ... ولكنّه قد حزّب القوم جهله
وطلحة فيها جاهد غير لاعب ... فما قال أحسنتم ولا قد أسأتمُ
فيا ليت شعري ما هما في العواقب ... فأمّا ابن عفّان فأشهد أنّه
وقد كان فيها للزبير عجاجة
وقد أظهرا من بعد ذلك
توبة

فلما بلغ معاوية شعره بعث إليه فأرضاه(8.)

وأرسل أمير المؤمنين صلوات الله عليه جرير بن عبد الله إلى معاوية يدعوه إلى البيعة وإلاّ ينازله الحرب، فأبى معاوية أن يبايع وعزم على الحرب.

ولمّا عزم أمير المؤمنين صلوات الله عليه على المسير إلى الشام دعا رجلاً فأمره أن يتجهّز ويسير إلى دمشق، فإذا دخلها أناخ راحلته بباب المسجد وأن لا يلقي من ثياب سفره شيئاً، فإنّ الناس إذا رأوه وعليه آثار الغبرة يسألونه، فإذا سألوه فليقل لهم: تركتُ علياً قد نهد إليكم بأهل العراق، فانظر ما يكون من أمرهم، ففعل الرجل ذلك فاجتمع الناس عليه وسألوه فقال لهم ذلك، فكثروا عليه يسألونه، فأرسل إليه معاوية أبا الأعور السلمي يسأله عن ذلك، فأخبره بأنّ علياً قد نهد إليهم بأهل العراق، فأتى معاوية فأخبره بمقالته، وأنّ عليّاً قد نهد إليهم بأهل العراق، فنادى معاوية الصلاة جامعة ثمّ قام فخطب الناس وقال لهم: إنّ علياً قد نهد إليكم في أهل العراق فماذا ترون؟ فضرب الناس بأذقانهم على صدورهم لا يتكلّمون، فقام ذو الكلاع الحميريّ فقال: عليك أمّ رأي وعلينا أمّ فعال ـ وهي لغة حمير ـ فنزل ونادى في الناس بالخروج إلى معسكرهم. وعاد الرجل إلى علي صلوات الله عليه فأخبره بما رآه فنادى صلوات الله عليه الصلاة جامعة، ثمّ قام فخطب الناس فأخبرهم أنّه قدم عليه رسول كان قد بعثه إلى الشام وأخبره أنّ معاوية قد نهد إلى العراق في أهل الشام فما الرأي؟ فاضطرب أهل المسجد، هذا يقول: الرأي كذا وهذا يقول الرأي كذا وكثر اللغط واللجب، فلم يفهم أمير المؤمنين من كلامهم شيئاً ولم يدر المصيب من المخطئ، فنزل عن المنبر وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ذهب بها ابنُ آكلة الاكباد يعني معاوية.(9(

* * *

]في إرسال صعصعة بن صوحان إلى معاوية:[

قال المسعودي في تاريخه (مروج الذهب): ذهب إلى داره وقال لآذنه: مَن في الباب من وجوه العرب؟ فذكر له جماعة منهم صعصعة بن صوحان العبدي (رضي الله عنه) فقال صلوات الله عليه: فأذن لهم، فدخلوا وسلّموا عليه بالخلافة، فقال لهم: أنتم وجوه أصحابي عندي ورؤساء القبائل، فأشيروا عليَّ في أمر هذا الغلام المترف ـ يعني معاوية ـ فافتت بهم المشورة، فقال صعصعة: إنّ معاوية أترفه الهوى وحبّبت إليه الدنيا فهانت عليه مصارع الرجال وابتاع آخرتهم بدُنياه، فإن تعمل فيه برأي ترشد وتصب وبالله التوفيق ورسوله وبك يا أمير المؤمنين، الرأي أن تُرسل إليه عيناً من عيونك وثقة من ثقاتك بكتاب تدعوه إلى بيعتك، فإن أجاب وأناب كان له مالك وعليه ما عليك، وإلاّ جاهدتَه وصبرت لقضاء الله تعالى حتّى يأتيك اليقين.

قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: عزمتُ عليك يا صعصعة إلاّ كتبتَ الكتاب بيدك ورحلت إليه بنفسك، واجعل صدر الكتاب تخويفاً وتحذيراً وعجزه استتابة، وليكن فاتحة الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله وابن عبدَيه أمير

المؤمنين علي إلى معاوية بن أبي سفيان، سلام عليك أمّا بعد» واكتُب ما أشرتَ به عليَّ، واجعل عنوان الكتاب «ألا إلى الله تصير الأمور.«

قال: فخرج بالكتاب وتجهّز وسار حتّى ورد دمشق الشام فأتى باب معاوية، فقال لآذنه: استأذن لرسول أمير المؤمنين عليَّ، وبالباب أردفة (أي جماعة (من بني أمية، فأخذته الأيدي من كلّ جانب ومكان وهو يقول: سُبحان الله أتقتلون رجلاً يقول ربّي الله، وكثرت الجلبة واللغط، فاتّصل ذلك بمعاوية، فوجّه بمن يكشف الناس عنه فكشفوا عنه، فأذن لهم بالدخول فدخلوا عليه، فقال: من هذا الرجل؟ قالوا: رجلٌ من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علي بن أبي طالب، فقال: والله لقد بلغني أمره، هذا أحد سهام علي وخطباء العرب، ولقد كنت إلى لقائه شيّقاً، يا غلام ائذن له بالدخول، فأذن له بالدخول فدخل عليه وقال: السلام عليك يا بن أبي سفيان، هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه.

فقال معاوية: أما إنّه لو كانت الرسل تُقتل في جاهليّة أو في إسلام لقتلتك، ثمّ اعترضه معاوية بالكلام وأراد أن يستخرجه لينظر قريحته أطبعاً أم تكلّفاً، قال: من الرجل؟ قال: من نزار. قال: وما كان نزار؟ قال: كان إذا غزى نكّس، وإذا ألقى افترس، وإذا انصرف احترس، قال: فمن أيّ أولاده أنت؟ قال: من جديلة، قال :وما كان جديلة؟ قال: كان في الحرب سيفاً قاطعاً، وفي المكرمات غيثاً نافعاً وفي اللقاء لبّاً ساطعاً، قال: فمن أيّ أولاده أنت؟ قال: من عبد القيس. قال: وما كان عبد القيس؟ قال: كان أبيضاً حسيباً وهّاباً لضيفه ما يجد، ولا يسائل عمّا فقد، كثير الموق طيب العرق، يقوم لضيفه مقام الغيث من السماء.

قال: ويحك يا بن صوحان فما تركت لهذا الحيّ من قريش مجداً ولا مكرمة. قال: بلى والله يا بن أبي سفيان، تركت لهم ما لا يصلح إلاّ لهم، تركت لهم الأبيض والأحمر والأصفر والأشقر والسرير والمنبر والملك إلى المحشر، وأنّى لا يكون كذلك وهم منار الله تعالى في الأرض ونجومه في السماء. ففرح معاويّة وظنّ أنّ كلامه يشتمل على قريش كلّها، فقال: صدقت يابن صوحان، إنّ ذلك لكذلك. فعرف صعصعة)رضي الله عنه) ما أراد، فقال: ليس لك ولا لقومك فيه إصدار ولا إيراد، بعدتم عن أنفس المرعى، وعلوتم عن عذب الماء. قال: فلمن ذلك ويلك يا بن صوحان؟ قال: الويل لأهل النار، ذلك لبني هاشم دونك. فالتفت معاوية إلى أصحابه وقال: أخرجوه، فقال صعصعة: الصدق يُنبيء عنك لا الوعيد، من أراد المشاجرة قبل المحاورة. فقال معاوية :وددتُ أنّي من صلبه، ثم التفت إلى بني أميّة وقال: هكذا فلتكن الرجال. ثم قال: يا بن صوحان إنّك ذو معرفة بالعرب وبحالها، أخبرني عن أهل البصرة وإيّاك والتحامل على قوم لقوم. قال صعصعة: البصرة واسطة العرب، ومنتهى الشرف والسؤدد، وهم أهل الخطط في أوّل الدهر وآخره، وقد دارت بهم سروات العرب دوران الرحى على القطب. قال: فأخبرني عن أهل الكوفة. قال: الكوفة قبّة الإسلام وذروة الكلام ومصان

ذوي الأعلام، إلاّ أنّ بها أجلافاً تمنع ذوي الأمر بالطاعة وتخرجهم عن الجماعة، وتلك أخلاق ذوي الهيئة والقناعة.

قال معاوية: فأخبرني عن أهل الحجاز. قال: أسرع الناس إلى فتنة وأضعفهم عنها وأقلّهم عناءً فيها، غير أنّ لهم ثباتاً في الدين وتمسّكاً بعروة اليقين، يتبعون الأئمّة الأبرار، ويخلعون الفسقة الفجّار.

فقال معاوية: مَن البررة ومن الفجرة؟ فقال صعصعة: تَرَك الخداعَ مَن كَشَف القناع: عليّ وأصحابه من البررة، وأنت وأصحابك من الفجرة. فبان الغضب في وجه معاوية، إلاّ أنّه أحب أن يمضي صعصعة بكلامه، قال: أخبرني عن القبّة الحمراء في ديار مضر، قال: أسد مضر بسلاء بني غيلين، إذا أرسلتها افترست، وإذا تركتها احترست. فقال معاوية: هنالك يا بن صوحان العز الراسي، فهل في قومك مثل هذا؟ فقال صعصعة (رضي الله عنه): إنّ هذا لأهله دونك، ومن أحبّ عمل قومٍ حُشر معهم. قال :فأخبرني عن ديار ربيعة، ولا يستخفّنّك الجهل وسابقة الحميّة بالتعصّب لقومك. فقال : والله ما أنا منهم براضٍ ولكنّني أقول فيهم وعليهم، هم والله أعلام الليل وأذناب في الدين، والميل لمن تغلّب، رأيتها إذا رشّحت خوارج الدين برازخ اليقين، من نصروه فلج، ومن خذلوه زلج. ثم أمسك معاوية، فقال له صعصعة: سَل وإلاّ أخبرتك بما عنه تحيد، قال: وما ذاك؟ قال: أهل الشام، قال: أخبرني عنهم، قال: هم أعصى الناس للخالق، وأطوعهم للمخلوق، عصاة الجبآر وخلفة الأشرار، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار».(10)

أجل كانوا مصداقاً لقول صعصعة يوم دخول سبايا آل رسول الله إلى الشام، فإنّهم عصوا الخالق وأطاعوا المخلوق، فخرجوا وبأيديهم الطبول والدفوف فرحين مستبشرين بقتل الحسين (عليه السلام).

يقول سهل الساعدي: خرجت من شهر زورا أريد بيت المقدس فصادف خروجي أيّام قتل الحسين (عليه السلام)، فدخلت الشام فرأيت الدكاكين مغلقة والأعلام منشورة والرايات مشهورة والناس أفواج قد امتلأت بهم السكك والأسواق، وهم في أحسن زينة فرحين مستبشرين، فقلت لبعضهم: ألأهل الشام عيد لا نعرفه؟(11)

* * *

وفي كتاب له (عليه السلام (إلى عثمان بن حنيف الأنصاري: [وفيه يعنّفه على قبوله دعوة وليمة ويذكر فيه زهده (عليه السلام[]

وكان عامله على البصرة وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها: «أَمَّا بَعْدُ يَا ابْنَ حُنَيْفٍ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَأْدُبَةٍ فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوٌّ وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَاماً يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ

أَلا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً وَلَا ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً وَلَا حُزْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْراً وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبِرَةٍ وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى وَأَوْهَنُ مِنْ عَفْصَةٍ مَقِرَةٍ.«

)شرح ابن أبي الحديد مج 4 ط 1 ص 76.(

* * *

ضبط الألفاظ الغريبة:

)المأدبة) بضمّ الدال: الطعام يُدعى إليه القوم. وفتية أهل البصرة، جمع فتى أي من شبابها أومن أسخيائها. (والعائل) الفقير. (والجفان) قصاع كبار. (والقضم) الأكل بأدنى الفم. (والطمر) الثوب البالي الخَلِق. الطُعم ـ بالضمّ ـ الطعام، والوَفر المال الكثير، والتِبر الذهب.

الشرح:

عثمان بن حُنيف ـ بضّم الحاء ـ ابن واهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري الأوسي أحد الأمجاد من الأنصار، أخذ من النبي (صلى الله عليه وآله) العلم والتربية وبلغ الدرجة العالية فنال مناصب كبرى.

قال ابن أبي الحديد المعتزلي: عمل لعمر ثم لعلي صلوات الله عليه وولاّه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية على أهلها، وولاّه علي صلوات الله عليه على البصرة، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها.(12(

ويظهر من ذلك أنّه كان رجلاً بارعاً في علم الاقتصاد والسياسة معاً ً فاستفاد منه عمر من الناحية الاقتصادية، وفوّض إليه أمر الخراج والجزية، وهو من أهمّ الأمور في هذا العصر، وخصوصاً في أرض العراق العامرة.

وكان من خواص علي صلوات الله عليه ومن السابقين الذين رجعوا إليه وأخلصوا له، قال في الرجال الكبير بعد ترجمته: هو من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه وكلمة السابقين في وصفه مأخوذ من قوله تعالى في سورة البرائة آية 100 ـ «وَالسَّابِقُونَ الأ َوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالأ َنصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأ ْنهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» وكفى له بذلك مدحاً وإخلاصاً له صلوات الله عليه فإنّ الآية تخصص السابقين الأوّلين من الأنصار والمهاجرين بهذه الفضيلة التي لا فضيلة فوقها، والسبق والتقدّم إنّما هو بقبول ولاية أمير المؤمنين، فإنّها ميزان الإيمان والاخلاص لله ورسوله، ودليل البرائة من النفاق والمطامع الدنيويّة.

ومؤاخذته صلوات الله عليه بمجرّد إجابة دعوة من بعض فتيان البصرة، وتشديده في توبيخه بهذه الجمل البالغة في

الطعن والمذمّة دليل آخر على علوّ رتبته وسمّو درجة إيمانه، وأنّه لا ينبغي من مثله إجابة مثل تلك الدعوة والاشتراك في حفلة ضيافة تُعقد لكسب الشهرة أو جلب المنفعة أو الانهماك في اللذّة والغفلة أو الاستمتاع بالأغذية اللذيذة، فظاهر الكتاب الموجّه إلى عثمان بن حنيف بالعتاب توبيخ عنيف على ارتكابه خلافاً عظيماً يستحقّ به هذا التوبيخ الشديد الذي هو آلم من الضرب بالسوط أو الحبس إلى حين الموت، فلا بدّ من التدبّر في أمور :

]محطات للتأمل:[

الأوّل: ما هو جوهر هذا الخلاف الذي ارتكبه هذا الوالي الذي فوّض إليه إدارة أمور ثغرٍ هامّ من الثغور الإسلاميّة في هذا الزمان، فالبصرة أحد الثغور الهامّة الإسلامية في تينك العصور تضاهي مركزيّة الكوفة ومصر والشام، وقد انتخبه صلوات الله عليه والياً له، وفوّض إليه إدارة شؤونه وسياسة نظامه في هذا الموقف الرهيب، فكيف يوبّخه ويؤنّبه بهذه الجمل القاسية التي ملؤها الوهن والاستضعاف، فهذا الخلاف يحتمل وجوهاً:

1- أنّه مجرّد إجابة دعوة الاشتراك في وليمة لذيذة هُيّئت للتفريج والأُنس مع الأحباب والأقران.

2- أعدّت هذه الوليمة على حسب استمالة الوالي والنفوذ فيه للاستفادة منه في شتّى المقاصد المرجوعة إليه، وللاعتماد عليه في تنفيذ الحوائج، كما هو عادة ذوي النفوذ والجاه في كلّ بلد، فإنّ شأنهم تسخير عمّال الدولة بالتطميع والاحسان للاستمداد منهم في مقاصدهم.

3- أنّ هذه الوليمة أُعدّت من عصابة مخالفة لعلي صلوات الله عليه وموالية لمعاوية وأعوانه، فهي حفلة مؤامرة ضدّ علي صلوات الله عليه والهدف منها جلب الوالي إلى الموافقة مع مقاصد سياسيّة هامّة، وصرف عثمان بن حنيف عن موالاته صلوات الله عليه إلى معاوية، كما فعل معاوية مع زياد بن أبيه بعد ذلك، فإنّه أحد أعوان علي وأحد ولاته المسيسين وله يد في تقوية حكومته، فاستجلبه معاوية بالمكايد والمواعيد، وأثبته أخاً له لجلبه من موالاة علي صلوات الله عليه إلى معاوية، واستفاد منه أكثر استفادة في حكومته.

وما ذكره صلوات الله عليه في كتابه هذا يناسب الوجه الثالث، فإنّه موقف خطر يحتاج إلى الحذر منه أشدّ الحذر، فشرع صلوات الله عليه يوبّخ عثمان في قبول هذه الدعوة والإسراع إليها وتقبّل ما أعدّوه له من البذل من إعداد الأطعمة الطيّبة المختلفة الألوان وتقديم الأقداح الكبيرة في الخوآن.

وأشار صلوات الله عليه إلى أنّ هذه الوليمة ممّا لم يقصد بها رضا الله وإكرام والي وليّ الله، وإلاّ فيشترك فيها ذوو الحاجة والفقراء من الجيران وسائر المسلمين، ولم يخصّصوا الدعوة بالأغنياء وذوي النفوذ والثروة.

ثمّ أشار صلوات الله عليه إلى أنّ الحاضرين حول هذا الخوان من الغافلين المنهمكين في اللذّات الماديّة، فعبّر عن

الخوان بالمقضم، وهو ما يُعدّ فيه علف الدابّة من التبن والشعير، وتعبيره يعمّ كلّ خوان ومطعم مهّيأ لأمثال هؤلاء المفتونين بأمر الدنيا.

وقوله صلوات الله عليه: «فما اشتبه عليك عِلمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجههٍ فنل منه» يستفاد منه أنه قرّر على عمّاله احتياطاً في الدين فوق حدّ العدالة التي كانت شرطاً في التصدّي لهذه المناصب الجليلة.

ثم أنّه صلوات الله عليه توجّه إلى بيان أمر لعمّاله أو مطلق شيعته، ولخّصه في كلمتين :

1- الاقتداء بالامام في العمل والسيرة.

2- الاستضاءة من نور علمه والأخذ بدستوره في كلّ الأمور، والاقتداء بالإمام عملاً وأخذ دستور العمل منه كلاهما سلوك طريق النجاة، ولكنّ الثاني أعمّ، فإنّه يشمل الغائب عن محضر الإمام، ويشمل التكاليف الخاصّة بالمأموم دون الإمام وهي كثيرة جدّاً.

ثم لخّص صلوات الله عليه سيرته في كلمتين لتكون مدار العمل لعمّاله وللاقتداء به صلوات الله عليه.

1- الاكتفاء من رياش الدنيا ولباسها وزينتها بطمرين أي ثوبين باليين: أزار ورداء من غير صوف يلبسه أحوج الناس.

2- الاكتفاء من طعامها وغذائها ولذائذها بقرصين من خبز الشعير اليابس الفارغ عن الأدام .

وقد مثّل صلوات الله عليه في هذه الكلمتين الزهد بأدقّ ممّا فيه وأشّق ما فيه، بحيث جعله من كراماته وأنّه ممّا لا يقدر على العمل به غيره، فقال: ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك .

]البرنامج التربوي:[

ثم نظّم برنامجاً تربوياً لعمّاله ومن يتصدّى لإدارة أمور حكومته في أربع مواد :

1- الورع: وهو تحصين النفس عن الرذائل والاجتناب عن المحارم والمحرّمات، لأنّ الورع عن المحارم أعظم المنجيات وعمدة ما يُنال به إلى السعادات ورفع الدرجات، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «خير دينكم الورع»،(13) وقال)صلى الله عليه وآله(: «مَن لقي الله سبحانه ورعاً أعطاه الله ثواب الإسلام كلّه«، وفي بعض الكتب السماوية: وأمّا الورعون فإنّي أستحي أن أحاسبهم، وقال الإمام الباقر(عليه السلام): إنّ أشدّ العبادة الورع،(14) وقال الإمام الصادق(عليه السلام): أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه.(15) وقال: اتّقوا الله أصحابي من اشتدّ ورعه وعمل لخالقه ورجا ثوابه، هؤلاء أصحابي.(16) وقال: ألا وإنّ من اتّباع أمرنا وإرادته الورع، فتزيّنوا به يرحمكم الله، وكيدوا أعداءنا به ينعشكم الله.(17 (

وقال الإمام الباقر(عليه السلام): أعينونا بالورع، فإنّ من لقي الله تعالى منكم بالورع كان له عند الله فرجاً، إن الله (عز وجل) يقول: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» فمنّا النّبيّ ومنّا الصدّيق والشهداء والصالحين.(18(

وقال(عليه السلام): قال الله (عز وجل): يا ابن آدم اجتنب ما حُرّم عليك تكن من أورع الناس.(19 (

وسئل الإمام الصادق(عليه السلام) عن الورع من الناس فقال :الذي يتورّع عن محارم الله (عز وجل).(20(

2- الاجتهاد في تحرّي الحقيقة، والعمل على مقتضى الوظيفة، وتحمّل الكدّ والأذى في سبيل الحقّ .

3- العفّة: وهي ضبط النفس عمّا لا يحلّ ولا ينبغي من المشتهيات وما فيه الرغبات .

والأخبار في مدح العفّة وفضيلتها كثيرة، قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: أفضل العبادة العفاف.(21) وقال الإمام الباقر(عليه السلام): ما من عبادة أفضل من عفّة بطن وفرج.(22) وقال: ما عُبد الله بشئ أفضل من عفّة بطن وفرج.(23) وقال: أيّ الاجتهاد أفضل من عفّة بطن وفرج؟(24(

4- السداد: وهو تحكيم المعرفة بالأمور، والأخذ باليقين، وتحكيم العمل والدقّة في تقرير شرائطه وكيفيّاته وعدم التسامح فيه.

وقد بقيٍ في المقام نكتة، وهي أنّه ربّما يزهد بعض الناس في معاشهم حبّاً لجمع المال وادخاره، فيعيشون عيش الفقراء ويكنـزون الذهب والفضّة ويقتنون العقار والدار، فقال صلوات الله عليه :

]زهد علي والأنبياء (عليهم السلام:[(

»فوالله ما كنـزتُ من دُنياكم تِبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طِمراً» وهذا أقصى حدّ في الزهد وغاية ما يتصوّر من الاعراض عن الدنيا.

وكفى للزهد فضيلة ومدحاً أنّه أعرف صفات الأنبياء والأولياء، ولم يبعث نبيّ إلاّ به، ولو لم يتوقّف التقرّب إلى الله والنجاة في دار الآخرة عليه لما ضيّق عظماء نوع الإنسان وأعرف الناس بحقيقة الحال على أنفسهم في فطامها عن شهوات الدنيا ولذّاتها.

فانظر إلى كليم الله موسى(عليه السلام) كيف كان غالب قوته نبت الأرض وأوراق الأشجار، وكان ضعف بدنه من كثرة رياضته، بحيث تُرى الخُضرة من صفاق بطنه كما أخبر به أمير المؤمنين صلوات الله عليه في نهج البلاغة.(25(

ثمّ انظر إلى روح الله عيسى(عليه السلام) كيف يلبس الشَّعر ويأكل الشجر، ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب، ولا يدّخر لغدٍ، أينما يُدركه المساء نام.(26) وقال له الحواريّون يوماً: يا نبيّ الله لو أمرتنا أن نبني بيتاً تعبد الله فيه، قال:

اذهبوا فابنوا بيتاً على الماء، فقالوا: كيف يستقيم بنيان على الماء؟ قال: كيف تستقيم عبادة على حبّ الدنيا؟(27(

وروي أنّه اشتدّ به يوماً المطر والرعد والبرق فجعل يطلب بيتاً يلجأ إليه، فرفعت إليه خيمة من بعيد، فأتاها فإذا فيها إمرأة فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال: إلهي جعلت لكلّ شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى، فأوحى الله إليه: مأواك في مستقر من رحمتي، لأزوّجنك يوم القيامة ألف حوراء خلقتُها بيدي، ولأطعمنّك في عرسك أربعة آلاف عام، يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرنّ منادياً ينادي: أين الزهّاد في الدنيا؟ زوروا عرس الزاهد عيسى ابن مريم.(28(

ثمّ انظر إلى يحيى بن زكريا حيث يلبس المسوح حتّى ثقب جلده تركاً للتنعّم بلين اللباس واستراحة حسّ اللمس، فسألته أمّه أن يلبس مكانها جبّة من صوف ففعل، فأوحى الله إليه: يا يحيى آثرت عليَّ الدنيا، فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه.(29(

ثمّ افتح بصيرتك وتأمّل في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وزهده في الدنيا، فإنّه لبث في النبوّة ما لبث ولم يشبع هو وأهل بيته غدوة إلاّ جاعوا عشيّة، ولم يشبعوا عشيّة إلاّ جاعوا غدوة، ولم يشبع من التمر هو وأهل بيته حتّى فتح الله عليهم خيبر، وقُرّب إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشقّ ذلك عليه حتّى تغيّر لونه، فأمر بالمائدة فرُفعت ووضع الطعام على الأرض، وكان ينام على عباءة مثنيّة فثنوها له ليلة بأربع طاقات فنام عليها فلمّا استيقظ قال :منعتموني قيام الليلة هذه بهذه العباءة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها، وكان يضع ثيابه لتُغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتّى تجفّ ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة. وروي أنّ امرأة من بني ظفر صنعت له (صلى الله عليه وآله) كساءين أزاراً ورداءً وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه فصلّى كذلك.

وشدّة زهد علي صلوات الله عليه وتركه الدنيا أشهر من أن يحتاج إلى بيان، وكذا من بعده من الأئمّة الراشدين والأصحاب والتابعين وغيرهم من أكابر الدين والسلف الصالح، فليعتبر الإنسان وليقتد بهداهم «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ»(30) «ولا تغترّ بالدنيا فإنّها غرّارة مكّارة سحّارة، تُضحك الإنسان قليلاً وتُبكيه طويلاً» كما وصفها أمير المؤمنين(عليه السلام).(31(

]قصة عيسى (عليه السلام (وصاحب الرغيف الثالث:[

ومن النكت والأمثلة الظريفة ما ذكره صاحب المستظرف في باب الزهد :

روي أنّ عيسى (عليه السلام) كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية، فقال

عيسى(عليه السلام) لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية، وأعطاه ما يشتري به، فذهب الرجل وقام عيسى يصلّي، فجاء الرجل بثلاثة أرغفة، فقعد ينتظر انصراف عيسى من الصلاة، فأبطأ عليه فأكل رغيفاً وكان عيسى(عليه السلام) رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلمّا انصرف من صلاته لم يجد إلاّ رغيفين فقال له: أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلاّ رغيفين فأكلاهما، ثمّ مرّا على وجوههما حتّى أتيا على ضباء ترعى فدعا عيسى واحداً منهما فجاءه فذكّاه وأكلا منه، فقال له عيسى(عليه السلام): بالذي أراك هذه الآية، مَن أكل الرغيف الثالث؟ فقال: ما كانا إلاّ اثنين، ثمّ مرّا على وجوههما حتّى جاءا قرية، فدعا عيسى ربّه أن يُنطق له من يخبره عن حال هذه القرية، فأنطق الله له لبَنة، فسألها عيسى فأخبرته بكلّ ما أراد وصاحبه يتعجّب ممّا رأى، فقال له عيسى(عليه السلام): بحقّ من أراك هذه الآية، مَن صاحب الرغيف الثالث؟ فقال: ماكانا إلاّ اثنين، فمّرا على وجوههما حتّى انتهيا إلى نهر عجاج، فأخذ عيسى (عليه السلام) بيد الرجل ومشى به على الماء حتّى جاوز النهر، فقال الرجل: سُبحان الله، فقال عيسى :بالذي أراك هذه الآية، من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال الرجل: ما كانا إلاّ اثنين، فمرّا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام ـ وقيل: ثلاثة أكوام من الرمل ـ فقال لها: كوني ذهباً بإذن الله، فكانت، فلمّا رآها الرجل قال: هذا مال، فقال عيسى (عليه السلام): نعم واحدة لي وواحدة لك وواحدة لصاحب الرغيف الثالث، فقال الرجل: أنا صاحب الرغيف الثالث: فقال عيسى (عليه السلام) هي لك كلّها، ثمّ فارقه عيسى، وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه، فمرّ به ثلاثة نفر فقتلوه، فقال إثنان منهما للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام، فانطلق فلمّا غاب قال أحدهما للآخر: إذا جاء قتلناه واقتسمنا المال بيننا، فقال الآخر: نعم، وأمّا الذي ذهب ليشتري الطعام فإنّه أضمر لصاحبيه السوء وقال: أجعل لهما في الطعام سمّاً، فإذا أكلاه ماتا وآخذ المال لنفسي، فوضع السمّ في الطعام وجاء، فقاما إليه فقتلاه وأكلا الطعام فماتا، فمرّ بهم عيسى(عليه السلام) وهم مصروعون حولها فقال: هكذا الدنيا تفعل بأهلها.(32(

* * *

ومن كلام له (عليه السلام): [يتعرض فيه لأرض فدك ويذكر فيه مجاهدة نفسه (عليه السلام)[

»بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ آخَرِينَ وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللَّهُ وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَكٍ وَغَيْرِ فَدَكٍ وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا لَأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ».(33(

* * *

الشرح:

قوله صلوات الله عليه: «بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء.«

]فدك تاريخياً:[

فدك قرية في الحجاز، وبينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، وهي أرض يهوديّة في مطلع تاريخها الإسلاميّ، وكان يسكنها طائفة من اليهود، ولم يزالوا على ذلك حتّى السنة السابعة، حيث قذف الله بالرعب في قلوب أهليها، فصالحوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) على النصف من فدك، وروي أنّه صالحهم عليها كلّها.

وابتدأ بذلك تاريخها الإسلاميّ، فكانت ملكاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله) لأنّها ممّا لم يُوجَف عليها بخيل ولا ركاب، ولمّا ملك (صلى الله عليه وآله) فدك أنزل الله تعالى عليه «وَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ»(34) فقال (صلى الله عليه وآله): ادعوا لي فاطمة، فدُعيت له، فقال: يا فاطمة هذه فدك وهي ممّا لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وهي لي خاصّة دون المسلمين، فخُذيها لك ولذريتك، فملكتها فاطمة، فكانت في يدها مدّة حياة رسول الله (صلى الله عليه وآله) تتصرّف فيها، إلى أن توفّي أبوها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فانتزعها الخليفة الأول منها على حدّ تعبير صاحب الصواعق المحرقة وغيره من المؤرّخين،(35) وأصبحت من مصادر الماليّة العامّة وموارد ثروة الدولة يوم ذاك، إلى أن تولّى الخلافة عثمان بن عفان فأقطعها مروان بن الحكم، ثم يُهمل التاريخ أمر فدك بعد عثمان فلا يصرّح عنها بشيء، ولكنّ الشيء الثابت هو أنّ أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه انتزعها من مروان ـ على تقدير كونها عنده في خلافة عثمان بن عفّان ـ كسائر ما نهبه بنو أمية في أيّام خليفتهم .

ولمّا ولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة أمعن في السخريّة وأكثر الاستخفاف بالحقّ المهضوم، فأقطع مروان بن الحكم ثُلث فدك، وعمر بن عثمان ثلثها، ويزيد ابنه ثلثها الآخر، فلم يزالوا يتداولونها حتّى خلصت كلّها لمروان بن الحكم أيّام ملكه، ثم صفت لعمر بن عبد العزيز بن مروان، فلمّا تولّى هذا الأمر ردّ فدكاً على ولد فاطمة (عليه السلام) وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك، فكتب إليه: إن فاطمة سلام الله عليها قد ولدت في آل عثمان وآل فلان وفلان، فعلى من أردّ منهم؟ فكتب إليه: أمّا بعد، فإني لو كتبتُ إليك آمرك أن تذبح بقرة لسألتني ما لونها، فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة (عليه السلام) من علي صلوات الله عليه.(36(

فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه وقالوا له: هجّنت فِعل الشيخين، وقيل أنّه خرج إليه عمرو بن قيس في جماعة من أهل الكوفة فلمّا عاتبوه على فعله قال لهم: إنّكم جهلتم وعلمتُ، ونسيتم وذكرتُ، إنّ أبا بكر بن محمّد بن عمرو بن حزم حدّثني عن أبيه، عن جدّه، أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: فاطمة بضعة منّي، يُسخطها ما يُسخطني، ويرضيني ما يرضاها، وإنّ فدك كانت صافية على عهد أبي بكر وعمر، ثمّ صار أمرها إلى مروان فوهبها لعبد العزيز أبي فورثتها أنا وأخوتي عنه، فسألتهم أن يبيعوني حصّتهم منها، فمن بائع وواهب حتّى

اجتمعت لي، فرأيت أن أردّها على ولد فاطمة. فقالوا له: فإن أبيت إلاّ هذا فأمسِك الأصل واقسم الغلّة، ففعل.(37(

ثمّ انتزعها يزيد بن عبد الملك من أولاد فاطمة، فصارت في أيدي بني مروان حتّى انقرضت دولتهم .

فلمّا قام أبو العباس السفّاح بالأمر وتقلّد الخلافة ردّها على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ثمّ قبضها أبو جعفر المنصور في خلافته من بني الحسن، وردّها المهدي بن المنصور على الفاطميين، ثمّ قبضها موسى بن المهدي من أيديهم.

ولم تزل في أيدي العبّاسيين حتّى تولى المأمون الخلافة، فردّها على الفاطميين سنة (210)، ولما بويع المتوكّل على الله انتزعها من الفاطميّين وأقطعها عبد الله بن عمر البازيار، وكان فيها إحدى عشرة نخلة غرسها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيده الكريمة، فوجّه عبد الله بن عمر البازيار رجلاً يقال له بشران بن أبي أميّة الثقفيّ إلى المدينة فصرم تلك النخيل، ثم عاد ففلج .

وينتهي آخر عهد الفاطميّين بفدك بخلافة المتوكّل ومنحه إيّاها عبد الله بن عمر البازيار. هذه إلمامة مختصرة بتاريخ فدك المضطرب الذي لا يستقيم على خط ولا يجمع على قاعدة، وإنّما حاكت أكثره الأهواء وصاغته الشهوات على ما اقتضته المطامع والسياسات الوقتيّة، وعلى هذا فلم يخلُ هذا التاريخ من اعتدال واستقامة في أحايين مختلفة وظروف متباعدة، بحيث تؤول فدك إلى أهلها وأصحابها الأوّلين.

ويلاحظ أنّ مشكلة فدك كانت قد حازت أهميّة كبرى بنظر المجتمع الإسلاميّ وأسياده، ولذا ترى حلّها يختلف باختلاف سياسة الدولة، ويرتبط باتّجاه الخليفة العام نحو أهل البيت مباشرة، فهو إذا استقام اتجاهه واعتدل رأيه ردّ فدكاً على الفاطميّين، وإذا لم يكن كذلك وقع انتزاع فدك في أوّل القائمة من أعمال ذلك الخليفة. ويدلّنا على مدى ما بلغته فدك من القيمة المعنويّة في النظر الإسلاميّ قصيدة دعبل الخزاعي التي أنشأها حينما ردّ المأمون فدكاً:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا بردّ مأمون هاشما فدكا(38(

]القيمة الاقتصادية لفدك:[

ويظهر من هذا الاهتمام بأمر فدك أنّها لم تكن أرضاً صغيرة أو مزرعة متواضعة كما يظنّ البعض؛ بل الأمر الذي يُطمئنّ إليه أنّها كانت تدرّ على صاحبها أموالاً طائلة تشكّل ثروة مهمّة، وليس عليَّ بعد هذا أن أحدّد الحاصل السنديّ منها وإن ورد في بعض طرقنا الارتفاع به إلى أعداد عالية جدّاً.

ويدلّ على مقدار القيمة الماديّة لفدك أمور :

الأول: أنّ عمر منع أبا بكر من ترك فدك للزهراء لضعف الماليّة العامّة مع احتياجها إلى التقوية لما يتهدّد الموقف من

حروب الردّة وثورات العصاة.

ومن الجليّ أنّ أرضاً يُستعان بحاصلاتها على تعديل ميزانيّة الدولة وتقوية ماليّاتها في ظروف حرجة كظرف الثورات والحروب الداخليّة لابدّ أنّها ذات نتاج عظيم.

الثاني: قول الخليفة لفاطمة سلام الله عليها في محاورة له معها حول فدك: إنّ هذا المال لم يكن للنبيّ (صلى الله عليه وآله)، وإنّما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرجال ويُنفقه في سبيل الله، فإنّ تحميل الرجال لا يكون إلاّ بمال مهمّ تتقوّم به نفقات الجيش.

الثالث: ما سبق من تقسيم معاوية فدكاً أثلاثاً، وإعطائه لكلٍّ من يزيد ومروان وعمرو بن عثمان ثلثاً، فإنّ هذا يدّل بوضوح على مدى الثروة المجتناة من تلك الأرض، فإنّها بلا شكّ ثروة عظيمة تصلح لأن توزّع على أمراء ثلاثة من أصحاب الثراء العريض والأموال الطائلة .

الرابع: التعبير عنها بقرية ـ كما في معجم البلدان(39) ـ وتقدير بعض نخيلها بنخيل الكوفة في القرن السادس الهجري ـ كما في شرح النهج لابن أبي الحديد.(40)

هذه ناحية موجزة من نواحي فدك تعطيك صورة مصغّرة عنها وعن ضخامة ثرائها.

ومن ناحية أخرى ما كان من أمر فاطمة سلام الله عليها لمّا انتزع أبو بكر منها فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها وتجلببت بجلبابها وأقبلت في لمّة من حفدتها ونساء قومها تطأ في ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتّى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار، فضُرب بينها وبينهم ريطة بيضاء، فجلست ثم أنّت أنّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فأمهلتهم طويلاً حتّى سكنت فورتهم.

خطبة فاطمة (عليها السلام):(

لمّا منعت فاطمة الزهراء على أبيها وعليها أفضل الصلاة والسلام فدكاً بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) خطبت خطبة طويلة عظيمة جليلة غاية في الفصاحة والبلاغة والمتانة بمحضر من المهاجرين والأنصار تتضمّن أبلغ الحُجج على القوم وأقواها وأمتنها.

وقد رواها الفريقان بأسانيدهم ورواياتهم ببعض التفاوت. وفي كتاب كشف الغمّة أنّها من محاسن الخطب وبدائعها، عليها مسحة من نور النبوّة، وفيها عبقة من أرج الرسالة وقد أوردها المؤالف والمخالف .

قال: ونقلها من كتاب السقيفة ـ لأبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ من نسخة قديمة مقروءة على مؤلّفها، روى عن رجاله من عدّة طرق، قُرئت عليه في ربيع الآخر سنة 322 هجرية.(41)

وذكرها عمر رضا كحّالة في كتابه «أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام» في المجلد الثالث المطبوع بالمطبعة الهاشمية بدمشق سنة 1359 هجرية .وقد تكفّل بسرد أحوالها سلام الله عليها على أحسن ما يكون، وذكر خطبها الثلاثة على أتمّ ما يرام، واحتجاجها على أبي بكر وعمر وغضبها عليهما.

وذكرها الخوارزمي في كتابه «بلاغات النساء» المطبوع بالمطبعة الحيدرية في النجف الأشرف. وذكر فصلاً منها الشيخ أحمد مفتاح في كتابه «مفتاح الأفكار في النثر المختار» المطبوع في مصر بمطبعة جريدة الإسلام سنة 1314 هجرية ص147، وذكر ابن أبي الحديد المعتزلي فصلاً طويلاً منها في كتابه «شرح نهج البلاغ «المطبوع بمصر في الجلد الرابع ط الأُولى. بسند متسلسل.

ونحن ننقلها عن كتاب «الاحتجاج» للطبرسيّ:

قال: روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه (عليه السلام(، أنّه لمّا أجمع أبو بكر على منع فاطمة فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجِلبابها، وأقبلت في لمّةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فدخلت عليه وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست ثم أنّت أنّة أجهش القوم لها بالبكاء، فارتّج المجلس، ثمّ أمهلتهم هنيهة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله أبيها (صلى الله عليه وآله)، فعاد القوم في بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها فقالت:

[نصّ] الخطبة المتضمّنة الاحتجاج على القوم والتظّلم منهم بمحضر من المهاجرين والأنصار:

»الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم، من عموم نعمٍ ابتداها، وسُبوغ آلاءٍ أسداها، وتمام نعمٍ والاها، جمّ عن الإحصاء عددُها، ونأى عن الجزاء أمدُها، وتفاوت عن الإدراك أبدُها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد الخلائق بإجزالها، وثنّى بالندب إلى أمثالها.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له كلمةً جعل الاخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في التفكّر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كوّنها بقدرته، وذرأها بمشيّته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلاّ تثبيتاً لحكمته، وتنبيهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته، وتعبّداً لبريّته، وإعزازاً لدعوته، ثمّ جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، ذيادة(42) لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جنتّه.

وأشهد أنّ أبي محمّداً (صلى الله عليه وآله) عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسمّاه قبل أن اجتباه،

واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبسرّ الأهاويل مصونة، وبغاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآل الأمور، وإحاطة بحوادث الدهور، ومعرفة بمواقع المقدور، ابتعثه الله تعالى إتماماً لأمره، وعزيمة على إمضاء حكمه، وإنفاذاً لمقادير حتمه، فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله تعالى بأبي محمد (صلى الله عليه وآله) ظلمها، وكشف عن القلوب بُهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصّرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، ثمّ قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار. محمد (صلى الله عليه وآله) عن تعب هذا الدار في راحة، قد حُفّ بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الغفّار ومجاورة الملك الجبّار (صلى الله عليه وآله)، على أبي نبيّه وأمينه على وحيه وصفيّه وخيرته من الخلق ورضيّه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته.

ثمّ التفتت إلى أهل المجلس وقالت: أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحمله دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبُلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حقّ له فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقيّة استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجلّية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدّ إلى النجاة استماعه، به تُنال حُجج الله المنوّرة وعزائمة المفسّرة ومحارمة المحذّرة وبيّناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورُخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة.

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنـزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للاخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام وذلاً لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامّة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنـزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفّة، وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبيّة، ألا فاتّقوا الله حقّ تُقاته ولا تموتنّ إلاّ وأنتم مسلمون»، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّما يخشى الله من عباده العلماء .

ثمّ قالت سلام الله عليها: أيّها الناس، اعلموا أنّي فاطمة وأبي محمّد، أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شَططاً، »لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ«(43)
فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزي إليه، فبلّغ الرسالة صادعاً بالنذارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بكظمهم، داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة،

يجذّ الأصنام وينكث الهام، حتّى انهزم الجمع وولّوا الدبر، حتّى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلّت عُقدة الكفر والشقاق، وفهتهم بكلمة الاخلاص في نفر من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تشربون الطرق وتقتاتون القدّ، أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطّفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (صلى الله عليه وآله) بعد اللتيّا والتي، وبعد أن مُني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب «كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ»(44) أو نجم قرن للشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لبّها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيّداً في أولياء الله، مشمّراً ناصحاً مجدّاً كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون، تتربّصون بنا الدوائر، وتتوكّفون الأخبار، وتنكصون عند النـزال، وتفرّون من القتال، فلمّا اختار الله لنبيّه (صلى الله عليه وآله) دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهرت فيكم حسيكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الأقلّين، وهدر فنيق المبطلين يخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خِفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يُقبَر، بداراً زعمتم خوف الفتنة «أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ»،(45) فهيهات منكم وكيف بكم وأنّى تؤفكون، وهذا كتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لائحة، وأوامره واضحة، قد خلّفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون؟ أم بغيره تحكمون؟ »بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً«(46) «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ»(47) ثمّ لم تلبثوا إلاّ ريثما تسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغويّ وإطفاء نور الدين الجليّ وإهماد سُنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضرّاء، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لي، »أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ«.(48(

إيهاً معاشر المسلمة أأُبتزّ إرث أبي؟! الله يا ابن أبي قحافة، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئتَ شيئاً فريّاً، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول جلّ وعلا: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ»(49) وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ»(50) وقال تعالى: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ»(51) وزعمتم أن لا إرث لي من أبي ولا رحم بيننا، أفخصّكم الله بآيةٍ أخرج أبي منها؟ أم تقولون أهل مِلّتين لا يتوارثان؟ أوَلست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه

من أبي وابن عمي؟! فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنِعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المُبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون «لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ»(52) و«سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ».(53)

ثمّ رنت بطرفها نحو الأنصار فقالت: يا معشر البقية وأعضاد الملّة وحضنة الإسلام، ما هذه الغميزة في حقّي والسنة عن ظُلامتي؟ أما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أبي يقول: المرء يُحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم، وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوّة على ما أطلب وأزاول، أتقولون مات محمّد فخطب جليل استوسع وهنُه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، واكتابت خيرة الله لمصيبته، وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأضيع الحريم، وأُزيلت الحرمة عند مماته، فتلك ـ والله ـ النازلة الكبرى والمصيبة العظمى التي لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جلّ ثناؤه في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وإلحاناً، ولقبله ما حلّت بأنبياء الله ورسله، حكم فصل وقضاء حتم، «وَما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»(54) إيهاً بني قيلة، أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى منّي ومسمع ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدّة والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تُغيثون، وأنتم موصوفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي اختيرت، والخيرة التي اختبرت لنا أهل البيت، ناوأتم العرب، وبادهتم الأمور، وتحمّلتم الكدّ والتعب، وناطحتم الأمم، وكافحتم البهم، فلا نبرح وتبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتّى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت نعرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخمدت نيران الكفر، وهدأت عدوة الهرج، واستوسق نظام الدين، فأنّى حرتم بعد البيان، وأسررتم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم «نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».(55)

ألا قد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض، وأبعدتم من هو أحقّ بالبسط والقبض، وركنتم إلى الدعة، ونجوتم من الضيق بالسعة، فمججتم ما وعيتم، ولفظتم الذي سوّغتم، «إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ».(56)
ألا وقد قلت ما قلتُ على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنّها فيضة النفس وبثّة الصدر ونفثة الغيظ وتقدمة الحجّة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخفّ، باقية العار، موسومة بغضب الله وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة، التي تطّلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»(57) وأنا ابنة نذيرٍ لكم بين يدَي عذابٍ شديد «اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ» «انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ».

ثمّ انكفأت وأمير المؤمنين صلوات الله عليه يتوقّع رجوعها إليه، ويتطلّع طلوعها عليه، فلمّا استقرت بها الدار قالت لأمير المؤمنين: يا ابن أبي طالب اشتملَت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي محافة يبتزّني نحيلة أبي وبُلغة ابني، لقد أجهد في خصامي، وألفيته الألدّ في كلامي، حتّى حبستني قيلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضّت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، ولا ناصر ولا شافع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدّك يوم أضعت جدّك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كففت قائلاً ولا أغنيت طائلاً، ليتني متّ قبل منيتي ودون ذلّتي، عذيري الله منك عادياً ومنك حامياً، ويلاي في كلّ شارق، ويلاي في كلّ غارب، مات العمد، ووهن العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربّي، اللهمّ إنّك أشدّ قوة وحولاً وأشدّ بأساً وتنكيلاً. فقال لها أمير المؤمنين صلوات الله عليه: لا ويل لك بل الويل لشانئك، فنهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقيّة النبوّة، فما ونيتُ عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البُلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون، وما أُعدّ لك أفضل ممّا قطع عنك، فاحتسبي الله. فقالت: حسبي الله وأمسكت.(58(

ولم تزل سلام الله عليها عليلة مريضة صاحبة فراش منهدّة الركن يُغشى عليها ساعة بعد ساعة، حتّى إذا دنت منها الوفاة وجّهت خلف أمير المؤمنين صلوات الله عليه من يحضره، فجاء أمير المؤمنين فأخذ رأس الزهراء ووضعه في حجره، وألقى الرداء من على عاتقه وحلّ أزراره، ثمّ ناداها: يا فاطمة كلّميني، فلم تكلّمه فناداها: يا ابنة خير من وطئ الحصى كلّميني، فلم تكلّمه فقال: فاطمة كلّميني أنا ابن عمك علي، عند ذلك أفاقت وقالت: يا ابن العمّ قرب الأجل، فقال: يا فاطمة تجديه؟ قالت: أجد الموت الذي لابدّ منه، وفي قلبي وصايا، قال: أوصي بها تجديني وفيّاً إن شاء الله، فقالت: يا ابن العم أوّلاً سألتك بالله هل رأيتني خائنة أم خالفتك منذ عاشرتك؟ قال: حاشا لله يا بنت رسول الله، أنت أبّر وأتقى، فقالت له: يا ابن العم الأولى من وصاياي أنّي رأيت الملائكة صورّت لي نعشاً، قال: صفيه، فوصفته له. قال: أصنعه إن شاء الله، فقالت: والثانية يا ابن العم إنّ الرجل لا يستقيم بلا زوجة، فإذا أردت التزويج فعليك ببنت أختي أمامة، فإنّها تكون لولديّ الحسنين مثلي، واجعل لها يوماً وليلة ولولديّ يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما فإنّهما يصبحان يتيمين، بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقداني. والثالثة يا ابن العم إذا أنا قضيتُ نحبي غسّلني وكفّني ولا تدع أحداً من هؤلاء الذين ظلموني يشهد جنازتي، وادفنّي ليلاً إذا هدأت الأصوات ونامت العيون. ثمّ قضت نحبها صابرة مظلومة، فألقى أمير المؤمنين الرداء على وجهها ودموعه تجري، عند ذلك صرخ الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وفضّة وصار كيوم مات فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله): فأقبل الناس يهرعون أفواجاً أفواجاً، واجتمعوا على باب أمير المؤمنين حتّى صاروا كعرف الفرس، فخرج إليهم أبو ذر وقال: أيّها الناس انصرفوا، إنّ الزهراء قد أُخّر إخراجها، ولمّا تناصف الليل قام أمير المؤمنين وأخذ في تجهيزها، فكان هو يغسّلها، والحسن يصبّ الماء، والحسين يناوله

الماء، وأسماء بيدها الضياء .

قالت أسماء: بينما أمير المؤمنين يغسّل فاطمة إذ صاح بي :أسماء عليَّ بالضياء، فأتيته به، فأخذ الضياء من يدي وجعل يتأمّل وينظر في أضلاع الزهراء، ثمّ رمى الضياء من يده وجلس على الأرض يبكي، فأقبلت عليه، قلت له: سيّدي فيم بكاؤك الآن حزناً على فاطمة؟ قال: لا يا أسماء وإن عزّ عليَّ فراقها، لكن لمّا وضعتُها على المغتسل رأيتُ ضلعها مكسوراً ومتنها قد اسودّ من ألم السياط، وكانت تُخفي عليَّ ذلك مخافة أن يشتدّ بي وجدي.(59(

* * *

(1)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج81.15 :

(2)الفرقان: 43.

(3)الزخرف: 36.

(4)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 4: 31.

(5)المصدر السابق.

(6)شرح نهج البلاغة 3: 108، ط مكتبة المرعشي النجفي - قم.

(7)شرح نهج البلاغة 3: 95.

(8)شرح نهج البلاغة 3: 102.

(9)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 3: 95.

(10)مروج الذهب للمسعودي 3: 51.

(11)مقتل الحسين (عليه السلام) للخوارزمي .60 :2

(12)شرح نهج البلاغة، ج 16: 206.

(13)مستدرك الوسائل 11: 270/ ح12973.

(14)الكافي 2: 77/ ح5.

(15)الكافي 2: 76/ ح1.

(16)بحار الأنوار 67: 298/ ح6.

(17)الكافي 2: 78/ ح13.

(18)الكافي 2: 78/ ح12.

(19)الكافي 2: 77/ ح12.

(20)الكافي 2: 77/ ح8.

(21)الكافي 2: 79/ ح3.

(22)الكافي 2: 80/ ح7.

(23)الكافي 2: 79/ ح1.

(24)الكافي 2: 79/ ح4.

(25)نهج البلاغة 2: 55/ خ160.

(26)راجع ما روي في الاخبار للصدوق: 252 باب (معنى الزهد) ح5.

(27)البحار 14: 327/ ح51 و53.

(28)مصدر السابق.

(29)فيض القدير للمناوي 2: 368.

(30)الأنعام: 90.

(31)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج4.139 :

(32)الدر المنثور للسيوطي، ج2: 34، رواه بلفظ آخر...

(33)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 208.16 :

(34)الإسراء: 26.

(35)الصواعق المحرقة: 38.

(36)بحار الأنوار 29: 212؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16: 278.

(37)نفس المصدر.

(38)السقيفة وفدك للجوهري: 107؛ شرح نهج البلاغة 16: 217.

(39)معجم البلدان للحموي 4: 238.

(40)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 236.16 :

(41)كشف الغمة 2: 108.

(42)الذيادة: الطرد والمنع.

(43)التوبة: 128.

(44)المائدة: 64.

(45)التوبة: 49.

(46)الكهف: 50.

(47)آل عمران: 85.

(48)المائدة: 50.

(49)النمل: 16.

(50)مريم: 5 و6.

(51)النساء: 11.

(52)الأنعام: 67.

(53)الزمر: 39 و40.

(54)آل عمران: 144.

(55)التوبة: 13.

(56)إبراهيم: 8.

(57)الشعراء: 227.

(58)الاحتجاج للطبرسي 1: 131 - 146؛ بحار الأنوار 29: 220 - 235.

(59)انظر خبر وفاتها (عليها السلام) في البحار 43: 174.

في وصيّته الكبرى لولده الحسن (عليه السلام): [في نفي الشريك وافتقار العبد إلى الله]

»اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ وَقِلَّةِ

مَقدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ وعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ وَالشّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ فَإِنّهُ لَمْ يَأمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».(1)

* * *

الشرح: [التوحيد ونفي الشريك]

لأهل العلم في التدليل على توحيد الله تعالى شأنه مسالك وطرق، بعضها واضح وبعضها خفيّ، وما خفي منها فإنّما هو لابتنائه على أمور ومسائل قد تكون دقيقة في نفسها، وقد تكون دقيقة باعتبار أنّ الافهام لم تمارسها ولم تألف الدنوّ إليها والاقتراب منها ولا الحوم حولها.

نرى الله تعالى في كتابه يُقيم الدليل على توحيده بأنّه لو كان غيره لفسدت السماوات والأرض. ونرى أمير المؤمنين عليّاً صلوات الله عليه يستدلّ على توحيد الله بأنّه لو كان غيره لأتتنا رسله، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه .

و نجد أرسطاطاليس (من فلاسفة اليونان) يستدلّ على توحيد الله ووحدته بوحدة العالم الموجود منه .

ونجد صاحب الأسفار (من فلاسفة المسلمين) يستدلّ على وحدته تعالى بوجوب وجوده وإمكان وجود غيره.

وآخر يقول بأنّ واجب الوجود واحد، ويجب في الإله أن يكون واحداً، لاستحالة أن يكون الإله غير واجب الوجود .

والشاعر يقول:

وفي كلّ شيء له آيةٌ   تدلّ على أنّه واحدُ

إلى غير ذلك من المسالك والمناهج التي ترى أنّ بعضها أضوء وأنور من بعض، والله تعالى لا يريد أن يفرض القول بوحدانيّته فرضاً بلا دليل وبلا برهان، بل يريد أن يكون الإيمان بوحدانيّته والتصديق بأُلوهيّته دون غيره بالدليل الواضح والبرهان الجلي بصورة لا تزعزعها الشبه ولا تزلزلها التشكيكات.

وإنّ مسألة التوحيد مسألة شغلت بال العالم قديماً وحديثاً، ولا تزال محل النقض والابرام بين الموحّدين من المسلمين وبين غيرهم؛ بل بين المسلمين أنفسهم، فإنّ كثيراً من الفرق الإسلاميّة كالمجسّمة والمشبّهة والغالية نبوا وابتعدوا عن القول بالتوحيد؛ بل ربّما انغمس في دنس الشرك من يرى نفسه موحّداً من حيث لا يعلم.

ففي الحديث «ولو أنّ أحداً قال لشيءٍ فعله الله أو فعله رسولُه (صلى الله عليه وآله) «ألا فعل خلاف ذلك؟» أو وجد ذلك في نفسه عُدّ مشركاً، ثم تلى قوله: «فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».(2)

ولعلّ إلى هؤلاء يُشير الله سبحانه بقوله: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ».(3(

فهؤلاء لا يجوز أن يكونوا ممّن دخل في الشرك صريحاً، بل من دخل فيه من حيث لا يعلم، وانغمس في حمأته من حيث لا يشعر، أُتي من قِبل إهماله وتفريطه في أمر دينه، ولذلك لم يكن معذوراً.

ومن هنا يتبيّن لك أنّ الشرك ذو شعب متعدّدة وأطراف مترامية، وأنّ غير المتحفّظ لا يأمن من الولوج فيه والدخول في بعض شُعبه وأطرافه.

ونحن إذ نتقدّم للتكلّم فيه إنّما نتقدّم لنبرئ النفوس منه ونطهرها من رجسه، ونحيد بها عن الانغماس في حمأته، وعن الدنوّ والاقتراب من مدارجه وموالجه، والله هو المسئول للإعانة على توضيح ذلك وإفهامه.

قد تفنّن المفسرون في التعبير عن المشار إليه بقوله تعالى» :لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا».(4(

قال البيضاويّ في معنى (لفسدتا): أي السماوات والأرض لبطلتا، لما يكون بينهما من الاختلاف والتمانع.(5(

وقال الزمخشريّ في كشّافه عند ذكر الآية: لو كان يتولاّهما)أي السماوات والأرض، ويدبّر أمرهما آلهة شتّى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا .وفيه دلالة على أمرين: أحدهما وجوب أن لا يكون ذلك الواحد إلاّ إيّاه وحده لقوله :)إلاّ الله.(

فإن قلت: لم وجب الأمران؟ قلت: لعلمنا أنّ الرغبة تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف، وقد جاء عن عبد الملك بن مروان حين قتل عمر بن سعيد الأشدق، قال: كان ـ والله ـ أعز عليَّ من دم ناظري، ولكن لا يجتمع فحلان في شول.

وقال صاحب مجمع البيان عند ذكر الآية: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتا»: معناه لوكان في السماء والارض آلهة سوى الله لفسدتا وما استقامتا، وفسد من فيهما ولم ينتظم أمرهم، وهذا هو دليل التمانع الذي بنى عليه المتكلّمون مسألة التوحيد. قال: وتقرير ذلك أنّه لو كان مع الله سبحانه إله آخر لكانا قديمين، والقدم من أخصّ الصفات، والاشتراك فيه يوجب التماثل، فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيّين، ومن حقّ كلّ قادرين أن يصحّ كون أحدهما مريداً لضدّ ما يريده الآخر من إماتة وإحياء أو تحريك وتسكين أو إفقار وإغناء ونحو ذلك، فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو أمّا أن يحصل مرادهما وذلك محال، وأمّا أن لا يحصل مرادهما فينتقض كونهما قادرين، وأمّا أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر، فينتقض كون من لم يقع مراده قادراً، فإذاً لا يجوز أن يكون الإله إلاّ واحداً(6.(

تنبّه إلى أنّ المفسّرين لا يريدون الاستدلال على التوحيد بالآية، إنّما يريدون الاستدلال بالبرهان العقليّ الذي أشارت

إليه الآية، وإنّ كثيراً من الآيات تنبّه إلى البراهين العقليّة وتشير إليها ليؤخذ بها ويعتمد عليها .

وكان الله سبحانه يريد أن يدعم الحقّ ويثبته ويجعله محكماً قارّاً باقامة الأدلّة والبراهين عليه من ناحيتي العقل والنقل، يريد أن يستعمل الإنسان عقله ويسترشده ـ وهو رسوله الباطنيّ ـ كما يسترشد الأنبياء والرسل، ويجتمع به كما يجتمع بهم في مهمّات مسائله ومعاضل أحكامه. لا يريد الله أن يفرض على الإنسان فيما يرجع إلى أصول دينه وحقائق عقيدته الأمر فرضاً، ويُجبره على العلم والاعتقاد إجباراً، علماً منه سبحانه أنّ الاعتقاد من الأفعال القلبية، والقلب لا يُجبَر على شيء من فعله. يريد الله بالإنسان أن يمشي على بيّنة ويسير على ضوء، ولا يحكم إلاّ بدليل وبرهان، وذلك شأن الدين الحقّ وهو الهادي إليه.

إنّ محلّ الشاهد وموضع القصد من هذا الكلام الجملة الأولى من كلام أمير المؤمنين صلوات الله عليه وإنّما أتينا بهذه الفقرة لما فيها من الارتباط بهذا القصد من توجيه القلب وأخذه بالموعظة ليحرص على الاستفادة منه، وهو كلام واضح في الدلالة على توحيد الله تعالى. أجل لو كان الله سبحانه شريك لوجب في ذلك الشريك أن يكون عالماً حكيماً، إذ لا يجوز في الإله المستحقّ للعبوديّة أن يكون جاهلاً سفيهاً، فإنّ الجاهل السفيه يستحق الطرد والابعاد والاهانة والتحقير، إذاً لا بدّ أن يكون عالماً حكيماً، والعلم والحكمة تقتضي أن يبعث للناس رسولاً يدعوهم إليه ويدلّهم عليه، وإلاّ لانتفى عنه العلم وبطلت الحكمة، ولو بعث رُسُلاً لأتتنا ودلّتنا وأرشدتنا .

وحيث أنّه لم يأتنا عن غير الله رسول فلا رسول، وإذ لا رسول لغير الله فلا مُرسِل غير الله، ولا إله سوى الله.

وهذا معنى قوله صلوات الله عليه: «لو كان لربّك شريك لأتتنا رُسله» فإنّ إتيان الرسل لازم، وانتفاء اللازم يستدعي انتفاء الملزوم.

ومثله قوله صلوات الله عليه: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه «فإنّه لو كان لله شريك لكان عالماً حكيماً قادراً، ولو كان كذلك لكان له ملك وسلطان، ولو كان له ملك وسلطان لرأينا آثار ملكه وسلطانه، ولما انتفت هذه اللوازم كلّها انتفى ملزومها، وإلاّ لوجب الملزوم بلا لازمه، وهو محال.

وكذلك قوله صلوات الله عليه: «ولعرفت أفعاله وصفاته» فإنّه لو كان لله شريك لكان له أفعال وصفات، قضاء لحقّ العلم والحكمة والقدرة، ولو كانت لعرفناها لوجوب ظهورها، ولكن لا نعرف خالقاً غير الله ولا مدبّراً لهذا الكون سوى الله، وانتفاء المعرفة عن غير أفعال الله يدّل على انتفاء غير الله.

قوله صلوات الله عليه: «ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه .«

لقد استفاضت الآيات القرآنيّة بالنصّ على التوحيد، ويكاد أن يكون القسم الأوفر من بين الآيات، ويكفيك منها أمره

تعالى نبيّه نبيّ الرحمة أن يقول: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ »و«هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ.«

قوله صلوات الله عليه: «لا يضادّه في ملكه أحد.«

إمكان المضادّة في الملك فرع الكفاءة والمقدرة بين الإلهين المتصوّر تقارنهما، وإذ قامت عندنا البراهين القاطعة على نفي الشريك، فليس هناك من يضادّه أو ينازعه في الملك .

]حقوق الله وأداء الواجب:[

قوله صلوات الله عليه: «عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطة قلب أو بصر» لأنّ المثبت بالقلب يستدعي أن يكون محاطاً به، والإدراك بالبصر يستلزم كون المرئيّ جسماً، ومقام الربّ سبحانه فوق كلّ هذه التصوّرات.

قوله صلوات الله عليه: «فإذا عرفت ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره، وقلّة مقدرته، وكثرة عجزه، وعظيم حاجته إلى ربّه، في طلب طاعته، والخشية من عقوبته، والشفقة من سخطه، فإنّه لم يأمرك إلاّ بحسن، ولم يَنْهَك إلاّ عن قبيح.«

أخذ صلوات الله عليه يعدد وجوه حاجة ولده المحبوب إلى المولى سبحانه، وما يجب أن يكون مثله من الحال من الطاعة والتحلّي بالصفات الفاضلة، ومكارم الأخلاق، ومن أهمّها معرفة أداء الواجب نحو خالقه ونحو المخلوق.

فإنّ أداء الواجب بالغ الخطورة عظيم الشأن، يتطلّب من العزيمة أن تكون على أتمّها، إذ في أداء الواجب مجاهدة للنفس الأمّارة بالسوء أيّ مجاهدة، ومغالبة لها أيّ مغالبة، فمن لم يُرزق جلد العزيمة ومضاءها فلن يستطيع مع أداء الواجب صبراً.

وأداء الواجب على وجه الدقّة كلمة تحمل بين جنبيها جمعاًً من الفضائل، فهي في الحقيقة أمّ الفضيلة الولود. أليس من الواجب أن تعرف حقوقك فتطلبها من مظانّها، وتعرف حقوق غيرك عليك فتؤدّيها على وجهها، وماذا بعد ذلك من الفضائل لا يتّصل بنسب إلى حقّ لك أو حقّ عليك.

إنّ الأمم لتترقّى شؤونها الاجتماعية ومدنيّتها الخلقيّة بمقدار رقيّ هذه الفضيلة: فضيلة أداء الواجب في نفوس أناسها، فإنّه إن طُويت الضلوع على هذه الفضيلة فقد ضعف الخلاف بين الفرد والفرد، ومتى تمّ ذلك فقد قويت الأواصر بين الطبقة وأختها، ومتى التقت طبقات الأمّة فلا عادي ولا معدوّ عليه، فهي واصلة إلى غايتها التي لا غاية وراءها في مدنيّة الخلق والاجتماع، وما حاجة الأمّة حينئذ إلى التقاضي والتشاكي؟ وذلك هو المثل الاعلى الذي يتوخّاه الإمام علي صلوات الله عليه لحياة الأمم.

]ما هي الواجبات:[

من أجل ذلك وجب أن نبيّن للناس ما هو واجب لهم وما هو واجب عليهم، رضوا أم غضبوا، كرهوا أم أحبّوا «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ».(7(

1- معرفة الله تعالى معرفة يصحّ بها الاعتقاد، فيكون على بصيرة من ربّه، ويعرف معنى كلمة التوحيد التي جاء بها الأنبياء من لدن آدم إلى خاتمهم محمّد (صلى الله عليه وآله)، بالتبشير بها وإيقاظ العقل البشريّ للايمان بقوّتها وآثارها في الكون، وأنّ كلّ ما عداها زيغٌ وبُهتان مبين.

2- أوامر الدين ونواهيه: إنّ لكلّ دين من الأديان تكاليف وواجبات تكفل حفظ مظهره وتبسط سلطانه في الناس، وإنّ أوامر الدين الإسلاميّ من صلاة وصيام وحجّ وزكاة وما إلى ذلك ما هي إلاّ أعلام خفّاقة تهوي إليها النفوس، وتنتظم القلوب فتلبسها ثوب الدين، وتعصمها من الشرور، فتكون جنود الله في الأرض تعبده وتأخذ نفسها بمرضاته.

وإذا كان كلّ من ينتسب إلى عظيم أو زعيم يحمل شارته ويفاخر الناس بنبالته، فما أجدر المسلم أن يكون سمات الإسلام أظهر شيء لديه، ثمّ هي طهارة للنفوس وتهيئة لها للكمال.

فالصلاة تغسل أدران الشيطان من نفس الإنسان، وتعوّده الخير والتواضع، وتحول بينه وبين المحظورات، وكذلك بقيّة التكاليف تذكّر الإنسان بعظمة ربّه، وترسم أمام ناظريه الحلال والحرام، فيعرف ما يأخذ وما يدع. وليس هناك دين من غير عمل، فالمسلمون القائمون باسم الإسلام دون العمل بأوامره منعوا أنفسهم موارد السعادة، ومكنّوا لغريزة النفس الجامحة أن تتغلّب على عقولهم، إذ لا تجد من جنود الدين الروحية حاجزاً، وحرمت قائداً حكيماً يهديها سواء السبيل.

3- مجاهدة النفس، ويا لله من مجاهدة النفوس، ولن يقدر على ذلك إلاّ أُولو العزم وذوو النفوس المسلمة حقّاً، من أجل ذلك عدّها النبي (صلى الله عليه وآله) أكبر عند الله من خدمة الإسلام بحدّ السيف، فقال بعد أن عاد من إحدى غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(8) ومغالبة النفس إنّما تصدر عن قوة الإرادة والإخلاص لله.

4- [العناية الدينية]: من الحتم على المسلم أن يحوط دينه بعنايته، ويرّد هجمات العدوّ عنه، وهذه جيوش المبشّرين من أوربيّين وأمريكان تغزو دين الإسلام باسم الانسانية والعلم ومعالجة المرضى، فيتّخذون سذاجة الطفل سبيلاً إلى محو دينه وإدخال العقائد المسيحيّة عليه بصنوف الحيل وألوان الإغراء، ويستضعفون المرضى المساكين الذين استسلموا بسبب قسوة المرض، فلا يعالجونهم إلاّ أن يسقوهم مع الدواء التثليث.

5- الأخوّة الإسلاميّة وحميّة الدين لمناصرة المسلمين وإن بَعُدت ديارهم وتباينت أوطانهم، «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ»(9)

والرسول الكريم كأنّه كان ينظر بنور الله إلى تاريخ المسلمين في مستقبلهم إلى أن تقوم الساعة، فخاف عليهم أن يكون بأسهم بينهم شديداً، وأن تكون قلوبهم شتّى، وكان يوجس خيفة كلّما جرّ الحديث مع أصحابه إلى الرابطة الإسلاميّة، فيوصيهم بالأخوّة من حينٍ لآخر فيقول: «المسلم أخو المسلم»(10) ويقول: «المسلمون أخوة تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم».(11)

* * *

ومن وصيّته (عليه السلام) للحسن والحسين (عليهما السلام): لمّا ضربه ابن ملجم لعنه الله

]وفيها يوصي بالتقوى ونظم الأمر والاهتمام بفروع الدين[

»أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا وَقُولَا بِالْحَقِّ وَاعْمَلَا لِلْأَجْرِ وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا (صلى الله عليه وآله) يَقُولُ صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ اللَّهَ اللَّهَ فِي الْأَيْتَامِ فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ نهجالبلاغة وَاللَّهَ اللَّهَ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ وَاللَّهَ اللَّهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا وَاللَّهَ اللَّهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

ثُمَّ قَالَ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله (يَقُولُ إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ.«

)شرح ابن أبي الحديد مج 4، ص 111، ط 1(

* * *

الشرح:

هذه وصيّة عامة لأهل بيته وغيرهم من المسلمين، نظمها في اثنتي عشرة مادّة، وقدّم عليها وصيّة خاصّة لولديه الحسن والحسين (عليهما السلام (في ست مواد تالية:

1ـ ملازمة التقوى 2 ـ ترك طلب الدنيا وإن أقبلت 3 ـ ترك التأسّف على فوت أمور الدنيا مهما كانت 4 ـ ملازمة القول

بالحقّ 5_ العمل للثواب وإدراك أجر الآخرة 6 ـ الخصومة مع الظالم وعون المظلوم للدفاع عنه.

وأمّا وصاياه العامّة:

]التقوى:[

1- ملازمة التقوى: وهي فضيلة أراد بها القرآن إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه، ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقّاتها في أكثر آيات القرآن الأخلاقيّة والاجتماعيّة، والمراد بها أن يتّقي الإنسان ما يُغضب ربّه وما فيه ضرر لنفسه أو ضرار لغيره. فالتقوى في أصل معناها جعل النفس في وقاية، ولا تجعل النفس في وقاية إلاّ بالنسبة لما يُخاف، فخوف الله أصلها، والخوف يستدعي العِلم بالمخوف، ومن هنا كان الذي يعلم بالله هو الذي يخشاه، وكان الذي يخشاه هو الذي يتّقيه.

فالمتّقون هم الذي يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهو لا يأمر إلاّ بما فيه خير للإنسانيّة، ولا ينهى إلاّ عمّا يضرّها.

عني القرآن بالتقوى عناية كبرى، وأكثر من الأمر وتوجيه النفوس إليها، وكانت له في ذلك أساليب مختلفة.

أمر بتقوى الله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».(12)

وذلك يكون بالتوجيه إلى الله وحده في العبادة، واجتناب ما يأباه من الشرك ودعوى النبوّة له والخروج عن شرائعه وأحكامه العادلة.

ووصف القرآن التقوى بأنّها صيانة النفس عن كلّ ما يضرّ ويؤذي، سواء كان متّصلاً بها أم بجميع الخلق، والابتعاد عن كلّ ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه، ولهذا وصف الله المتّقين بأنهم من تحلّوا بالفضائل الانسانيّة الحقّة، قال الله تعالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآْخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».(13) فالمتّصفون بهذه الصفات السامية هم الذين وصفهم الله بصفة التقوى. ولا تقتصر التقوى في القرآن على هذه الصفات، بل يضاف إليها الصفات التالية:

فالعدل من التقوى، قال الله تعالى: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى».(14)

والعفو من التقوى أيضاً، قال الله تعلى: «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى».(15)

والاستقامة مع الأعداء هي من التقوى «فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ».(16)

]ثمرات التقوى:[

ذكر القرآن أنّ التقوى تجعل الإنسان في أمن من الخوف والحزن يوم القيامة، والنصر والتوفيق في هذه الحياة «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ».(17)

ومن ثمراتها الثواب العظيم والنعيم في الآخرة «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ».(18)

ومن ثمراتها أيضاً نيل رحمة الله، قال الله تعالى» :وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ».(19)

ويذكرها القرآن في معرض تفريج الأزمات وحلّ المشكلات «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ».(20) ويقول سبحانه: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً».(21)

وفي معرض النصر والتأييد «إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».(22)

وفي معرض تنوير البصيرة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً».(23) فالفرقان ما يفرق به بين شيئين ملتبسين أو أشياء مشتبهة، فثمرة التقوى هي نور البصيرة الذي يفرق بين الحقّ والباطل، واختيار طريقة النجاة .

هذه هي التقوى وصفات المتقّين وثمرتها في الأفراد والجماعات، لهذا ليس بمستغرب أن يوليها القرآن عناية فائقة ويدعو إليها كما جاء في هذه الآية البليغة والتي تدّل على عمق الروحيّة الإسلاميّة، «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى».(24)

ولو أنّ العالم عرف التقوى وقام بواجبها لا نطفأت ثورة الشرّ، وساد السلام في ربوعه .

2- من وصاياه العامّة صلوات الله عليه:

التزام النظم في كلّ الأمور، فإنّ عدم رعاية النظم يوجب عدم الوصول إلى المآرب والحوائج .

]إصلاح ذات البين:[

3- إصلاح ذات البين، وترك الخصومة والنزاع والنفاق.

فالاصلاح بين الناس صفة من أرفع الخصال في النفس الإنسانيّة التي لا تصدر إلاّ من قلوب نبيلة أحبّت الغير وسعت إلى الدفاع عنه. وهل مثل الاصلاح بين الناس يؤتي من خير ونفع للمجتمع، والذي يجعل الناس وحدة تسعى لبعضها

البعض، لهذا أمر الله به بعد أن وصف الرباط بين المؤمنين وهو الأخوّة الدينية بقوله» :إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ».(25(

ودعا إلى الاصلاح بين طوائف المؤمنين «وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما».(26) ودعا إلى الاصلاح بين الزوجين «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما».(27(

وبيّن الله ثواب الاصلاح بين الناس بهذه الآية البليغة «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً».(28(

والمعنى: أنّ كثيراً من التناجي بين الناس لا خير فيه لما يحصل به كثير من الاثم، مما يُغتاب به الغير والطعن فيه، أو ممّا يُحاك به من المؤامرات ضدّ أفراد معيّنين يسبقونهم في السلطة والنفوذ بقصد الاستعلاء عليهم، ثمّ حدّد القرآن السبيل الذي يجب أن يسلكه الناس في تناجيهم، وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة والأمر بالخير والاحسان والاصلاح بين الناس، ومن يفعل هذه الأعمال لوجه الله وطلب مرضاته فإنّ الله سيؤتيه الثواب العظيم والأجر الجزيل.

هذا النصّ القرآني يحمل أروع معاني السمّو الخلقيّ الذي تفتقر إليه الجماعة للحصول على الاستقرار الذي تنشده.

وإنّ الانسانية اليوم لم تكثر فيها البلبلة والتنازع إلاّ بإغفالها العمل بهذه التعاليم السامية .

وبالتالي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام»،(29) ووجه الأفضليّة هنا واضح، فإنّ أهمّ المطالب للشارع (صلى الله عليه وآله) جمع الخلق على سلوك سبيل الله وانتظامهم في سلك دينه، ولن يتمّ ذلك مع تنازعهم وتنافر طباعهم وثوران الفتنة بينهم، فكان صلاح ذات البين ممّا لا يتمّ أهّم مطالب الشارع إلاّ به، وهذا المعنى غير موجود في الصلاة والصيام لإمكان المطلوب المذكور بدونهما، فتحقّقت أفضليّته من هذه الجهة.

]رعاية الأيتام:[

4- في حفظ مالهم وتربيتهم في قوله صلوات الله عليه: «الله الله في الأيتام فلا تغبّوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم.«

قال ابن أبي الحديد: والظاهر أنّه لا يعني بالأيتام الذين لهم مال تحت أيدي أوصيائهم، لأنّ الأوصياء أولئك محرّم عليهم أن يُصيبوا من أموال اليتامى إلاّ القدر النـزر جدّاً عند الضرورة، ثمّ يقضونه مع التمكّن، ومن هذه حاله لا يحسن أن يَقال له لا تغبّوا أفواه أيتامكم، وإنّما الأظهر أنّه يعني الذين مات آباؤهم وهم فقراء، يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود

عنهم كما قال تعالى» :وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأسِيراً»(30 (واليتيم في الناس من قِبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم؛ لأنّ الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد بل العناية للأم لأنها الرحيمة المشفقة، وأمّا الناس فإنّ الأب هو الكافل القيّم بنفقة الولد، فإذا مات وصل الضرر إليه لفقد كافله، والأمّ بمعزل عن ذلك،(31) وما يُنسب لأمير المؤمنين صلوات الله عليه :

كما تأوّهت للأيتام في الصغر	ما إن تأوّهت من شيء رُزئت به
في النائبات وفي الأسفار والحضر(32)	قد مات والدُهم من كان يكفلهم

ولا يسمّى الصبيّ يتيماً إلاّ إذا كان دون البلوغ، فإذا بلغ زال اسم اليتيم عنه، واليتامى أحد الأصناف الذين عيّنوا في الخمس بنصّ الكتاب العزيز.

[رعاية الجيران:]

5- رعاية الجيران في قوله صلوات الله عليه: «والله في جيرانكم فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يُوصي بهم حتّى ظننّا أنّه سيورّثهم.«

فإنّ الجار بمنـزلة الملتجأ المأمون بالنسبة إلى جاره، ومن حقّه كفّ السوء عنه والاحسان إليه والاعانة بالنسبة إليه. وحقّ الجوار قريب من حقّ الرحم، إذ الجوار يقتضي حقّاً وراء ما تقتضيه أُخوّة الإسلام، فيستحقّ الجار المسلم ما يستحقه كلّ مسلم وزيادة، فمن قصّر في حقّه عداوة أو بخلاً فهو آثم، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله» :(الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق: حقّ الجوار وحقّ الإسلام وحقّ القرابة، ومنهم من له حقّان: حقّ الإسلام وحقّ الجوار، ومنهم من له حقّ واحد: الكافر له حقّ الجوار»(33) فانظر كيف أثبت للكافر حقّ الجوار. وقال (صلى الله عليه وآله): «لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه»(34) وقيل له: فلانة تصوم الناهر وتقوم الليل وتتصدّق وتؤذي جارها بلسانها، فقال (صلى الله عليه وآله): «لا خير فيها، هي من أهل النار».(35)

وعن علي صلوات الله عليه أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب «أنّ الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم»(36) وحرمة الجار على الجار كحرمة أمّه، وقال الإمام الصادق (عليه السلام» :(حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار»(37) وقال: «ليس منّا مَن لم يحسن مجاورة من

جاوره»(38) وقال: (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «ما آمن بي مَن بات شبعاناً وجاره جائع»(39) وقال: إنّ يعقوب (عليه السلام) لما ذهب عنه بنيامين نادى: يا ربّ أما ترحمني، أذهبتَ عيني وأذهبت ابني؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: لو أمتُّهما لأحييتُهما لك حتّى أجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتَها وشويتها وأكلت، وفلان إلى جانبك صائم لم تُنِله منها شيئاً.(40) وفي رواية أخرى: «فكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كلّ غداة ومساء من منـزله على فرسخ :ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب»(41) وفي بعض الأخبار: أنّ الجار الفقير يتعلّق بجاره الغني يوم القيامة ويقول: سل يا ربّ هذا لِم منعني معروفه وسدّ بابه دوني؟ (42)

وقال (صلى الله عليه وآله): «جار السوء في دار المقامة قاصمة الظهر» وعنه (صلى الله عليه وآله): «من جهد البلاء جار سوءٍ معك في دار مقامة، إن رأى حسنة دفنها، وإن رأى سيئة أذاعها وأفشاها»(43) ومن أدعيتهم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من مال يكون عليّ فتنة، ومن ولد يكون علّي كَلاًّ، ومن حليلة تقرّب الشيب، ومن جار تراني عيناه وترعاني أذناه، إن رأى خيراً دفنه، وإن سمع شراً طار به.(44)

حدود الجوار وحقّه:

معرفة الجوار موكولة إلى العرف، فأيّ دار يطلق عليها الجار عرفاً يلزم مراعاة حقوق أهلها، والمستفاد من بعض الأخبار أنّ كلّ أربعين داراً من كلّ واحد من الجوانب الأربعة جيران، ثمّ لا ينحصر حقّ الجار في مجرّد كفّ الأذى، إذ ذلك يستحقّه كلّ أحد، بل لا بدّ من الرفق وإهداء الخير والمعروف وتشريكه فيما يملكه ويحتاج له من المطاعم، وينبغي أن يبدأه بالسلام، ويعوده في المرض، ويعزّيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنّئه في الفرح، ويصفح عن زلّاته، ويستر ما اطلّع عليه من عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ويغضّ بصره عن حرمه، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، إلى غير ذلك ممّا ندبت إليه الشريعة الغرّاء.

[الاهتمام بالقرآن:]

6- وصيّته بملازمة القرآن تعليماً وتعلّماً، وملازمة العمل به وبأحكامه، كما في قوله صلوات الله عليه :

«والله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم» وقد حذّر من المسامحة في ذلك إلى حيث يسبق غير المسلمين بأحكام العامّة من الصدق والتعاون والجدّ في العمل، حتّى تقدّموا على المسلمين في كثير من الأمور.

]الاهتمام بالصلاة:[

7- الوصيّة بملازمة الصلاة في قوله صلوات الله عليه: «والله الله في الصلاة فإنّها عمود دينكم.«

ذلك أنّ الصلاة عمود الدين وملاك تربية المسلمين وجمعهم وتأليف قلوبهم ووحدتهم، وأنّها بتمام شروطها سبب لحصول أنوار في القلب، تكون الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنّما يفيض منها على كلّ مُصلٍّ على قدر صفائه من كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقلّة والكثرة والقوّة والضعف والجلاء والخفاء، ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، وأولى بالظهور والافاضة لكلّ شخص ما يهمّه ويكون في طلبه، وإلى ما ذكرنا من ترتّب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤدّاة بالشروط المذكورة أشار النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله: «إنّ العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء، يصلّون بصلاته، ويؤمّنون على دعائه، وإنّ المصلّي لينشر عليه البرّ من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه منادٍ: لو علم المصلّي مَن يناجي ما التفت، وإنّ أبواب السماء تُفتح للمصلّين، وإنّ الله يباهي ملائكته بصدق المصلّي».(45(

فإنّ رفع الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن إفاضة العلوم الباطنة عليه .

وورد في التّوراة:

يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلّياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري».(46 (

وورد أنّ العبد إذا صلّى ركعتين عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كلّ صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مائة ألف.(47(

وذلك لأنّ العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود والركوع والسجود والذكر باللسان وغير ذلك، وليس لملك من الملائكة هذا النوع من العبادة الجامعة بين الكلّ، بل هذه الأفعال موزّعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الراكعون والقاعدون، فإنّ ما أُعطي الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمرّ على حالة واحدة لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقّي من درجة إلى أخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: «وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»(48) بخلاف الإنسان فإنّ له الترقّي في الدرجات والتقلّب في أطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي

صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ»(49) فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرونة بالخشوع، ثمّ ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً فقال في آخرها: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ»(50) ثم قال في ثمرة تلك الصفات: «أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ»(51) فوصفهم بالفلاح أولاً، وبوراثة الفردوس آخراً، فالمصلّون هم ورثة الفردوس، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوّه بالقلب، وكلّ عاقل يعلم أنّ مجرّد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب لا تنتهي درجته إلى هذا الحدّ.

]شعيرة الحج:[

8- الوصيّة بملازمة إقامة شعائر الحجّ في قوله صلوات الله عليه: «والله الله في بيت ربّكم لا تخلّوه ما بقيتم، فإنّه إن تُرك لم تُناظروا.«

ذلك ليجتمع جميع المسلمين في هذا المعبد الإسلاميّ العامّ، فيتعارفون ويتعاونون ويشدّ بعضهم أزر بعض، فإنّ الحجّ عمود الاجتماع الإسلاميّ، فلو ترك تنثلم الوحدة الإسلاميّة ولا يناظر المسلمون.

الحجّ في الشرع الإسلاميّ قصد البيت الحرام بمكّة للعبادة، والحجّ من الشئون الدينيّة التي كانت تُعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم.

وكان العرب قبل الإسلام ـ كسائر الأمم ـ يحجّون إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل (عليهما السلام) في مكّة.

فلمّا جاء الإسلام أقرّ الحجّ، ولكنّه لم يدعه على ما كان عليه في عهد الجاهليّة، فإنّ العرب كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد مشبّكين بين أصابعهم يصفرون ويصفّقون، وقد سجّل الله عليهم هذه الحالة، فقال مستهزئاً بهم: «وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً»(52) كما أنّه لمّا قوى الإسلام أمر الرسول (صلى الله عليه وآله) أن لا يدخل البيت الحرام عريان .

قصة بناء الكعبة:

الكعبة هي الموطن الأساسيّ لأداء فريضة الحجّ، لذا يجدر بنا أن نلمّ بقصّة بنائها :

إنّ بناء الكعبة يرجع إلى عصر إبراهيم الخليل (عليه السلام(، فقد فشت عبادة الأصنام في ذلك الزمن وهجر الناس عبادة الله، فهاجر إبراهيم من بلاد الشام موطن آبائه وأجداده ومعه زوجه هاجر وولده إسماعيل، واتجّه جنوباً حتّى

حطّ رحله في بادية الحجاز بعيداً عن الناس، ليكوّن أسرة تعبد الله وحده .

وعندما شبّ إسماعيل وبلغ أشدّه أمر الله تعالى إبراهيم أن يُقيم مصلّى لتجتمع حوله الناس لعبادة الله ولذكره وشكره على ما أنعم عليهم، وقد ذكر الله ذلك الحادث بقوله: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»(53.(

فلمّا أتمّ إبراهيم البناء مع ابنه إسماعيل أمرهما الله أن يحافظا عليه ويُبعدا عنه كلّ رجس، سواء كان مادّياً ـ كالأقذار ـ أم معنويّاً كالاشراك بالله، قال الله تعالى: «وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»(54 (فالكعبة هي أوّل بيت وُضع للناس لعبادة الله وحده، كما يقول الله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً».(55(

مات إبراهيم وتبعه إسماعيل (عليها السلام)، وطال الزمن فأدخل الناس في أمور الحجّ أشياء منكرة من الشرك وعبادة الأصنام، لهذا بعث الله محمّداً)صلى الله عليه وآله) للقضاء على الشرك، وللرجوع إلى توحيد الله كما دعا إليه إبراهيم (عليه السلام)، قال الله تعالى مخاطباً أمّة محمّد (صلى الله عليه وآله» :(هُوَ اجْتَباكُمْ وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ»(56) فالإسلام يعتبر الحجّ وسيلة لا غاية لتحقيق الفوائد الروحيّة والأدبيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وتنطق بذلك هذه الآية «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ».(57(

تأمّل قوله تعالى: «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ» وقد فسّر العلماء المنافع بأنّها دينيّة ودنيويّة معاً، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد، فإذا كان الدين يمدّ الروح بالإيمان الصحيح والآداب، فإنّ أمور الدنيا تمدّه بأسباب البقاء ودواعي الارتقاء. فلو أردنا أن نستقصي ما يمكن أن يُثمره الحجّ للمسلمين كافّة من وجوه المنافع الأدبيّة والماديّة لضاق بنا المجال، فإن لم يكن فيه إلّا تعارف الشعوب الإسلاميّة وإلمام بعضها بحاجات بعض لكفاها ذلك للوصول إلى مستوى رفيع بين شعوب العالم، ولكن ويا للأسف! لا تزال الأمم الإسلاميّة تجهل أو تهمل هذه النواحي العظيمة الجديرة بالالتفات والاهتمام .

فالحجّ مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة، بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر، ممّا يكونون قد هدوا إليه دون غيرهم، سواء كان ذلك في عالم العلم أو العمل.

شهادة الدكتور فيليب حتى في الحجّ في كتابه «تاريخ العرب «عند كلامه عن الحجّ عند المسلمين:

»ولا يزال الحجّ على كرّ العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عُرى التفاهم الإسلاميّ، والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين، وبفضله يتسنّى لكلّ مسلم أن يكون رحّالة مرّة في حياته على الأقلّ، وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً أخويّاً، ويوحّد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض، وبفضل هذا النظام يتيسّر للزنوج والبربر والصينيّين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أو فقراء، عظماء أو صعاليك، أن يتآلفوا لغة وإيماناً وعقيدة، وقد أدرك الإسلام نجاحاً لم يتّفق لدين آخر من أديان العالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقوميّة خاصّة بين أبنائه، فهو لا يعترف بفاصل بين أفراد البشر إلاّ الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين، ولا شكّ أنّ الاجتماع في مراسم الحجّ أدّى خدمة كبرى في هذا السبيل.«

]أسرار الحج:[

ولنختم الكلام بما ورد عن مولانا الصادق (عليه السلام) في أسرار الحجّ ودقائقه تبرّكاً بكلامه وتشريفاً للختام:

روي في مصباح الشريعة(58) عنه (عليه السلام) وعلى آبائه وأولاده الطاهرين أنّه قال: «إذا أردت الحجّ فجرّد قلبك لله تعالى من شغل كلّ شاغل وحجاب كلّ حاجب، وفوّض أمورك كلّها إلى خالقك، وتوكّل عليه في جميع ما تظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوّتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً، فإنّ من ادّعى رضا الله واعتمد على من سواه صيّره عليه وبالاً وعدوّاً ليعلم أنّه ليس له قوّة وحيلة ولا حدّ إلاّ بعصمة الله وتوفيقه، فاستعدّ استعداد مَن لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراعِ أوقات فرائض الله وسُنن نبيّه (صلى الله عليه وآله) وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرِم من كلّ شيء يمنعك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته، ولبِّ بمعنى إجابة صادقة صافية خالصة زاكية لله تعالى في دعوتك متمسّكاً بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت، وهرول هرولة من هواك، وتبرَّ من حولك وقوّتك، واخرُج من غفلتك وزلاّتك بخروجك إلى منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه، واعترف بالخطايا بعرفات، وجدّد عهدك عند الله تعالى بوحدانيّته، وتقرّب إليه واتّقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارمِ الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات، واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وادخُل في أمان الله وكنفه وستره وكلائته من

متابعة مرادك بدخولك الحرم، ودر حول البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه، واستلم الحجر رضاً بقسمته وخضوعاً لعزته، وودّع ما سواه بطواف الوداع، وصفِّ روحك وسرّك للقائه يوم تلقاه بوقوفك على الصفا والمروة، وكن بمرأى من الله، نقيّاً أوصافك عند المروة، واستقم على شرط حجّتك هذه ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربّك وأوجبته له إلى يوم القيامة، واعلم بأنّ الله تعالى لم يفرض الحجّ ولم يخصّه من جميع الطاعات بالاضافة إلى نفسه بقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» ولا شرّع نبيّه سنّته في خلال المناسك على ترتيب ما شرّعه إلاّ للاستعداد والاشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة وفضل بيان السبق من الدخول في الجنّة أهلها ودخول النار أهلها بمشاهدة مناسك الحجّ من أوّلها إلى آخرها لأُولي الألباب وأُولي النهى «انتهى كلامه (عليه السلام)»(59).

9- الوصيّة بالجهاد بالمال والنفس واللسان بقوله صلوات الله عليه:

»والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله.«

الأمّة الإسلاميّة مكلّفة بتحقيق العدالة في الأرض، وهذا التكليف يقتضي من المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان ويزيلوا أسبابه، لا ليملكوا الأرض ويستولوا على المرافق ويستذلّوا الأنفس؛ بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كلّ غرض، وهذا ما يُطلق عليه في الإسلام (الجهاد في سبيل الله (و(القتال في سبيل الله .(

وسبيل الله هو سبيل الحقّ، فكلّ قتال لأجل الدين والدفاع عنه فهو في سبيل الله، وكلّ قتال لدفع الظلم ومعاونة المظلومين ضدّ الظالمين ونصرة الحقّ فهو من القتال في سبيل الله، وكلّ طريق للوصول إلى الحقّ أو حمايته أو الدفاع عنه فهو من سُبل الله سبحانه وتعالى .

والقرآن يدعو في كثير من الآيات للقتال في سبيل الله خالصاً من أيّ غرض دنيويّ. أنظر إلى هذه الآيات التي نزلت على الرسول وهو في المدينة المنوّرة والتي تبين أهداف القتال :

»فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً».(60(

ففي هاتين الآيتين لفت لطيف إلى أنّ الحرب في الإسلام ليست للتحكّم في الرقاب ولإذلال العباد، بل هي في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين الساكنين في مكّة الذين استذلّهم أهل مكّة الكفّار، وآذوهم أشد الإيذاء ليمنعوهم من الهجرة، وليفتنوهم عن دينهم، هؤلاء المستضعفون الذين فقدوا النصير واستغاثوا بالله، فعليكم أيّها المؤمنون أن

تنصروهم وترفعوا عنهم الظلم.

ثمّ قال تعالى بعد ذلك عقب الآيتين اللتين ذكرناهما» :الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً»(61) والطغيان حسب ما نصّت عليه معاجم اللغة هو مجاوزة الحدّ، وكلّ شيء جاوز المقدار والحدّ في العصيان فهو طاغ، يقال: طغى السيل :ارتفع حتّى جاوز الحدّ في الكثرة، وكذلك إذا تجاوز الإنسان الحدّ وعلا في الأرض يُفسد فيها ويستعبد الناس ويسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها، فذلك هو »القتال في سبيل الطاغوت» الذي ندّد به الله وجعله شعار الكفار.

أمّا القتال في سبيل الله فهو الذي غايته أن يرفرف القانون الإلهيّ العادل على العالمين، دون أن يكون هناك غاية شخصيّة أو علوّ في الأرض كما أمر به تعالى «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».(62(

وقد ورد في الحديث أنّه قال أعرابيّ للنّبي (صلى الله عليه وآله): الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذّكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال (صلى الله عليه وآله): «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».(63(

فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله في الأرض، أي لتحقيق النظام الصالح الذي يُسعد البشريّة، والأمّة الإسلاميّة مُنتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافّة، بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، قال الله تعالى مخاطباً أمّة محمّد (صلى الله عليه وآله» :(وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».(64(

أي لتكونوا شهداء على الناس في تقصيرهم وغلوّهم، فتقوموا بإصلاح عوجهم.

وليس في هذا الأمر إظهار فضل أمّة على أمّة أخرى أوجرح كبرياء أمّة من الأمم، لأنّ الله الذي وضع هذا الانتداب لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ولا وقفاً على جنس من الأجناس، ولكنّه جعله للجماعة التي تدين بأصوله مهما كان لون هذه الجماعة أو جنسيّتها، ولهذا كانت دعوة الإسلام في سبيل الاصلاح عامّة لكافّة الجنس البشريّ لا تختصّ بأمّة دون أمّة، ولا بطائفة دون طائفة، ونصوص القرآن واضحة في أنّ الإسلام دين عامّ للناس كافّة، قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمّداً» :قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».(65) وقال سبحانه» :وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».(66(

الاستعداد للحرب:

ومن مزايا الشريعة الإسلاميّة أنّها شريعة عمليّة تواجه الحقائق البشريّة بالحلّ العمليّ، فما دامت الموعظة الحسنة لا تردّ الظلم والاعتداء، وما دام أعداء الإسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحريّة العقيدة، فإنّ الحرب واقعة بين الناس؛ ولهذا أمر الإسلام بالاستعداد لها، وأخذ الأهبة للحرب، قال الله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ».(67)

أمر الله المسلمين في هذه الآية بأن يستعدّوا لأعدائهم بكلّ ما يستطيعون من قوّة، وهو أمر لا يختصّ بزمان ولا بفريق من الناس، ولفظ القوّة عامّ في كلّ ما يُتقوّى به على حرب العدوّ، وكلّ ما هو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البر والبحر والهواء على اختلاف أنواعها وأشكالها بحسب الأزمنة والأمكنة المختلفة، ومصانع الذخيرة وكلّ ما يفيد في صلاحيّة الأمّة للحرب، كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب، وغير ذلك مما يجعل الأمّة قويّة مرهوبة الجانب.

ومعنى قوله تعالى: «وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ» يعني حبسها واقتناءها، وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل لأنّ الخيل كانت مركب الحرب في زمن الرسول، فإذا تغيّر الزمان وصار مركب الحرب سفناً حربيّة وطائرات وسيّارات مصفّحة، وجب على المسلمين أن يعدّوا ذلك، لأنّ الأمر بإعداد رباط الخيل ليس لذات الخيل، بل لأنّها مركب الحرب، فإذا صار مركب الحرب شيئاً غيرها أقوى منها انتقل الأمر إليه.

والقصد من إعداد هذه القوى إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدّي على بلاد الأمّة الإسلاميّة ومصالحها، ولأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، وهذا ما يسمّى في عُرف هذا العصر بالسلم المسلّح، وقد أوجبه الإسلام قبل أن يعرفه أهل أوروبا بزمن طويل، وهذا معنى قوله تعالى: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ.»

وصايا عامّة أثناء الحرب:

وعند اندلاع الحرب تتجلّى لنا ناحية رائعة في تعاليم الإسلام التي يفرضها على أتباعه، والتي هي عماد النصر للشعوب الآخذة به، قال الله تعالى» :يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ».(68)

اشتملت هاتان الآيتان على خمس وصايا، وهي:

أولاً: الثبات عند لقاء العدو وعدم الفرار من المعركة؛ والنظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجنديّ الفارّ من القتال حال فراره، وذلك خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره، فتحدث البلبلة والجزع في صفوف المقاتلين، فيكون داعياً لهم على الهزيمة.

ثانياً: ذكر الله في حالة الحرب؛ فذكر الله في حالة الحرب له تأثير فعّال في النصر، لأنّ الإيمان يمدّ المحارب بقوّة معنويّة هائلة تسند القوّة الماديّة فتدعمها ويكون لها الحكم الفصل في المعركة.

ثالثاً: الطاعة؛ طاعة الله أولاً، وذلك ما أمرهم به من الوصايا التي تنهض بحالهم، وعدم معصيته. وإطاعة الرسول فيما يأمر به من شؤون القتال، فقد كان الرسول هو قائدهم في أغلب المعارك التي خاضوها ضدّ الكفار.

رابعاً: عدم التنازع، فالنـزاع في حال القتال مدعاة للفشل وتغلّب الأعداء عليهم.

خامساً: الصبر على ما يكرهون من شدّة، وما يلاقون من بأس العدو وكثرة عدده، فإنّ الله مع الصابرين بالمعرفة والتأييد، والصبر في الحرب من أعظم الوسائل لنيل النصر.

10- التواصل وحفظ الرابطة مع الإخوان المسلمين في شتّى البلاد الإسلاميّة، وبذل العون بالمال والحال بعضهم مع بعض في قوله صلوات الله عليه: «وعليكم بالتواصل والتباذل.«

التواصل والتزاور من ثمرات النصيحة والمحبّة، وثوابه أكثر من أن يُحصى، فعن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «حدّثني جبرئيل (عليه السلام) أنّ الله (عز وجل) أهبط إلى الأرض ملكاً، فأقبل ذلك الملك يمشي حتّى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك إلى ربّ هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زُرته في الله تبارك وتعالى، فقال له الملك: ما جاء بك إلاّ ذاك؟ فقال: ما جاء بي إلاّ ذاك، قال: فإنّي رسول الله إليك، وهو يقرئك السلام ويقول: وجبت لك الجنة. وقال الملك: إنّ الله (عز وجل (يقول: يقول: أيّما مسلم زار مسلماً فليس إيّاه زار؛ بل إيّاي زار، وثوابه علّي الجنة».(69(

وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: «لقاء الاخوان مغنم جسيم وإن قلّوا».(70(

وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): إنّ لله (عز وجل) جنّة لا يدخلها إلاّ ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحقّ، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله».(71(

وقال(عليه السلام): «أيّما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقّه كتب الله له بكلّ خطوة حسنة، ومُحيت عنه سيئة، ورُفعت له درجة؛ (72) والأخبار الواردة بهذا المضامين كثيرة.

11- ترك التدابر والهجر والقطيعة، فإنه يوجب المقت والعداوة وسوء الظنّ والتخاذل، في قوله صلوات الله عليه:

«وإيّاكم والتدابر والتقاطع.«

ذلك أن التدابر والتقاطع من رذائل الأعمال وذمائم الأفعال، ومن نتائجهما العداوة والحقد، أو الحسد أو البُخل.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «أيّما مسلمَين تهاجرا، فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلاّ كانا خارجين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية، فأيّهما سبق الكلام لأخيه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب».(73(

وقال (صلى الله عليه وآله): «لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث».(74(

وقال الصادق (عليه السلام): «لا يفترق رجلان على الهجران إلاّ استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحقّ ذلك كلاهما» فقال له معتب: جعلني الله فداك هذا للظالم، فما بال المظلوم؟ قال: «لأنّه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعامس(75) له عن كلامه، سمعت أبي (عليه السلام) يقول: إذا تنازع اثنان فعاد أحدهما الآخر فليرجع المظلوم إلى صاحبه، حتّى يقول لصاحبه «أي أخي أنا الظالم» حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فإنّ الله تبارك وتعالى حكمٌ عدل يأخذ للمظلوم من الظالم».(76(

وقال (عليه السلام): «لا يزال إبليس فرحاً ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكّت ركبتاه وتخلّعت أوصاله ونادى: يا ويله ما لقي من الثبور».(77 (

وقال الإمام الباقر (عليه السلام): «إنّ الشيطان يُغري بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدّد ثمّ قال: فزت، فرحم الله امرءاً ألّف بين وليّين لنا، يا معشر المؤمنين تآلفوا وتعاطفوا».(78)

والأخبار الواردة في ذم الهجران والتباعد كثيرة.

12- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

في قوله صلوات الله عليه: «لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم أشراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.«

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهمّ الذي ابتعث الله له النبيّين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطّلت النبوّة واضمحلّت الديانة، وعمّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتّسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التناد.

والأدلّة على لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة في الشريعة الإسلاميّة، حتّى لقد عُدّت بحقّ شريعة الأمر بالتواصي بالحقّ والتناهي عن المنكر، فقد قال الله تعالى:

»وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ».(79(

وقال تعالى في سورة آل عمران: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أمَّة يَدْعُونَ إلى الْخَيْرِ وَيَأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»(80) وقال تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ».(81)

وقد روي أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «ما أعمال البرّ عند الجهاد في سبيل الله إلاّ كنفثة في بحرٍ لجيٍّ، وما جميع أعمال البرّ والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلاّ كنفثةٍ في بحرٍ لجيٍّ».(82)

وقال (صلى الله عليه وآله): «إنّ أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر».(83)

والأخبار متضافرة بما كان عليه سلف هذه الأمة من القيام بذلك الحقّ، لا يهابون في ذلك سلطان ذي سلطان، ولا تأخذهم رأفة في دين الله ولا هوادة في إقامة حقّه والأخذ بناصر دينه. وكلّ شيء هيّن في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّ عذاب سهل مقبول إذا كان من كلمة حقّ قالوها، لا يمنعهم من أن يصدموا بها أقوى الحكّام عتوّاً وأشدّهم قسوة، وأبعدهم في الأذى منالاً .

وما أخبار وعّاظ التابعين مع الحجّاج وأشباهه من حكّام بين أميّة ببعيدة عن الأذهان: كانوا لا يتّخذون فيما يفعلون تقيّة، ولا يرضون في دينهم بالدنيّة:

]الحسن البصري يمدح علياً)عليه السلام:[(

يروى أنّ الحجّاج جمع بعض علماء العراق وفيهم الحسن البصريّ والشعبيّ، وأخذ يحادثهم، فذكر علي بن أبي طالب صلوات الله عليه فنال منه وجاراه من معه تقريباً له، وأمناً من شرّه، إلاّ الحسن البصري فصمت على مضض وعضّ على إبهامه إذ غلى مرجل غضبه، فالتفت إليه الحجّاج وقال: يا أبا سعيد ما لي أراك ساكتاً؟ قال :ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني عن رأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله جلّ ذِكره يقول» :وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إلاّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ وَإنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إلاّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إيمانَكُمْ إنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ»(84) فعليٌّ ممن هدى الله من أهل الإيمان، فأقول: ابن عم النبي (صلى الله عليه وآله) وختنه على ابنته، وأحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كانت لعليّ هنات فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا.

فبسر وجه الحجاج وتغيّر وقام عن السرير مغضباً فدخل بيتاً خلفه وخرج الجمع، فقال عامر الشعبيّ: أغضبتَ الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك عنّي يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتى شيطاناً من شياطين الإنس

فكلّمه بهواه وقاربه في رأيه، ويحك يا عامر! هل اتّقيت إن سُئلت فصدقت أو سكتّ فسلمت!! قال الشعبيّ: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها، قال الحسن: فذاك أعظم في الحجّة عليك وأشدّ في التبعة.

وبعث الحجّاج إلى الحسن، فلما دخل عليه قال: أنت الذي تقول :قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم. قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال: ما أخذه الله على العلماء من المواثيق ليُبيّنّه للناس ولا يكتمونه. قال: يا حسن أمسك عليك لسانك، وإيّاك أن يبلغني عنك ما أكره فأفرّق بين رأسك وجسدك.(85)

هكذا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك الفريضة التي لو أخذنا بها كما أخذ ذلك السلف الصالح لارتبط حاضر الأمة بماضيها، ولاتّصلت نفوس الحاضرين بنفوس السابقين بتلك الأمراس النورانية.

ومن خطبة له (عليه السلام): [يوصي فيها بتقوى الله والتذكير بالموت]

»فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ بِهَا يَنْجَحُ الطَّالِبُ وَيَنْجُو الْهَارِبُ وَتُنَالُ الرَّغَائِبُ فَاعْمَلُوا وَالْعَمَلُ يُرْفَعُ وَالتَّوْبَةُ تَنْفَعُ وَالدُّعَاءُ يُسْمَعُ وَالْحَالُ هَادِئَةٌ وَالْأَقْلَامُ جَارِيَةٌ وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ عُمُراً نَاكِساً أَوْ مَرَضاً حَابِساً أَوْ مَوْتاً خَالِساً فَإِنَّ الْمَوْتَ هَادِمُ لَذَّاتِكُمْ وَمُكَدِّرُ شَهَوَاتِكُمْ وَمُبَاعِدُ طِيَّاتِكُمْ زَائِرٌ غَيْرُ مَحْبُوبٍ وَقِرْنٌ غَيْرُ مَغْلُوبٍ وَوَاتِرٌ غَيْرُ مَطْلُوبٍ قَدْ أَعْلَقَتْكُمْ حَبَائِلُهُ وَتَكَنَّفَتْكُمْ غَوَائِلُهُ وَأَقْصَدَتْكُمْ مَعَابِلُهُ وَعَظُمَتْ فِيكُمْ سَطْوَتُهُ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكُمْ عَدْوَتُهُ ٙ قَلَّتْ عَنْكُمْ نَبْوَتُهُ فَيُوشِكُ أَنْ تَغْشَاكُمْ دَوَاجِي ظُلَلِهِ وَاحْتِدَامُ عِلَلِهِ وَحَنَادِسُ غَمَرَاتِهِ وَغَوَاشِي سَكَرَاتِهِ وَأَلِيمُ إِرْهَاقِهِ وَدُجُوُّ أَطْبَاقِهِ وَجُشُوبَةُ مَذَاقِهِ.«

)شرح ابن أبي الحديد مج 3، ص 181، ط الأولى.(

* * *

الشرح:

هذه الخطبة الشريفة من محاسن خطبه صلوات الله عليه وفيها من نكات البلاغة وفنون البديع ما لا يخفى على المصقع البارع.

حثّ فيها على التقوى، ومن البديهي أنّ المثل الأعلى للحياة الانسانيّة في الإسلام وعند الإمام هو التقوى، فقلّ أن ترد سورة في القرآن لم يرد فيها الأمر بالتقوى ـ تقوى الله ـ وقلّ أن ترد خطبة أو كلمة في نهج البلاغة لم يرد فيها الأمر بالتقوى، تقوى الله. فالقرآن أمرنا بالتقوى وفصّلها، ومدح المتّقين، والإمام أمر بالتقوى ووصفها ومدح المتّقين:

ولم يهتّم (عليه السلام) بشيء من الفضائل كاهتمامه بالتقوى، لأنّ تقوى الله تعالى أصل الانسانيّة الكاملة والسعادة

الأبديّة، وبها يتمّ نظام الدنيا والآخرة.

في أصل الأصول ومحور الأخلاق الفاضلة.

]التقوى أصل جميع الفضائل:[

وتعتبر التقوى هي الوسط في جميع الفضائل، وهي المدينة الفاضلة التي وعد بهما الأنبياء والمرسلون .

ولها درجات لا تتناهى، وفي بعض الدرجات يصل العبد إلى مرتبة تجلّي الحقّ تعالى في مشاعر العبد وقواه، وذلك التجلّي يبقى ويدوم ولا يفنى وإن تبدّلت العوالم وتغيرّت .

وقال صلوات الله عليه:

»عِبَادَ اللَّهِ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا حَقُّ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَالْمُوجِبَةُ عَلَى اللَّهِ حَقَّكُمْ وَأَنْ تَسْتَعِينُوا عَلَيْهَا بِاللَّهِ وَتَسْتَعِينُوا بِهَا عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ التَّقْوَى فِي الْيَوْمِ الْحِرْزُ وَالْجُنَّةُ وَفِي غَدٍ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ مَسْلَكُهَا وَاضِحٌ وَسَالِكُهَا رَابِحٌ وَمُسْتَوْدَعُهَا حَافِظٌ لَمْ تَبْرَحْ عَارِضَةً نَفْسَهَا عَلَى الْأُمَمِ الْمَاضِينَ مِنْكُمْ وَالْغَابِرِينَ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا غَداً إِذَا أَعَادَ اللَّهُ مَا أَبْدَى وَأَخَذَ مَا أَعْطَى وَسَأَلَ عَمَّا أَسْدَى فَمَا أَقَلَّ مَنْ قَبِلَهَا وَحَمَلَهَا حَقَّ حَمْلِهَا أُولَئِكَ الْأَقَلُّونَ عَدَداً وَهُمْ أَهْلُ صِفَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ يَقُولُ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ فَأَهْطِعُوا بِأَسْمَاعِكُمْ إِلَيْهَا وَأَلِظُّوا بِجِدِّكُمْ عَلَيْهَا وَاعْتَاضُوهَا مِنْ كُلِّ سَلَفٍ خَلَفاً«.(86)

وقال صلوات الله عليه:

»أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ وَصَلَاحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ وَطُهُورُ دَنَسِ أَنْفُسِكُمْ وَجِلَاءُ عَشَا أَبْصَارِكُمْ وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ فَاجْعَلُوا طَاعَةَ اللَّهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ وَدَخِيلًا دُونَ شِعَارِكُمْ وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلَاعِكُمْ وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ وَمَنْهَلًا لِحِينِ وُرُودِكُمْ وَشَفِيعاً لِدَرَكِ طَلِبَتِكُمْ وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا. وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا«.(87)

ولكن ما هي التقوى:

إنّ الإمام صلوات الله عليه لم يتعرّض لوصف التقوى من داخل إذا صحّ التعبير، بل اكتفى ـ على كثرة ما قاله فيها ـ بوصفها من خارج: ميزاتها وفضلها وثمرتها، وأصحابها، أمّا هي بذاتها: مقوّماتها، طبيعتها، فأمر لم يتعرّض له الإمام صلوات الله عليه، وإنّما تعرض له القرآن. ولعلّ الإمام ترك الكلام في هذه الجهة اعتماداً على ما جاء في القرآن، واعتماداً على أنّ المسلمين إذ ذاك كانوا ـ ولا شكّ ـ يعون ما هي التقوى، فاكتفى بتشويقهم إلى الأخذ بها والاعتصام بحبلها، أو أنّ الإمام قد تكلّم في هذا الموضوع وأعطاه حقّه من البيان، ولكنّ الشريف الرضي)رحمه الله) لم يقع على شيء منه، أو وقع عليه ولم يكن بين ما اختاره. وعلى أيّ حال ففيما قدّمه لنا القرآن غنى وكفاية.

]آيات في التقوى:[

قال الله تعالى: «ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».(88)

وقال تعالى:«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ».(89)

وقال تعالى: «وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».(90)

وقال تعالى: «وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى».(91)

ورُوي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «جِماع التقوى في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».(92) (93)

وقال (صلى الله عليه وآله): «من اتّقى الله عاش قويّاً، وصار في بلاد عدوّه آمناً».(94)

وقال (صلى الله عليه وآله): «خصلة من لزمها أطاعته الدنيا والآخرة، وربح الفوز بالجنة، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التقوى، من أراد أن يكون أعزّ الناس فليتّقِ الله (عز وجل)، ثمّ تلا «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»(95) الآية.(96)

من هذه النصوص الإلهيّة، وغيرها أكثر منها، تعرف طبيعة التقوى أنّها الفضيلة في أرفع معانيها وأجلّ صورها، أنّها الايمان بالله في أظهر حالاته وأسمى معانيه، وبذل المال لمن أعوزه المال، ولكن كيف؟ بذل المال على حبّه ...حبّ الله تعالى، فلا امتنان على المعطي ولا إفضال. ومتى؟ إنّها بذله في السرّاء والضرّاء، وهي الصبر في جميع المواطن وفي جميع الأحوال، وهي كظم الغيظ، وهي العفو عن الناس، وهي العدل فيهم والاحسان إليهم، وهي... وهي...

هذه هي التقوى، فإذا حقّقت التقوى في نفسك وعيت وجودَ الله وأمره ونهيه في كلّ ما تلمّ به من فعل أو قول، وتحرّيت الفضيلة أنّى كانت، فأخذت بها وأخضعت نفسك لها، وجعلت من نفسك وجميع إمكاناتك خليّة إنسانيّة حيّة تعمل بحرارة وإخلاص على رفع مستوى الكيان الإجتماعيّ الذي تضطرب فيه، وصدرتَ في ذلك كلّه عن إرادة الله المتجلّية فيما شرع من أحكام، وتكون قد حقّقت في نفسك المثل الأعلى الذي نصبه الإسلام.

]التفاضل بالتقوى لا بكثرة المال:[

فالمال لا يُكسب قيمة إلاّ إذا بُذل حيث أجاز الله أن يُبذل، وإلاّ إذا اتُّخذ وسيلةً إلى رضوان الله.

أمّا أولئك الذين لا يبذلون أموالهم فلا جدوى منهم للجماعة، ولذلك فلا مزيّة لهم على غيرهم من الناس الذين لا مال لهم. والسلامة لا قيمة لها حين لا يكون صاحبها متّقياً لله. والقوّة لا قيمة لها حين لا يستخدمها صاحبها في مرضاة الله، والسلطان لا يكسب صاحبه قيمة إلاّ إذا كان ذا تقوى.

هناك أغنياء وفقراء، وحاكمون ومحكومون، وأقوياء وضعفاء، وأناس تحدّروا من سلالات لها ماضٍ عريق، وآخرون ليس لهم ماضٍ مذكور، ولكن كلّ هذا لا يرفع من صاحبه ولا يضع إلاّ إذا اقترن بالتقوى أو عري عنها. وتعاليم الإسلام صريحة في ذلك لا لبس فيها ولا غموض، فهي تنصّ على أنّ القطب الذي يدور عليه التفاضل ليس شيئاً غير التقوى.

قال الله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ».(97)

وقال النبي (صلى الله عليه وآله): «لا فضل لعربيّ على عجميّ إلاّ بالتقوى».(98)

وقال الإمام علي صلوات الله عليه: «لا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا».(99)

وإذن فالقيم الاجتماعيّة تتفرّع عن هذا الأصل، وتنبثق من هذا الينبوع.

وهكذا تكون الرغبة في الخير ورضوان الله، ومساعدة الضعفاء وتكريس المواهب في سبيل الجماعة تقرّباً إلى الله هي رائد كلّ إنسان وعى مبادئ الإسلام.

وهكذا تكون الطبقات مظهر حبٍّ ورحمة وتآزر وإيثار وتعاون على البرّ والتقوى، بدل أن تعبّر عن تفسّخ وانحلال.

هذا هو المثل الأعلى للحياة في الإسلام وعند الإمام.

مراتب التقوى ثلاث:

الأولى: التوقّي عن العذاب المخلّد بالتبرّئ عن الشرك، وعليه قوله تعالى: «وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى».(100)

الثانية: التجنّب عن المآثم كلّها كبيرها وصغيرها، وهو المتعارف في الشرع، وعليه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا».(101)

الثالثة: هي التنـزّه عمّا يُشغل عن الحقّ تعالى بالكليّة، وهي التقوى الحقيقيّة المطلوبة بقوله تعالى: «اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ».(102)

وكانت الدعوة إلى التقوى من أهمّ ما دعا إليه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بعد الدعوة إلى الإيمان والإسلام، وقضى كلّ أيّامه وهو ينصح المؤمنين بالتزامها والتزوّد منها؛ لأنّها أساس التعبّد وأصل الطاعة، وبها تؤتى الأعمال على أتمّ الوجوه، حيث يقول الله تعالى: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوى وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبابِ».(103)

وأخبر جلّ وعلا بأنّ جميع الأعمال التعبديّة لم تشرع إلاّ لتكون وسائل إلى التقوى بما تطبعه في النفس من ملكة مراقبة الله، فتكون تقيّة نقيّة راضية مرضيّة.

ولقد حسبها بعض الناس درجة من الصلاح لا تُنال إلاّ بالتفرّغ للصلوات وملازمة المساجد والانقطاع عن الدنيا والزهد في كلّ ما فيها من الملذّات، ممّا يكون دليله في الظاهر الفقر والمسكنة ولبس مرقوع الثياب. وهذا خطأ لا يقرّه الإسلام. فالتقوى في اللغة مشتقّة من اتّقى فلاناً أي حذره وخافه؛ فتقوى الله مخافته وتجنّب كلّ ما يُغضبه.

وهي أثر الايمان الكامل بالله، وهي النتيجة الطبيعيّة التي يصل إليها كلّ من يؤمن بأنّ الله الذي خلقه وأبدع كلّ دقيق في جسمه قادر على تعذيبه عاجلاً وآجلاً إذا هو أقدم على معصيته واستهان بأوامره، كما يوقن بعلمه تعالى بكلّ شيء يصدر منه، بحيث يتصوّره مشرفاً عليه حتّى في خلواته، ورقيباً على جميع حركاته وسكناته، فيحمله هذا على محاسبة نفسه عن كلّ فعل، فلا يقدم على أيّ أمر فيه معصية خالقه أو الاضرار بمصالح عباده، وفي هذا يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ»(104) وذكر العصاة بعلمه بكل ما يصدر منهم، وتوعّدهم بعذابه، حيث قال: «أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللّهَ يَرى كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنّاصِيَةِ».(105)

وأمرنا أن نتخيّر في أعمالنا ما ينفعنا في الحياة الأخرى، حيث قال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ».(106)

وأخبرنا بأنّه قد أعدّ الجنة في الآخرة للمتّقين، ووصفهم لنا بأعمالهم المنبعثة عن قوّة إيمانهم بقلوبهم، إشارة إلى أنّ التقوى هي في الأمور التي يشعر بها الإنسان في نفسه، فيدرك مبلغ قُربه من ربّه ورضائه عنه، ولو لم تدل على ذلك مظاهره، حيث يقول تعالى: «وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ».(107)

كيف تحقق التقوى:

وهذا صريح في أنّ التقوى ليست بكثرة الصلاة والصوم وأمثالهما من العبادات الظاهرة، وليست هي بالتقشّف والدروشة، وإنّما تتحقّق بخمس خصال هي:

1- حبّ البذل والانفاق في سبيل الله في حالتي الشدة والرخاء.

2- ضبط النفس ومقاومة هواها فيما يُغضب مولاها.

3- الأخذ بمبدأ التسامح والعفو عند المقدرة.

4- الإحسان إلى المسيء.

5- مراقبة الله ودوام الخوف منه، والرجوع إليه من أثر المعاصي بالندم والإستغفار، وعدم الإصرار على فعل السيّئآت.

فالتقوى ـ بهذا الاعتبار ـ من الأمور التي لا تمنع المسلم في هذه الحياة من العمل للدنيا، ولا تحرمه من التمتّع بملذّاتها المشروعة، بل إنّما تدعوه فقط إلى مراقبة الله والخوف منه والثقة به والرجوع إليه بطلب الرحمة والغفران في كلّ وقت، لا سيّما عند كلّ زلّة ومعصية، ومن أجل هذا حرص الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) على أن يمكّن في قلوب أتباعه خوف الله واليقين بقدرته على كلّ شيء إلى حدّ ينتفي معه الخوف من غيره، وحصر الأمل فيه جلّ وعلا دون سواه، باعتباره هو وحده صاحب السلطان المطلق القادر على وقاية كلّ من يريد وقايته في كلّ مكروه، ونُصرة من يريد نصرته بما يملك من قوى خفيّة وظاهرة، حيث يقول تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».(108) وحقّ التقوى هو خوف الله أكثر من كلّ ما سواه، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: «أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».(109) وحقّ التقوى هو أن

يُؤثر الإنسان عفو الله وغفرانه وثوابه في الآخرة عن كلّ شيء في الدنيا؛ بل يتحمّل في سبيل ذلك مُرّ العذاب، ولذلك امتدح الله في كتابه أولئك السحرة الذين آمنوا بالله إيماناً لم يُبالوا معه بالجهر بعقيدتهم برغم ما توعّدهم به فرعون من ألوان العذاب، حيث قالوا: «آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَمُوسى قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأَُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأَُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقى قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى».(110(

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما يترتّب على التقوى وخوف الله من مجانبة النفس للشهوات الممقوتة، وما يكون جزاؤها على ذلك في الآخرة بقوله» :وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى».(111)
«وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ».(112(

ولم يكتفِ الله بهذا في حضّ الناس على التقوى، بل إنّه تعالى أكّد لهم تخليص المتّقين في الدنيا من كلّ ما يعترضهم من مشاكل الحياة، وتيسير سبيل الرزق لهم من حيث لا يأملون، حيث يقول: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً».(113(

ذلك لأنّ التقوى معناه دوام ذكر الله تعالى ومراقبته في جميع الأحوال وحصر الأمل فيه، وهذا من شأنه أن يمنع الإنسان عن الاقدام على كلّ أمر يعصي الله به ويضرّ أحداً من خلقه، ويجعله كريم الخلق والعادات، وكلّ هذا ممّا يسبب عون الله للانسان وتأييده في كلّ موقف، وشموله برحمته وحسن رعايته، وخوف الله يقتضي تجريد قلب الإنسان من خوف غيره، ويعود هذا عليه بأعظم الفوائد في هذه الحياة.

قرأت في كتاب الرعاية لحقوق الله:

قد روي في الحديث: إنّ المنادي ينادي يوم القيامة: «يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»(114) فترفع الخلائق رؤوسهم يقولون: نحن عباد الله (عز وجل)، ثم ينادي الثانية: «الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ»(115) فينكّس الكفار رؤوسهم ويبقى الموحّدون رافعي رؤوسهم، ثم ينادي الثالثة: «الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ»(116) فينكّس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم، لأنه أكرم الأكرمين لا يخذل وليّه ولا يُسلمه عند الهلكة.(117(

* * *

(1)نهج البلاغة 3: 37، رقم 31.

(2)النساء: 65.

(3)الأنعام: 22 و23.

(4)الأنبياء: 22.

(5)تفسير البيضاوي 4: 88.

(6)مجمع البيان للطبرسي 7: 80.

(7)الأنفال: 42.

(8)البحار للمجلسي 67: 71/ ح21، نقلاً عن جامع الأخبار: 118.

(9)الحجرات: 10.

(10)سنن الترمذي 3: 218/ ح1992، سنن ابن ماجة 1: 685/ ح22119.

(11)الكافي للكليني 1: 402/ ح1 و2.

(12)آل عمران: 102.

(13)البقرة: 177.

(14)المائدة: 8.

(15)البقرة: 237.

(16)التوبة: 7.

(17)يونس: 62 - 64.

(18)آل عمران: 15.

(19)الأعراف: 156.

(20)الطلاق: 2 و3.

(21)الطلاق: 4.

(22)الأعراف: 128.

(23)الأنفال: 29.

(24)البقرة: 197.

(25)الحجرات: 10.

(26)الحجرات: 9.

(27)النساء: 35.

(28)النساء: 114.

(29)نهج البلاغة 2: 76، الرقم 47، أمالي الطوسي: 522/ ح1153.

(30)الإنسان: 8.

(31)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 7.17 :

(32)مناقب ابن شهر آشوب 2: 159.

(33)روضة الواعظين للفتال النيسابوري: 389.

(34)الكافي للكليني 2: 668/ ح1.

(35)مشكاة الأنوار للطبرسي: 375.

(36)الكافي للكليني 2: 666/ ح2.

(37)المصدر السابق: ح7.

(38)المصدر السابق: ح11.

(39)المصدر السابق: ح14.

(40)المصدر السابق: ح4.

(41)المصدر السابق: ح5.

(42)كنز العمال 9: 57/ ح24930، الدر المنثور للسيوطي 5: 248.

(43)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 8.17 :

(44)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 8.17 :

(45)جامع السعادات للنراقي 3: 287.

(46)المصدر السابق.

(47)المصدر السابق.

(48)الصافات: 164.

(49)المؤمنون: 1 و2.

(50)المؤمنون: 9 - 11.

(51)المؤمنون: 9 - 11.

(52)الأنفال: 35.

(53)البقرة: 127.

(54)البقرة: 127.

(55)آل عمران: 96 و97.

(56)الحج: 78.

(57)الحج: 27 و28.

(58)مصباح الشريعة: 142، باب 21.

(59)مصباح الشريعة: 47 - 50؛ بحار الأنوار 124 :96و125.

(60)النساء: 74 و75.

(61)النساء: 76.

(62)القصص: 83.

(63)الجامع الصغير للسيوطي 2: 627/ الرقم 8891.

(64)البقرة: 143.

(65)الأعراف: 158.

(66)سبأ: 28.

(67)الأنفال: 60.

(68)الأنفال: 45 و46.

(69)الكافي 2: 176/ ح3.

(70)الكافي 2: 179/ ح16.

(71)الكافى 2: 178/ ح11.

(72)الكافي 2: 184/ ح184.

(73)الكافي 2: 345/ ح5.

(74)من لا يحضره الفقيه 4: 380/ ح5809.

(75)تعامس: تغافل.

(76)الكافي 2: 344/ ح1.

(77)الكافي 2: 346/ ح7.

(78)الكافي 2: 345/ ح6:.

(79)العصر: 1 - 3.

(80)آل عمران: 104.

(81)آل عمران: 110.

(82)وردت الفقرة الثانية من الحديث في بحار الأنوار 97: 89 منسوبة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام.(

(83)الخصال للصدوق: 6/ ح16.

(84)البقرة: 143.

(85)إحياء علوم الدين 2: 346؛ نقلاً عن نفحات الأزهار 14: 276.

(86)شرح نهج البلاغة 13: 115.

(87)شرح نهج البلاغة 10: 188 و189.

(88)البقرة: 2 - 5.

(89)البقرة: 177.

(90)آل عمران: 133 و134.

(91)المائدة: 8.

(92)النحل: 90.

(93)روضة الواعظين: 437.

(94)بحار الأنوار 67: 283.

(95)الطلاق: 2.

(96)بحار الأنوار 67: 283.

(97)الحجرات: 13.

(98)مسند أحمد 5: 411؛ تفسير القرطبي 342.16 :

(99)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 116.13 :

(100)الفتح: 26.

(101)الأعراف: 96.

(102)آل عمران: 102.

(103)البقرة: 197.

(104)الأعراف: 201.

(105)العلق: 13 - 15.

(106)الحشر: 18.

(107)آل عمران: 133 - 136.

(108)آل عمران: 102.

(109)التوبة: 13.

(110)طه: 70 - 73.

(111)النازعات: 40 و41.

(112)ق: 31 - 33.

(113)الطلاق: 2 و3.

(114)الزخرف: 68.

(115)الزخرف: 69.

(116)يونس: 63.

(117)تفسير القرطبي 16: 110.

ومن خطبة له (عليه السلام] :(وفيها يسبح الله ويذكر نعيم الجنة[

»سُبْحَانَكَ خَالِقاً وَمَعْبُوداً بِحُسْنِ بَلائِكَ عِنْدَ خَلْقِكَ خَلَقْتَ دَاراً وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً مَشْرَباً وَمَطْعَماً وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً وَقُصُوراً وَأَنْهَاراً وَزُرُوعاً وَثِمَاراً ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا فَلا الدَّاعِيَ أَجَابُوا وَلا فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا وَلا إِلَى مَا شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى بَصَرَهُ وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ وَأَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِمَنْ فِي يَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا حَيْثُمَا زَالَتْ زَالَ إِلَيْهَا وَحَيْثُمَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَ عَلَيْهَا لا يَنْزَجِرُ مِنَ اللَّهِ بِزَاجِرٍ وَلا يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ حَيْثُ لا إِقَالَةَ وَلا رَجْعَةَ كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ فِيهِمْ وُلُوجاً فَحِيلَ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ مَنْطِقِهِ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ وَيَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ وَبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ وَفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالًا جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا وَأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا وَمُشْتَبِهَاتِهَا قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا وَأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا فَيَكُونُ الْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ وَالْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ وَالْمَرْءُ قَدْ غَلِقَتْ رُهُونُهُ بِهَا فَهُوَ يَعَضُّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا أَصْحَرَ لَهُ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ أَمْرِهِ وَيَزْهَدُ فِيمَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ أَيَّامَ عُمُرِهِ وَيَتَمَنَّى أَنَّ الَّذِي كَانَ يَغْبِطُهُ بِهَا وَيَحْسُدُهُ عَلَيْهَا قَدْ حَازَهَا دُونَهُ فَلَمْ يَزَلِ الْمَوْتُ يُبَالِغُ فِي جَسَدِهِ حَتَّى خَالَطَ لِسَانُهُ سَمْعَهُ فَصَارَ بَيْنَ أَهْلِهِ لا يَنْطِقُ بِلِسَانِهِ وَلا يَسْمَعُ بِسَمْعِهِ يُرَدِّدُ طَرْفَهُ بِالنَّظَرِ فِي وُجُوهِهِمْ يَرَى حَرَكَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وَلا يَسْمَعُ رَجْعَ كَلامِهِمْ ثُمَّ ازْدَادَ الْمَوْتُ الْتِيَاطاً بِهِ فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ وَخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ وَتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ لا يُسْعِدُ بَاكِياً وَلا يُجِيبُ دَاعِياً ثُمَّ حَمَلُوهُ إِلَى مَخَطٍّ فِي الأَرْضِ فَأَسْلَمُوهُ فِيهِ إِلَى عَمَلِهِ وَانْقَطَعُوا عَنْ زَوْرَتِهِ«.(1)

أخبر صلوات الله عليه عن الجنة وثمارها وأشجارها وأنهارها وقصورها وتنعّم الإنسان فيها.

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

جاء في منهاج البراعة: المأدبة بفتح الدال وضمّها طعام صنع لدعوة أو عرس، و(وله) الرجل إذا تحيّر من شدّة الوجد، (والغِرّة) بكسر الغين المعجمة الاغترار والغفلة، يقال اغترّه فلان أي أتاه على غرّة منه و(أطراف البدن (الرأس واليدان والرجلان، و(ولج) يلج ولوجاً أي دخل، و(المصرّح) خلاف المشتبه وهو الظاهر البيّن، و(التبعات) جمع التبعة وهو الاثم، و(المهنأ) المصدر من هنأ الطعام يهنأ إذا صار هنيئاً، و(العبء) الثقل، و(أصحر) أي ظهر وانكشف، و(رجع) الكلام ما يتراجع منه، و(الالتياط) الالتصاق، و(الاسعاد) الاعانة، و(المخطّ من الأرض) كناية عن القبر يُخطّ

أوّلاً ثم يُحفر.

* * *

الشرح:

إنّ هذا الفصل من كلامه تحذير للمتمرّدين من العصاة والمذنبين الغواة، وتنفير لهم عن الركون إلى الدنيا وإلى زخارفها وما فيها، وتذكير لهم بما يحلّ بساحتهم من سكرات الموت وينـزل بفنائهم من حسرات الفناء والفوت.

وافتتح صلوات الله عليه بتسبيح الله تعالى وتقديسه فقال» :سبحانك خالقاً ومعبوداً» أي أنزّهك تنـزيهاً عن الشركاء والأمثال في حالة خلقك ومعبوديّتك، لا موجد غيرك ولا معبود سواك .

»بحسن بلائك عند خلقك خلقت داراً» أي خلقت داراً بسبب ابتلاء عبادك وامتحاناً لهم وتمييزاً بينهم، وتفرقة بين السعداء، أعني الطالبين المشتاقين إلى ملك الدار، وبين الأشقياء وهم الراغبون المعرضون عنها، والمراد بالدار دار الآخرة.

والمراد بالمأدبة الجنّة التي هُيّأت للمتّقين ودُعي إليها عباد الله الصالحون، وأعدّ الله سبحانه لهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما تشتهيه أنفسهم.

»مشرباً ومطعماً» أي شراباً وطعاماً، «وأزواجاً» من الحور العين، «وخدماً» من الولدان المخلّدين، «وقصوراً» عالية «وأنهاراً» جارية «وزروعاً «زاكية «وثماراً» طيبة.

»ثمّ أرسلت داعياً يدعو» الناس «إليها» أي إلى هذه الدار أو المأدبة، وأراد بالداعي محمّداً (صلى الله عليه وآله) «فلا الداعي أجابوا ولا فيما رغّبت إليه» من الدار الآخرة الباقية ونعيمها «رغبوا ولا إلى ما شوّقت إليه» من حور الجنّة وقصورها وأنهارها وثمارها وسائر ما أُعدّ فيها، «اشتاقوا.«

]عالم الآخرة:[

لطالما شغلت المفكّرين والمتأمّلين مسألة الآخرة...

ولطالما احتار فيها العلماء والمتعلّمون...

حتى طلّ علينا العصر الحديث، فإذا النداء يأتينا من الغرب بضرورة مراجعة الفكر الإنسانّي للالتفات إلى مسألة الحياة الأخرى.

فأقرّها فطاحلة العلماء ممّن لا ينتمي إلى دين، أو يتحيّز إلى فكر... أمثال كيركجارد، وبرجسون، ودوكاس.

وكلّ قضية عادلة تعرض على مسرح العقل البشريّ يؤيّدها العقلاء ويتنكّر لها الجهال والمتطفّلون على العلم، وكانت الآخرة من إحدى الفكر التي هزأ بها المتغافلون عن البراهين الساطعة، ولم نسمع من هؤلاء دليلاً مقنعاً لإنكار الآخرة، فاستنتجنا سبباً لهذا الاصرار، هو التمادي في تحذير الضمير للتخلّص من وخزه وتأنيبه، ومحاولة الهرب من رقابة الخالق، والتخلّص من الالتزام بالمباديء والقيم السامية، وإطلاق العنان للأهواء والرغائب الشيطانيّة الطائشة.

وأزاء كلّ هذا الطمس لهذه الحقيقة الملحّة... فقد دلّت الأبحاث على ضرورة الآخرة.

فمن الجانب النفسّي شوهدت النفس الإنسانيّة وهي تشتاق إلى عالم آخر طالما انتظرته بفارغ الصبر.

ومن الجانب الأخلاقيّ فقد أكّدت الأدلة العقليّة بأنّ كلّ شيء في الكون يدلّ على العدل، وكيف يموت الظالم وهو ظالم، والمظلوم وهو مظلوم بدون حساب؟ إذاً لا بدّ أنّ هناك عالماً آخراً يُثاب فيه المحسن ويُعاقب فيه المسيء، وإلاّ فإنّ التاريخ البشريّ يفقد كلّ معنى.

أمّا الضرورة الكونيّة فقد تحقّقت بالأدلّة القطعيّة لدى علماء الطبيعة بنفي الأزليّة عن المادّة، ولا بدّ لهذا العالم من نهاية حتميّة وقيامة كبرى تكون خاتمة للقيامات الصغرى التي تمرّ بها عوالم الإنسان والحيوان، والنجوم والحضارات المتلاشية، والحقب الزمنيّة الفانية.

]العلم التجريبي وإثبات الآخرة:[

وأخيراً تحقّقت علميّة إثبات الآخرة عن طريق الشهادة التجريبيّة، فإنّ الحياة التي ظهرت مرّة واحدة يمكن أن تُعيد نفسها، وإنّ الخالق ـ بالتأكيد ـ يستطيع من جديد خلق الحياة التي أنشأها للمرة الأولى، وهذا الدليل قد صرّح به القرآن الكريم في قوله تعالى:

»أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ«.)2(

ولذلك قال البروفسور دوكاس: إنّ بقاء الحياة بعد الموت لعلّها الوحيدة من عقائد الدين الكثيرة التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبيّ.

وتظلّ مشكلة الضبط الاجتماعيّ محيرّة لعقليّات الفلاسفة ورجال السياسة وعلماء النفس والاجتماع... وعلى امتداد التاريخ تبقى معضلة السلوك الاجتماعي مادّة تفكير المفكّرين، لا سيّما وإن جميع وسائل الإرهاب والتحذير والإغراء قد فشلت في تحقيق المهمّة.

حتّى انتبهت الأبحاث الاجتماعيّة إلى سلوكيّات صريحة اجتماعيّة واعية عرفت بالالتزام الدينيّ والتفكير الأخرويّ، وافتراض الرقابة الدائميّة على الذات ومحاسبة النفس بوازع الضمير المتيقّظ. وهذا هو الحلّ الوحيد الذي يستطيع معالجة التدهور الحضاريّ بصورة صحيحة، محافظاً على إنسانيّة الإنسان، ودافعاً إيّاه نحو الخير والإخاء... وإلاّ أصبحت الحياة مسرحاً مأساويّاً بشعاً.

وهذا ما اعترف به أحد مفكّري الغرب وهو (برتراند رسل) حيث يقول: إنّ حيوانات عالمنا يغمرها السرور، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنّهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث.

ولأجل تحقيق السعادة الدنيويّة أسدل الباري (عز وجل) عناية واهتماماً بعرض الآخرة وتبيانها للناس كي يُفيقوا من غفلاتهم ويتّبعوا الحكمة في أمورهم، ولتكون الدنيا دار أمل كبير في نيل رضوانه وثوابه (عز وجل) وكما قال الإمام علي (عليه السلام:(

»إن الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، ودار عافية لمن فهم عنها، ومسجد أحباب الله ومتجر أوليائه، اكتسبوا منها الرحمة، وربحوا منها الجنّة»...(3(

والآخرة أصل من أصول ديننا، وقد حذّر الله سبحانه وتعالى منها من ألقى السمع وهو شهيد، فقال عزّ من قائل: «يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ».(4(

وقال (عز وجل) أيضاً: «وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ».(5(

وأمرنا بالاستعداد لها «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ»،(6) وقال أيضاً:

»تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى».(7(

ولذلك أجاب الإمام علي (عليه السلام) رجلاً يهوديّاً كان يسأله: ما الصعب وما الأصعب؟

قائلا له: الصعب القبر، والأصعب: الذهاب بلا زاد.(8(

فلكي نستمتع برضا الله جلّ وعلا، وننال ثوابه... تعالوا نتذكّر الآخرة.

* * *

الجنّة:

الجنّة لغة: البستان المتكاثفة الأشجار.

وقد ورد للجنّة ـ في القرآن الكريم ـ أسماء عدّة، منها:

دار السلام، الفردوس، دار الخلود، دار المقامة، جنّات عدن.

يخلد أهل الجنّة فيها فلا موت، ولا منغّصات، ولا بؤس، ولا مرض، ولا هرم:

»لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأْ ُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ».(9(

»وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ».(10(

لا يسمع منهم إلاّ الكلام الطيب، إخوان متحابّون، فلا لغو ولا فحش ولا كذب، ولا بغضاء ولا شحناء ولا حسد، ولا كلّ ما يعتري أهل الدنيا من السوء.

»وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ».(11(

»لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً».(12(

»وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ»(13 .(

وفي الجنّة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكلّ ما نسمع ويُقال عن نعيم الجنّة وما فيها من لذّة ومتعة، فهي فوق كلّ ذلك وأجلّ ممّا نتصوره، وأعظم ممّا نتخيله.

والبشر في دار الدنيا لا قدرة لهم على الاستمتاع بذلك النعيم وتلك اللذّة ولا طاقة لهم عليه.

فأشجارها غير هذه الاشجار، وأنهارها غير هذه الأنهار، نساؤها الحور العين، وشرابها العسل المصفّى، وخمرة لذّة للشاربين، دائم نعيمها، أبديّ بقاؤها.

»هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأْ َبْوابُ مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ».(14(

وفي كتاب ربّنا الكريم مزيد تفصيل.

وما ورد عن نبيّنا (صلى الله عليه وآله) لنا على ذلك خير دليل:

فعنه (صلى الله عليه وآله) يذكر بعض متع الجنّة ونعيمها قال)صلى الله عليه وآله:(

»ما من عبد يدخل الجنة إلاّ ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجنّ، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه».(15(

وعنه (صلى الله عليه وآله) كان يذكر الناس فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي القوم أعرابيّ، فجثا لركبته وقال: يا رسول الله هل في الجنّة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، في الجنة نهر حافّتاه الأبكار من كلّ بيضاء يتغنّين بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة».(16(

وورد: «إنّ في الجنّة لأشجاراً عليها أجراس من فضّة، فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس، لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً».(17)

ومن نعيم الجنّة الرفقة الحسنة، رفقة النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

«وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً».(18)

ومن متع الجنّة التنازع، يتنازعون بينهم، ولكن لا كتنازع أهل الدنيا، إنّه نزاع مزاح ومتعة، نزاع تلذّذ وتفكّه:

«يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ».(19)

والاجتماعات واللقاءات بينهم مستمرّة دائمة - إذ لا عمل ولا عبادة - وهم يتسامرون ويتحادثون، وقد يذكرون معارفهم في الدنيا، فيقول قائلهم محدّثاً أصحابه عن جليس له في الدنيا، ولطالما نصحه فلم ينفع فيه ذلك النصح.

«قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».(20)

ويتساءلون بينهم عن المجرمين فإذا هم في النار يصطلون.

«إِلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ».(21)

[لذّات الخلد:]

وفي الجنّة من الرزق الكريم ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين:

«الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ».(22)

ولهم فيها ما يشاؤون وما يدّعون:

«لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ».(23)

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ».(24)

«لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ ».(25)

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تعدّد أنواعاً من الطعام والشراب، وتصف النساء في الجنّة، واللباس الذي يلبسونه،

والحليّ التي يُحلّون بها، نذكر بعضها عسى أن ينتفع بها من شاء، ويرغب إليها من أراد، فيعملوا جهدهم للوصول إليها والحصول عليها، والله عنده حسن الثواب.

«ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ».(26)

«كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ».(27)

«إِنَّ الأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً».(28)

«وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً».(29)

«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ».(30)

ومن نعيم الجنّة هدوء النفس وراحة البال، وعدم القيل والقال، فلا تعب ولا نصب، ولا فحش في القول ولا ابتذال، وإنّما سكينة واطمئنان ومحبّة ووئام، وتحيّة وسلام، ولا سأم من الخلود، وهذا ما لم يتوفّر لأحد في الدنيا.

«جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ».(31)

«جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا».(32)

«وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ لِسَعْيِها راضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ».(33)

«جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ».(34)

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ».(35)

«دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ».(36)

من خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام):

«دار بالبلاء محفوفة وبالغدر موصوفة» إلى قوله (عليه السلام): «وتفنيهم بحمامها».(37)

وقال (عليه السلام) في خطبة أخرى:

«فاحذروا الدنيا فإنّها غدّارة غرّارة خدوع، معطية مَنُوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي محناؤها، ولا يركد بلاؤها».(38)

الدنيا خير دار لمن لم يتّخذها داراً، أو كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام) يصف الزهّاد: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا فيها كمن ليس منها»(39) لأنّها دار عمل، دار امتحان واختبار، وهي الطريق إلى الآخرة، إلى دار الخلود حيث النار أبداً أو الجنّة أبداً، فالعمل فيها بالصالحات يوصل إلى مرضاة الربّ، فيؤتيهم ثواب الدنيا والآخرة:

«فَآتاهُمُ اللّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».(40)

وفي الدنيا الظفر والنصر على الأعداء:

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ».(41)

والرضا بما قسم، والقناعة ذلك الكنز الذي لا يفنى، والمُلك الذي لا يبلى، وراحة البال:

«وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً».(42)

ويشرح صدورهم ولا يجعلها ضيّقة، وليس كالكافر الضّالّ الذي وصف ـ سبحانه ـ حاله في الدنيا، فقال عنه:

«وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ».(43)

ويدفع عنهم بلاء النار فيها وينجيهم منه، كما أنجى أُمماً آمنت بربّها وصدّقت بأنبيائها، فقد أنجى نوحاً والذين آمنوا معه:

«فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ».(44)

وكما أنجى هوداً ومن آمن من قومه:

«فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ».(45)

وكذلك يُنجي الله المؤمنين، هذا في الدنيا، وفي الآخرة الفوز والخلود في الجنة، والنعيم الدائم، ولولا هذه الدنيا لما استحقّ الإنسان كلّ هذا الجزاء العظيم، فطوبى للعاملين فيها بأوامره، المنتهين عن نواهيه، وحسن مآب.

أمّا غير المؤمن، أمّا الذين غرّتهم الدنيا فركنوا إليها وأصبحت كلّ همهم، أمّا الذين يحرصون كلّ الحرص فيتمنّون لو يعمّرون فيها:

»وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ».(46(

ومهما أُوتوا فيها من المال والجاه والسطوة والسلطان فهم في ضنك من العيش:

»وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً».(47(

رضوا بالأرذل الأدنى، وفتنوا أنفسهم بالشهوات والملذّات الزائلة، وبالذهب والفضّة:

»زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ».(48(

وما ذلك إلاّ متاع الحياة الدنيا، ومتاع الدنيا قليل:

»قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى».(49(

»نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ».(50(

»لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ».(51(

فالمغرور من غرّته هذه النعم الزائلة الفانية وشُغل بها وجعلها الغاية، ولم يجعلها الوسيلة إلى بلوغ رضوان الله ونعيمه الدائم الذي لا انقضاء له ولا زوال.

وغير المؤمن إذا ملك المال طغى، وإذا ملك السلطان سعى في الأرض الفساد:

»إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى».(52(

»وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ».(53(

المال والسلطان نعمة يُنعمها الله سبحانه على الإنسان، تستوجب الشكر، فيبدلها الكافر كفراً وطغياناً عن سبيل الله:

»أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ».(54(

»إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ».(55(

لا تنفعهم نصيحة ولا يفيدهم إنذار:

»إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ».(56(

واذا ما أملى لهم ـ سبحانه ـ في هذه الدنيا فليس حبّاً بهم ولا كرامة لهم ولكن!؟

»وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ».(57(

ولأنّ الدنيا وما فيها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فما قيمة ما يُعطى فيها الكافر مهما كثر، ولولا أن يُساق الناس سوقاً إلى الكفر لجعل الله سبحانه لمن يكفر به:

»لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ * وَزُخْرُفاً».(58(

رُبّ سائل يسأل: وهل يُترك هؤلاء بدون عقاب في هذه الدنيا؟ !أم أنهم يُعاقَبون ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وعظة لمن يتّعظ؟

كلاّ، فلقد انتقم ـ سبحانه ـ من الكافرين والظالمين على مرّ العصور والأعوام وكرّ الدهور والأيام، فلم ينصرهم من الله ناصر، ولم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا سلطانهم، وإليك نبؤهم، ولا ينبّؤك مثلُ خبير، قال تعالى:

»فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ».(59(

وقال تعالى يصف حالهم في الدنيا بأنّهم خائفون مرعوبون، وإن ملكوا كلّ شيء!!

»سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ».(60(

وكم نصّ علينا القرآن الكريم من قصصهم، وكيف أخذهم الله نَكال الدنيا والآخرة، فاعتبروا يا أولي الألباب:

»وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ * فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَما خَلْفَها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ».(61(

»وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ * فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».(62(

ولنا بما فعل الله بالذين كذّبوا الرسل ـ من قبلنا ـ عبرة وعظة:

»لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الْأَلْبابِ».(63(

فهؤلاء قوم صالح وقوم شعيب (عليه السلام:(

»فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ».(64(

وهؤلاء قوم لوط (عليه السلام:(

»فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ *وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ».(65(

وأما الذين كذّبوا موسى (عليه السلام:(

»فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ».(66(

»فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ».(67(

وإكراماً لنبيّنا نبيّ الرحمة، ولبيان فضله على سائر الأنبياء والمرسلين، رفع سبحانه وتعالى عن أمّته العذاب في الدنيا لسببين:

الأول: لوجوده ـ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ـ بينهم.

الثاني: لاستغفارهم من الذنوب التي يقترفونها، قال عزّ اسمه:

»وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ».(68(

* * *

]من عشق شيئاً أعشى بصره:[

قال الأستاذ محمد علي الحوماني في كتابه (دين وتمدين) مج 2 ص 264، عند قوله (عليه السلام:(

»من عشق شيئاً أعشى بصره، وأمرض قلبه، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذنٍ غير سميعة، قد خرقت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه.«

»هذه كلمات واضحة صريحة لاتحتاج إلى بيان في عرضها بين يدي قراء هذا السفر، إلاّ كلمة «أعشى بصره» فقد كان إمام البلغاء حريّاً بأن يقول» :أعمى بصره» قياساً على المثل القائل:«الحبّ يُعمي ويصمّ»، والمثل الآخر «صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلاّ قضاها» فلماذا عدل الإمام عن كلمة «أعمى» إلى كلمة «أعشى «يا ترى؟ إنّه أراد العمى القريب لا البعيد، والعمى الجزئيّ لا الكليّ، فإنّ الأعشى والعشواء من لا يبصر أمامه، وهو الذي لا يبصر ليلاً، من العشوة التي هي ظلمة الليل، فلم يُرد الإمام بالعشوة الحقيقيّة وإنّما أراد مجازيها، بأن شاء أن ينسب للعاشق العمى الجزئيّ، وهو عدم الرؤية في الليل، أو العمى القريب الذي هو عدم رؤيته ما بين يديه، وترك العمى الكليّ الذي هو عمى الليل والنهار، كما ترك العمى البعيد وهو فقد البصر رؤية ما يكشفه النور من جميع الآفاق التي تحدق به.

أقول: لقد ترك الإمام هذا النوع من العمى للحقيقة واكتفى بالمجاز منها.

ففي الحقيقة أنّ العاشق لا يعمى بصره عن كلّ شيء قريبه وبعيده، جزئيّه وكلّيه، لأنّه يرى مناط عشقه وهو حبيبه

الذي أعماه عن أن يرى غيره، إذن فهو أعشى لا أعمى، فكأنّ هذا العاشق لا يرى في الحياة شيئاً غير ما يعشق، فعينه ـ وهي تبصر الأشياء دونه ـ تصوّر له كلّ شيء في شكل حبيبه، وأذنه ـ وهي تسمع كلّ صوت حوله ـ لا توقع غير صوت حبيبه على سمعه، إذن فالعاشق يرى بعينه العاشقة شخصاً واحداً هو عنده كلّ شخص، ويسمع بأذنه العاشقة صوتا واحداً هو عنده كلّ صوت، ذلك الشخص هو شخص حبيبه، وذلك الصوت هو صوته.

من أجل هذا عبّر عن عينه التي تعشو عن رؤية كلّ شخص غير ما يعشق، عبّر عنها بأنّها غير صحيحة، وعبّر عن أذنه التي تصمّ عن سماع كلّ صوت إلاّ صوت عشيقه، عبّر عنها بأنّها غير سميعة، ذلك ليدلّنا على أنّ الاسترسال في رؤية غير الحقّ عمى، وأنّ الاسترسال في استماع غير الحقّ صمم، فالرائي ـ وإن كان جدّ بصير ـ هو أعمى، إلاّ إذا أمعن في النظر إلى ما يفيض بنور الحقّ في الحياة، والواعي ـ وإن كان جدّ سميع ـ فهو أصمّ إلاّ إذا أصغى بسمعه إلى ما يفصح عن صوت الحقّ في الحياة.

هذا هو عليّ تلميذ محمّد في بلاغته وحكمته وتقواه، ثمّ في إخلاصه بكلّ ما يقول ويعمل.

أقول: هذا عليّ عدنا إليه بما يلقي علينا من تعاليم أخيه ومعلّمه محمّد صاحب المعجزات، ومُنقذ العالم من هوة الانحدار إلى ظلام الوحشية، هذا عليّ يقول في مضمون هذه الجمل الصغيرة: إنّ الشهوات قد تخرق العقل مهما كان هذا العقل جبّاراً، وإنّ الدنيا قد تُميت القلب مهما كان هذا القلب كبيراً، إنّه (عليه السلام) يحذّر كثيراً من استرسال النفس مع الشهوات، ويؤمن كثيراً بأنّ الشهوة قد تُميت القلب وهو يزخر بالحياة، وإنّ صاحب الشهوة عبد قنّ لنفسه حيث يقول: عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ».(69(

هذا العقل الكبير الجبّار المنـزل من السماء على الأرض رحمة بالإنسان الضعيف بين يدي شهواته، أقول: إنّ هذا العقل يضعف ويتضاءل بين يدي النفس الأمّارة بالسوء، فما هي إذن هذه النفس العاصفة بجبابرة العقول؟؟ وما هو هذا العقل الجبار الذي يخسأ وينكص ويستكين بين يدي طغيان هذه النفس العاتية؟؟ إنّا لنشعر جميعاً بضعف العقل أمام شهوة الإنسان الدنيا، ونحن على إيمان قوي بأنّ العقل أشرف ما يحمله الإنسان من صفات الخير والنبل والكمال، إنّا لنشعر بذلك، ثمّ نؤمن بأنّ العقل مرشد هادٍ، وأنّ الشرائع السماويّة إنّما نزلت لتعزيزه، ثمّ نرى عقولنا أحياناً كثيرة تخضع لشهوات أنفسنا بمحض اختيارنا وإرادتنا، فما هو السرّ في ذلك كلّه يا ترى؟؟

هل لأنّ الإنسان منطلق بنفسه في متع الحياة الدنيا ومقيّد بعقله فيها؟؟ ولأنّ النفس تبعث على تغذية الجسم في حياته القصيرة، والعقل يبعث على تغذية الروح في حياتها الطويلة؟! أم لأنّ الإنسان مفطور على شهواته بطبعه، ومفطور على عقله بتطبّعه، من أجل ذلك نراه يتهافت على الشهوات منذ طفولته وقبل تعقّله، بينما نراه يتّزن بعقله من وراء

تديّنه وتعلّمه وتثقّفه، فلا يخضع للعقل إلا بمعلّم يرشده أو سلطان يقوّمه أو مجتمع يثقّفه، وأمّا النفس الشريرة فلها سلطانها الطبيعيّ الذي يخضع له ويأتمر به دونما قاسر أو آسر من خارج كيانه الذاتي؟؟

المرء بعقله كبير إذا ملك إرادته وسيطر على شهواته، وهو كذلك بهذه الشهوات كبير إذا عهد بتوجيهها إلى عقله، فإنّ الإنسان إذا سيطر عليه عقله بما لا يخمد عاطفته كان مصدراً للعلوم، وإذا سيطرت عليه عواطفه بما لا يكبت عقله كان مصدراً للفنون، فإذا ملك هاتين السيطرتين كان الرجلَ الكامل، وإذا فقد إحداهما نقصت رجولته، وأما إذا فقد كليهما فقد هلك.

كلّ ذلك يعنيه الإمام إذ يدعو إلى تفادي الشهوات وتحامي سلطانها على العقل، وتهافت الإنسان بين يدي شهواته إذا لم يستعن بعقله على توجيهها والتحرّر من سلطانها الجائر.

كان الإمام أديباً وعالماً وحكيماً، كان أديباً إذ تثور عاطفته فيعصمها بنضج عقله من التهافت، فتنفجر فتطلع بأسمى أنواع الأدب الحزين علينا، كخطبته المسماة (بالشقشقيّة)، وكخطبه التي كان يقرع بها جنده وهم يستعصون عليه، فيما يأمرهم به وينهاهم عنه.

وكان الإمام عالماً إذ يعالج بعقله الكبير قضايا السياسة أو الفلسفة أو الثقافة، كعهده لعامله مالك الأشتر إذ ولاّه مصر، وكوصيّته لولديه عند احتضاره.

وكان الإمام حكيماً في كثير من أقواله التي يراها القارىء مدار البحث في هذا الكتاب.

]الشهوة الجامحة:[

الشهوة التي يعنيها الإمام بقوله، هذه هي الشهوة الجامحة التي تنـزو على العقل فلا يكبتها ضمير ولا يكبحها وازع، هذه الشهوة هي التي تطمح بالإنسان الضعيف العقل فتجرّده من شرفه وإنسانيّته ودينه وأدبه في سبيل حطام الدنيا، هذا الحطام الذي يتكالب عليه الناس بين يدي منصب زائل أو لذّة من متع الحياة عمرها قصير، أو ملك يتهالك في سبيله من وراء حياة قصيرة الأجل؟

هذه الشهوة التي تدفع بالإنسان الكبير بكلّ ما فيه من جوهر تخيّره الله له وجعله خليفته في أرضه، تدفع هذه الشهوة به إلى هوّة ينحدر فيها عن الحيوان المسخّر له.

أقول: هذه الشهوة الجامحة المتحلّلة الطاغية هي التي يعنيها الإمام بقوله: «قد خرقت الشهوات عقله وأماتت قلبه.«

وهي التي عناها بقوله:«عبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ»،(70 (هذه الشهوة هي المعبّر عنها في القرآن بقوله عزّ من

قائل: «إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ»،(71) وأمّا الشهوة التي يطمح بها الإنسان إلى معالي الأمور من متع الجسد والروح ثمّ يعمل بعقله ودينه وما أوتيه من قوّة عادلة في تفكيره وتدبيره.

هذه الشهوة التي هي مثار العاطفة في الإنسان الذي لا يعيش بلا عاطفة.

أقول: إنّ هذه الشهوة هي التي يخاطب الله من ورائها عباده بقوله تعالى: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ»(72) وقوله: «كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ»(73) وهذه الشهوة هي التي غضب لها الامام عندما بلغه أن بعض الموسرين من أصحابه يكبحون من شهواتهم زهداً في الحياة الدنيا وتشبّهاً به، فانهال عليهم بالتأنيب والتقريع إذ يقول:«لم تحرّمون ما أحلّ الله»؟؟ ولمن يقول الله تعالى» :كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ».(74)

ثم يلتفت (عليه السلام) ويقول: ـ من مضمون قوله لا من نصّه ـ أمّا أنا الذي تتشبّهون بي في هذا الحرمان، فأنا أمير المؤمنين، وقدوتهم، ومكان المواساة منهم، لوشئتُ لاهتديت إلى مصفّى هذا العسل ولُباب هذا البرّ ونسائج هذا القزّ، ولكن ربّ جائع في هؤلاء الذين أعول يقول: إن ابن أبي طالب ملأ جوفه من أطائب الحياة وأنا جائع».(75)

هكذا كان الإمام ينظر إلى الدنيا نظرة خبير بها، ثمّ ينظر إلى الناس نظرة خبير بهم، فليس للمأموم أن يتشبّه بإمامه في دقائق الحياة وجلائلها، فقد يسوغ للإمام ما ليس في حساب المأموم، وقد يسوغ لهذا ما هو حجر على ذاك، ولهذا كان الإمام إماماً والمأموم مأموماً.

بهذا يمتاز الرفيع عن الوضيع، والشريف عن الخامل، والعالم عن الجاهل، فقد يكون المباح لي ـ وأنا العبد المملوك ـ حراماً عليك وأنت السيّد المالك، وقد يكون المحرّم علي ـ وأنا الجهول ـ مباحاً لك وأنت العالم، فليس كلّ ما يصلح للرفيع يصلح للوضيع، ولا كلّ ما يليق بالجاهل يليق بالعالم، من أجل ذلك قيل :ذنب العالم على قدره، وذنب الجاهل على قدره، تلك سنّة الله في خلقه «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً».(76)

لقد تقدّم ذكر الجنّة ووصفها، ولمّا كان قوله (عليه السلام (في المقام من وصف الجنة «مشرباً ومطعماً الخ» ناسب أن نعود إلى ذكر الجنّة آخر ممّا يتشوّق إليه القارئ فنقول :

الجنّة (لغة) هي الحديقة ذات الشجر، وفي الاصطلاح الديني تُطلق الجنّة على ما أعدّه الله للصالحين من عباده في الحياة الآخرة، مكافأة لهم على صالح أعمالهم وجميل آثارهم في العالم الأرضيّ.

]وصف الجنة في القرآن:[

وقد جاء وصفها في القرآن الكريم بأنّها ذات أنهار وأشجار وفواكه ولحوم وأزواج، على مثال ما هو موجود في العالم

الأرضيّ، وإن كان أرقى منه في النوع والشكل والطعم، وقد تكرّر ذكرها في الكتاب الشريف على صور شتّى، فقال تعالى:

«وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الأَْرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً *وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلاً * وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا * قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً * وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً * إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً».(77)

وقوله تعالى:

«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ».(78)

وقال تعالى:

«وَلَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيها خالِدُونَ».(79)

هذا بعض ما ورد من صفات الجنّة في القرآن العظيم.

[وصف الجنة في أحاديث السنة:]

قال الطريحي في مجمع البحرين:

عن علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي، عن حماد، عن أبي عبد الله (الصادق) (عليه السلام) قال:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لمّا أسري بي إلى السماء، دخلت الجنّة فرأيت قصراً من ياقوت أحمر يُرى داخله من خارجه، وخارجه من داخله، وفيه بيتان من درّ وزبرجد، فقلت: يا جبرئيل لمن هذا القصر؟ فقال: لمن أطاب الكلام، وأدام الصيام، وأطعم الطعام، وتهجّد بالليل والناس نيام، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): يا رسول الله وفي أمّتك من يطيق هذا؟ فقال: أدنُ مني يا علي، فدنا، فقال: أتدري ما إطابة الكلام؟ فقال: الله ورسوله أعلم، قال: من قال : (سُبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله اكبر). فقال: أتدري ما إدامة الصيام؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: من صام شهر رمضان ولم يفطر منه شيئاً. قال :أتدري ما إطعام الطعام؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: من طلب لعياله ما يكفّ به

وجوههم عن الناس. وتدري ما التهجّد بالليل والناس نيام؟ قال: الله ورسوله أعلم .قال: مَن لم ينم حتّى يصلّي عشاء الآخرة، ويعني بـ (الناس نيام) اليهود والنصارى، فإنّهم ينامون فيما بينهما».(80(

وفي سفينة البحار مسنداً عن أبي أمامة الباهلي، إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: ما من عبد يدخل الجنّة إلاّ ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجنّ، وليس بمزمار الشيطان، ولكن بتمجيد الله وتقديسه.(81(

وعن أبي الدرداء: قال كان رسول الله (صلى الله عليه وآله (يذكر الناس، فذكر الجنّة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي القوم أعرابي، فجثا لركبتيه وقال: يا رسول الله هل في الجنّة من سماع؟ قال: نعم يا أعرابي، إنّ في الجنّة لنهراً حافّتاه أبكار من كلّ بيضاء، يتغنّين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قطّ، فذلك أفضل نعيم الجنّة.(82(

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف الجنّة: «واعلموا عباد الله أنّ مع هذا رحمة الله التي وسعت كلّ شيء، لا يعجز عن العباد جنّة عرضها السماوات والأرض، خير لا يكون بعده شرّ أبداً، وشهوة لا تنفذ أبداً، ولذّة لا تفنى أبداً، ومجمع لا يتفرّق أبداً، وقوم قد جاوروا الرحمن وقام بين أيديهم الغلمان، بصحاف من ذهب فيها الفاكهة والريحان».(83(

وفي السفينة أيضاً، عن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):«أخبرني جبرئيل أنّ ريح الجنّة توجد من مسيرة ألف عام، وما يجدها عاقّ ولا قاطع رحم، ولا شيخ زانٍ، ولا جارّ أزاره خيلاء، ولا فتّان ولا منّان ولا جعظريّ، قال: قلت: فما الجعظريّ؟ قال الذي لا يشبع من الدنيا».(84(

وفي المجلّد الأوّل من كتاب (الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) تأليف قاضي القضاة مجير الدين الحنبلي:

»ثمّ خلق الله الجنّة وهي ثمان جنّات: أوّلها دار الجلال من اللؤلؤ الأبيض، ثمّ دار السلام وهي من الياقوت الأحمر، ثمّ جنّة المأوى وهي من الزبرجد الأخضر، ثمّ جنّة الخلد وهي من المرجان الأصفر، ثمّ جنّة النعيم وهي من الفضة البيضاء، ثمّ الفردوس وهي من الذهب الأحمر، ثمّ جنّة دار القرار وهي من المسك، ثمّ جنّة عدن وهي من الدرّ، وهي مشرفة على الجنان، لها بابان من ذهب، بين كلّ مصراعٍ كما بين السماء والأرض، وبناؤها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، بلاطها المسك، وترابها العنبر، وحشيشها الزعفران، وقصورها اللؤلؤ، وغرفها الياقوت، وأبوابها الجوهر، وفيها أنهار: منها نهر الرحمة، ونهر الكوثر، وهو لنبيّنا (صلى الله عليه وآله)، ونهر الكافور، ثمّ التسنيم، ثمّ السلسبيل، ثمّ الرصيف، وغير ذلك ممّا لا يعلمه إلاّ الله تعالى. وللجنان ثمانية أبواب، وفيها من الحور العين ما لا يقدر على وصفهنّ إلاّ الذي خلقهنّ.«

وفي تفسير (نفحات الرحمن) 48/1: روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) في فضيلة «بسم الله الرحمن الرحيم» أنّه قال: ليلة أُسري بي إلى السماء عُرض عليّ جميع الجنان، فرأيت فيها أربعة أنهار: نهر من ماء، ونهر من لبن، ونهر من خمر، ونهر من عسل. فقلت: يا جبرائيل من أين تجيء هذه الأنهار وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدري من أين تجيء، فادعو الله تعالى ليعلّمك أو يُريك، فدعى ربّه فجاء ملك فسلم على النبي (صلى الله عليه وآله) ثم قال: يا محمّد غمّض عينك، قال: فغمّضت عيني، ثم قال: افتح عينك، ففتحت فإذا أنا عند شجرة، ورأيت قبّة من درّة بيضاء ولها باب من ذهب أحمر وقفل، لو أنّ جميع ما في الدنيا من الجنّ والإنس وُضعوا على تلك القبّة لكانوا مثل طائر جالس على جبل.

فرأيت هذه الأنهار الأربعة تخرج من تحت القبّة، فلمّا دنوت من القفل وقلت: «بسم الله الرحمن الرحيم» انفتح القفل، ورأيت مكتوباً على أربعة أركان القبّة «بسم الله الرحمن الرحيم» ورأيت نهر الماء يخرج من ميم (بسم الله(، ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء «الله»، ونهر الخمر يخرج من ميم «الرحمن»، ونهر العسل يخرج من ميم «الرحيم» فعلمت أنّ أصل هذه الأنهار الأربعة من البسملة، فقال الله (عز وجل): يا محمّد من ذكر هذه الأسماء من أمّتك بقلب خالص من رياء وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» سقيته من هذه الأنهار.

***

وفي ربيع الأبرار للزمخشريّ:

عن أسامة بن زيد: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في ذكر الجنة: «ألا مُشترٍ لها، هي وربّ الكعبة - ريحانة تهتّز، ونور يتلألأ، ونهر يطّرد، وزوجة لا تموت، مع حُبور ونعيم، ومقام الأبد».(85(

الخدريّ يرفعه: إنّ الله جلّ ذكره لمّا حوّط حائط الجنّة، لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وغرس غرسها، قال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال تعالى: طوبى لك منزل الملوك.(86(

جابر بن عبد الله الأنصاري، عنه (صلى الله عليه وآله): «إذا دخل أهل الجنّةِ الجنّةَ، قال الله تعالى: أتشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربّنا وما خير ممّا أعطيتنا؟ قال: رضواني أكبر».(87(

زيد بن أرقم، قال رجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): يا أبا القاسم، تزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إنّ أحدهم ليُعطى قوّة مائة رجل في الأكل والشرب، قال: فإنّ الذي يأكل تكون له الحاجة، والجنّة طيب لا خبث فيها، قال: عرق يفيض من أحدهم كرشح المسك فيضمر بطنه.(88(

عتبة بن غزوان: لقد بلغني أنّ المصراعين من مصاريع الجنّة، بعد ما بينهما مسيرة أربعين عاماً، وليأتيّن عليه يوم

وهو كظيظ بالزحام.

دخل داود (عليه السلام) غاراً من غيران بيت المقدس فوجد حزقيل يعبد ربّه، وقد يبس جلده على عظمه، فسلّم عليه، فقال: أسمع صوت شبعان ناعم، فمن أنت؟ قال: داود! قال: الذي له كذا وكذا امرأة، وكذا وكذا أمة؟ قال: نعم، وأنت في هذه الشدّة؟ قال: ما أنا في شدّة، ولا أنت في نعمة، حتّى ندخل الجنّة.(89(

* * *

قوله (عليه السلام): «أقبلوا على جيفة قد افتضحوا بأكلها "استعار صلوات الله عليه لفظ الجيفة للدنيا باعتبار نفرة طباع أهل البصيرة والمعرفة عنها، وكونها مُستقذَرة في نظر أرباب اليقين وأولياء الدين، كالجيفة المنتنة التي ينفر عنها الناس ويفرّون منها، أو باعتبار اجتماع أهلها عليها وفرط رغبتهم إليها، وكون همّ كلّ واحد جذبها إلى نفسه بمنزلة جيفة منبوذة تجتمع عليها الكلاب ويجذبها كلّ إليه، قال الشاعر:

عليها كلاب همُّهنّ اجتذابها   وما هي إلاّ جيفة مستحيلة

وإن تجتذبها نازعتك كلابُها   فإن تجتنبها كنتَ سلماً لأهلها

قوله (عليه السلام): «واصطلحوا على حبّها» أي اتّفقوا على محبّتها وتوافقوا عليها، فإنّ أصل الصلح هو التراضي بين المتنازعين، وتجوز به عن التوافق والاتّفاق للملازمة بينهما.

قوله: «ومن عشق شيئاً» أي كان مولعاً به شديد المحبّة له، فإنّ العشق هو الافراط في الحبّ والتجاوز عن حدّ الاعتدال.

قال جالينوس الحكيم اليوناني: العشق من فعل النفس، وهو كامن في الدماغ والقلب والكبد، وفي الدماغ ثلاث مساكن: التخيّل في مقدّمه، والفكر في وسطه، والذكر في آخره. فلا يكون أحد عاشقاً حتّى إذا فارق معشوقه لم يخلُ من تخيّله وفكره وذكره، فيمتنع من الطعام والشراب باشتغال قلبه، وكبده من النوم باشتغال الدماغ بالتخيّل والذكر والفكر للمعشوق، فتكون جميع مساكن النفس قد اشتغلت به، ومتى لم يكن كذلك لم يكن عاشقاً.

وكيف كان فالمراد أنّ من أفرط في محبّة شيء « أعشى ذلك الشيء» «بصره وأمرض قلبه» أي يكون فرط حبّه لذلك الشيء مانعاً عن توجّهه إلى ما يلزمه التوجّه إليه، وحاجباً عن النظر إلى مصالحه وما يلزمه الاشتغال به، فيكون غافلاً عمّا عداه، صارفاً أوقاته بكليته إلى هواه، ويكون عشقه مانعاً عن إدراكه العقول، ويكون عشقه أيضاً مانعاً عن إدراكه لعيوب المعشوق وعن التفاته إلى مساويه، ومن هنا قيل:

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلةٌ كما أنّ عين السخط تبدى المساويا

وغرضه صلوات الله عليه أنّ أهل الدنيا لكثرة حبّهم لها وفرط رغبتهم إليها قصرت أبصارهم عن النظر إلى أخراهم، ومرضت قلوبهم عن التوجّه إلى عقباهم، وصرفوا أوقاتهم بكليّتها إليها وإلى زخارفها ومقتنياتها، غافلين عن إدراك عيوبها ومساويها، ولم يعرفوا أنها غدّارة غرّارة يونق منظرها ويوبق مخبرها، وأنّها لم تفِ لأحد من عشاقها، ولم تصدق ظنّ أحد من طالبيها وراغبيها.

قوله صلوات الله عليه: «فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذن غير سميعة» لغفلته عمّا سوى المحبوب، وعدم تنبّهه بما فيه من العيوب، فلا ينظر إليه بنظر البصيرة والاعتبار حتّى يبصر ما فيه من المفاسد والمضارّ، ولا يستمع إلى المواعظ والزواجر والنواهي والأوامر حتّى يأخذ عدته ليوم تبلى السرائر.

»قد خرقت الشهوات عقله» شبّه العقل بالثوب، إذ كما أنّ الثوب زينة الانسان ووقاية للبدن من الحرّ والبرد فكذلك العقل زينة للمرء ووقاية له من حرّ نار الجحيم، يُعبد به الرحمن ويُكتسب به الجنان، وجعل عقل الرجل الموصوف بمنـزلة ثوب خَلِق، إذ الثوب إذا كان خرقاً خلقاً ممزّقاً لا ينتفع به صاحبه، فكذلك العقل إذا كان مفرّقاً بالشهوات الباطلة مصروفاً في اللذّات العاجلة لا يُنتفع به فيما خُلق لأجله البتّة.

قوله صلوات الله عليه: « وأماتت الدنيا قلبه» فلا انتفاع له به كميّت لا نفع له، «وولهت عليها نفسه» أي صار في فرط محبّته للدنيا بمنـزلة الواله عليها والمفتون بها «فهو عبد لها ولمن في يديه شيء منها»، لأنّه إذا كانت همّته مصروفة اليها وأوقاته مستغرقة في جمعها وجبايتها صار زمام أمره بيدها « حيثما زالت زال إليها وحيثما أقبلت أقبل عليها»، كعبد دائر في حركاته وسكناته مدار مولاه، وانقياده لسيده ربّما يكون قسريّاً، وخدمة ذلك لدنياه عن وجه الشوق والرغبة والرضا والمحبّة، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا	ما الناس إلا مع الدنيا
يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا	وصاحبها
	يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت

قوله صلوات الله عليه: «لا ينـزجر من الله بزاجر، ولا يتّعظ منه بواعظ» وهو يرى الكتب الآلهيّة والصحف السماويّة والأخبار المشحونة بذّم الدنيا، الناهية عن الركون إليها والإعتماد عليها، مضافاً إلى رؤيته المُخرَجين عن الدنيا بجبر وقهر، والمقلعين عنها بكره وقسر، «المأخوذين على الغرّة» وحالة الاغترار والغفلة، المشغولين بالدنيا وشهواتها، الغافلين عن هادم اللذّات وسكراته »حيث لا إقالة» لهم عن ذنوبهم «ولا رجعة» لهم إلى الدنيا ليتداركوا سيّئات أعمالهم.

»كيف نزل بهم» من شدائد الأهوال «ما كانوا يجهلون وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنون وقدموا من» عقبات «الآخرة ما كانوا يُوعدون» فإنّه لو تفكّر في ذلك وتذكّر ذلك يوشك أن يؤثّر فيه ويقلّ فرحه بالدنيا وشغفه بها. لأنّه بعد ما لاحظ أحوال هؤلاء الماضين وتصوّر تبدّد أجزائهم في قبورهم ومحو التراب حسن صورهم، وأنّهم كيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم، وخلت عنهم مجالسهم ومدارسهم، وانقطعت عنهم آثارهم ومعالمهم، وعرف أنّه عن قريب كائن مثلهم، انقلع ـ لا محالة ـ عن هؤلاء، وارتدع عن حبّ دنياه:

وماتوا جميعاً ومات الخبرْ تفانوا جميعاً فما مخبرٌ

فتمحو محاسن تلك الصورْ تروح وتغدو بناتُ الثرى

أما لك فيما ترى مُعْتَبَرْ فيا سائلي عن أناس مضوا

لا سيّما لو عمّق نظره في ما حلّ بالأموات بعد موتهم، وما نزل بساحتهم حين موتهم، لكان ندمه أشدّ وحسرته آكد.

]سكرات الموت:[

»فغير موصوف ما نزل بهم، اجتمعت عليهم سكرة الموت وحسرة الفوت ففترت لها أطرافهم وتغيّرت لها ألوانهم»

وذلك لأنّ ألم النـزع يسري في جميع أعضاء البدن ويستوعب الأطراف ويوجب ضعفها وفتورها.

قال الغزالي: واعلم أنّ شدّة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلاّ من ذاقها، ومن لم يذقها فإنّما يعرفها بالقياس إلى الآلام التي أدركها.

بيان ذلك القياس: أنّ كلّ عضو لا روح فيه فلا يحسّ بالألم، فإذا كان فيه فالمدرك للألم هو الروح، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح، فبقدر ما يسري إلى الروح يتألّم، والمؤلم يتفرّق على اللحم والدم وسائر الأجزاء فلا يصيب الروح إلاّ بعض الألم، فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشدّه!، والنـزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه، حتّى لم يبق جزء من أجزاء المنتشر في أعماق البدن إلاّ وقد حلّ به الألم، فلو أصابته شوكة فالألم الذي يجد إنّما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة.

وإنّما يعظم أثر الاحتراق لأنّ أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلاّ وتصيبه النار، فتحسّ الأجزاء الروحانيّة المنتشرة في سائر أجزاء اللحم، وأمّا الجراحة فإنّما تصيب الموضع الذي مسّه الحديد فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النـزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه،

فإنّه المنـزوع المجذوب من كلّ عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل، ومن أصل كلّ شعرة وبشرة من الفرق إلى القدم، حتّى قالوا: إنّ الموت لأشدّ من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، لأنّ قطع البدن بالسيف إنّما يؤلمه لتعلّقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح؟ وإنّما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته في قلبه وفي لسانه، وإنّما انقطع صوت الميّت وصياحه مع شدّة ألمه لأنّ الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كلّ موضع منه، فهدّ كلّ قوة وضعّف كلّ جارحة، فلم يترك له قوّة الاستغاثة.

وإلى ذلك أشار صلوات الله عليه بقوله: «ثمّ ازداد الموت فيهم وُلوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه» واستعار لفظ الولوج لما يتصوّر من فراق الحياة بعضو عضو، فأشبه ذلك دخول جسم في جسم آخر، والمقصود بذلك شدّة تأثير الموت في أبدانهم وإيجابه لضعف اللسان عن قوّة النطق والتكلّم.

نعم في رواية الكافي بإسناده عن زرارة، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: الحياة والموت خلقان من خلق الله، فإذا جاء الموت فدخل في الانسان لم يدخل في شيء إلاّ وخرجت منه الحياة.(90(

فإن ظاهر هذه الرواية مفيدة لكون الولوج في كلامه مستعملاً في معناه الحقيقي، اللهمّ إلاّ أن يُرتكب المجاز في ظاهر هذه أيضاً، فافهم.

»وإنّه لبين أهله ينظر» إليهم «ببصره ويسمع» كلامهم «بأذنه «ولا يتمكّن من إظهار ما فيه من الشدّة والحسرة عليهم لمكان ضعفه وعجزه مع أنّه «على صحّة من عقله وبقاء من لبّه» فهو راغب عن الدنيا مُقبل إلى الآخرة، مشغول بحاله محاسب على نفسه، متحسّر على ما قدّمت يداه، نادم على ما فرّط في جنب مولاه. «يفكر فيم أفنى عمره، وفيم أذهب دهره» ويتأثّر على غفلته في أيام مهلته «ويتذكّر أموالاً جمعها» واستغرق أوقاته فيها «أغمض في مطالبها» وتساهل في اكتسابها أيّامه، ولذلك لعدم مبالاته بأنّها من حلال أو حرام «وأخذها من مصرّحاتها ومشتبهاتها» أي من وجوه مباحة وذوات شبهة.

كما أشير إليه في الحديث النبويّ المعروف، قال (صلى الله عليه وآله): «إنّما الأمور ثلاثة: أمر بيّن رُشده فيُتّبع، وأمر بيّن غيّه فيُجتنب، وشبهات بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجى من المحرمات، ومن أخذ بالشبهات وقع في المحرمات وهلك من حيث لا يعلم.(91(

»قد لزمته تبعات جمعها» وآثام جبايتها «وأشرف على فراقها، تبقى لمن ورائه ينعمون فيها ويتمتّعون بها» وهم إمّا أهل طاعة الله فسعدوا بما شقي، وإمّا أهل معصيته فكان عوناً لهم على معصيتهم «فيكون المهنأ لغيره والعبءُ على ظهره» أي يكون هنائة تلك الأموال _أي كونها هنيئة_ لغيره، ووزرها وثقلها على ظهره.

وفي الحديث النبويّ المروي عن إرشاد القلوب، قال (صلى الله عليه وآله): «إذا حُمل الميت على نعشه رفرف روحه فوق النعش وهو ينادي: يا أهلي وولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعتُه من حلّ وغير حلّ وخلّفته لكم، فالمهنأ لكم والتعب عليّ، فاحذروا مثل ما قد نزل بي»،(92) ونعم ما قيل:

كأنّ أقاربي لم يعرفوني يمرّ أقاربي جنبات قبري
وما يألون أن جحدوا ديوني وذو الميراث يقتسمون مالي
فيالله أسرع ما نسوني وقد أخذوا سهامهمُ وعاشوا

قوله صلوات الله عليه: «والمرء قد غلقت رهونُه بها.«

قال الشارح المعتزلي: معناه أنّه لمّا كان قد شارف الرحيل وأشفى على الفراق صارت تلك الأموال التي جمعها مستحقّة لغيره ولم يبق له فيها تصرّف، وأشبهت الرهن الذي غلق على صاحبه، فخرج عن كونه مستحقّاً له، وصار مستحقّاً لغيره وهو المرتهن.(93(

وقال الشارح البحراني: ضربه صلوات الله عليه مثلاً لحصول المرء في تبعات ما جمع وارتباطه بها عن الوصول إلى كماله وانبعاثه إلى سعادته بعد الموت، وقد كان يمكنه فكاكها بالتوبة والأعمال الصالحة، فأشبه ما جمع من الهيئآت الرديّة في نفسه عن اكتساب الأموال، فارتهنت بها بما على الراهن من المال.

قوله صلوات الله عليه: «فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره» وانكشف له حينئذ من تفريطه، كما يعضّ يوم القيامة إذا عاين العقاب وشاهد طول العذاب.

قال سبحانه: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي».(94(

جاء في التفسير: أي يعضّ على يديه ندماً وأسفاً، قال عطاء :يأكل يديه حتّى تذهب إلى المرفقين ثمّ تنبتان، لا يزال هكذا كلّما نبتت يداه أكلهما ندامة على ما فعل.(95) وهو كناية عن الندم والتحسّر على ما فرّط في جنب الله، وقصّر في امتثال أمر مولاه.

قوله صلوات الله عليه: «ويزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره «من الأموال التي جمعها وخلّفها لغيره، «ويتمنّى أن الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه» لما ظهر له من تبعاتها وسوء عاقبتها.

»فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط لسانه سمعه فصار بين أهله لا» يقدر أن «ينطق بلسانه ولا» أن «يسمع

بسمعه» لانقطاع مادّة الحياة عن السمع واللسان «يردّد طرفه بالنظر في وجوههم» أي مخاطباتهم و«يرى حركات ألسنتهم ولا يسمع رجع كلامهم» أي ما يتراجعونه من الكلام لبطلان قوّته السامعة وبقاء قوتّه الباصرة بعد.

قوله صلوات الله عليه: «ثمّ ازداد الموت التياطاً به» أي التصاقاً «فقُبض بصره كما قُبض سمعه وخرجت الروح من جسده» ظاهر هذا الكلام بملاحظة ما سبق من قوله:«ثمّ ازداد الموت فيهم ولوجاً فحيل بين أحدهم وبين منطقه» الخ ...وما سبق أيضاً من قوله:«فلم يزل الموت يبالغ في جسده حتّى خالط لسانه سمعه» يفيد بُطلان آلة النطق في الانسان قبل آلتي السمع والبصر، ثمّ بطلان آلة البصر، وإنّما تبطل مع خروج الروح ومفارقتها عن البدن.

قال الشارح البحراني: وليس ذلك مطلقاً بل في بعض الناس، وأغلب ما يكون ذلك فيمن تعرض الموت الطبيعي لآلاته، وإلاّ فقد تعرض الآفة لقوّة البصر وآلته قبل آلة السمع وآلة النطق، والذي يلوح من أسباب ذلك أنّه لمّا كان السبب العام القريب للموت هو انطفاء الحرارة الغريزيّة عن فناء الرطوبة الأصليّة التي منها خُلقنا، وكان فناء تلك الرطوبة عن عمل الحرارة الغريزية فيها التجفيف والتحليل، وقد تُعينها على ذلك الأسباب الخارجية من الأهوية واستعمال الأدوية المجفّفة وسائر المجفّفات، كان كلّ عضو أيبس من طبيعته وأبرد أسرع إلى البطلان وأسبق إلى الفساد .

وقال الشارح الخوئي: أما أنّ آلة النطق أسرع من الأعصاب المفيدة للحسّ، واتّفق الأطباء على أنّ الأعصاب المحرّكة أيبس وأبرد، لكونها منبعثة من مؤخّر الدماغ دون الأعصاب المفيدة للحسّ، فإنّ جلّها منبعث من مقدّم الدماغ، فكان لذلك أقرب إلى البطلان، ولأنّ النطق أكثر شروطاً من السماع، لتوقّفه مع الآلة وسلامتها على الصوت وسلامة مخارجه ومجاري النفس، والأكثر شرطاً أسرع إلى الفساد.

وأمّا بطلان آلة السمع قبل البصر فلأنّ منبت الأعصاب ـ التي هي محل القوّة السامعة ـ أقرب إلى مؤخّر الدماغ من منابت محل القوّة الباصرة، فكانت أيبس وأبرد وأقبل لانطفاء الحرارة الغريزيّة، ولأنّ العصب المفروش على الصماخ الذي رُتّبت فيه قوّة السمع احتاج أن يكون مكشوفاً غير مسدود عنه سبيل الهواء، بخلاف العصب الذي هو آلة البصر، فكانت لذلك أصلب، والأصلب أيبس وأسرع فساداً، هذا مع أنّه قد يكون ذلك لتحلّل الروح الحامل للسمع قبل الروح الحامل للبصر أو لغير ذلك، والله أعلم.

]الجسد بعد الموت:[

وقوله صلوات الله عليه: «فصار جيفة بين أهله.»

لا يخفى ما في هذا التعبير من النكتة اللطيفة، وهو التنفير عن التعلّق بهذا البدن العنصري، والنهي عن التعزز بهذا

الهيكل الجسمانّي، فإنّ من كان أوله جيفة وآخره جيفة وهو في الدنيا حامل الجيف كيف يجوز له الاغترار بوجوده والتعزّز والتكبّر بذاته، لا سيّما بعد ملاحظة كون آخره جيفة أقذر من سائر الجيف حتّى جيفة الكلب والخنـزير، حيث إنّ سائر الجيف لا توجب على من لامسها الغسل بخلاف ميتة الانسان، فإنّ ملامستها توجب غسل المسّ، خصوصاً لو لاحظ أنّ أقرب الناس إليه وآنسهم به من الآباء والاخوان والبنات والولدان:

«قد أوحشوا من جانبه وتباعدوا من قُربه» مع كمال أُنسهم به ومحبتهم له، وجهة استيحاشهم منه حكم أوهامهم السخيفة على قواهم المتخيّلة بمحاكاة حاله في نفس المتوهّم، وعزل العقل في ذلك الموضوع، ولذلك أنّ المجاور لميت في موضع ظلمانّي منفرد يتخيّل أنّ الميت يجذبه إليه ويصيّره بحاله المنفورة عنها طبعاً.

وبالتالي فالمرء إذا خرجت روحه من جسده تنافر الناس عنه ويبقى فريداً وحيداً «لا يسعد باكياً» على بكائه «ولا يجيب داعياً» على دعائه، «ثمّ حملوه» أي حفدة الولدان وحشدة الإخوان «إلى مخطّ من الأرض» أي قبره الذي يخط وينـزل فيه، «فأسلموه فيه إلى عمله وانقطعوا عن زورته» ووجد ما عمله محضراً، فإن كان العمل صالحاً فنعم المؤنس والمعين، وإن كان سيّئاً فبئس المصاحب والقرين والعدوّ المبين.

[موارد الركون إلى الدنيا:]

والحقّ لو كان كلام يأخذ بالأعناق في التزهيد عن الدنيا والترغيب إلى الآخرة لكان هذا الكلام الذي ما أبعد غوره وأجزل قدره، فإنّ عمدة ما أوجب رغبة الراغبين إلى الدنيا والراكنين اليها والمغترّين بها إنّما هو أمور ثلاثة:

أحدها: حبّ المال، والثاني: حب الوجود، والثالث: حبّ الأولاد والبنين والأزواج والأقربين، فزهّد صلوات الله عليه عن كلّ ذلك بأحكم بيان وأوضح برهان.

أمّا عن المال فبأنّه عن قريب يفارقه وينتقل عنه، وتكون لذّته ومهناه لغيره ويبقى وزره وتبعته عليه. وأمّا عن وجوده ونفسه فبأنّه ستنمحي أعضاؤه وجوارحه ويبطل قواه وآلاته وتكون بالآخرة منبوذة بين أهله.

وأمّا عن الأولاد والأبناء والإخوان والأقرباء فبأنّهم سيفارقونه ويتنفّرون عنه ويستوحشون منه، فمن كان مآل ما أحبّه ذلك، فكيف يغترّ بذلك مع علمه بأنّ كلّ ذلك واقع لا محالة، واعتقاده بأنّ الموت لا يمكن الفرار منه البتة.

قال علي بن الحسين (عليه السلام): العجب كلّ العجب لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى!(96) وقال الله سبحانه:

«أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ».(97)

روى الأعمش عن خيثمة قال: دخل ملك الموت على سليمان بن داود »على نبينا وآله وعليهما السلام» فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فلمّا خرج قال الرجل: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنّه يريدني، قال(عليه السلام): فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلّصني منه فتأمر الريح حتّى تحملني إلى أقصى الهند، ففعلت الريح ذلك، ثمّ قال سليمان (عليه السلام): لملك الموت بعد أن أتاه ثانياً: رأيتُك تديم النظر الى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجّب منه لأنّي كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة، وكان عندك فتعجّبت من ذلك.(98(

]إدريس النبي وملك الموت:[

وفي الكافي عن علي بن إبراهيم، عن عمرو بن عثمان، عن مفضّل بن صالح، عن جابر، عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أخبرني جبرئيل أنّ ملكاً من ملائكة الله كانت له عند الله منـزلة عظيمة فتعتّب عليه فأهبطه من السماء إلى الأرض، فأتى إدريس (عليه السلام) فقال: إنّ لك من الله منـزلة فاشفع لي عند ربّك، فصلّى ثلاث ليال لا يفتر وصام أيّامها لا يفطر، ثمّ طلب إلى الله في السحر في الملك، فقال الملك: إنّك قد أُعطيت سؤلك وقد أطلق لي جناحي، وأنا أحبّ أن أكافيك فاطلب إليّ حاجة. قال: تريني ملك الموت لعلّي آنس به، فإنّه ليس يهنؤني مع ذكره شيء، فبسط جناحه ثمّ قال: اركب، فصعد به يطلب ملك الموت في السماء الدنيا، فقيل له: اصعد، فاستقبله بين السماء الرابعة والخامسة، فقال الملك: يا ملك الموت ما لي أراك قاطباً؟ قال: العجب أنّي تحت ظلّ العرش حيث أُمرت أن أقبض روح آدميّ بين السماء الرابعة والخامسة، فسمع إدريس (عليه السلام) بها فامتعض فخرّ من جناح الملك فقبض روحه مكانه، وقال الله (عز وجل): «وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا».(99) (100(

]أبيات في الموت:[

ونعم ما قيل في المقام:

لا يمنع الموت بوّاب ولا حرسُ	إنّ الحبيب من الأحباب مختلَسُ
يا من يُعَدُّ عليه اللفظ والنفسُ	فكيف تفرح بالدنيا ولذّتها
وأنت دهرك في اللذات منغمسُ	أصبحت يا غافلاً في النقص
ولا الذي كان منه العلم يقتبس	منغمسا

عن الجواب لساناً ما به خرس — لا يرحم الموت ذا جهل لغرّته

فقبرك اليوم في الأجداث مندرس — كم أخرس الموت في قبر وقفت به

قد كان قصرك معموراً به شرف

* * *

(1)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 7: 20، ط مكتبة المرعشي االنجفي.

(2)الأحقاف: 33.

(3)الإرشاد للمفيد 1: 296؛ بحار الأنوار .129 /70

(4)الحج: 1.

(5)البقرة: 281.

(6)الحشر: 18.

(7)البقرة: 197.

(8)بحار الأنوار 75: 31/ ح98، وفيه: الصعب المعصية، والأصعب فوات ثوابها، والقريب كلّ ما هو آت، والأقرب هو الموت.

(9)الدخان: 56.

(10)فاطر: 34.

(11)الحج: 24.

(12)النبأ: 35.

(13)الحجر: 47 و48.

(14)ص: 49 - 54.

(15)بحار الأنوار 8: 196/ ح181.

(16)بحار الأنوار 8: 196/ ح182؛ تفسير مجمع البيان 8: 50.

(17)بحار الأنوار 8: 196/ ح183، تفسير مجمع البيان 8: 50.

(18)النساء: 69.

(19)الطور: 22.

(20)الصافات: 51 - 57.

(21)المدّثّر: 39 - 46.

(22)الزخرف: 59 - 71.

(23)ق: 35.

(24)الشورى: 22.

(25)يس: 57.

(26)آل عمران: 195.

(27)الرحمن: 58.

(28)الإنسان: 5 و6.

(29)الإنسان: 12 - 22.

(30)الحج: 23.

(31)فاطر: 34 و35.

(32)مريم: 61 و62.

(33)الغاشية: 8 - 16.

(34)الرعد: 23 و24.

(35)الدخان: 52 - 56.

(36)يونس: 10.

(37)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 258.11 :

(38)بحار الأنوار 70: 83/ ح46.

(39)بحار الأنوار 67: 320/ ح36.

(40)آل عمران: 148.

(41)غافر: 51.

(42)النحل: 31.

(43)الأنعام: 125.

(44)الأعراف: 64.

(45)الأعراف: 72.

(46)البقرة: 96.

(47)طه: 125.

(48)آل عمران: 14.

(49)النساء: 77.

(50)لقمان: 24.

(51)آل عمران: 196 و197.

(52)العلق: 6 و7.

(53)البقرة: 205.

(54)إبراهيم: 28 و29.

(55)الأنفال: 36.

(56)البقرة: 6.

(57)آل عمران: 179.

(58)الزخرف: 33 - 35.

(59)آل عمران: 56.

(60)آل عمران: 151.

(61)البقرة: 65 و66.

(62)العنكبوت: 38 - 40.

(63)يوسف: 111.

(64)الأعراف: 78.

(65)الأعراف: 83 و84.

(66)الأعراف: 133.

(67)الأعراف: 136.

(68)الأنفال: 33.

(69)عوالي اللئالي 1: 273/ ح95.

(70)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 /342 :الرقم 928.

(71)يوسف: 53.

(72)الأعراف: 32.

(73)البقرة: 57.

(74)البقرة: 57 و172؛ الأعراف: 160.

(75)قال (عليه السلام): «ولو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفّى هذا العسل ولُباب هذا القمح ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القُرص ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى «...انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16: 286.

(76)الأحزاب: 62؛ الفتح: 23.

(77)الإنسان: 12 - 22.

(78)محمد: 15.

(79)البقرة: 25.

(80)مجمع البحرين 1: 414.

(81)بحار الأنوار 8: 196/ ح181.

(82)بحار الأنوار 8: 196/ ح182.

(83)أمالي الشيخ المفيد: 266.

(84)بحار الأنوار 8: 193/ ح174.

(85)رواه أيضاً ابن أبي الحديد في شرح النهج 9: 280.

(86)رواه ابن أبي الحديد في شرح النهج 280.09 :

(87)شرح النهج لابن أبي الحديد 9: 280.

(88)بحار الأنوار 8: 149/ ح82.

(89)بحار الأنوار 14: 26/ ح4.

(90)الكافي 3: 259/ ح34؛ بحار الأنوار 6 /117 :ح2.

(91)الاحتجاج 2: 107 .

(92)بحار الانوار 6: 161/ح28.

(93)شرح نهج البلاغة 7: 209.

(94)الفرقان: 27 - 29.

(95)تفسير مجمع البيان 7: 292.

(96)أمالي الطوسي: 663/ ح1387؛ بحار الانوار 7: 42/ ح15.

(97)النساء: 78.

(98)المصنف لابن ابي شيبة 8: 118/ ح3.

(99)مريم: 57.

(100)التفسير الصافي 3: 286؛ تفسير نور الثقلين 3: 249.

ومن خطبة له (عليه السلام] :(في إرساله الرسل وحالة العرب قبل الإسلام[

»وَلَمْ يُخْلِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ رُسُلٌ لا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ وَلَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ وَمَضَتِ الدُّهُورُ وَسَلَفَتِ الْآبَاءُ وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مُحَمَّداً رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) لِإِنْجَازِ عِدَتِهِ وَإِتْمَامِ نُبُوَّتِهِ مَأْخُوذاً عَلَى النَّبِيِّينَ مِيثَاقُهُ مَشْهُورَةً سِمَاتُهُ كَرِيماً مِيلَادُهُ وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ وَأَهْوَاءٌ مُنْتَشِرَةٌ وَطَرَائِقُ مُتَشَتِّتَةٌ بَيْنَ مُشَبِّهٍ لِلَّهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ ثُمَّ اخْتَارَ سُبْحَانَهُ لِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وآله) لِقَاءَهُ وَرَضِيَ لَهُ مَا عِنْدَهُ وَأَكْرَمَهُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا وَرَغِبَ بِهِ عَنْ مَقَامِ الْبَلْوَى فَقَبَضَهُ إِلَيْهِ كَرِيماً (صلى الله عليه وآله.«(

)شرح ابن ابي الحديد مج1، ص37، ط الاولى.(

* * *

الشرح:

قال الشارح المعتزلي في قوله صلوات الله عليه: «مأخوذاً على النبيّين ميثاقُه» قيل: لم يكن نبيّ قطّ إلاّ وبُشّر بمبعث محمّد (صلى الله عليه وآله) وأُخذ عليه تعظيمه وإن كان بعد لم يوجد.

]الأديان في عصر الجاهلية:[

وأمّا قوله صلوات الله عليه: «وأهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة». فإنّ العلماء يذكرون أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) بُعث والناس أصناف شيء في أديانهم، يهود ونصارى ومجوس وصابئون وعبدة أصنام وفلاسفة وزنادقة. فأمّا الأمّة التي بُعث محمّد (صلى الله عليه وآله) فيها فهم العرب، وكانوا أصنافاً شتّى :فمنهم معطّلة ومنهم غير معطّلة، فأمّا المعطّلة منهم فبعضهم أنكر الخالق والبعث والاعادة وقالوا ما قال القرآن العزيز عنهم: «ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ»(1) فجعلوا الجامع لهم الطبع والمُهلك الدهر. ومنهم من اعترف بالخالق سبحانه وأنكر البعث، وهم الذين أخبر سبحانه عنهم بقوله: «قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ».(2) ومنهم من أقرّ بالخالق ونوع من الاعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنّها شفعاء عند الله في الآخرة، وحجّوا لها، ونحروا لها الهدي، وقرّبوا لها القرابين، وحلّلوا وحرّموا، وهم جمهور العرب، وهم الذين قال الله تعالى عنهم: «ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الأْسْواقِ».(3)

وممّن نطق شعره بإنكار البعث بعضهم يرثي قتلى بدر:

من الفتيان والقوم الكرامِ	فماذا بالقليب قليب بدر
من الشيرى تكلّل بالسهام	وماذا بالقليب قليب بدر
وكيف حياة أصداء وهام	أيخبرنا ابن كبشة أن
فقد شبع الأنيس من الطعام	سنحيا
ويُحييني إذا رُمّت عظامي(4)	إذا ما الرأس زال بمنكبيه
	أيقتلني إذا ما كنت حيّاً

وممّن أنكر المعاد يزيد بن معاوية، فقد ذكر السبط ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص» نقلاً عن ديوان يزيد:

بذلك إنّي لا أحبّ التناجيا

إلى أُحدٍ حتّى أقام البواكيا

تخيّرها العنسيّ كرماً شآميا

وجدنا حلالاً شربها متواليا

ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا

أحاديث طسمٍ تجعل القلب ساهيا(5)

عليّة هاتي واعلني وترنّمي

حديث أبي سفيان قدماً سما

بها

ألا هات سقّيني على ذاك

قهوةً

إذا ما نظرنا في أمورٍ قديمة

وإن متُّ يا أمّ الأحيمر

فانكحي

فإنّ الذي حدّثت عن يوم

بعثنا

قال ابن أبي الحديد: وكان من العرب من يعتقد التناسخ وتنقّل الأرواح في الأجساد ومن هؤلاء أرباب الهامة الذين قال النبي (صلى الله عليه وآله (عنهم: لا عدوى ولا هامة ولا صفر...(6)

وكانوا في عبادة الأصنام مختلفين: فمنهم من يجعلها مشاركة للباري تعالى، ويطلق عليها لفظ الشريك، ومن ذلك قولهم في التلبية: لبّيك اللهمّ لبّيك لا شريك لك إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

ومنهم من لا يُطلق عليها لفظ الشريك ويجعلها وسائل وذرائع إلى الخالق سبحانه، وهم الذين قالوا «ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى».(7)

وكان في العرب مشبّهة ومجسّمة، منهم أميّة بن أبي الصلت، وهو القائل:

من فوق عرش جالس قد حطّ رجليه إلى كرسيّه المنصوب

]أصنام العرب:[

وكان جمهورهم عبدة الأصنام: فكان ودّ لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ونسر لحِمير، ويغوث لهمدان، واللات لثقيف بالطائف، والعزّى لكنانة وقريش وبعض بني سليم، ومناة لغسّان والأوس والخزرج، وكان هُبل لقريش خاصّة على ظهر الكعبة، وأساف ونائلة على الصفا والمروة، وكان في العرب من يميل الى اليهوديّة، منهم جماعة من التبابعة وملوك اليمن، ومنهم نصارى كبني تغلب والعباديين رهط عديّ بن زيد، ونصارى نجران، ومنهم من كان يميل الى

الصابئة ويقول بالنجوم والأنوار.

فأما الذين ليسوا بمعطّلة من العرب فالقليل منهم، وهم المتألّهون وأصحاب الورع والتحرّج عن القبائح، كعبد الله وعبد المطّلب وابنه أبي طالب وزيد بن عمرو بن نفيل وقسّ بن ساعدة الأيادي وعامر بن الظرب الغدواني وجماعة غير هؤلاء.

وغرضنا من هذا التفصيل بيان قوله صلوات الله عليه: «بين مُشبّهٍ لله بخلقه أو ملحدٍ في اسمه إلى غير ذلك»، انتهى.(8(

ساق صلوات الله عليه هذه الخطبة بما اقتضاه الترتيب الطبيعيّ، أي من لدن آدم (عليه السلام) إلى بعث محمّد (صلى الله عليه وآله) وهداية الخلق به واقتباسهم من أنوار وجوده الذي هو المقصود والعمدة في باب البعثة، فقال صلوات الله عليه:«على ذلك» يعني على هذا الأسلوب الذي ذكرناه من عدم إخلاء الأرض والخلق من الأنبياء والحجُج، «نسلت القرون» وولدت أو أسرعت، وهو كناية عن انقضائها »ومضت الدهور وسلفت الآباء» أي تقدّموا وانقضوا «وخلفت الأبناء» أي جاؤوا بعد آبائهم وصاروا خليفة لهم، «إلى أن بعث الله» النبيّ الأميّ العربي القرشيّ الهاشميّ الأبطحيّ التهاميّ المصطفى من دوحة الرسالة، والمرتضى من شجرة الولاية «محمداً (صلى الله عليه وآله) لإنجاز عدته» التي وعدها لخلقه على ألسنة رُسله السابقين بوجوده)صلى الله عليه وآله) «ولإتمام نبوّته» ليهتدي الناس به إلى سبيل الحقّ، ويفيئوا من ضلالهم القديم إلى سلوك الصراط المستقيم، ولينقذهم ببركة نوره من ظلمات الجهل إلى أنوار اليقين، فقام بالدعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، فجلا الله بنوره صداء قلوب الخلق، وأزهق باطل الشيطان بما جاء به من الحقّ والصدق، وانطلقت الألسن بذِكر الله، واستنارت البصائر بمعرفة الله، وكمل به دينه في أقصى بلاد العالم، وأتمّ به نعمته على كافّة عباده، كما قال تعالى:«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً».(9(

]كيف يختار الله أنبياءه:[

جاء في كتاب (التكامل في الإسلام) لمؤلّفه أحمد أمين الكاظميّ العراقيّ (رحمه الله) تحت عنوان «كيف يختار الله أنبياءه (عليهم السلام:«(

»النبوّة ليست إلاّ سفارة ربّانية يُودعها الله أكمل عباده خَلقاً وخُلقاً، أي أكملهم في البدن والروح، أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة، وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوّة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال.

إن الله وهو الكامل على الإطلاق لا يُرجّح أحداً على أحد دونما سبب وحكمة، وهو معطي الحكمة، وحاشا أن يلهو، وهو القائل: «لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ» (الانبياء (17 :فلا يسند أمر السفارة بينه وبين خلقه إلا إلى أكمل عباده.

والله تعالى عادل، إذ العدل صفة ملازمة للكمال، وإن الكامل غير محتاج، ولا يحيد عن العدل إلاّ مَن كان محتاجاً إلى الجور والظلم، والكامل غنيّ عن ذلك كله، لعدم وجود حاجة لديه إلى شيء. إذن وجب أن نبحث عن الصفات التي توفّرت في ثلّة من الناس حتى أسند إليهم منصب السفارة الإلهيّة كي يقوموا بتكميل البشر وإيصاله إلى الكمال المنشود.

]صفات الأنبياء:[

الصفة الأولى: هي طهارة المولد، ذلك لأنّ لهذا النوع من الطهارة أثراً فعالاً في الاتّجاهات النفسيّة كما تؤيّده التجارب، فالأنبياء كلّهم »وأكملهم نبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله)« كانوا يتقلّبون في أصلاب طاهرة وأرحام مطهّرة «طابت وطَهُرت بعضُها من بعض»، فأسرة محمّد (صلى الله عليه وآله) خير أسرة، وشجرته خير شجرة، أغصانها معتدلة، وثمارها متهدّلة، كلّما قسم الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما، لم يُسهم فيه عاهر، ولا ضرب فيه فاجر.

وفي «إثبات الوصيّة» للمسعودي شرح وافٍ في كيفية انتقال النبوّة والسفارة الإلهيّة والوصيّة من لدن آدم من بطن إلى بطن حتّى انتهت إلى محمّد (صلى الله عليه وآله)، فنور محمّد توارثه الأنبياء حتّى انتهى إلى عبد الله بن عبد المطلب.

ثمّ إنّ الله تعالى لا يجتبي أحداً ولا يرجّح بين عباده الاّ بالتقوى «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ »(10) فالأنبياء (عليهم السلام) هم أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم، وإنّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) كان منذ صغره وطفولته مثالاً رفيعاً للتقوى والكمال، لم يتأثّر ببيئة كانت تعبد الأصنام وتأتي بأنواع الفجور والفسوق والبغي والظلم، خلافاً لما يقرّره علماء التربية وعلم النفس في عصرنا:«أنّ الطفل يتأثّر ببيئته إلى حدّ كبير». فلم يسجد لصنم، ولم يحضر مع قومه في أيّ عيد من أعياد الأصنام، ولم يأكل قطّ مما كان يُذبح قُرباناً للأصنام، فكان منذ صغره حسن الخلق، طاهر العقيدة، لم يتلوّث تفكيره بعقائد الجاهلية، ولم يُحاكِ أترابه في لهوهم وسحرهم، ولما صار زوجاً لخديجة كان على درجة من رغد تمكّنه من أن يعيش عيشة هنيئة كما يعيش عظماء مكّة وأغنياؤها، لكنّه ـ مع ذلك ـ كان زاهداً في الحياة الدنيا ولذّاتها، متقشّفاً مُؤثراً بساطة العيش، فحبّبت اليه العزلة، لقد اختار غار (حراء) في جبل يبعد عن مكّة ثلاثة أميال، كان يخلو فيه بنفسه أياماً وليالي متتابعة، فيفكّر فيه في عظمة الخالق جلّ جلاله وما أودع في هذا الكون من خواص

وأنظمة ما يُحيّر الالباب، ويتعبّد فيه لربة.

وكان (صلى الله عليه وآله) متحلّياً بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة وعفّة ووقار إلى حدّ بعيد.

إنّ عزلة محمد (صلى الله عليه وآله) كانت للتفكير والتأمّل، وذلك بإلهام منه تعالى كي يزداد صفاءً وتقرّباً إلى الله جلّت عظمتُه، حتّى تصبح نفسه الزكيّة على أتمّ استعداد لتلقّي أعباء الرسالة العظيمة التي اختاره الله لها.

كلّ ما ذكرنا مؤهّلات لأن تجعل محمّداً (صلى الله عليه وآله (فوق من على البسيطة في ذلك الوقت، بل وفي كلّ وقت وزمان، فتنحصر فيه الرسالة بجدارة لا يُضاهيه فيها أحد أبد الآبدين.

* * *

]الشكر عصارة التقوى:[

إن عُصارة التقوى تتجلّى في الشكر، ولا صفة تقرّب العبد إلى الله تعالى كالشكر، يأتي النبي (صلى الله عليه وآله) إلى بيت إحدى زوجاته، ينهض من فراشه ولا ينام، يتوضّأ بماء قليل، يستقبل القِبلة ويصلّي، وكلّما تستيقظ زوجته تراه مصلّياً شاكراً ربّه، فتقول: ألا تنام وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فيقول (صلى الله عليه وآله): أفلا أكون عبداً شكوراً.(11(

إن الشكر على ضربَين: شكر لسانّي وقلبيّ، وشكر عمليّ، فأمّا اللساني: أن يذكر العبد مولاه في كلّ لحظة، ويحمده على عظيم نعمائه وحُسن بلائه، وأن لا يفتر عن ذلك، وأمّا الشكر العمليّ: فيتجلّى في الأعمال الصالحة والقيام بمبرّات وأعمال خيريّة، والايثار والجهاد في سبيل الله، والقيام بأداء الحقوق من ماديّة ومعنويّة وأمثال ذلك، وإنّ رسالة الحقوق لمولانا الإمام زين العابدين (عليه السلام) توضّح ذلك، فهنيئاً للعاملين «وَقَلِيلٌ ما هُمْ».(12(

نفس النبي (صلى الله عليه وآله) فوق النفوس المتعارفة، وما تجمّعت فيه من الأخلاق المثالية فوق الأخلاق العادية، ولا تودع السفارة الإلهيّة نفوساً لها من الثراء والمال والجاه والمكانة شيء مرموق؛ لأنّ هذه الأمور لا تمتّ بالنفس بصلة.

وإنّما النبوّة قضيّة نفسيّة بحتة، كما أنّ الايمان لا يلج نفوساً لها من المكانة والاعتبارات الدنيويّة فحسب، بل تدخل نفوساً شاكرة لله، نفوساً لها من الصفاء والجلاء ما يجعلها لائقة لقبول الحقّ، فلا تتكبّر عن الاذعان بما هو حقّ، ولا تحسد ولا تبخل، فإنّ أصول الكفر ثلاثة: البخل، والحسد، والكبر،(13 (كما جاء في الحديث.

* * *

]صفات رسول الله (صلى الله عليه وآله:[(

كان محمّد (صلى الله عليه وآله) مشهوراً بين قومه بأمانته وطهارة نفسه وعفّته، وكان متحلّياً بمكارم الأخلاق على

عكس غيره من شبّان زمانه، والمعروف أنّ فترة الشباب من عمر الانسان هي الفترة التي يندفع فيها الشبّان إلى الشهوات، ولكنّ حياة محمد (صلى الله عليه وآله) في هذه الفترة كانت حياة مثاليّة نموذجيّة، حتّى لقّبه قومه «بالأمين»، ولذلك لم يجد قومه عندما اشتدّ الخصام بينهم وبينه شيئاً يمسّ شرفه أو يطعن في عفّته، مع أنّهم كانوا حريصين على النيل منه في هذه الناحية، فقد كانت دعوته قائمة على إشاعة طهارة النفس والمحافظة على العفّة، ومقاومة التيّارات النفسيّة الخبيثة، فإذا نفذوا إلى شيء ممّا يريدون استطاعوا أن يشكّكوا العرب في دعوته حتّى ينفضّوا عنه، وكان من المألوف آنذاك الانحراف الخلقيّ، ومع ذلك فلم يقف أعداؤه على حادثة واحدة يجرحونه بها، وإذا أضفنا إلى ذلك ما يقوله علماء النفس من أنّ فترة الشباب فترة خطيرة تثور فيها الغرائز الجنسيّة، استطعنا أن نفهم قوّة إرادة محمد (صلى الله عليه وآله) في ضبط نفسه في شبابه وتحكّمه في ميوله الجنسيّة تحكّماً جعله مثالاً للطهارة والعفّة، وطهارة النفس وخلوّها من الشهوات المحرّمة والنـزوات لمن أهمّ العوامل التي تجعل الفرد قميناً بلطف الله وعنايته، وجديراً بأن يكون هادياً للناس أجمعين.

يقول (السير وليم موير): «إنّ محمّداً في شبابه طُبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تُعرف بها.«

فمن كان في شبابه مثالاً لطهارة النفس والعفّة إلى حدّ بعيد، يستحيل أن يجري وراء الشهوات واللذّة بعد بلوغه سنّ الاكتمال والرزانة، وهو يخوض معارك طاحنة مستعرة، فقد اكتفى بخديجة (عليها السلام) وهي أكبر منه 15 سنة، إلى أن بلغ 54 من عمره، ثم تزوّج بسودة، ثم بعائشة تلبية لرجاء أبي بكر حيث شاهد الرسول)صلى الله عليه وآله) مغموماً على فراق خديجة (عليها السلام)، ثمّ تزوّج بالعجائز والأرامل اللاتي فاتهنّ سنّ الشباب، وقد أصبحن بلا عائل لأنّه قد استشهد أزواجهن في الغزوات، ولقد تنبّه بعض كتّاب المسيحيّة المُنصفين فقالوا: «إنّه لا يمكن أن يكون الدافع لمحمّد على الاكثار من زوجاته في هذا الوقت إلا الرحمة والشفقة، ومن البعيد جداً أن يكون قد قصد من هذا اللذّة والمتعة؛ لأنّ من تزوّج منهنّ كنّ متقدّمات في السن وأرامل فقيرات.«

لا سيّما وإنّ الرسول قد أمر بالتهجّد وإحياء بعض الليل بصلاة وتلاوة القرآن ومناجاة ربّه، وما أعظمها: وذلك لقوله تعالى: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً»(14) ثم يقول» :إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ»،(15) وقد ثبت من حياته (صلى الله عليه وآله) أنّه كان يقرأ القرآن وهو قائم في صلاته حتّى تتورّم قدماه، فأنّى الوقت الذي يبقى بعد ذلك حتّى يبلغ فيه مراده من اللذائذ مع ما هنا لك من غزوات وحروب؟

وكان في استطاعة الرسول (صلى الله عليه وآله) أن يمتلك الجواري والعبيد، ويعيش في قصور، وتكون له أبّهة

كسرى وعظمة هرقل، لكن رضي ببساطة المسكن والملبس، وكان يشدّ على بطنه حجر المجاعة، ولمّا رأت زوجاته أنّ نساء المسلمين قد تغيّرت أحوالهنّ وأصبحن يتقلّبن في النعيم شكون إليه، وكنّ يعتقدن أنّهن صاحبات حقّ في التمتّع بما يتمتّع به غيرهن بسبب الرخاء الذي أصاب الدولة الإسلاميّة، فنـزل قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآْخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً».(16(

وقد قلنا إنّ من أهمّ الصفات التي تجعل الفرد قريباً إلى الله تعالى وموضع لطفه ورفده إنّما هو (الشكر)، ذلك لأنّ الكمال الانسانّي إنّما يتجلّى بأدائه واجب الشكر تجاه المنعم، لذلك يقول الله تعالى وهو الحقّ:«وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .«

إنّ المشركين أخذوا يزدرون الذين آمنوا ويعترضون على إيمانهم، لأنّ هؤلاء المؤمنين ما كانوا يملكون من المال والجاه شيئاً، وذلك بقولهم إزدراءً: «أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا»(17) وقد فاتهم أنّ الإيمان أمر روحي يتوجّه إلى النفس الإنسانيّة مباشرة، ولا علاقة له بالمال والجاه.

الإيمان يحلّ في النفوس الشاكرة، فكلّما كانت النفس شاكرة أكثر كان إيمانها أقوى وأمتن، حتّى ينتهي إلى الوصاية والنبوّة، والنفس الشاكرة ليس لها إمارات خارجيّة وعلامات فارقة ماديّة، كالثياب الفاخرة وأعوان وأنصار ومنصب وجاه، وقد تجد هذه النفس الشاكرة في رقاع ولا تجدها في قارون.

نعم؛ إنّ هؤلاء المتكبّرين كانوا يقولون: «لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ»(18) أي لو كان ما أتى به محمّد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء المهينون ونحن أرفع منهم، كأنّ الخير يتبع المال والمنال والجاه والمنصب، حتّى أنّ هذه الأمور عوائق تعوق النفس الانسانيّة عن أن تتوجّه نحو الحقّ والواقع لو لم تستعمل في ما أمر الله به، ولم تؤدّ حقوقها وواجباتها، وقلّ من يقوى عليها إلاّ من رحم الله.

روي أنّ أبا جهل قال: زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف، حتّى إذا صرنا كفرسَي رهان قالوا «منّا نبي يُوحى إليه» والله لا نرضى به إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنـزلت هذه الآية: «وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ»،(19) (20) فإنّ هؤلاء المعترضين كانوا ـ مع إجرامهم وآثامهم وفسوقهم ـ يريدون أن يكونوا أنبياء، حين أنّهم يستحقّون الصغار والهوان والعذاب والخزي بما كسبت أيديهم، «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ»،(21) فالبشر كلّهم في نظر الله على حدّ سواء، من أطاع منهم بلغ مراتب عالية حتّى تنتهي إلى النبوّة أو ما يقارب النبوّة، وقد جاء في الحديث القدسيّ أنّ الله تعالى يقول: «عبدي أطِعني أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون»،(22) أرأفة أعظم من هذه؟

يُعطي الله عبده إذا أطاعه صفة الخالقيّة والإيجاد بإذنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، وهذه هي المعاجز التي ظهرت على أيدي الأنبياء (عليهم السلام) والأوصياء بإذن الله تعالى وقدرته جلّ وعلا.

ثمّ يجب أن تكون نفس النّبي نفساً متعلّقة بالحقّ لا تفتر عن التوجّه إلى الله ومناجاته وذِكره ـ جلّ وعلا ـ طرفةَ عين أبداً، لا ترى شيئاً إلاّ وترى الله معه وقبله وبعده.

إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) كان لا يقوم بعمل إلاّ ويذكر الله تعالى، يراقب الله في جميع الأمور ويخشاه، فإذا جاء أمر يحبّه قال :الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وإذا أتاه أمر يكرهه قال: الحمد لله على كلّ حال، وإن قصد فعل شيء قال: اللهمّ خر لي واختر لي، وإن أراد سفراً قال: اللهمّ بك أصول وبك أجول، وإذا أراد نوماً قال: اللهمّ باسمك وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور، وإن لبس ثوباً جديداً قال: الحمد لله الذي رزقني ما أتجمّل به في حياتي، وإن أكل قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا من المسلمين، وإن شرب قال: الحمد لله الذي أعانني فصُمت، ورزقني فأفطرت، وإذا رفع بصره إلى السماء قال: يا مصرّف القلوب ثبّت قلبي على طاعتك، وإذا أصابه همّ قال: حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الرازق من المرزوقين، حسبي الذي هو حسبي، حسبي الله ونعم الوكيل. فهذه الصفات هي بعض ما يجب أن تتوفّر في من يناط به تكميل الناس أجمعين.

ثم إنّ قدسيّة النفوس لتؤثر في سيماء الأبدان فتُضفي عليها نوراً وبهاءاً من شاهدها ابتهج وسكن إليها وآمن بها، يعلم ذلك من خالط الأتقياء والصالحين من عباد الله، فكان وجه رسول الله يتلألأ تلألؤ القمر ليلة البدر، ولذلك كان يأتيه بعض الأعراب فيقولون حين وقوع أبصارهم على محيّاه: والله ما هذا الوجه بوجه كذّاب.

ولا مراء أنّ الصدق يصاحب الخير والبر، والكذب يساير الفجور والشرّ، وعلى ذلك كانت خديجة سلام الله عليها تعلم من النبي (صلى الله عليه وآله (أنّه الصادق البارّ؛ تقول للنبي (صلى الله عليه وآله) حين جاءه الوحي: والله لا يُخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرَحِم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُقري الضيف، وتكسي المعدم، وتُعين على نوائب الحقّ.(23(

]أخلاق النبي محمد (صلى الله عليه وآله:[(

قال ابن سعد في الطبقات:«كان محمّد (صلى الله عليه وآله) قبل النبوّة أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش والأذى، وما رؤي مُلاحياً ولا مُمارياً أحداً، حتّى سمّاه قومه الأمين».(24(

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ـ وهو الذي بُعث رحمة للعالمين ـ يجلس على الأرض تواضعاً وينام عليها، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويفتح الباب، ويحلب الشاة، ويعقل البعير، ويطحن مع الخادم إذا أعيا، ويضع طهوره بالليل بيده، ولا يجلس متّكئاً، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم، ولا يثبت بصره في وجه أحد، يغضب لربّه ولا يغضب لنفسه، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، ويلبس الغليظ من القطن والكتّان، ويشيّع الجنائز، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويُجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده، ويُكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألّف أهل الشر بالبرّ إليهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على غيرهم إلاّ بما أمر الله، يقبل معذرة المعتذر إليه، وكان أكثر الناس تبسّماً ما لم ينـزل عليه قرآن، لا يرتفع على عبيده وإمائه في مأكل ولا في ملبس، يأكل مع الخادم، ويحمل بضاعته من السوق، لا يأتيه أحد حرٌّ أو عبد أو أمة إلاّ قام معه في حاجته، ولا يَجزي السيئة بالسيئة ولكن يغفر ويصفح، ويبدأ مَن لقيه بالسلام، وإذا لقى مسلماً بدأه بالمصافحة، وكان لا يجلس إليه أحد إلاّ خفّف صلاته وأقبل عليه وقال: ألك حاجة؟، وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، وكان أكثر ما يجلس مُستقبل القبلة، وكان يُكرم من يدخل عليه، حتّى ربّما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته، وكان في الرضا والغضب لا يقول إلاّ حقّاً، وإذا لقيه الرجل فصافحه لم ينـزع يده من يده، حتّى يكون الرجل هو الذي ينـزعها، وإذا لقيه أحد فقام معه أو جالسه أحد لم ينصرف حتّى يكون الرجل هو الذي ينصرف. (25(

وكان (صلى الله عليه وآله) أشجع الناس قلباً، وأشدّهم بأساً، وأكثرهم حياءاً.

لا أعلم أنّ رجلاً يقوى على أن يثابر على صفة واحدة من هذه الصفات السامية طيلة حياته مهما عظمت نفسه وتكاملت روحه، إلاّ إذا كان نبيّاً أو وصيّ نبيّ، أو بالأحرى من كان جزاؤه النبوّة أو الوصاية. نعم إنّ صفات الكمال لا تصدر إلاّ عن نفس قدسيّة وروح ملكوتيّة قد تخلّصت من قيود الأهواء، وتحرّرت من عبوديّة الشهرة وحبّ الصيت، واستمدّت من النور الإلهيّ والهداية الصمدانيّة.

يجب أن تكون نفس النبي بالغة من القدسيّة درجة يتحمّل معها الوحي، ويقوى على الاتّصال بالمبدأ الأعلى، وكان نبيّنا (صلى الله عليه وآله) ـ مع تلك القدسيّة البالغة ـ يرجف ويعرق حين نزول الوحي عليه ويقول: زمّلوني، فكان يُغطّى إلى أن يذهب عنه الروع، لذلك خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله: «يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً».(26(

ولمّا قدم جارود على النبي (صلى الله عليه وآله) قال: إن كنتَ نبيّاً فأخبرني عمّا أضمرت. فخفق النبيّ خفقة كأنّها سِنة ثمّ رفع رأسه والعرق يتحدّر عنه، فقال: إنّك أضمرت أن تسألني عن دماء الجاهليّة وعن حلف الإسلام وعن المنيحة، ألا وإنّ دم الجاهليّة موضوع، وحلفها مردود، ولا حلف في الاسلام. ألا وإنّ أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر الدابّة ولبن الشاة.(27(

* * *

]قصور البعض عن إدراك عظمة النبي (صلى الله عليه وآله:[(

وقد تأثّر بعض علماء المسلمين بروح الغرب الماديّة، ففسّروا القرآن متأثّرين بالماديّة العصريّة، وأنكروا نزول الوحي بواسطة جبرائيل(عليه السلام)، وأنكروا وجود الجنّ، وقالوا: إنّ روح محمّد قد بلغت مرتبة من السموّ حتّى صارت تتجلّى لها الحقائق، وخالفوا صريح القرآن والسنّة المتواترة والعقل، وقاسوا الأمور الروحيّة وما هو وراء الطبيعة بمقاييس ماديّة طبيعيّة، ولم يحتمّلوا أنّه سيأتي يوم يعترف فيه فلاسفة عظام بما وراء المادة، ذلك لأنّ الروح الإنسانيّة مهما تعرّفت على حقائق المادة، ليس لها ـ إذا أرادت التكامل في عوامل النفس ـ إلاّ أن تستفيض من ما وراء الطبيعة، ولا بدّ لها أن تستقي من المبدأ الأعلى الفيّاض بواسطة سفراء بين الله وعباده، وهم الأنبياء (عليهم السلام): «وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ».(28) إنّ النفس القدسيّة التي لا تجاريها النفوس المتعارفة أو ما هي فوق المتعارفة لا تميل إلى الدنيا وزخارفها، وتتوجّه إلى الله تعالى بكلّها، فنبيّنا محمّد (صلى الله عليه وآله) أعرض عن زخرف الدنيا وغضارتها ولم يستمتع بحلاوتها، وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار الفرات، ومن أقصى اليمن إلى شجر عمان وهو أزهد الناس في ما يقتني ويدّخر، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر. أتى يوماً إلى داره فرأى ستاراً قد علّق على الباب فقال: ارفعوه، إنّه ليذكّرني الدنيا.(29(

ويقول فيه السير (وليم موير): «امتاز محمد (صلى الله عليه وآله (بوضوح كلامه ويُسر دينه، وإنّه أتمّ من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الانسانيّة في زمن قصير كما فعل محمد (صلى الله عليه وآله.(

نعم يجب أن يكون النبيّ مُحقراً للدنيا، متوجّهاً إلى العالم الأعلى، نفسه في اللاهوت وبدنه في الناسوت، فالدنيا كما يقول علي صلوات الله عليه: «دار مجاز والآخرة دار قرار، فطوبى لمن أخذ من ممّره لمقرّه».(30 (

انظر كيف يصف صلوات الله عليه نبينا محمداً (صلى الله عليه وآله)، إنّه يقول: «قَدْ حَقَّرَ الدُّنْيَا وَصَغَّرَهَا وَأَهْوَنَ بِهَا وَهَوَّنَهَا وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ زَوَاهَا عَنْهُ اخْتِيَاراً وَبَسَطَهَا لِغَيْرِهِ احْتِقَاراً فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً أَوْ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً بَلَّغَ عَنْ رَبِّهِ مُعْذِراً وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ مُنْذِراً وَدَعَا إِلَى الْجَنَّةِ مُبَشِّراً نَحْنُ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ وَمَحَطُّ الرِّسَالَةِ وَمُخْتَلَفُ الْمَلَائِكَةِ وَمَعَادِنُ الْعِلْمِ وَ يَنَابِيعُ الْحُكْمِ نَاصِرُنَا وَمُحِبُّنَا يَنْتَظِرُ الرَّحْمَةَ وَعَدُوُّنَا وَمُبْغِضُنَا يَنْتَظِرُ السَّطْوَةَ».(31(

لقد دخل على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال: خفِّض عليكم، فإنّما أنا ابن امرأة

كانت تأكل القديد بمكّة،(32) وكان (صلى الله عليه وآله) يمتزج بأصحابه وجلسائه، فلا يتميّز عنهم إلاّ بإطراقه وحيائه وجليل سمته وروائه.

وكان (صلى الله عليه وآله) جالساً ذات يوم في بعض أسفاره تحت شجرة، فاخترط أعرابيّ سيفه عليه، فأرعدت يده وسقط منها السيف، ومع ذلك عفا عنه، فرجع الأعرابيّ إلى قومه إلى قومه قائلاً: جئتكم من عند خير الناس.(33(

ومن صفاته (صلى الله عليه وآله) الخارقة أنّه (صلى الله عليه وآله) كلّما رجع الى بيته ألقى يهوديّ من أعلى بيته على رأسه الشريف طبقاً من رماد، فافتقده رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد أيام إذ رأى أنّه لا يقوم بعادته !فقيل: إنّه مريض، فعاده في مرضه، فذاب هو وزوجته حياءً وخجلاً وأسلما.

فمن أراد الكمال وأراد أن يتخلّص من براثن المادة وظلماتها التي تجعل الانسان كالبهيمة أو أحطّ منها، فليتمسّك ببعض هذه الصفات الجليلة ليرى كيف يتسامى عن حضيض المادة وكيف يزداد معرفة بالله تعالى.

لا بدّ لهذا الانسان أن يسير سيره التكامليّ، ولا تكامل إلاّ بجعل سيرة النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله) مثالاً رفيعاً يقتدى به، فالانسان إن لم يكن محمّدياً في صفاته وأعماله فهو غير متكامل نفسيّاً لا محالة، ولا مراء أنّ الإنسان إنسان بنفسه لا بماله وبدنه وما حوله من أجهزة وآلات وما يسكنه من بيوت وقصور، إذ التكامل أمر نفسي، فطوبى لمن لم تغرّه المادة وتشويهات الماديّين الذين إذا استعمروا (النفس) فقد استعبدوا الانسان استعباداً ما بعده استعباد.

* * *

(1)الجاثية: 24.

(2)يس: 78.

(3)الفرقان: 7.

(4)نسبها الخصيبي في الهداية الكبرى: 107 الى أبي بكر، ونسبها السيّد شرف الدين الى الأسود بن يعفر وقال بأن عمر شرب الخمر ثمّ قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الاسود. (النصّ والاجتهاد: 311)، وانظر ايضا :الغدير 6: 251؛ افحام الاعداء والخصوم للسيد ناصر حسين الموسوي الهندي: 118.

(5)تذكرة الخواص: 164.

(6)الأمالي للمرتضى 3: 110؛ بحار الأنوار .179: 61

(7)الزمر: 3.

(8)شرح نهج البلاغة 1: 119 و120.

(9)المائدة: 3.

(10)الحجرات: 13.

(11)أمالي الطوسي: 637؛ الاحتجاج للطبرسي 326 :1

(12)ص: 24.

(13)بحار الأنوار 69: 104/ ح1.

(14)المزمّل: 1 - 4.

(15)المزمّل: 20.

(16)الاحزاب: 28 و29.

(17)الانعام: 53.

(18)الاحقاف: 11.

(19)الانعام: 124.

(20)مناقب آل ابي طالب 1: 47؛ بحار الانوار 235. :18

(21)آل عمران: 182؛ الانفال: 51؛ الحجّ.10 :

(22)مشارق انوار اليقين للحافظ البرسي100 :، باختلاف التعبير.

(23)مناقب آل أبي طالب 1: 42؛ بحار الأنوار 195. :18

(24)الطبقات الكبرى 1: 121.

(25)انظر الطبقات الكبرى 1: 387.

(26)المزمّل: 1 - 2.

(27)مناقب آل أبي طالب 1: 99؛ بحار الأنوار 137. :18

(28)الشورى: 51.

(29)شرح أصول الكافي للمولى محمد صالح المازندراني 8: 365.

(30)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 311 :؛ بحار الأنوار70: 134؛ وفيها: ...فخذوا من ممرّكم لمقرّكم.

(31)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 2187 :؛ بحار الانوار 26: 265 و266.

(32)تفسير الدرّ المنثور للسيوطي 6: 111، ذيل قوله تعالى «وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ.«

(33)تفسير الدرّ المنثور 2: 265، ذيل قوله تعالى «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.«

ومن خطبة له (عليه السلام] :(يذكر فيها أصناف الناس]

»أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ وَزَمَنٍ كَنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً لا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا وَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةُ نَفْسِهِ وَكَلَالَةُ حَدِّهِ وَنَضِيضُ وَفْرِهِ وَمِنْهُمُ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضاً وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدًى وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ.«

)شرح ابن ابي الحديد مج 1 ص 172 ط 1.)

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

»عنود»: أي جائر، «كنود»: شديد، «العتوّ»: التكبّر والتجاوز عن الحدّ، «القارعة»: الداهية، «مهانة النفس»: ذلّها، و«كلّ السيف»: إذا لم يقطع، »ونضيض وفره» أي قلّة ماله، و«المُصلت» من أصلت سيفه: إذا جرّده من غمده، «والمجلب «من أجلب عليهم أي أعال عليهم، «والرجل» جمع رجال. «وأشرط نفسه» أعدّها للفساد في الأرض و«حطام» الدنيا متاعها. و«الانتهاز» الاغتنام. و«المقنب» ما بين الثلاثين والأربعين من الخيل. و«يفرعه» يعلوه. و«طامن ظهره» حناه وخفضه. و«شمّر» ثوبه قصره ورفعه. و«زخرف» نفسه زيّنها. و«ضئولة» النفس

حقارتها. و«المراح» مأوى الماشية بالليل. و«الشريد» النافر. و«الناد» المنفرد. و«المقموع» المغلوب. و«المكعوم» من شُدّ فاه. و«الضامرة» الساكنة. و«القرظ» ورق السلم يُدبغ به، و«الجلم» المقص يجزّ به أوبار الابل، وقراضته ما يقع من قرضه وقطعه.

* * *

الشرح:

اعلم أنّ الزمان لما كان من الأسباب المعدّة لحصول ما يحصل في عالم الكون والفساد من الشرور والخيرات، صحّ بذلك توصيف بعض الأزمنة بالخير، فيقال: زمان خير وزمان عدل، لكثرة ما يكون فيه بشهادة الاستقرار من الخير وانتظام حال الخلق ومواظبتهم على القوانين الشرعيّة والسنن النبويّة، وتوصيف بعضها بالشرّ، فيقال: زمان جائر وزمان صعب شديد، لكثرة ما يقع فيه من الشرور والمفاسد، وعدم انتظام أمر الخلق فيه من حيث المعاش أو المعاد .

[عصر علي (عليه السلام):]

إذا عرفت ذلك، فاعلم أن قوله صلوات الله عليه: «أيّها الناس إنّا قد أصبحنا في دهر عنود وزمن كنود» ذمّ لزمانه صلوات الله عليه بالجور والعدوان والشدّة والكفران، من حيث غلبة الضلال ودولة الجهّال، واضمحلال الحقّ واستيلاء الباطل، ورجوع أغلب الناس بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أعقابهم القهقرى، وارتدادهم عن الإمام الحقّ، واقتدائهم بالإمام الباطل، وعدم تمكّنه صلوات الله عليه من إقامة المعروف وإزاحة المنكر، ومن ذلك نشأت الشرور والمفاسد التي عدّدها، وهي أمور:

الأول: [انقلاب الموازين الخلقية] أنّه «يُعدّ فيه المحسن مسيئاً» وذلك لغلبة الإساءة من حيث كثرة المسيئين وقلّة الاحسان لقلّة المحسنين، فيعدّ المُسيءُ إحسان المحسن إساءة، كما أنّه يعدّ إساءة نفسه إحساناً، لكون السنّة في نظره بدعة والبدعة سنّة، أو أنّه يحمل إحسان المحسن على الإساءة كحمله عبادته على الرياء والسمعة، وإنفاقه على الخوف أو الرغبة في المجازاة، ونحو ذلك من الأمور الناشئة من سوء الظنّ من أجل تنـزيله حال الغير منـزلة نفسه.

والثاني: [ازدياد الظلم] أنّه «يزداد الظالم فيه عتوّاً» لقيام المقتضي لظلمه وعدم رادع له عن ذلك، فيزداد فيه شيئاً فشيئاً وحيناً فحيناً.

بيان ذلك: أنّ المقتضي لظلم الظالم هو نفسه الأمّارة بالسوء، فلو كانت في زمان العدل تكون مقهورة تحت حكم الحاكم العادل، غير متمكّنة من القيام والاقدام على الظلم والجور، ولما لم يتمكّن صلوات الله عليه في زمانه من قمع الباطل

حقّ التمكّن، لا جرم ازداد الظالم فيه على ظلمه وبلغ الغاية في استكباره وعتوّه باقتضاء دواعي نفسه.

والثالث: [عدم الانتفاع بالعلم [أنّه «لا ننتفع بما علمنا» والاتيان بصيغة المتكلم من قبيل »إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة» والمقصود به توبيخ العالمين لتقصيرهم عن القيام بوظائف العلم، إذ الانتفاع العلم إنّما يكون إذا وافقه العمل، لأنّ بالعلم والعمل كالروح والجسد يتصاحبان ويتكاملان معاً، وكلّ مرتبة من العلم تقتضي عملاً معيّناً بحسبه، وكلّ عمل يُتهيّأ به لضرب من العلم.

وإلى ذلك أشار في رواية الكافي عن إسماعيل بن جابر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: العلم مقرون إلى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه.(1(

فإن المراد بهتفه للعمل هو اقتضاء العمل واستدعاؤه له، ومن ارتحاله عدم الانتفاع به أو زواله بالمرّة.

وفيه عن علي بن هاشم بن البريد، عن أبيه قال: جاء رجل الى علي بن الحسين (عليه السلام) فسأله عن مسائل فأجاب، ثمّ عاد ليسأل عن مثلها، فقال علي بن الحسين (عليه السلام): مكتوب في الإنجيل لا تطلبوا عِلم ما لا تعلمون ولمّا تعملوا بما علمتم، فإنّ العلم إذا لم يُعمل به لم يزدد صاحبه إلاّ كفراً، ولم يزدد من الله إلاّ بُعداً.(2(

والرابع: [عدم التعلم [أنّه «لا نسأل عمّا جهلنا» وهو توبيخ للجاهلين المقصّرين في طلب العلم وسؤال العلماء لعدم معرفتهم فضل العلم وعدم رغبتهم في العمل، ولذلك قال الإمام الصادق(عليه السلام) لحمران بن أعين في شيء سأله: إنّما هلك الناس لأنّهم لا يسألون.(3(

وفي الكافي أيضاً عن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أفٍّ لرجل لا يفرّغ نفسه في كلّ جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه.(4(

وعن الحسين بن محمد، عن علي بن محمد بن سعد، رفعه عن أبي حمزة، عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المُهج وخوض اللجج، إنّ الله تعالى أوحى إلى دانيال: إنّ أمقت عبيديّ إلي الجاهل المستخفّ بحقّ أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وإنّ أحبّ عبيدي إليَّ التقيّ الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحُلماء، القابل عن الحكماء.(5(

والخامس: [الأمن من مكر الله [أنّه «لا نتخوّف قارعة»، وداهية «حتّى تحلّ بنا» وهو توبيخ للغافلين والمشغولين بلذائذ الدنيا الحاضرة، الغير الملتفتين إلى البليّات والدواهي النازلة.

]أصناف الناس:[

ثمّ إنّه صلوات الله عليه بعد شكايته من زمانه قسّم أهل الزمان إلى أقسام خمسة، ووجه القسمة أنّ الناس إمّا مريدون للآخرة، وهم الذين أفردهم بالذكر في مقابل الأقسام الأربعة، وأشار إليهم بقوله: «وبقي رجال غضّ أبصارهم» (الخ). وإمّا مريدون للدنيا، وهؤلاء إمّا قادرون عليها بالسلطنة والاستيلاء، وإمّا عاجزون عنها، وهؤلاء إمّا غير محتالين للدنيا أو محتالون لها، والمحتالون إمّا مقصودهم من الاحتيال هو خصوص ملك الدنيا ومالها، أو الأعمّ من ذلك، فهذه أقسام خمسة، أربعة منهم أهل الدنيا وواحد أهل الآخرة.

وأشار إلى الأولين بقوله: «فالناس على أربعة أصناف» الأوّل »منهم» العاجز عن الدنيا غير المحتال لها، وهم «من لا يمنعه» من العلوّ و«الفساد في الأرض إلاّ مهانة نفسه» وحقارتها و«كلالة حدّه» أي حدّ سيفه ووقوعه عن القطع وعدم الحقيقة للمنظور اليه و«نضيض وفره» أي قلّة ماله. وهذه كلّها إشارة الى عدم تمكّن هذا الرجل من الوصول إلى مطلوبه، وعدم قدرته على تحصيل مقصوده لانقطاع الأسباب دونه مضافاً إلى ضعف نفسه.

والثاني «منهم» القادر على الدنيا بالسلطنة والاستيلاء وهو »المُصلت بسيفه» الشاهر له «والمعلن بشرّه، والمجلب بخيله ورجله» وهو كناية عن جمعه أسباب الظلم والغلبة والاستعلاء «قد أشرط نفسه» وأهلها للفساد في الأرض، و«أوبق دينه لحطامٍ ينتهزه» ويغتنمه، وتشبيه مال الدنيا بالحطام لكونه قليل النفع بالنسبة إلى الأعمال الصالحة الباقي نفعها في الآخرة، كما أنّ اليبس من النبات قليل المنفعة بالقياس إلى ما تبقى خضرته، «أو مقنب» أي خيل «يقوده أو منبر يفرعه» ويعلوه.

وهذه الأوصاف المذكورة لهذا القسم مطابق المصداق مع خلفاء بني أميّة وبني العباس، وأشار إلى خُسران هؤلاء في أفعالهم بقوله: «ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، وممّا لك عند الله عوضاً» كما قال تعالى: «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعْيَها وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً».(6(

والثالث منهما: العاجز عن الوصول إلى الدنيا المحتال لها بالسمعة والرياء، ويرائي بالزيّ والهيئة، وهو «من يطلب الدنيا بعمل الآخرة» لكون همّه فيها «ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا» لعدم رغبته إليها أصلاً، والمراد بعمل الدنيا ما يفعله المكلّف فيها، أو ما يصير بانضمام القربة والتوصّل إلى الطاعة طاعة »قد طامن من شخصه» إظهاراً للتواضع، «وقارب من خطوه» إظهاراً للوقار، «وشمّر من ثوبه» إظهاراً للطهارة والتنـزّه من النجاسة «وزخرف من نفسه» أي زيّنها للناس بزينة الصُلحاء والأتقياء.

ومقصوده من ذلك كلّه أن يفتتن به الناس ويرغب إليه قلوبهم، ويعظم قدره عندهم، ويروه أهلاً «للأمانة»، ويسكنوا إليه في أماناتهم، ويثقوا إليه في أمورهم، فويل لهذا الرجل تحبّب إلى العباد بالتبّغض إلى الله، وتزيّن لهم بالشين عند الله، وتحمّد إليهم بالتذمّم عند الله.

الرياء:

ندّد الإسلام بالرياء؛ لأنّ الرياء نقيصة في الدين، وعورة في الخلق، ووصمة للرجولة، وهو إذا تفشّى بين الجماعة كان هزيمة للفضيلة، وسبّة للقوميّة، ومحنة للإنسانيّة.

ولا أحسبك إذ تعرض للحديث عن هذه الخصلة واجداً من الناس إلاّ نكيراً لها واشمئزازاً من التخلّق بها، حتّى ممّن غلبت على نفوسهم، والتاثت بها أخلاقهم، يتنصّلون منها سراعاً، ويفرّون منها خفافاً، ممّا يدلّك على مباينتها للفطرة، ونبوّها عن الشعور بالكرامة، والاحساس بالغيرة.

والرياء لا يكون في القول وحده، ولا في العبادة فحسب، وإنّما يكون في القول والفعل، وفي العبادة وغيرها ممّا يجري بين الناس في شؤونهم.

وهو على تنوّعه غشّ يُطلى بلون الاخلاص، ونقص في النـزاهة يسمّى كذباً باسم الكمال، ويُساق باطلاً في لفائف الحبّ والمروءة، وليس ذلك كلّه إلاّ النفاق وإن تعددت الأشكال واختلفت المناحي، أو هو الكذب والخداع، وربّك لا يحبّ الكذب من عباده، ولا يرضى لهم الخداع في قول ولا عمل، وإنّما يدعوهم إلى النصح، والنصح هو الإخلاص في أجلى صوره، وينهاهم عن الرياء، والرياء هو الغشّ في أبشع أشكاله.

وقد تنوّعت أساليب القرآن في التشنيع على المرائي والحطّ من قيمته، ليربأ الناس بأنفسهم عن هذه المخزاة الشائنة، وتكون لهم العظة الزاجرة فيما يقصّه علينا.

أرأيت إلى قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ».(7) فهذا أصدق تصوير للمرائي يتذبذب في عمله ويتابع أغراضه، لا يصدر عن عقيدة، ولا يورد عن يقين، فإن ظنّ مبتغاه في الطاعة فهو مطيع، وإن خاله في الغواية فهو غويّ.

وانظر إلى قوله تعالى يعيب على المنافقين تهاونهم في الصلاة، ثمّ يجمع أوصافهم الذميمة في وصف واحد هو الرياء،: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ * وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ».(8(

وإليك تمثيل القرآن للمرائي بحجر صلب عليه شيء من التراب قليل، فإذا أصابه المطر زال عنه التراب وبقي الحجر على جموده، لا ينبت فيه زرع، ولا ينبع منه ماء، وهيهات أن يكون فيه نفع بعد ذلك إلاّ أن يُتّخذ موطناً للأقدام أو دريئة من القذر. يقول سبحانه وتعالى في ذلك: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأْذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآْخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ»(9) أي لا ينتفع المراؤن بعملهم وإن جاز صنيعهم على الناس وراجت فيهم المدائح. على أنّ القرآن في عشرات من مواضعه يندّد بالنفاق وأهله، والنفاق والرياء من قبيل واحد، ويؤكّد لك هذا قول النبي (صلى الله عليه وآله): «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، واذا أوتُمن خان».(10) فالكذب نفاق، والرياء كذب وتمويه وتضليل مفضوح، وليس من المبالغة قوله (عليه السلام) في النهي عن الغشّ في القول أو العمل: «من غشّنا فليس منّا»(11) فهذه براءة من الغاشّ، وإخراج له من عداد المسلمين.

وليس كذلك من المبالغة قوله:«الدين النصيحة»(12) وما النصيحة التي عناها الرسول الأعظم إلاّ الإخلاص في العمل والرأي.

وما كان الرياء أو النفاق إن شئت بغيضاً إلى النفوس الكريمة إلى هذا الحدّ، إلاّ لأنّه يبرز الناس في غير صورهم الحقيقيّة، ويشكّك بعضهم في بعض، فتضيع الثقة التي هي رباط اجتماعيّ تتوفّر به القوى على إنهاض الشؤون، والحصول على السعادة في الحياة، وإذا عصف الرياء بالثقة وذهب بالتضامن فتلك الفتنة في الدين، والمذلّة في الحياة، والانحدار عن الرقيّ الذي ينشده الإسلام في تعاليمه إلى مساقط الفوضى التي أنقذنا الله منها بشرائعه ورسله.

والناقصون في الكرامة يتنافسون في هذا كلّه حين يبتغون الكمال من غير طريقه ويرغبون في العزّة اغتصاباً، فهم يصطنعون الرياء ويتّشحون بالملق في أقوالهم، ليستدرجوا الناس إلى مدحهم، ويبتزّوا منهم الثناء عليهم، أو يحصلوا على الثناء بسبب مشكور، وذلك شهوة النفوس الوضيعة، ومدى الهمّة الفاترة، وظاهرة الخلق الهزيل، وبعض هذا ينأى بصاحبه عن جلال الإنسانيّة وشرف المروءة، وأولئك هم القذى في العين والشجى في الحلق، وهم المرض الفتّاك بجسم الأمّة، يُقعدونها عن الرقيّ، ويصدّونها عن السير.

وليت لنا من يقضي على هذه النـزعة بين الآخذين بها، ويكشف عن قُبحها لمن يفرحون بها ويشجّعون عليها، فتهدأ نفوس آلمها ما ترى من وهن الأخلاق، وتستريح قلوب يخزها نشوء الرياء واصطناع المتملّقين وامتهان الأعزاء الكرام النفوس.

وقد ورد في ذّم أهل الرياء والنفاق ولبس الصوف والثياب المرقوعة لغير وجه الله أخبار كثيرة نستعرضها في هذا

الفصل، ونذكر بعض ما ورد في الرياء من الآيات والروايات، ونشير إلى أقسامه، وإلى الدواء النافع له، فالكلام في مقامات أربعة.

المقام الأوّل: في تحقيق معنى الرياء والسمعة

فنقول: إنّ الرياء هو ترك الاخلاص بملاحظة غير الله فيه، وأصله من الرؤية، كأنّه لا يعمل إلاّ إذا رأى الناس ورأوه، والسُّمعة ـ بالضمّ ـ كالرياء، إلاّ أنّها تتعلّق بحاسّة السمع، والرياء بحاسّة البصر.

وعن الفارابي في ديوان الأدب: يقال «فعل ذلك رياء وسمعة» إذا فعل ذلك ليراه الناس ويسمعوا به. وقال الغزالي في إحياء العلوم: الرياء مشتقّ من الرؤية، والسمعة مشتقّة من السماع، وإنّما الرياء أصله طلب المنـزلة في قلوب الناس باراءتهم خصال الخير، إلاّ أنّ الجاه والمنـزلة تُطلب في القلب بأعمال سوى الله، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنـزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها، فحدّ الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله، فالمرائي هو العابد، والمرائى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنـزلة في قلوبهم، والمرائى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء قصد إظهار ذلك.(13)

أقول: والأولى ما ذكرناه، لكونه شاملاً للعبادات وغيرها فعلاً وتركاً حسبما تعرفه في الأقسام الآتية، وما ذكره مختصّ بفعل العبادات فقط، فلا يعمّ.

الثاني: في ذكر بعض ما ورد فيه من الآيات والأخبار

قال الله سبحانه: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ * وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (14).» وقوله سبحانه:« يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً»(15) ومنه قوله تعالى: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»(16) ومنها قوله تعالى: «إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً».(17)

ومن الأخبار النبويّة قوله (صلى الله عليه وآله) وقد سأله رجل: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: أن لا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس.(18)

وفي الحديث: إنّ الله تعالى يقول للملائكة: إنّ هذا العمل لم يُرد صاحبه به وجهي، فاجعلوه في سجّين.(19)

وقال (صلى الله عليه وآله): إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشِّرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال:

الرياء؛ يقول الله تعالى إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤنهم في الدنيا فاطلبوا جزاءكم منهم.(20(

وفي حديث شدّاد بن أوس: رأيت النبي (صلى الله عليه وآله (يبكي، فقلت: يا رسول الله ما يُبكيك؟ فقال: إنّي تخوّفت على أمتّي الشرك، أما إنّهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً، ولكنّهم يُراؤن بأعمالهم.(21(

وقال (صلى الله عليه وآله): إنّ النار وأهلها يعجّون من أهل الرياء، فقيل: يا رسول الله كيف تعجّ النار؟ قال: من حرّ النار التي يعذَّبون بها.(22(

وقال أيضاً: يُنادى المرائي يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، ظلّ سعيُك، وبطل عملُك، ولا خلاق لك، التمس الأجر ممّن كنت تعمل له يا مخادع.(23(

وقال أيضاً: إن أوّل ما يُدعى يوم القيامة رجل جمع القرآن، ورجل قاتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله (عز وجل) للقاري: ألم أُعلمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: ما عملت فيما به علمت؟ فيقول: يا ربّ قمت به في آناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله تعالى: كذبَت، وتقول الملائكة :كذبت، ويقول الله تعالى: إنّما أردتَ أن يُقال «فلان قاري» فقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى: ألم أوسّع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ فيقول: بلى يا ربّ، فيقول: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدّق، فيقول الله تعالى: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى :بل أردتَ أن يُقال «فلان جواد» وقد قيل ذلك.

ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقول الله تعالى: ما فعلت؟ فيقول: أمرتَ بالجهاد في سبيل الله فقاتلتُ حتّى قُتلت، فيقول الله تعالى: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردتَ أن يُقال «فلان جريءٌ شجاع» فقد قيل ذلك، ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أولئك الثلاثة شرّ خلق الله يُسعّر بهم نارُ جهنّم.(24(

وقال أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه: «للمرائي أربع علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه، وينقص منه إذا لم يُثنَ عليه».(25(

وقال صلوات الله عليه لكميل بن زياد: تبذّل لا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتُذكر بعِلم، واسكت واصمت تسلم، تسرّ الأبرار وتغيظ الفجّار.(26(

وفي الوسائل عن الكليني بإسناده عن فضل أبي العباس، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ما يصنع أحدكم أن يُظهر حَسَناً ويسرّ سيئاً؟ أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك، والله (عز وجل) يقول: «بَلِ الإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ»،(27) إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية.(28(

وعن السكوني، عنه (عليه السلام) أيضاً قال: قال رسول الله)صلى الله عليه وآله): سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائُرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربّهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمّهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم.(29(

وعن البرقي في كتاب المحاسن، عن يحيى بن بشير النبّال عمّن ذكره، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: من أراد الله (عز وجل) بالقليل من عمله أظهره الله أكثر ممّا أراده به، ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله، أبى الله إلا يقلّله في عين من سمعه.(30(

وروى الصدوق في كتاب عقاب الأعمال بإسناده عن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر، عن أبيه، عن آبائه صلوات الله عليهم قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): يؤمر برجال إلى النار، فيقول الله (عز وجل) لمالك: قل للنار لا تحرق لهم أقداماً فقد كانوا يمشون بها إلى المساجد، ولا تحرق لهم وجوهاً فقد كانوا يسبغون الوضوء، ولا تحرق لهم أيدٍ فقد كانوا يرفعونها بالدعاء، ولا تحرق لهم ألسنة فقد كانوا يُكثرون تلاوة القرآن، قال: فيقول لهم خازن النار: يا أشقياء ما كان حالكم؟ قالوا: كنّا نعمل لغير الله (عز وجل)، فقيل لنا: خُذوا ثوابكم ممّن عملتم.(31(

وفي الوسائل عن الكليني باسناده عن جراح المدائني، عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله (عز وجل): «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»(32) قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنّما يطلب تزكية النفس يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه، ثم قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتّى يُظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شرّاً فذهبت الأيام حتّى يظهر الله له شراً.(33(

وعن السكوني، عنه (عليه السلام) أيضاً قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فاذا صعد بحسناته يقول الله (عز وجل): اجعلوها في سجّين، إنّه ليس إيّاي أراد به.(34(

وعن علي بن عقبة، عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: اجعلوا أمركم هذا لله، ولا تجعلوه للناس، فإنّه ما كان لله فهو لله، وما كان للناس فلا يصعد إلى الله.(35(

]حديث معاذ عن النبي (صلى الله عليه وآله:[(

وفي عدّة الداعي لأحمد بن فهد الحلي عن الشيخ أبي جعفر محمد بن أحمد بن علي القمي نزيل الري في كتابه (المنبي عن زهد النبي)، عن عبد الواحد، عمّن حدّثه، عن معاذ بن جبل قال: قلت: حدّثني بحديث سمعته من رسول الله وحفظته من دقايق ما حدّثك به، قال: نعم، وبكى معاذ.

ثم قال: بأبي وأمي حدّثني وأنا رديفه فقال: بينا نحن نسير إذ رفع بصره إلى السماء فقال (صلى الله عليه وآله): الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما أحب، ثم قال: يا معاذ! قلت: لبيّك يا رسول الله وسيّد المؤمنين، قال: يا معاذ! قلت :لبّيك يا رسول الله إمام الخير ونّبي الرحمة، قال (صلى الله عليه وآله) أحدّثك شيئاً ما حدّث نبيّ أمّته، إن حفظته نفعك عيشك، وإن سمعته ولم تحفظه انقطعت حجّتك عند الله.

ثم قال (صلى الله عليه وآله): إنّ الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات، فجعل في كلّ سماء ملكاً قد جلّها بعظمته، وجعل على كلّ باب من أبواب السماء بوّاباً، فيكتب الحفظة عمل العبد من حين يُصبح الى حين يُمسي، ثم ترفع الحفظة بعمله وله نور كنور الشمس، حتّى إذا بلغ سماء الدنيا فتزكّيه وتكثّره، فيقول الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الغيبة، فمن اغتاب لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري، أمرني بذلك ربّي.

قال (صلى الله عليه وآله): ثمّ يجيء الحفظة من الغد ومعهم عمل صالح فتمرّ به وتزكّيه وتكثّره حتّى تبلغ السماء الثانية، فيقول الملك الذي في السماء الثانية: قِفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنّما أراد بهذا العمل عرض الدنيا، أنا صاحب الدنيا لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري وهو يحبّ الدنيا.

قال: ثمّ تصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً بصدقة وصلة، فتعجب به الحفظة وتجاوز به الى السماء الثالثة، فيقول الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره، أنا ملك صاحب الكبر، فيقول: انّه عمل وتكبّر على الناس، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كالكوكب الدريّ في السماء، له دويّ بالتسبيح والصوم والحجّ، فتمرّ به الى السماء الرابعة، فيقول لهم الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وبطنه، أنا ملك العُجب؛ إنّه كان يعجب بنفسه، وإنّه عمل وأدخل نفسه العجب، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد كالعروس المزفوفة إلى أهلها، فتمرّ به إلى ملك السماء الخامسة بالجهاد والصدقة ما بين الصلاتين، وكذلك العمل له رنين كرنين الإبل، عليه ضوء كضوء الشمس، فيقول الملك: قِفوا أنا ملك الحسد، اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه، إنّه كان يحسد من يتعلّم أو يعمل لله بطاعته، وإذا رأى لأحد فضلاً في العمل والعبادة حسده ووقع فيه، فيحملوه على عاتقه ويلعنه عمله.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحجّ وعُمرة فيتجاوز به إلى السماء السادسة، فيقول الملك: قفوا، أنا صاحب الرحمة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واطمسوا عينيه، لأنّ صاحبه لم يرحم شيئاً، إذا أصاب عبداً من عباد الله ذنباً للآخرة أو ضرّاء في الدنيا شمت به، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد بفقه واجتهاد وورع وله صوت كالرعد وضوء كضوء البرق ومعه ثلاثة آلاف ملك فتمرّ بهم إلى ملك السماء السابعة، فيقول الملك: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الحجاب، أحجب كلّ عمل ليس لله، إنّه أراد رفعة عند القوّاد وذكراً في المجالس، وصيتاً في المدائن، أمرني ربّي أن لا أدع عمله يتجاوزني إلى غيري ما لم يكن لله خالصاً.

قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد مبتهجاً به من صلاة وزكاة وصيام وحجّ وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر كثير تشيّعه ملائكة السماوات والملائكة السبعة بجماعتهم، فيطئون الحجب كلّها حتّى يقوموا بين يديه سبحانه فيشهدوا له بعمل ودعاء، فيقول سبحانه: أنتم حفظة عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إنّه لم يُردني بهذا العمل، عليه لعنتي، فتقول الملائكة: عليه لعنتك ولعنتنا.

قال: ثم بكى معاذ، قال: قلت: يا رسول الله ما أعمل وأخلص؟ قال: اقتدِ نبيّك يا معاذ في اليقين، قال: قلت: أنت رسول الله وأنا معاذ، قال: فإن كان في عملك تقصير يا معاذ، فاقطع لسانك عن إخوانك وعن حملة القرآن، ولتكن ذنوبك عليك لا تحملها على إخوانك، ولا تُزكِّ نفسك بتذميم إخوانك، ولا ترفع نفسك بوضع إخوانك، ولا تُراء بعملك، ولا تداخل من الدنيا في الآخرة، ولا تفحش في مجلسك لكي يحذروك لسوء خُلقك، ولا تناجَ مع رجل وأنت مع آخر، ولا تعظم على الناس فتنقطع عنك خيرات الدنيا، ولا تمزّق الناس فتمزّقك كلاب أهل النار، قال الله تعالى» :وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً»(36) أفتدري ما الناشطات؟ إنّه كلاب أهل النار تنشط اللحم والعظم. قلت: ومن يُطيق هذه الخصال؟ قال: يا معاذ أما إنّه يسيرٌ على مَن يسّر الله تعالى عليه، قال: وما رأيت معاذاً يُكثر تلاوة القرآن كما يُكثر تلاوة هذا الحديث.(37(

الثالث: في أقسام الرياء والوجوه المتصوّرة فيه

وهي كثيرة إلاّ أنّها منشعبة عن قسمين: أحدهما الرياء المحض، والثاني الرياء المشوب.

أمّا الريّاء المحض: فهو أن لا يكون مراده بالعبادة إلاّ الدنيا ورؤية الناس، كالذي يصلّي بين أظهر الناس، ولو كان منفرداً لكان لا يصلّي، بل ربّما يصلّي من غير طهارة مع الناس، فهذا يجب أن يترك، لأنّه معصية لا طاعة فيه أصلاً.

وأمّا الرياء المشوب فهو يَتصوّر على وجوه:

أحدها: أن يعقد على الاخلاص قلبه ثم يطرء الرياء ودواعيه، مثل أن يفتتح الصلاة بالاقبال، فيدخل عليه داخل أو ينظر إليه ناظر، فيقول الشيطان :ردّ صلاتك حسناً حتى ينظر إليك هذا الناظر بعين الوقار، فتخشع جوارحه ويحسن صلاته .

وذلك مثل ما روي أنّ رجلاً لا يقدر على الاخلاص في العمل، فاحتال وقال: إنّ في ناحية البلد مسجداً مهجوراً لا يدخله

أحد فأمضي إليه ليلاً وأعبد الله فيه، فمضى إليه في ليلة ظلماء وكانت ذات رعد وبرق ومطر فشرع في العبادة، فبينما هو في الصلاة إذ دخل عليه داخل فأحسّ به فدخله السرور برؤية ذلك الداخل له وهو مشتغل بالعبادة في الليلة المظلمة، فأخذ في الجدّ والاجتهاد في عبادته إلى أن جاء النهار، فنظر إلى ذلك الداخل فإذا هو كلب أسود قد دخل المسجد ممّا أصابه من المطر، فندم الرجل على ما فعل وقال: يا نفس إنّي فررت من أن أشرك بعبادة ربّي أحداً فوقعت أن أُشرك في عبادته كلباً وا أسفاً وأويلاً على هذا.

الثاني: أن يأتيه الشيطان من معرض الخير ويقول له: اعمل هذا العمل ليقتدي بك الناس، فيحصل لك أجر مَن عمل به، وهذه المكيدة أعظم من الأولى، وينخدع بها من لاينخدع بتلك، وهو عين الرياء، لأنّه إذا رأى هذه الحالة خيراً لا يرتضي غيره تركها، فلم يتركها وهو في الخلوة، وليس أحد أعزّ على الإنسان من نفسه.

الثالث: أن يتنبّه العاقل لهاتين ويستحي من المخالفة بين صلاته في الخلاء والملاء، فيحسّن صلاته في الخلوة ليطابق الجلوة، وهذا أيضاً من الرياء، لأنّه حسّن صلاته في الخلوة ليحسن في الملاء، فكان نظره في عمله إلى الناس.

الرابع: أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن إيقاعه في الرياء بأن يقول له: اخشع لأجلهم، ولكن يقول له: تفكّر في عظمة الله وجبروته ومن أنت واقف بين يديه، واستحِ أن ينظر الله إلى قلبك وأنت غافل عنه، فيحضر بذلك وتجتمع جوارحه ويظن أنّ ذلك عين الاخلاص وهو عين الرياء، فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى عظمة الله لِمَ لم تكن حالته في الخلوة هكذا .

الخامس: أن يكمل العبادة على الاخلاص، لكن عرض له بعد الفراغ حبّ إظهارها لتحصيل بعض الأغراض، وذلك بأن يخدعه الشيطان ويقول له: إنّك قد أكملت العبادة الخالصة وقد كنت في ديوان المخلصين، ولا يقدح فيها ما يتجدّد، وإنّما ينضّم إلى ما حصّله بها من الخير الآجل خير عاجل فيحدث به ويظهره، وهو أيضاً مُبطل للعمل ومفسد له وإن سبق.

قال الصادق (عليه السلام): من عمل حسنة سرّاً كُتبت له سرّاً، فإذا أقرّ بها مُحيت وكُتبت جهراً، فإذا أقرّ بها ثانياً مُحيت وكتبت رياء، وفضل عمل السرّ على عمل الجهر سبعون ضعفاً، نعم لو تعلّق بإذاعته غرض صحيح ـ كما لو أراد ترغيب الغير فيه إذا لم يمكن الترغيب بدونه ـ لم يكن به بأس .

السادس: أن يترك العمل خوفاً من الرياء، وهذا أيضاً من خدايع إبليس اللّعين، لأنّ غرضه الأقصى ترك العمل، فإذا لم تجب إليه واشتغلت به فيدعوك إلى الرياء وغيره، فإذا تركته فقد حصّلت غرضه .

قال ابن فهد في عدّة الداعي: ومثال ذلك من سلّم إليه مولاه حنطة فيها قليل من المباين إمّا شعير أو مدر، وقال:

خلّصها من التراب مثلاً ونقّها منه تنقية جيّدة بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخاف إن اشتغلت به ألاّ يخلص خلاصاً صافياً، ويترك العمل من أصله .

السابع: أن يترك العمل لا لذلك بل خوفاً على الناس أن يقولوا إنّه مرائي فيعصون الله تعالى به، وهذا أيضاً كسابقه رياء خفيّ؛ لأنّ ترك العمل خوفاً من أن يُقال له «إنّه مرائي» عين الرياء، ولولا حبّه لمحمدتهم وخوفه من مذمّتهم فما له ولقولهم إنّه مُراءٍ أو قولهم: إنّه مخلص؟ وأيّ فرق بين ترك العمل خوفاً من قولهم: إنّه مراء وبين أن يحسن العمل خوفاً من قولهم: إنه مقصّر غافل؟ مع ما في ذلك من سوء الظنّ بالمسلمين، ومن إطاعة الشيطان في ترك العمل.

الثامن: أن يكون ترك العمل إشفاقاً على المسلمين، بأن يقول له إبليس اللعين: اترك العمل إشفاقاً على المؤمنين من وقوعهم في الاثم بظنّ السوء، وتركك العمل إشفاقاً عليهم يقوم مقام العمل ويحصل لك بذلك الثواب؛ لأنّ نظر المصلحة للمسلمين حسنة، فيعادل الثواب الحاصل من العمل، بل هو أفضل لأنّه متعدٍّ إلى الغير، وهذا الخيال من غوائل النفس الأمّارة المايلة إلى الكسالة والبطالة، ومكيدة عظيمة من الشيطان لمّا لم يجد إليك مسلكاً قَصَدك من هذا الطريق وزيّن لك هذا التنميق .

قال ابن فهد: ووجه فساده يظهر من وجوه :

أولاً: أنّه عجّل لك الوقوع في الاثم المتيقّن، فإنّك ظننت أن يظنّوا بك أنّك مُراءٍ، وهذا ظنّ سوء، وعلى تقدير وقوعه منهم يلحقهم به إثم، وظنّك هذا بهم أيضاً ظنّ سوء يلحقك به الاثم إذا لم يكن مطابقاً لما ظننت بهم وتركت العمل من أجله، فعدلت من ظنّ موهوم إلى إثم معلوم، وحذراً من لزوم إثم لغيرك فأوقيت فيه نفسك.

ثانياً: أنّك إذن وافقت إرادة إبليس بترك العمل الذي هو مراده، وترك العمل والبطالة موجب لاجتراء الشيطان عليك وتمكّنه منك، لأنّ ذكره تعالى والتولّي(38) في خدمته يقرّبك منه، وبقدر ما تقرب منه تبعد من الشيطان، وإنّ فيه موافقة للنفس الأمّارة بميلها إلى الكسالة والبطالة، وهما ينبوع آفات كثيرة إن كان لك بصيرة .

ثالثاً: ممّا يدلّك أنّ هذا من غوائل النفس وميلها إلى البطالة، أنّك لمّا نظرت إلى فوات الثواب الحاصل لك من البطالة وإلى فوات وقوعهم في الاثم، آثرتهم على نفسك بتخفيف ما يلزمهم من الاثم بسوء الظنّ وحرمت نفسك الثواب، وتفكّر في نفسك وتمثّل في قلبك بعين الانصاف لو حصل بينك وبينهم في شيء من حظوظ العاجلة منازعة، إمّا في دار أو مال، أو ظهر لك نوع معيشة تظنّ فيها فايدة وحصول، أكنت تؤثرهم على نفسك وتتركه لهم؟ كلا والله، بل كنت تناقشهم مناقشة المشاقق، وتستأثر عليهم فيما يظهر لك من أنواع المعيشة إن أمكنتك فرصة الاستيثار، وتقلي الحبيب وتُقصي القريب.(39 (

التاسع: أن يقول لك الشيطان: إذا كنت لا تترك العمل لذلك فأخْفِ العمل فإنّ الله سيُظهره عليك، فإمّا إذا أظهرته فيمكن أن تقع في الرياء، وهذا التلبّس عين الرياء لأنّ إخفاءك له كي يظهر بين الناس هو بعينه العمل لأجل الناس، وما عليك إذا كان مرضيّاً عند الله تعالى أن يظهر للناس أو يخفى.

الرابع: في علاج الرّياء

وهو على ما ذكره الغزاليّ في إحياء العلوم: أنّ الإنسان يقصد الشيء ويرغب فيه لظنّه أنّه خير له ونافع ولذيذ أمّا في الحال وأما في المآل، فإن علم أنّه لذيذ في الحال ولكنّه ضار في المآل سهل عليه قمع الرغبة عنه، كمن يعلم أنّ العسل لذيذ ولكن إذا بان له أنّ فيه سمّاً أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرّة.

ومهما عرف العبد مضرّة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الآخرة من المنـزلة عند الله، وما يتعرّض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث يُنادى على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييتَ إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبتَ قلوب العباد، واستهزأتَ بطاعة الله، وتحببّتَ إلى العباد بالتبغّض إلى الله، وتزيّنت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت لهم بالبعد من الله، وتحمّدت اليهم بالتّذمّم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرّض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله؟

فمهما تفكّر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزيّن لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال، مع أنّ العمل الواحد به ربّما كان يترجّح ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حُوّل إلى كفّة السيّئات فترجح به ويهوى إلى النار، فلو لم يكن في الرياء إلاّ إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرره، وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علوّ الرتبة عند الله في زُمرة النبيّين والصدّيقين، وقد حُطّ عنهم بسبب الرّياء ورُدّ إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرّض له في الدنيا من تشتّت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق، فإنّ رضا الناس غاية لا تُدرك، فكّل ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله، سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً عليه.

ثم أيّ غرض له في مدحهم وإيثار ذمّ الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة .

وأمّا الطمع فيما في أيديهم، فبأن يعلم أنّ الله هو المسخّر للقلوب بالمنع والاعطاء، ولا رزّاق إلاّ الله، ومن طمع في الخلق لم يخلُ من الذلّ والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخلُ عن المنّة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب

ووهمٍ فاسد قد يصيب وقد يخطي، وإذا أصاب فلا تفي لذّته بألم منّته ومذلّته.

وأمّا ذمّهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمّهم شيئاً، فإذا قرّر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه، فإنّ العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقلّ نفعه، ويكفيه أنّ الناس لو علموا ما في بطنه من قصد الرياء وإظهار الاخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سرّه حتى يبغّضه إلى الناس ويعرّفهم أنّه مُراءٍ وممقوت عند الله، ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه وحبّبه إليهم وسخّرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه.

كما روي أنّ رجلاً من بني إسرائيل قال: لأعبدنّ الله تعالى عبادة أُذكر بها، فمكث مدّة مبالغاً في الطاعات، وجعل لا يمرّ بملأ من الناس إلّا قالوا: مُتصنّع مُراءٍ، فأقبل على نفسه وقال: أتعبت نفسك وضيّعت عمرك في لا شيء، فينبغي أن تعمل لله سبحانه، فغيّر نيّته وأخلص عمله لله تعالى، فجعل لا يمرّ بملأ من الناس إلاّ قالوا: ورع تقيّ .

مع أنّ مدح الناس لا ينفعه وهو عند الله مذموم ومن أهل النار، وذمّ الناس لا يضرّه وهو عند الله محمود ومن أهل الجنّة، فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبّد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلّق بالخلق أيّام الحياة مع ما فيها من الكدورات والمنغّصات، وكيف يرضى العاقل أن يجعل ثمن عمله مدح الناس له وما في أيديهم من حطام الدنيا وزخارفها، مع أنّها على تقدير النيل لها ثمن بخس ورضا الله سبحانه هو الجزاء الأوفى؟ فلو قيل لك: إنّ ههنا رجلاً معه جوهر نفيس يساوي مائة ألف دينار وهو محتاج إلى ثمنه، بل إلى بيعه عاجلاً وإلى أضعافه ثمناً، فحضر من يشتري منه متاعه بأضعاف ثمنه مع حاجته إلى الأضعاف، فأبى بيعه بذلك وباعه بفلس واحد، ألست تحكم بسفاهة ذلك البايع ونقصان عقله؟

فحال المرائي بعينه مثل حال هذا البايع، فإنّ ما يناله العبد بعمله من حطام الدنيا ومدح الناس له بالاضافة إلى ثواب الآخرة ومرضاة الله سبحانه أقل من فلس في جنب ألف ألف دينار، بل أقلّ من نسبته إلى الدنيا وما فيها؛ هذا كلّه هو الدواء العلميّ.

]الدواء العملي للرياء:[

وأمّا الدواء العمليّ: فهو أن يعوّد نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما يغلق الأبواب دون الفواحش، حتّى يقنع قلبه بعلم الله واطّلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غيره سبحانه.

ولذلك كان عيسى يقول للحواريّين: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه بالزيت لئلاّ يرى الناس أنّه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخفِ عن شماله، وإذا صلّى فليُرخِ ستر بابه فإنّ الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.(40)

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): إنّ في ظلّ العرش ثلاثة يظلّهم الله بظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: رجلان تحابّا في الله وافترقا عليه، ورجل تصدق بيمينه صدقة فأخفاها عن شماله، ورجل دعته امرأة ذات جمال فقال: إنّي أخاف الله ربّ العالمين.(41(

فلا دواء للرّياء مثل الاخفاء، وذلك يشقّ في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلّف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمدّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد، ولكن الله «لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ»(42) فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب، والله لا يضيع أجر المحسنين، »وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً.«

* * *

(1)الكافي 1: 44/ ح2.

(2)الكافي 1: 45/ ح4.

(3)الكافي 1: 40/ ح2.

(4)الكافي 1: 40/ ح5.

(5)الكافي 1: 35/ ح5.

(6)الاسراء: 18 و19.

(7)الحجّ: 11.

(8)الماعون: 4 - 7.

(9)البقرة: 264.

(10)مكارم الاخلاق للطبرسي: 46.

(11)بحار الانوار 71: 244؛ كنز العمّال 3 /545: ح7824.

(12)السنن الكبرى للنسائي 4: 433/ ح7823.

(13)إحياء العلوم للغزالي، نقلاً عن تحفة الأحوذي للمباركفوري 7: 45.

(14)الماعون: 4 - 7.

(15)النساء: 142.

(16)الكهف: 110.

(17)الانسان: 9.

(18)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 2 .179 :

(19)شرح نهج البلاغة 2: 179.

(20)شرح نهج البلاغة 2: 179.

(21)نفس المصدر.

(22)بحار الانوار 69: 305.

(23)تفسير الدر المنشور 1: 30.

(24)تفسير الدر المنشور 3: 323.

(25)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 180.2 :

(26)شرح نهج البلاغة 2: 181.

(27)القيامة: 14.

(28)وسائل الشيعة 1: 64/ ح138؛ بحار الانوار 69: 289.

(29)وسائل الشيعة 1: 65/ ح141.

(30)وسائل الشيعة 1: 66/ ح164.

(31)ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: 224.

(32)الكهف: 110.

(33)وسائل الشيعة 1: 71/ ح159.

(34)وسائل الشيعة 1: 71/ ح156.

(35)الكافي 1: 166/ ح3، وسائل الشيعة 1 /71: ح158.

(36)النازعات: 2.

(37)عدّة الداعي: 227 - 230.

(38)أي المثول.

(39)عدّة الداعي: 205 - 208.

(40)عدّة الداعي: 220.

(41)نفس المصدر.

(42)الرعد: 11.

ومن خطبة له (عليه السلام] :(يرغّب فيها بالجهاد ويذّم أصحابه على تخاذلهم عنه ويذكر فيها أفعال جيش معاوية[

»أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللَّهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ.«

»شرح ابن أبي الحديد مج1، ص140، ط الاولى بمصر.«

* * *

ضبط الألفاظ اللغوية:

»الجُنّة» ما استتر به من سلاح أو غيره، «وديّث» أي ذلّل، ومنه الديّوث الذي لا غيرة له، «والصَّغار»: الذلّ والضيم. «القماءة» الحقارة والذل، و«الإسهاب» ذهاب العقل، أي ذهب عقله من أذى يلحقه. «وأُديل الحق منه» أي غلبه عليه عدوه. «وسيم الخسف» أولاه ذُلاً وكلّفه المشقّة. «والنصف» الإنصاف» .والعُقر» في الشيء أصله ووسطه. «والتواكل» أن يكل كلّ واحد منهم الأموال إلى صاحبه ويعتمد عليه. وشنّ الغارة وأشنّها فرّقها عليهم من كلّ وجه. «وأخو غامد» هو سفيان بن عوف، وغامد قبيلة من اليمن وهي من الأزد. والأنبار بلد قديم من بلاد العراق على الفرات من الجانب الشرقي. و«المسالح» الحدود التي ترتّب فيها ذوو الأسلحة مخافة عادية العدوّ. و«المعاهَدة» ذات العهد وهي الذمّيّة. و« الحجل» ـ بفتح الحاء وكسرها ـ الخلخال. «والقُلب» ـ بالضمّ ـ سوار المرأة. «والرعاث» القرط، والرعاث أيضاً ضرب من الحلي. «والاسترجاع» قول «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، وقيل ترديد الصوت بالبكاء. «والاسترحام» مناشدة الرحم، أي قول «أنشدك الله والرحم»، «والوافر» التام، أي تامّين. «والكلم» الجرح. و«الترح» ضدّ الفرح. «والغرض» الهدف. «وحمّارة القيظ «شدّة حره. «ويسبخ الحر» يسكن ويفتر. «والقرّ» ـ بالضمّ ـ البرد. و«ربّات الحجال» «النساء، و«السدم» الحزن. و«القيح» الصّديد بلا دم. «والنّغب» الجرعة. «والتهمام «الهَم. «وأنفاساً» أي جرعة بعد جرعة. و«لله أبوهم» كلمة مدح، ولعلّها استعملت هنا للتعجّب. و«المراس» مصدر مارسه أي زاوله وعالجه. و«ذرّفت على الستّين» بتشديد الراء أي زدت .

الشرح:

هذه الخطبة النيّرة خطب بها صلوات اله عليه في أواخر عمره الشريف، وذلك بعد ما انقضت وقعة صفيّن واستولى معاوية على البلاد وأكثر القتل والغارة في الأطراف، وأمر سفيان بن عوف بالمسير إلى الأنبار وقتل أهلها .

]وصية معاوية الارهابية:[

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في المجلد الأول من كتابه شرح النهج ص144 ط1 بمصر، نقلاً عن كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي، عن ابن الكنود قال :

حدّثني سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك في جيش كثيفٍ ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتّى تمرّ بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغِر عليهم، وإلاّ فامض حتّى تُغير على الأنبار، فإن لم تجد بها

جنداً فامض حتّى توغل في المدائن، ثمّ اقبل إلّي، واتّقِ أن تقرب الكوفة، واعلم أنّك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة، إنّ هذه الغارات ـ ياسفيان ـ على أهل العراق تُرعب قلوبهم، وتُفرح كلّ مَن له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممّن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كلّ ما مررتَ به من القرى، واحرب الأموال فإنّ حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب .

قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطبهم فقال: أيّها الناس انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنّه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتُكم إن شاء الله، ثمّ نزل، قال: فوالذي لا إله غيره ما مرّت ثلاثة حتى خرجت في ستّة آلاف، ثمّ لزمت شاطئ الفرات فأغذذت السير حتّى أمرّ بهيت، فبلغهم أنّي قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب كأنها لم تحلل قطّ، فوطئتها حتّى أمرّ بصدوداء ففرّوا فلم ألق بها أحداً، فأمضي حتّى أفتتح الأنبار وقد نذروا بي، فخرج صاحب المسلحة إليّ فوقف لي، فلم أقدم عليه حتّى أخذت غلماناً من أهل القرية فقلت لهم: أخبروني كم بالأنبار من أصحاب علي صلوات الله عليه؟ قالوا: عدّة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنّهم قد تبدّدوا ورجعوا إلى الكوفة، ولا ندري الذي يكون فيها قد يكون مائتي رجل، فنـزلت فكتّبت أصحابي كتائب ثم أخذت أبعثهم إليهم كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم والله ويصبر لهم ويطاردهم ويطاردونه في الأزقّة، فلمّا رأيت ذلك أنزلت اليهم نحواً من مائتين وأتبعتهم الخيل، فلمّا حملت عليهم الخيل وأمامهم الرجال تمشي لم يكن شيء حتّى تفرّقوا وقُتل صاحبهم في نحو من ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال، ثمّ انصرفت، فوالله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقرّ للعيون ولا أسرّ للنفوس منها، وبلغني أنّها أرعبت الناس، فلمّا عدت إلى معاوية حدّثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظنّي بك، لا تنـزل في بلد من بلداني إلاّ قضيتَ فيه مثل ما يقضي فيه أميره، وإن أحببت توليته ولّيتُك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني، قال: فوالله ما لبثنا إلاّ يسيراً حتّى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الإبل هراباً من عسكر علي صلوات الله عليه.

قال إبراهيم: كان اسم عامل علي صلوات الله عليه على مسلحة الأنبار أشرس بن حسّان البكري .

]معركة الأنبار:[

وروى إبراهيم عن عبد الله بن قيس، عن حبيب بن عفيف قال: كنت مع أشرس بن حسان البكريّ بالأنبار على مسلحتها إذ صبّحنا سُفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا والله وعلمنا ـ إذ رأيناهم ـ أنّه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقنا، فلم يلقهم نصفُنا، وأيم الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم حتّى كرهونا، ثمّ نزل

صاحبنا وهو يتلو قوله تعالى: « فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلَوا تَبْدِيلاً» ثمّ قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية ما دمنا نقاتلهم، فإنّ قتالنا إيّاهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثمّ نزل في ثلاثين رجلاً، فهممتُ بالنـزول معه ثمّ أبت نفسي، واستقدم هو وأصحابه فقاتلوا حتّى قُتلوا 4 ، وانصرفنا نحن منهزمين.

قال إبراهيم: وقدم علج من أهل الأنبار على علي صلوات الله عليه فأخبره الخبر، فصعد المنبر فخطب الناس وقال: إنّ أخاكم البكري قد أصُيب بالأنبار وهو معتزّ لا يخاف ما كان، واختار ما عند الله على الدنيا، فانتدبوا إليهم حتّى تلاقوهم، فإن أصبتم منهم طرفاً أنكلتموهم عن العراق أبداً ما بقوا، ثم سكت عنهم رجاء أن يجيبوه أو يتكلّم متكلّم، فلم ينبس أحد منهم بكلمة، فلما رأى صمتهم نزل وخرج يمشي راجلاً حتّى أتى النخيلة والناس يمشون خلفه، حتّى أحاط به قوم من أشرافهم فقالوا: ارجع يا أمير المؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تكفونني ولا تكفون أنفسكم، فلم يزالوا به حتّى صرفوه إلى منـزله، فرجع وهو واجم كئيب، ودعا سعيد بن قيس الهمداني فبعثه من النخيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنّه أُخبر أنّ القوم جاؤا في جمع كثيف، فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفرات في طلب سفيان بن عوف، حتّى إذا بلغ »عانات» سرّح أمامه هانئ بن الخطاب الهمداني، فاتبع آثارهم حتّى دخل أداني أرض قنسرين وقد فاتوهم، فانصرف.

قال: ولبث علي صلوات الله عليه تُرى فيه الكآبة والحزن حتّى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك الأيام عليلاً, فلم يقو على القيام في الناس بما يريده من القول، فجلس بباب السدة التي تصل إلى المسجد ومعه ابناه حسن وحسين (عليهما السلام) وعبد الله بن جعفر، ودعا سعداً مولاه فدفع إليه الكتاب وأمره أن يقرأه على الناس، فقام سعد بحيث يستمع علي صوته ويسمع ما يردّ الناس عليه، ثمّ قرأ الخطبة هذه،(1) انتهى قول ابن أبي الحديد.

]فضل الجهاد:[

قوله صلوات الله عليه :

»أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه الله لخاصّة أوليائه.«

بيّن صلوات الله عليه في هذه الفقرات النيّرة عظمة الجهاد في الإسلام ومنافعه الخاصة والعامّة للمسلمين، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله_ (كما في رواية الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكونيّ، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)_: «للجّنة باب يُقال له باب المجاهدين يمضون إليه، فإذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم والجمع والملائكة ترحبّ بهم».(2(

والمراد بخواصّ الأولياء المخلصون له في المحبّة والعبادة، ومن المعلوم أنّ الجهاد في سبيل الله لوجه الله لا لغرض آخر من خواص الكاملين في العبادة والخالصين في المحبّة .

وذلك لأنّ المرء المسلم إذا فارق أهله وأولاده وسلك إلى الجهاد مع علمه بأنّ العدّو لو قهره يقتله ويتملّك أمواله ويستبيح ذريّته، ومع هذه كلّها يوطّن نفسه على الصبر والثبات امتثالاً لأمر الله وطلباً لمرضاته سبحانه، فذلك الوليّ الكامل والمؤمن الخالص في مقام الإيمان والعبوديّة، وحقيق بأن يدخل في زمرة: «أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ»(3) وأن يستبشر ببشارة: «إِنَّ اللّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».(4)

[ثواب وأجر الشهيد:]

والبشرى التي بشّر بها رسول الله (صلى الله عليه وآله (الشهداء منهم بقوله: «للشهيد سبع خصال من الله: أوّل قطرة منه مغفور له كلّ ذنب، والثانية: يقع رأسه في حِجر زوجته من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه وتقولان : مرحباً بك، ويقول هو مثل ذلك لهما، والثالثة: يكسى من كسوة الجنّة، والرابعة :تبتدره خزنة الجنّة بكلّ ريح طيّبة أيّهم يأخذه معه، والخامسة: أن يرى منـزله، والسادسة: يُقال لروحه: إسرح في الجنّة حيث شئت، والسابعة: أن ينظر في وجه الله (أي رحمته) وإنّها لراحة لكلّ نبّي وشهيد».(5)

وقال (صلى الله عليه وآله): إن جبرئيل أخبرني بأمر قرّت به عيني وفرح له قلبي، قال: يا محمد، من غزا غزوة في سبيل الله من أمّتك وما أصابته قطرة من الدماء أو صداع إلاّ كانت له شاهدة يوم القيامة، وللجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه وإذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم، والجمع في الموقف والملائكة ترحّب بهم، ومن ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً في نفسه وفقراً في معيشته ومَحقاً في دينه، إنّ الله تعالى أعّز أمتي بسنابك خيلها ومراكز رماحها.(6) وقال :من بلّغ رسالة غازٍ كمن أعتق رقبة وهو شريكه في ثواب غزوته،(7) وقال: خيول الغزاة خيولهم في الجنة.(8) وقال: الخير كله في السيف، وتحت ظل السيف ولا يقيم الناس إلاّ السيف، والسيوف مقاليد الجنّة والنار.(9)

وقال (صلى الله عليه وآله): تكفّل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلاّ جهاد في سبيله أو تصديق كلمته بأن يدخله الجنّة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة.(10)

وقال (صلى الله عليه وآله): لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها.(11(

وقال يوم بدر: قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ـ الحديث.(12(

وفي حديث آخر، قال: إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف.(13(

وقال: ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلاّ تعجّلوا ثُلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث، وإن لم يصيبوا غنيمة تمّ لهم أجرهم.(14(

وروى الصدوق عن الصادق (عليه السلام) قال: جاء رجل إلى النبي)صلى الله عليه وآله) فقال: إنّي راغب في الجهاد.

قال (صلى الله عليه وآله): جاهد في سبيل الله تعالى: فإنّك إن تُقتل كنت حيّاً عند الله تُرزق، وإن متّ فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت خرجت من الذنوب كما وُلدت ـ الحديث.(15 (

وقال علي صلوات الله عليه: «الجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين غضب لله، ومن غضب لله تعالى فهو مؤمن حقّاً».(16(

وقال صلوات الله عليه: «جهاد الهوى ثمن الجنّة، وجهاد النفس مهر الجنّة وأفضل الجهاد، فمن جاهدها ملكها، وهي أكرم ثواب الله لمن عرفها، وجهاد النفس بالعلم عنوان العقل، وجهاد الغضب بالحلم برهان النبل».(17(

وقال صلوات الله عليه: «إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله (بعث سريّة فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الاكبر؟ قال: جهاد النفس.(18 (

وهو قهرها وبعثها على ملازمة الطاعات ومجانبة المنهيّات، ومراقبتها على مرور الأوقات، ومحاسبتها على ما ربحته وخسرته في دار المعاملة من السعادات، وكسر قوّتها البهيميّة والسبعيّة بالرياضات وغير ذلك، ثم قال (صلى الله عليه وآله): «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه».(19(

وبالتالي قد تحصّل ممّا ذكره صلوات الله عليه منافع الجهاد ومصالحه ومفاسد تركه ومعايبه، وفيه تحريض على القيام، وترهيب عن القعود عنه، فإنّه وإن كان شاقّاً على النفس في بادئ الأمر، من حيث كون أعظم ما يميل إليه الطبع الحياة، وكون بقاء النفس للنفس مطلوباً إلاّ أنّه بعد ملاحظة ما يترتّب على القيام به من المنافع والثمرات، وعلى القعود عنه من المضارّ والعيوب، يسهل عليه القيام به، ويشري نفسه ابتغاء مرضات الله، كما قال تعالى:

»كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ».(20(

يعني أنّ الشيء ربّما كان شاقاً عليكم في الحال وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل، وبالعكس، ولأجله حَسُن شرب الدواء المرّ في الحال لتوّقع حصول الصحّة في المستقبل، وحسن تحمّل الأخطار في الأسفار بتوقّع حصول الربح .

والجهاد كذلك، لأنّ تركه وإن كان يفيد في الحال صون النفس عن خطر القتل، وصون المال عن الانفاق، ولكن فيه أنواع من المضارّ الدنيويّة والأُخرويّة، كالذلّ والفقر والحرمان من الغنيمة ومحق الدين وطمع الأعداء، حيث إنّ العدّو إذا علم ميل نظرائه إلى الدعة والسكون قصد بلادهم وحاول قتلهم، فإمّا أن يأخذهم ويستبيح دماءهم وأموالهم ويسبي ذراريهم، وإمّا إن يحتاجوا إلى قتاله من غير إعداد آلة وسلاح .

وهذا يكون كترك مداواة المريض مرضه في أوّل ظهوره بسبب مرارة الدواء، ثمّ يصير في آخر الأمر مضطرّاً إلى تحمّل أضعاف تلك النفرة والمشقة، مضافاً إلى ما يفوته من الثمرات الجليلة في الدنيا والآخرة من الأمن وسلامة الوقت والفوز بالغنيمة وحلاوة الاستيلاء على الأعداء، والدرجات التي وعدها الله تعالى بقوله:

»فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً * دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.«

على أساس هذا النداء وهذه الدعوة إلى الجهاد، كان المسلمون في تشوّق عارم إلى الشهادة، وحنين دائم إلى الجنّة، واستهانة عجيبة بالحياة الدنيا .ولقد كان الرسول الأعظم محمّد (صلى الله عليه وآله) متمّنياً للشهادة ويقول :

»والذي نفسي بيده لولا أنّ رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفوا عنّي ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلّفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددتُ أن أُقتل في سبيل الله ثُم أُحيا ثمّ أُقتل، ثمّ أُحيا ثمّ أُقتل، ثمّ أُحيا ثم أُقتل.(21)

]جهاد عمير بن الحمام:[

وفي معركة بدر قال النبي (صلى الله عليه وآله): قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام: جنّة عرضها السماوات والأض!! بخ، بخ، فقال له النبي: ما يحملك على قول بخ، بخ؟ فقال: رجاء أن أكون من أهلها، قال :فإنّك من أهلها، فألقى عمير ما كان معه من زاد، وتقدّم من المعركة وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلاّ التّقى وعمل المعاد

وكلّ زاد عُرضة النفاد   والصبر في الله على الجهاد

غير التقى والبرّ والرشاد(22)

وقاتل عمير حتّى قتل.

]جهاد أنس بن النضر:[

ولمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون، مرّ أنس بن النضر بنفر قعود، فقال لهم: ما يُقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهمّ إنّي أعتذر اليك ممّا صنعه المسلمون، وأبرأ اليك ممّا صنع المشركون، ثمّ تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال له: يا سعد، الجنّة وربّ النضر، إنّي أجد ريحها من دون أحد .قال أنس بن مالك ابن أخيه: فوجدناه في نهاية المعركة قد قُتل ومثّل به المشركون، ووجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، فما عرفه أحد إلاّ أخته ببنانه.(23(

]جهاد عمرو بن الجموح:[

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، فلمّا أراد الخروج مع النبي إلى معركة أحد منعه بنوه وقالوا له: إنّ الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد، فجاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وقال له: يا رسول الله إنّ بنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، ووالله إنّي لأرجو أن أُستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنّة، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعلّ الله (عز وجل) أن يرزقه الشهادة.

فخرج عمرو في الجيش ودعا ربّه قائلاً: اللهُمّ ارزُقني الشهادة، ولا تردّني إلى أهلي خزيان، فقُتل شهيداً في أُحد.(24(

وقُبيل القتال في أحد جاء عبد الله بن جحش إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله إنّ هؤلاء القوم ـ يريد المشركين ـ قد نزلوا حيث ترى، وقد سألتُ الله الشهادة، وأنا أسألك أخرى يا رسول الله: أن تلي تركتي من بعدي، فقال له: نعم. فقاتل عبد الله حتى قتل، ودُفن مع حمزة في قبر واحد. وجاءت أخته حمنة بنت جحش، وكانت في الجيش تحمل الماء وتضمّد الجراح، فقال لها رسول الله)صلى الله عليه وآله): يا حمن احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: خالك حمزة، قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة، ثمّ قال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: أخوك عبد الله. قالت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة. ثمّ قال لها: احتسبي. قالت: من يا رسول الله؟ قال: مصعب بن عمير. قالت: واحزناه. فقال: إنّ للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد، ثمّ قال لها: لِم قلت هذا؟ فقالت: يا رسول الله ذكرت يُتم بنيه فراعني.(25(

ولمّا فاء المسلمون إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) يوم أحد كان أوّلهم عودةً ثلاثة: عبّاس بن عبادة، وخارجة بن زيد،

وأوس بن أرقم، فنادى عبّاس: يا معشر المسلمين الله ونبيّكم، هذا الذي أصابكم بمعصية نبيّكم، وعدكم النصر فما صبرتم، ما عذرنا عند ربّنا إن أُصيب رسول الله ومنّا عين تطرف؟ ثمّ نزع مغفره وخلع درعه ليقاتل حاسراً، وقال لخارجة: هل لك فيهما؟ قال: لا، أنا أريد الذي تريد، فقاتلوا حتّى قتلوا جميعاً.(26)

]جهاد حارثة:[

وكان حارثة من شباب الأنصار، عاده رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مرضه فطلب منه أن يدعو الله له أن يرزقه الشهادة، فدعا له. فلمّا قُتل في بدر وعلمت أمّه بمقتله قالت: والله لا أبكيه حتّى أسأل رسول الله، فلمّا قدم المدينة قالت له: يا رسول الله قد عرفت موقع حارثة من قلبي، فإن يكن في الجنّة صبرت، وإن يكن غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟ فقال: يا أم حارثة إنّها ليست جنّة واحدة ولكنّها جنان، وحارثة في الفردوس الأعلى. فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ، بخٍ يا حارثة، هنيئاً لك الجنّة.(27)

عن شداد بن الهادي: أنّ رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي)صلى الله عليه وآله) ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبيّ بعض أصحابه، فكانت غزاة غنم فيها النبيّ شيئاً فقسم، وقسم له، فقال: ما هذا؟ فقال: قسمته لك. فقال: ما على هذا اتّبعتك، ولكنّي اتّبعتك على أن أُرمى إلى ههنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنّة. قال: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلاً ثمّ نهضوا في قتال العدو، فأُتي به النبي محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): أهو هو؟ قالوا: نعم: قال: صدق الله فصدقه، ثم كُفّن في جُبّة النبي، ثمّ قدّمه فصلى عليه، فكان ممّا ظهر من صلاته: اللهمّ هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً، وأنا شهيد على ذلك.(28)

* * *

لم يلجأ الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) إلى القتال إلاّ مضطرّاً، وفي حدود الدفاع عن حريّة دعوته وعن كيان المسلمين، ويبين ذلك بوضوح من استعراض أشهر معاركه مع المشركين وأهل الكتاب، فقد كانت كلّها دفاعية أو مبادرة لا تّقاء هجوم مؤكّد .

أمّا مشركو قريش فقد كانت عداوتهم واضحة طول العهد المكّيّ، ولم ينتهِ هذا العهد حتّى كانوا قد بدأوا يحكّمون السيف، فتآمروا على رسول الله)صلى الله عليه وآله) وأجمعوا على قتله حتّى لا يتمّ انتقال الدعوة إلى المدينة.

»وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ«(29) وبعد أن تمّت الهجرة كانت قريش تعدّ العدّة وتتحيّن الفرص للقضاء على الإسلام والمسلمين، ومن ثمّ كانت ظالمة معتدية منذ

البداية، ويشير القرآن إلى ذلك تذكرة للمسلمين .

»أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».(30)

[معركة بدر:]

ومعركة بدر أُولى معاركهم مع المسلمين، كان عدوانهم فيها واضحاً لعدة أسباب :

أوّلاً: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يخرج بمن معه من أصحابه لقتال، ولمّا علم أنّ قريشاً أقبلت في جيش كبير لقتاله شاور المسلمين، ولو كان خروجه من المدينة للقتال ما شاورهم.

ثانياً: أنّ قريشاً خرجت من مكّة بحجّة إنقاذ قافلة لها يقودها أبو سفيان من عدوان المسلمين، ولكنّ القافلة وصلت سالمة إلى مكّة، وبعث أبو سفيان إليهم يخبرهم بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع، ولكنّ أبا جهل أصرّ على مواصلة السير قائلاً: لا والله لا نرجع حتّى نرد بدراً فنُقيم ثلاثاً، ننحر الجُزر ونطعم الطعام ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، فلا تزال العرب تهابنا أبداً. فلمّا علم أبو سفيان بقوله قال: واقوماه!! ترأّس أبو جهل فبغى، والبغي منقصة شؤم.(31)

ثالثاً: أنّ عدداً من زعماء قريش كانوا يرون عدم القتال لعدم وجود ما يبرّره، وقد عاد من الطريق الأخنس بن شريق في مائة من بني زهرة.

رابعاً: أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) بعث إليهم عمر بن الخطاب بعد وصولهم إلى بدر يقول لهم: «ارجعوا فإنّه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحبّ إليّ من أن أليه منكم .«

فقال حكيم بن حزام أحد زعمائهم: قد عرض نصفاً فاقبلوه، والله لا تُنصرون عليه بعد ما عرض من النصف. فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن أمكننا الله منهم. ومن ثمّ لم يكن للمسلمين بدّ من القتال رغم أنّهم كانوا في قلّة من العدد والعدّة.(32)

وأمّا معركة أُحد فكانت هجوماً من قريش على المدينة للأخذ بثأر معركة بدر، ذوكان من رأي النبي عدم الخروج والدفاع عنها من داخلها، ولكنّ الأغلبيّة رأت الخروج للقاء العدو قبل مداهمتها، فخرجوا والتقوا بهم في أُحد بالقرب من المدينة.

وأمّا معركة بني المصطلق فسببها أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) علم أنّ الحارث بن أبي صرار جمع لحربه جمعاً كبيراً من قومه ومن قبائل العرب، وأنّهم قد تهيّئوا للمسير إلى المدينة، فبادرهم النبي (صلى الله عليه وآله) قبل

الخروج، فلمّا وصل إليهم بعث إليهم يعرض عليهم الإسلام فأبوا وقاتلوا .

وغزوة الأحزاب كانت حصاراً للمدينة، حاصرها المشركون في عشرة آلاف مقاتل، وانضمّ إليهم يهود بني قريظة من داخلها .

ويتّضح بغي المشركين وعدوانهم من النشيد الذي كان ينشده النبي مع المسلمين وهو يعمل معهم في حفر الخندق، وهو نشيد يفيض ثقة بالله وتوكّلاً عليه وتنزّهاً عن البغي والعدوان:

لاهمّ(33) لولا أنت ما ولا تصدّقنا ولا صلّينا

اهتدينا وثبّت الأقدام إن لاقينا

فأنزلن سكينة علينا وإن أرادوا فتنــةً

إنّ الأُلى لقد بغوا علينـا أبينـا(34)

كما يبيّن إصرار المشركين على القضاء على الإسلام والمسلمين من الرسالة التي بعث بها أبو سفيان النبي (صلى الله عليه وآله) أثناء الحصار» :باسمك اللهمّ فإنّي أحلف باللات والعزى، لقد سرت إليك في جمعنا وإنّا نريد ألاّ نعود أبداً حتّى نستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا، وجعلت مضايق وخنادق، فليت شعري من علّمك هذا؟! فإن نرجع عنكم فلكم منّا يوم كيوم أُحد».(35)

[صلح الحديبية:]

وفي الحديبية تجلّى حبّ النبي (صلى الله عليه وآله) للسلم ورغبته عن القتال؛ وذلك أنّه في السنة السادسة من الهجرة خرج من المدينة ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه يريد مكّة لزيارة المسجد الحرام ومعهم الهدي لهذا الغرض، وخاف المسلمون من عدوان قريش فقالوا للنبي: لو حملنا يا رسول الله السلاح معنا، فإن رأينا من القوم ريباً كنا معدّين لهم، فقال: لست أحمل السلاح، إنّما خرجت مُعتمراً.

ونزل المسلمون بالحُديبية على بعد تسعة أميال من مكّة، وجاء بديل بن ورقاء سفيراً من قريش، فبلغ النبيّ أنّها أجمعت على قتاله ومنعه من زيارة المسجد الحرام، فقال له النبي: إنّا لم نأتِ لقتال أحد، إنّا جئنا لنطوف بالبيت، فمن صدّنا عنه قاتلناه.

وبعث النبي (صلى الله عليه وآله) إلى قريش يقول لها: إنّا لم نأتِ لقتال، وإنّما جئنا زوّاراً للبيت معظّمين لحرمته، ومعنا الهدي ننحر وننصرف، فقالوا للرسول: لا يدخل محمّد علينا أبداً.

ثمّ جاء سهيل بن عمرو إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يعرض عليه شروطاً للصلح بعثته بها قريش، وقد قبلها النبي (صلى الله عليه وآله)، ورأى المسلمون فيها إجحافاً بهم، وقال عمر بن الخطاب رادّاً على رسول الله: يا رسول الله ألسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، فقال: علام نعطي الدنيّة في ديننا؟ فقال: أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني، وجعل عمر يردّد ذلك حتّى قال له أبو عبيدة ابن الجراح: ألا تسمع ـ يا ابن الخطاب ـ رسولَ الله يقولَ ما يقول! تعّوذ بالله من الشيطان واتّهم رأيك.

ودعا النبي (صلى الله عليه وآله) علي بن أبي طالب صلوات الله عليه لكتابة المعاهدة، وكره المسلمون ذلك وداخلهم أمر عظيم، ولكنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أمر عليّاً بالكتابة، وبدأ يملي عليه: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: ما نعرف الرحمن، اكتب ما نكتب «باسمك اللهمّ»، فضاق المسلمون وصاحوا: والله ما نكتب إلاّ الرحمن، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لعليّ: اكتب «باسمك اللهمّ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: لو نعلم أنّك رسول الله ما خالفناك، اكتب اسمك واسم أبيك، فضّج المسلمون وارتفعت الأصوات وقالوا: لا نكتب إلاّ محمد رسول الله، وإلاّ فالسيف بيننا، علام نعطي الدنيّة في ديننا؟ فأمرهم النبي بالسكوت، واستمر في إملاء المعاهدة كما طلب سهيل، ثم عاد المسلمون إلى المدينة دون زيارة المسجد الحرام في ذلك العام .

ولمّا نقضت قريش عهد الحديبية، سار إليهم النبي (صلى الله عليه وآله) في عشرة آلاف وعسكر بجيشه قرب مكّة، وجاءه العبّاس بن عبد المطلب وقد أردف خلفه أبا سفيان بن حرب وغيرهما فأسلموا وعادوا إلى مكّة بأمان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أهلها، ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) مكّة، وأعطى أهلها الأمان وصفح وعفى عنهم.

وكذلك معركة حنين، فسببها أنّ مشركي هوازن وثقيف ومعهم بعض القبائل قد تجهّزوا لحرب المسلمين، فخرج النبي (صلى الله عليه وآله) بجيشه للقائهم قبل هجومهم على مكّة، وفي وادي حُنين باغتوا المسلمين بالهجوم وكادوا يظهرون عليهم لولا ثبات النبي (صلى الله عليه وآله) في جماعة من أصحابه.

إلى هنا ننهي الموضوع ومن أراد الوقوف على التفصيل أكثر من هذا، فليرجع إلى الجزء الثالث من كتابنا «الجواهر الروحيّة.«

* * *

(1)شرح نهج البلاغة 2: 85 - 88.

(2)الكافي 5: 2/ ح2.

(3)يونس: 62.

(4)التوبة: 111.

(5)عوالي اللئالي 3: 182 و183/ ح4.

(6)الكافي 5: 2/ ح2.

(7)عوالي اللئالي 3: 183/ ح5.

(8)الكافي 5: 3/ ح3.

(9)الكافي 5: 2/ ح1.

(10)الجهاد لعبد الله بن المبارك: 81.

(11)الجامع الصغير للسيوطي 2: 410/ ح7287.

(12)مسند احمد 3: 136؛ تفسير الدرّ المنثور 2: 72.

(13)تفسير الدر المنثور 1: 248.

(14)صحيح مسلم 6: 47.

(15)أمالي الشيخ الصدوق: 547/ ح729.

(16)الكافي 2: 50 و51/ ح1.

(17)مستدرك الوسائل 11: 139؛ نمرر غرر الحكم، الحكمة 4773.

(18)الاختصاص للمفيد: 240؛ مشكاة الانوار: 431.

(19)أمالي الصدوق:553/ ح470.

(20)البقرة: 216.

(21)صحيح البخاري 3: 203؛ سنن ابن ماجة 2 /620 :ح2753.

(22)مسند احمد 3: 136 و137؛ البداية والنهاية لابن كثير 3: 338.

(23)صحيح البخاري 3: 205؛ اسد الغابة 1 :131 و132.

(24)السنن الكبرى للبيهقي 9: 24.

(25)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 18.15 :

(26)شرح نهج البلاغة 14: 257.

(27)فضائل الصحابة لاحمد بن حنبل 1: 38؛ مسند احمد 3: 124.

(28)المعجم الكبير للطبراني 7: 271؛ البداية والنهاية 4: 218.

(29)الانفال: 30.

(30)التوبة: 13.

(31)شرح نهج البلاغة 14: 107 و108 باختلاف يسير.

(32)شرح نهج البلاغة 14: 122.

(33)أي: اللهمّ.

(34)بحار الانوار 20: 199.

(35)النـزاع والتخاصم للمقريزي: 57.

ومن وصيّة له لولده الحسن)عليهما السلام): [يذكر فيها حقوق الاخوان[

«لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ لا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً».(1)

* * *

]الشرح: حكم ومواعظ:[

اشتملت هذه الفقرات النيّرة على جمل من الأمثال والحكم والنصائح:

أوّلها:[العلاقة مع الآخر] قوله صلوات الله عليه:«لا خير في معينٍ مهين، ولا في صديق ضَنين» أخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه وسبكه سبكاً لطيفاً فقال:

به وهو راعٍ للوصال أمينُ   فإنّ من الاخوان من شحط النوى

فحُلوٌ وأمّا غيبه فظنينُ(2(ومنهم صديق العين أمّا لقاؤه

ويقول سويد بن صامت أخو بني عمرو بن عوف:

مقالته بالغيب ساءك ما يغري   ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو

وبالغيب مأثور على ثغرة النحر   ترى

نميمة غشّ يفتري عقب الظهر   مقالته كالشهد ما كان شاهداً

من الغلّ والبغضاء بالنظر   يسرّك باديه وتحت أديمه

الشزر   تبين لك العينان ما هو كاتم

وخير الموالي من يريش ولا   فرشني بخير طالما قد بريتني

يبري(3(

ثانيها: قوله صلوات الله عليه: «ساهل الدهر ما ذّل لك قعوده «ومثل هذا قولهم في المثل: مَن ناطح الدهر أصبح أجمّ، وقولهم: دُر مع الدهر كيفما دار، ومثله قول الشاعر:

فأحرِ بها أن تنجلي ولها القمر(4(من قامر الأيام عن ثمراتها

رويداً ولا تصنف فيصبح شامسا(5 (وقول الآخر:

إذا الدهر أعطاك العنان فسر بـه

ثالثها: قوله صلوات الله عليه: «إحمل نفسك من أخيك عند صرمه على الصلة» أمره أن يلزم نفسه ويحملها في حقّ صديقه على أن يقابله ويجازيه عن رذائله بالفضائل؛ كما إذا قطعه أن يصله، وإن جفاه أن يبرّه، وإذا بخل عليه أن يجود عليه، ليعود إلى العقبى الحسنة وتدوم المودّة، وحذرّه أن يضع ذلك في غير موضعه، أو يفعله بغير أهله من اللئام؛ لأن ذلك وضع الشيء في غير موضعه، وهو خروج عن دائرة العقل، قال الشاعر:

وبين بني أمّي لمختلف جدّا   وإنّ الذي بيني وبين بني أبي

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا   فإن أكلوا لحمي وفرت

زجرتُ لهم طيراً تمرّ بهم سعدا   لحومهم

وليس رئيس القوم من يحمل   وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرّ

الحقدا(6(بي

ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ

* * *

رابعها: نهاه صلوات الله عليه أن يتّخذ عدوّ صديقه صديقاً ونبّه على قبح ذلك بقوله: «فإنّك إن فعلتَ ذلك عاديتَ صديقك» ومعاداة الصديق قبيحة مذمومة، فاتّخاذ عدوّه صديقاً كذلك، وذلك أنّ مصادقة عدوّ الصديق تستلزم نفرة الصديق عمّن يصادق عدوّه، لنفرته من عدوّه؛ لأنّ مصادقة عدوّه تُوهمه مشاركة العدوّ وموافقته في جميع أحواله، ومن جملة أحواله عداوته، فهي إذن توهمه الموافقة على عداوته، فتوجب له النفرة والمجانبة، ويشير الشاعر إلى هذا المعنى بقوله :

تودّ عدوّي ثمّ تزعم أنّني صديقك إنّ الرأي عنك لعازبُ(7(

وقال الآخر:

إذا صافى صديقُك مَن تعادي فقد عاداك وانقطع الكلامُ(8(

وقال الآخر:

صديقُ صديقي داخلٌ في صداقتي وخصمُ صديقي ليس لي بصديقِ

خامسها: أمره صلوات الله عليه أن يخلص نصيحته لأخيه في جميع أحواله، سواء كانت النصيحة حسنة أو قبيحة ـ أي مستقبحة ـ في نظر المنصوح ضارّة له في العاجل، باعتبار استحيائه وانفعاله من المواجهة بها، وهو قوله صلوات الله عليه» :وامحض أخاك النصيحة حسنةً كانت أو قبيحة.«

إذ يجب على الإنسان أن يبذل النصح لأخيه وصديقه ما وسعه، فإنّ النصح من أعظم لوازم المحبّة وأهم مقوّمات المودّة، ولا تتمّ صداقة ولا تنعقد أخوّة ما لم تكن النصيحة رائدها وباعثها، ومن لم يكن ناصحاً لأخيه فليس بأخ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) :«المؤمن أخو المؤمن لا يدع نصيحته على كلّ حال».(9) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): «يحقّ على المؤمن للمؤمن النصيحة».(10 (وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «من مشى في حاجة أخيه المؤمن فلم يُناصحه فقد خان الله ورسوله».(11(

وهي أفضل صفة في النوع الانساني، كما أنّ نقيضها ـ وهو الغشّ ـ أقبح خصلة في الإنسان، وهي تجب لعامة المسلمين إعانة وإرشاداً بحقّ وإلى حقّ، كما يحرم نقيضها وهو الغشّ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «من غشّنا فليس منا».(12(

* * *

]النصيحة في الوعي الديني:[

نحن الآن في جولة واسعة في ساحة النصح وينبوعه، جولة مباشرة للوجدان الانساني، لعلّ ينتفض ضميره ويرتعش وجدانه فيتأثّر بهذه اللمسة التي فيها معنى الانسانية والتكريم العلويّ لهذا المخلوق.

ومن الخير أن نفسح للتحدّث عن الموضوع بفقرة تمهيديّة، فنقول:

من الصعب جدّاً على معظم الناس أن تكلّفهم مزاولة الفضائل والتحلّي بها والسير تحت إشرافها ورعايتها. إنّ فهم الفضيلة حقّ الفهم ومعرفة حدودها حقّ المعرفة، والانقياد لها في المواقف الزلقة حيث تتوفّر المغريات وتتعارض المنافع وتنشط دواعي الجريمة والسوء شيء صعب وتكليف للناس بما لا يطيقون، وإنّما غاية ما تؤثّر الفضيلة في فئة قليلة من الناس تمارس الفضائل وتتلقّى المبادئ وتأخذ أنفسها برياضة شاقّة حقبةً من الزمن لتكون لها ممارسة الفضيلة عادة مألوفة، ولا بدّ أن تكون تلك النفوس كما قال (ارسطو): «قلوبها شريفة بالفطرة، أصدقاء للفضيلة، أوفياء بعهدها». هؤلاء الناس قليلون جدّاً في خضمّ الحياة الزاخر بالشهوات والاندفاعات والمنافع والأغراض.

إذن نستطيع أن نوفّر على الناس الجهود ونقدّم لهم من كتاب الله وسنّة رسوله وأحاديث أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين ما يكون زاداً لكلّ راغب، وعُدّة لكلّ خائض معترك الحياة، عدّة واقية تقيه الغرق في تيّاراتها العنيفة، وتقيه الزلق إذا مشى على مزالقها التي تزلّ فيها الأقدام، وتتهاوى الرجال صرعى أو غرقى أو ملوّثة.

والانسان بما أنّه اجتماعي لا بدّ له من تعاون قهريّ ليس له فيه اختيار، وهذه هي الفضيلة التي لها أثرها الحميد وعطرها الذائع وشرفها المرموق بين الناس .

قال الله تعالى: «وَتَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى».(13) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «الخلق عِيال الله، وأحبّ الخلق إلى الله مَن نفع عيال الناس وأدخل على أهل بيت سروراً»(14) وقال (صلى الله عليه وآله): «خصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البرّ: الايمان بالله، والنفع لعباد الله».(15)

وسُئل (صلى الله عليه وآله) من أحبّ الناس إلى الله؟ قال» :أنفع الناس للناس».(16)

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): «مَن كان وَصولاً لإخوانه بشفاعةٍ في دفع مغرم أوجرّ مغنم، ثبّت الله قدَميه يوم تزلّ فيه الأقدام».(17(

وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين (عليه السلام): «من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ، وقضى الله له بها ألف حاجة إحداهنّ الجنّة، ومن نفّس عن أخيه كُربة نفّس الله عنه كرب الدنيا وكرب القيامة بالغاً ما بلغت، ومن سعى له في حاجته حتّى قضاها فيسرّ بقضائها، كان إدخال السرور على رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أن يقول (عليه السلام) في آخر الحديث _: واللهِ لقضاء حاجته أحبّ إلى الله من صيام شهرين متتابعين واعتكافهما في المسجد

الحرام».(18(

هذه الأحاديث تعطينا درساً أنّ الاديان غرضها سعادة المجتمع والتعاون على متاعب الحياة، وهي أرفع قدراً من الأمور العباديّة، حيث إنّ العبادة نفعها شخصيّ وهذه الأعمال تعمّ المجتمع، وتدلّنا أيضاً على التعاون الاختياريّ سواء كان الباعث قويّاً على التعاون أم كان ضعيفاً، فالمعين على قضاء حوائج الناس له عند الله منـزلة رفيعة ودرجة سامية، وإن لم تكن الحاجة شديدة إلى المعاونة، فإذا كان الإنسان في ضيق من الأمر قد أحاطت به مفاجئة الحوادث بما يكربه ويضيق الخناق عليه، عند ذاك تكون المعاونة ألزم.

ولو فرضنا أنّ رجلاً استعان بآخر على دفع مظلمة أو قضاء حاجة أو كشف غمّة أو إزاحة مصيبة، وهو قادر على أن يقوم بحقّه ولم يُنقذه ممّا هو فيه فقد تعرّض لمقت الله، روى علي بن جعفر عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: سمعته يقول» :مَن قصد إليه رجل من اخوانه مستجيراً به في بعض أحواله فلم يجُِره بعد أن يقدر عليه فقد قطع ولاية الله».(19(

وإذا كان من حقّ المسلم أن تُعينه لأنّه أخوك في المعتقد والفكرة والخلق والمثل العليا، فمن حقّه أيضاً أن تبذل له نُصحك وتمنحه إخلاصك، وتفكّر في انقاذه من ورطته، وتفكّر أن لا تزلّ به القدم ولا يُؤخذ على غرّة، فتذكّره بما يُصلح شأنه وينفي المخاوف التي تعلمها أنت ويجهلها هو، وتدلّه على الطريق الذي يأمن به العثار ويبتعد عن مسبّبات الكدر، فأنت مسؤل عن الشوكة تُدميه والعقرب تلسعه والضرر يحيق به، وإذا كنت على سابق علم أو عندك في حوادث الأمور المباغتة اختبار ودراية، فمن الواجبات الاجتماعية أن تنصحه وتوضّح له ما خفي عنه ليتّقي المتاعب ويتجنّب المخاوف ويبتعد عن الخطر.

جاء عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): «إنّ أعظم الناس منـزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه».(20) وقال (عليه السلام):«يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب».(21(

وقد مضت سنّة الله تعالى بما عرف بالتجارب: أنّ نفع النصح له شرطان أو طرفان: هما الفاعل للنصح، والقابل له، وإنّما يقبله المستعدّ للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغيّ والفساد بمفارقة أسبابه من الغرور بالغنى والجاه والكبر.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):«الدين النصيحة، قالوا :لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم».(22(

فالنصيحة لله الاعتقاد في وحدانيّته، وإخلاص النيّة في عبادته، ونصرة الحقّ فيه، ووصفه بأوصاف الكمال، وتنـزيهه عن النقائص، وطاعة أمره، واجتناب نهيه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، وغير ذلك ممّا يجب له، وجميع هذه الأشياء في الحقيقة ترجع مصلحتها إلى العبد، فهي نصيحة لنفسه وكسب خير لها.

والنصيحة للرسول (صلى الله عليه وآله) تصديقه فيما جاء به، واتّباعه فيما أمر به ونهى عنه، وتعظيم حقّه، وتوقيره حيّاً وميّتاً، ومعرفة سنّته والعمل بها، وإحياء طريقته في بثّ الدعوة وتأليف الكلمة والتخلّق بالأخلاق الطاهرة.

والنصيحة لأئمّة المسلمين: إعانتهم على الحقّ وطاعتهم فيه وأمرهم به، وتذكيرهم بحوائج العباد، ونُصحهم في رفق وعدل، وتنبيههم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممّن يُريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمّالهم وسيرتهم في الرعيّة، وسدّ خلّتهم عند الحاجة، وردّ القلوب النافرة إليهم.

والمراد بأئمّة المسلمين قادتهم في تنظيم شؤن الدنيا وفي إقامة معالم الدين ونشره بين الناس، فيشمل الملوك والأمراء والرؤساء والعلماء.

والنصيحة لعامّة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم في دُنياهم وأُخراهم، وكفّ الأذى عنهم، وتعليمهم ما جهلوا، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، وتوقّي ما يشغل خواطرهم ويفتح باب الوسواس عليهم.

وليكن أداء النصيحة بعبارة ليّنة رقيقة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وأسلوب يُغري بالامتثال، وبطريقة تُبعد عن ذهن المستنصح أنّ الناصح له هو أعلى منه، فذلك يكون أعمق أثراً وأقوى تركيزاً.

ويشترط في الناصح العفّة، والحياء، والصدق، وسلامة الذات، وفوق ذلك كلّه الدين، لأنّه إن كان عفيفاً يأنف من الغشّ حتّى لعدوّه، وإن كان من أهل الحياء يمنعه حياؤه من نسبة الغشّ إليه، وإن كان صدوقاً لا يكذب، لعلمه أنّ الكذوب ممقوت لا يُوصف بالخير، وإن كان سليم الذات لا يرى النصح إلاّ لازماً له لنقاوة نفسه وفطرته، والمتديّن يرى الواجب الديني المبالغة في النصح لكلّ فرد في أيّ عمل أو قول يقوم به، ومرآته (الدين النصيحة.(

فمن كان موصوفاً بهذه الصفات ينبغي توجّه القلب والسمع والبصر نحوه ليستفاد من نصحه ورشده، قال أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه: «إنّ معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تُورث الحسرة وتُعقب الندامة».(23(

يقول الشاعر:

فخُذ منها جميعاً بالوثيقة	خصائص من تشاوره ثلاثة
ومعرفة بحالك في الحقيقة	ودادٌ خالص ووفورُ عقلٍ

أمّا كونه ناصحاً: فلأنّ الناصح يصدق الفكر ويمحض الرأي، وغير الناصح ربّما يشير بالرأي الفطير فيوقع بالمضرّة.

وأمّا كونه شفيقاً: فلأنّ الشفقة تحمل على النصح، فتحمل على حسن التروّي في الأمر وإيقاع الرأي عن ثبت واجتهاد، وفي أمثال العرب «اسمع ممّن لا يجد منك بدّاً» يعني اقبل نصيحة من يطلب نفعك كالأبوين، ومن لا يستجلب بنصحك

نفعاً إلى نفسه بل إلى نفسك، يقول الشاعر :

فشاوِرْ فكم نُجحٍ هدته المشاورةْ إذا ما عرى خطبٌ ورمتَ وروده
شفيقاً فأبصِر بعدَه مَن تُشاورهْ وأنفعُ مَن شاورتَ من كان ناصحاً

وأما كونه عالماً: ففائدته إصابته، لعلمه وجه المصلحة في الأمر، فإنّ الجاهل في الأمر أعمى لا يُبصر وجه المصلحة فيه. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا».(24)

وأمّا كونه مجرّباً: فلأنّه لا يتمّ رأي العالم ما لم تنضمّ إليه التجربة؛ وذلك أنّ العالم وإن علم وجه المصلحة في الأمر، إلاّ أنّ ذلك الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد، ولا يطّلع عليها إلاّ بالتجربة مرّة ومرة، فالنصيحة من دون تجربة مظنّة الخطأ، وقد قيل في منثور الحكم: «كلّ شئ محتاج إلى العقل، والعقل محتاج إلى التجارب»، أو كما يقال: «إيّاك ومناصحة رجلَين: شاب مُعجب بنفسه قليل التجارب في غيره، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه» وكان لقمان الحكيم يقول لابنه: «يا بنيّ استنصح مَن جرّب الأمور، فإنّه يُعطيك مِن رأيه ما قام عليه بالغلاء وتأخذه أنت بالمجّان».(25)

وبالتالي يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب.

[نصيحة الصحابي سعد بن الربيع لرسول الله (صلى الله عليه وآله):]

ويحدّثنا التاريخ عن رجال في الصدر الأوّل من الإسلام أنّهم نصحوا لله ولرسوله وآله أحياءً وأمواتاً.

منهم سعد بن الربيع (رضي الله عنه)، قُتل يوم أحد شهيداً بعد ما فرّ المسلمون عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونادى إبليس في المعركة: قُتل محمّد، فقال سعد: لا خير في الحياة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ثمّ حمل على المشركين وجعل يضرب بسيفه في وجوههم قدماً حتّى سقط إلى الأرض، ولمّا تراجع المسلمون قال النبي (صلى الله عليه وآله): مَن له عِلم بسعد بن الربيع، فإنّي رأيته وقد أُشرعت إليه اثنا عشر رمح، فقال أبيّ بن كعب: أنا يا رسول الله، فأقبل أبيّ بن كعب وجعل يطوف بين القتلى فوجده وبه رمق، فناداه: يا سعد، فما أجابه فقال: يا سعد إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعثني اليك لآتيه بخبرك فإنّه يقول: رأيتُه وقد أُشرعت إليه اثنا عشر رُمح، قال: فانتعش سعد كما ينتعش الفرخ وقال: أهو حيّ؟ قلت :إي والله. قال: الحمد لله، إنّي طُعنت اثنتي عشرة طعنة أنفذت مقاتلي، اقرأ

رسول الله عنّي السلام وقل لقومي عنّي: يقول سعد «الله الله على ما عاهدتم عليه رسول الله، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى نبيّكم شيء وفيكم عين تطرف»، ثمّ مات)رحمه الله)، فجاء أبيّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأخبره، فقال (صلى الله عليه وآله): رحم الله سعداً لقد نصح لنا حيّاً وميّتاً.(26(

[نصيحة عبد الله بن كعب لعلي (عليه السلام:[(

ومنهم عبد الله بن كعب قُتل يوم صفين، قال نصر بن مزاحم :جالت خيل لأهل الشام وأهل العراق بصفّين فصُرع عبد الله بن كعب، فمشى لمصرعه الأسود بن قيس، فرآه بآخر رمق فقال: عزّ عليّ ـ والله ـ مصرعك، أما والله لو شهدتُك لآسيتك ولدافعت عنك، ولو أعرف الذي قتلك لأحببتُ أن لا يُزايلني حتّى يُلحقني بك أو أقضي عليه، ثمّ جلس عنده وقال: والله إن كان جارك ليأمن بوائقك وإن كنت من الذاكرين الله كثيراً، أوصني رحمك الله، فقال: يا أخي أوصيك بتقوى الله وأن تناصح لأمير المؤمنين وتُقاتل معه المشركين حتّى يظهر الحقّ أو تلحق بالله، واقرأ أمير المؤمنين عني السلام وقل له: يقول عبد الله «فليقاتِل على المعركة حتّى يجعلها خلف ظهره، فمن أصبح والمعركة خلف ظهره كان الغالب»، ثمّ مات رحمة الله عليه، فجاء الأسود بن قيس إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه فأخبره فقال صلوات الله عليه: رحم الله عبد الله، لقد جاهد معنا عدوّنا في الحياة، ونصح لنا عند الممات.(27(

[نصيحة ابن عوسجة للحسين (عليه السلام:[(

ومنهم مسلم بن عوسجة (رضي الله عنه) صُرع بين يدَي الحسين)عليه السلام) بطفّ كربلاء. فمشى لمصرعه حبيب بن مظاهر، فوجده بآخر رمق من الحياة، فجلس عند رأسه وقال: عزّ عليّ ـ والله ـ مصرعك، ولو شهدتك لآسيتك ولدافعت عنك، ولو لم أعلم أنّي بالأثر لأحببتُ أن تُوصي إليّ بجميع ما أهمّك، فقال مسلم: يا أخي أوصيك بهذا الغريب ـ وأشار بيده إلى الحسين (عليه السلام) ـ قاتِل دونه حتّى تُقتل، فقال حبيب: والله لأُنعمنّك عيناً، ثمّ مات (رحمه الله).(28(

[نصيحة العباس (عليه السلام) لأخيه الحسين (عليه السلام:[(

ومنهم العبّاس بن علي (عليه السلام)، صُرع بطفّ كربلاء بين يدي أخيه الحسين (عليه السلام) فقد كان مناصحاً لأخيه الحسين (عليه السلام) قولاً وفعلاً، أمّا قولاً: فمن ذلك قوله لأخوته: حاموا عن سيّدكم وإمامكم الحسين. وقوله لهم: تقدّموا يا بني أُمّي حتّى أعلم أنّكم قد نصحتم لله ولرسوله.(29(

وأمّا مُناصحته الفعليّة فأثرها ظاهر: قَطعت يمينه وشماله وهو واقف في خطّة الحرب، ثابت في ساحة القتال، لم يطلب لنفسه ملجأً ولا مأمناً، وقف من غير يدَين يذبّ عن أخيه كأنّه قطعة جبل صلد لا يتزعزع، حتّى اغتاله بعضهم مستتراً من وراء نخلة ففضخ هامته بعمود من حديد، فخرّ صريعاً على وجه الثرى، فهذه من أعظم المناصحة وأجلّها.

وقد مُدح بهذه المناصحة وأثنى عليه الأئمّة المعصومون (عليه السلام): قال الإمام الصادق (عليه السلام) في زيارته التي رواها ابن قولويه في كامل الزيارات: «أشهدُ لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبيّ المُرسَل والسبط المُنتَجب والوصيّ المُبلّغ والمظلوم المهتضم...».(30) وقال (عليه السلام (في مقام آخر :

»أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود».(31 (وفي محلّ آخر منها: «أشهد أنّك قد نصحت لله ولرسوله ولأخيك»(32) وفي محلّ آخر» :أشهد أنّك قد بالغت في النصيحة وأدّيت الأمانة وجاهدت عدوّك وعدّو أخيك، فصلوات الله على روحك الطيّبة، وجزاك الله من أخٍ خيراً ورحمة الله وبركاته».(33(

ولعلّ المراد بالأمانة من قوله: «وأدّيت الأمانة» أنّ الحسين)عليه السلام) من العترة التي هي أحد الثقلَين اللذين أوصى رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمّته بالتمسّك بهما وبحفظهما ورعاية حقّهما وجعلهما أمانة عند الخيار من أمّته، وأبو الفضل العباس (عليه السلام) في طليعة الأوفياء بتأدية هذه الامانة وإيصالها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) محترمة معظّمة، بذل دون حفظها نفسه النفيسة، وجعل يتلقّى السيوف بوجهه وصدره ونحره لئلاّ يصل إلى وديعة رسول الله شيء منها، أو لعلّ المراد بالأمانة البيعة للحسين (عليه السلام)، ولا شكّ أنّ البيعة أمانة عند المبايع، وأنّ التزامه بشرائطها تأدية لها، والقتل من أظهر مصاديق الوفاء وأجلى مظاهر التأدية للأمانة، ولهذا كان كلّ من أراد الشهادة من أصحاب الحسين (عليه السلام) يقف أمامه ويستأذنه للبراز ويقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، أوفيتُ يا ابن رسول الله؟ فيقول (عليه السلام): نعم، أنت أمامي في الجنّة، فاقرأ جدّي وأبي وأمي عنّي السلام وقُل لهم: تركتُ حسيناً وحيداً فريداً لا ناصر له ولا معين.

ويحتمل أيضاً أن يراد بالأمانة ما رواه بعض أرباب المقاتل من أنّ مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه عند موته أوصى ولده العباس بنُصرة أخيه الحسين (عليه السلام)، فكانت هذه الوصية أمانة من أبيه في عُنقه، فقام بتأديتها وأسقط عنه فرض التكليف بها، فقد ذكر الحجّة الشيخ عبد الحسين الحلي (رضي الله عنه (في كتابه النقد النـزيه: «أنّ عليّاً صلوات الله عليه أوصى عند موته ولده العبّاس أنّه إذا ملك الماء يوم عاشوراء لا يشرب منه وأخوه الحسين (عليه السلام) عطشان.«

* * *

من كلام له (عليه السلام (لكميل بن زياد النخعي (رضي الله عنه(34) :(

]في أصناف الناس وفضل العلماء وفيه يتعرض لذكر المهدي (عليه السلام[(

قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)عليه السلام) فأخرجني إلى الجبان، فلمّا أصحر تنفّس الصعداء ثم قال:

»يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ النَّاسُ ثَلَاثَةٌ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ يَا كُمَيْلُ هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ هَا إِنَّ هَاهُنَا لَعِلْماً جَمّاً وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً بَلَى أَصَبْتُ لَقِناً غَيْرَ مَأْمُونٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا وَمُسْتَظْهِراً بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَبِحُجَجِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ أَوْ مُنْقَاداً لِحَمَلَةِ الْحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ أَلَا لا ذَا وَلَا ذَاكَ أَوْ مَنْهُوماً بِاللَّذَّةِ سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ أَوْ مُغْرَماً بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ لَيْسَا مِنْ رُعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهاً بِهِمَا الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيهِ اللَّهُمَّ بَلَى لا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ إِمَّا ظَاهِراً مَشْهُوراً وَإِمَّا خَائِفاً مَغْمُوراً لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ وَكَمْ ذَا وَأَيْنَ أُولَئِكَ أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقَلُّونَ عَدَداً وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتْرَفُونَ وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِينِهِ آهِ آهِ شَوْقاً إِلَى رُؤْيَتِهِمْ انْصَرِفْ يَا كُمَيْلُ إِذَا شِئْتَ.«

»ابن ابي الحديد مج 4 من شرح النهج، ص 310، ط الاولى بمصر.«

* * *

الشرح] :أصناف الناس]

قال ابن أبي الحديد: الجبان والجبانة: الصحراء، وتنفّس الصعداء أي تنفّس تنفّساً ممدوداً طويلاً. قوله (عليه السلام): «ثلاثة» قسمة صحيحة، وذلك لأنّ البشر باعتبار الأمور الإلهيّة إمّا عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، وإمّا شارع في ذلك، فهو بعد في السفر إلى الله يطلبه بالتعلّم والاستفادة من العالم، وأمّا لاذا ولا ذاك، وهو العامّي الساقط الذي لا يعبأ الله به. وصدق (عليه السلام) في أنّهم همج رعاع أتباع كلّ ناعق. ألا تراهم ينتقلون من تقليد شخص إلي تقليد الآخر

لأدنى خيال وأضعف وهم.

]المقارنة بين العلم والمال:[

ثمّ شرع (عليه السلام) في ذكر العلم وتفضيله على المال، فقال: «العلم يحرسك وأنت تحرس المال» وهذا أحد وجوه التفضيل، ثمّ ابتدأ فذكر وجهاً ثانياً، فقال: المال ينقص بالانفاق منه، والعلم لا ينقص بالانفاق بل يزكو، وذلك لأنّ إفاضة العلم على التلامذة تفيد المعلم زيادة استعداد، وتقرّر في نفسه تلك العلوم التي أفاضها على تلامذته وتثبّتها وتزيدها رسوخاً. فأمّا قوله «وصنيع المال يزول بزواله» فتحته سرّ دقيق حكميّ، وذلك لأنّ المال إنّما يظهر أثره ونفعه في الأمور الجسمانيّة والملاذّ الشهوانيّة، كالنساء والخيل والأبنية والمأكل والمشرب والملابس ونحو ذلك، وهذه الآثار كلّها تزول بزوال المال أو بزوال ربّ المال، ألا ترى أنّه إذا زال المال اضطرّ صاحبه إلى بيع الأبنية والخيل والإماء ورفض تلك العادة من المآكل الشهيّة والملابس البهيّة، وكذلك إذا زال ربّ المال بالموت فإنّه يزول آثار المال عنده، فإنّه لا يبقى بعد الموت آكلاً شارباً لابساً، وأمّا آثار العلم فلا يمكن أن تزول أبداً والانسان في الدنيا، ولا تزول بعد خروجه عن الدنيا.

أمّا في الدنيا فلأنّ العالم بالله تعالى لا يعود جاهلاً به، لأنّ انتفاء العلوم البديهيّة عن الذهن وما يلزمها من اللوازم بعد حصولها محال، فإذاً قد صدق قوله (عليه السلام) في الفرق بين المال والعلم أنّ صنيع المال يزول بزواله، أي وصنيع العلم لا يزول، ولا يحتاج إلى أن يقول بزواله، لأنّ تقدير الكلام :وصنيع المال يزول لأنّ المال يزول. وأمّا بعد خروج الإنسان من الدنيا فإنّ صنيع العلم لا يزول، وذلك أنّ صنيع العلم في النفس الناطقة اللّذة العقليّة الدائمة لدوام سببها، وهو حصول العلم في جوهر النفس الذي هو معشوق النفس، مع انتفاء ما يشغلها عن التمتّع به والتلذّذ بمصاحبته، والذي كان يشغلها عنه في الدنيا استغراقها في تدبير البدن وما تورده عليها الحواس من الأمور الخارجيّة.

ولا ريب أنّ العاشق إذا خلا بمعشوقه وانتفت عنه أسباب الكدر كان في لذّة عظيمة، فهذا هو سرّ قوله «وصنيع المال يزول بزواله»، فإن قلت: ما معنى قوله (عليه السلام): «معرفة العلم دين يُدان به» وهل هذا إلاّ بمنـزلة قولك «معرفة العلم المعرفة» أو «العلم العلم» وهذا كلام مضطرب، قلت: تقديره: معرفة فضل العلم أو شرف العلم أو وجوب العلم دين يُدان به، أي المعرفة بذلك من أمر الدين، أي ركن من أركان الدين واجب مفروض.

ثمّ شرح (عليه السلام) حال العلم الذي ذكر أنّ معرفة وجوبه أو شرفه دين يُدان به، فقال: «العلم يكسب الإنسان الطاعة في حياته» أي من كان عالماً كان لله تعالى مطيعاً، كما قال سبحانه :

»إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»(35) ثم قال (عليه السلام): «وجميل الأُحدوثة بعد وفاته» أي الذكر الجميل بعد

موته، ثمّ شرع في تفضيل العلم على المال من وجه آخر فقال: «العلم حاكم والمال محكوم عليه» وذلك أنّك لعلمك أنّ مصلحتك في إنفاق هذا المال تنفقه، ولعلمك بأنّ المصلحة في إمساكه تُمسكه، فالعلم بالمصلحة داعٍ وبالمضرّة صارف، وهما الأمران الحاكمان بالحركات والتصرّفات إقداماً وإحجاماً، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلاّ باعتبارهما، وليسا إلاّ عبارة عن العلم أو ما يجري مجرى العلم من الاعتقاد والظنّ، فإذن قد بان وظهر أنّ العلم من حيث هو علم حاكم وأنّ المال ليس بحاكم بل محكوم عليه.

ثمّ قال (عليه السلام): «هلك خُزّان المال وهم أحياء» وذلك لأنّ المال المخزون لا فرق بينه وبين الصخرة المدفونة تحت الأرض، فخازنه هالك لا محالة، لأنّه لم يلتذّ بإنفاقه، ولم يصرفه في الوجوه التي ندب الله تعالى إليها، وهذا هو الهلاك المعنويّ، وهو أعظم من الهلاك الحسيّ، ثم قال :

»والعلماء باقون ما بقي الدهر» هذا الكلام له ظاهر وباطن، فظاهره قوله: «أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة» حقيقة لا مجازاً على قول من قال ببقاء الأنفس، وأمثالهم في القلوب كناية ولغز، ومعناه ذرّاتهم في حظيرة القدس، والمشاركة بينها وبين القلوب ظاهرة؛ لأنّ الأمر العام الذي يشملها هو الشرف، فكما أنّ تلك أشرف عالمها كذا القلب أشرف عالمه، فاستُعير لفظ أحدهما وعُبّر به عن الآخر.

قوله (عليه السلام): «ها إنّ ههنا لعِلماً جمّاً، وأشار بيده إلى صدره» هذا عندي إشارة إلى العرفان والوصول إلى المقام الأشرف الذي لا يصل إليه إلّا الواحد الفذّ من العالم، ممّن لله تعالى فيه سرّ وله به اتصال، ثمّ قال: «لو أصبتُ له حَمَلَة» ومن الذي يطيق حمله؟ بل من الذي يطيق فهمه فضلاً عن حمله؟ ثمّ قال: «بلَى أُصيب» ثم قسّم الذي يصيبهم خمسة أقسام: أحدهم: أهل الرياء والسمعة الذين يُظهرون الدين والعلم ومقصودهم الدنيا، فيجعلون الناموس الدينيّ شبكة لاقتناص الدنيا. وثانيها: قوم من أهل الخير والصلاح ليسوا بذوي بصيرة في الأمور الإلهيّة الغامضة، فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تنقدح في قلوبهم شبهة بأدنى خاطر، فإنّ مقام المعرفة مقام خطر صعب لا يثبت تحته إلاّ الأفراد من الرجال الذين أُيّدوا بالتوفيق والعصمة، وثالثها رجل صاحب لذّات وطُرف، مشتهر بقضاء الشهوة، فليس من رجال هذا الباب، ورابعها رجل مُغرم بجميع المال وادّخاره، لا يُنفقه في شهواته ولا في غير شهواته، فحكمه حكم القسم الثالث. ثم قال (عليه السلام): «كذلك يموت العلم بموت حامليه» أي إذا متُّ مات العلم الذي في صدري لأنّي لم أجد أحداً أدفعه إليه وأورثه إيّاه.

]إشارة إلى الإمام المهدي)ع:[(

ثمّ استدرك فقال: «اللهمّ بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجّة» كيلا يخلو الزمان ممن هو مهيمن لله تعالى على عباده

ومسيطر عليهم.

وهذا يكاد يكون تصريحاً بمذهب الإماميّة، إلاّ أنّ أصحابنا يحملونه على أن المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبويّة عنهم أنّهم في الأرض سائحون. فمنهم من يُعرف ومنهم من لا يعرف، وأنّهم لا يموتون حتى يُودعوا السرّ ـ وهو العرفان ـ عند قوم آخرين يقومون مقامهم، ثمّ استنـزر عددهم فقال: «وكم ذا» أي كم ذا القبيل وكم ذا الفريق، ثم قال: وأين اولئك؟ استبهم مكانهم ومحلّهم، ثمّ قال» :هم الأقلّون عدداً، الأعظمون قدراً» ثمّ ذكر أنّ العلم هجم بهم على حقيقة الأمر، وانكشف لهم المستور المغطّى، وباشروا راحة اليقين وبرد القلب وثلج العلم، واستلانوا ماشقّ على المترفين من الناس ووعر عليهم نحو التوحّد ورفض الشهوات وخشونة المعيشة، قال: «وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون.«

يعني العزلة ومجانبة الناس وطول الصمت وملازمة الخلوة ونحو ذلك ممّا هو شعار القوم .

قال: «وصحبوا الدنيا بأرواحٍ أبدانُها معلّقة بالمحلّ الأعلى» هذا ما يقوله أصحاب الحكمة من تعلّق النفوس المجرّدة بمبادئها من العقول المفارقة، فمن كان أزكى كان تعلّقه بها أتمّ. ثمّ قال: «أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه» لا شبهة أن بالوصول يستحقّ الإنسان أن يُسمّى خليفة الله في أرضه، وهو المعنيّ بقوله سبحانه للملائكة: «إِنِّي جاعِلٌ فِي الأْرْضِ خَلِيفَةً»(36) وبقوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأْرْضِ»(37) ثم قال(عليه السلام): «آه آه شوقاً إلى رؤيتهم». وهو (عليه السلام) أحقّ الناس أن يُشتاق إلى رؤيتهم؛ لأنّ الجنسيّة علّة الضمّ، والشيء يشتاق إلى ما هو من سنخه وسوسته وطبيعته، ولمّا كان هو (عليه السلام) شيخ العارفين وسيّدهم، لا جرم اشتاقت نفسه الشريفة إلى مشاهدة أبناء جنسه، وان كان كلّ واحد من الناس دون طبقته. ثم قال لكميل: «انصرف إذا شئت»، وهذه الكلمة من محاسن الآداب ومن لطائف الكلم؛ لأنّه لم يقتصر على أن قال: انصرف، كيلا يكون أمراً وحُكماً بالانصراف لا محالة، فيكون فيه نوع علوّ عليه، فأتبع ذلك بقوله: «إذا شئت» ليُخرجه من الحكم وقهر الأمر إلى عزّة المشيئة والاختيار».(38(

انتهى الكتاب والحمد له والشكر له في اليوم الحادي عشر من شهر صفر سنة 1410 هـ [وكان الابتداء به سنة 1396 هـ]

بقلم مؤلفه حسن علي القبانچي النجفيّ في النجف الأشرف

* * *

(1)شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد 104.16 :

(2)شرح نهج البلاغة 16: 105.

(3)البداية والنهاية 3: 180؛ أسد الغابة 377.2 :

(4)أي الغلبة.

(5)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 106.16 :

(6)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 107.16 :

(7)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 107.16 :

(8)نفس المصدر.

(9)الجامع الصغير للسيوطي 2: 662/ ح9156؛ كنـز العمال 1: 142/ ح687.

(10)مشكاة الانوار: 184؛ وفي الكافي 2 /208 :ح3: يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة.

(11)فقه الرضا: 369؛ الكافي 2: 362/ ح2 باختلاف يسير.

(12)دعائم الاسلام للقاضي النعمان 2: 28؛ مستدرك الوسائل 13: 201؛ وفي لفظ الكافي 5: 160/ ح1 عن الصادق (عليه السلام) ليس منّا من غشّنا.

(13)المائدة: 2.

(14)الكافي 2: 164/ ح6.

(15)تحف العقول: 35؛ بحار الانوار 74: 137 /ح2.

(16)الكافي 2: 164/ ح7.

(17)وسائل الشيعة 16: 342/ ح21715.

(18)وسائل الشيعة 16: 342 و343/ ح21716؛ عوالي اللئالي 1: 355 و356/ ح24.

(19)الكافي 2: 366 و367/ ح4.

(20)الكافي 2: 208/ ح5.

(21)الكافي 2: 208/ ح2.

(22)روضة الواعظين: 424؛ بحار الانوار 199.88 :

(23)شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 204.2 :

(24)الجامع الصغير للسيوطي 1: 149/ ح975.

(25)شرح نهج البلاغة 20: 41.

(26)الطبقات الكبرى لابن سعد 3: 524.

(27)بحار الانوار32: 519.

(28)اللهوف لابن طاووس: 64.

(29)الارشاد للمفيد 2: 109.

(30)كامل الزيارات: 440/ ح671.

(31)كامل الزيارات: 441/ ح671.

(32)المزار للشيخ المفيد: 124 .

(33)بحار الانوار 68: 330.

(34)كان كميل بن زياد من خاصّة الإمام والصفوة من شيعته، ولمّا ولي الحجّاج طلبه للقتل فهرب منه واختفى، فما كان من الحجّاج إلاّ أن منع العطاء عن قومه.. ولمّا علم كميل بذلك قال: أنا شيخ كبير، وقد نفد عمري، ولا ينبغي أن أكون سبباً لحرمان قومي من أقواتهم، وسلّم نفسه للحجّاج، فلمّا رآه قال له: كنت أحبّ أن أجد عليك سبيلاً، فقال كميل: لا تصرف عليَّ أنيابك كالبعير، فاقضِ ما أنتَ قاضٍ، فالموعد الله، وبعد القتل حساب وجزاء، فقال الحجّاج لجلاوزته: اضربوا عُنقه، فضُربت...

(35)فاطر: 28.

(36)البقرة: 30.

(37)الانعام: 165.

(38)شرح نهج البلاغة 18: 347 - 352.

مصادر التأليف والتحقيق

القرآن الكريم

نـهج البلاغة: السيد الشريف الرضي.

)الف(

الأمالي: الشيخ الصدوق/ مؤسسة البعثة/ قم/ الأولى 1417هـ.

الأمالي: الشيخ المفيد/ جماعة المدرسين/ قم.

الأمالي: الشيخ الطوسي/ دار الثقافة/ قم/ الأولى 1414هـ.

الأمالي: السيد المرتضى/ مكتبة آية الله المرعشي النجفي/ قم1403 /هـ.

إسعاف الراغبين: محمد بن الصبان المصري

إقبال الأعمال: السيد ابن طاووس/ مكتب الإعلام الإسلامي/ قم /الأولى 1414هـ.

الإرشاد: الشيخ المفيد/ مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث/ دار المفيد.

الإحتجاج: الشيخ الطبرسي/ ط: النعمان/ النجف الأشرف/ 1386هـ.

إرشاد القلوب: الحسن بن أبي الحسن الديلمي.

إحياء علوم الدين: الشيخ الغزالي.

الإختصاص: الشيخ المفيد/ جماعة المدرسين/ قم.

أسد الغابة: ابن الأثير.

إعلام الورى: الطبرسي/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم /الأولى 1417هـ.

الأنوار النعمانية: المحدث الجزائري.

الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري/ الأولى/ ايران1413 /هـ.

إثبات الوصية: علي بن الحسين المسعودي/ المطبعة الحيدرية /النجف الأشرف.

الأنساب: أبو سعد عبد الكريم السمعاني.

أعلام النساء: رضا كحالة.

الإصابة في معرفة الصحابة: ابن حجر العسقلاني/ دار الكتب العلمية بيروت/ الأولى 1415هـ.

أنوار التنـزيل: البيضاوي.

إفحام الأعداء والخصوم: السيد ناصر حسين الموسوي الهندي.

إبطال الباطل: الفضل ابن روزبهان.

الإكتفاء في فضل الأربعة الخلفاء: إبراهيم اليمني الوصابي.

أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين العاملي/ ط 1.

الإستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر/ دار إحياء التراث العربي.

الإمام علي (عليه السلام) صوت العدالة الإنسانية: جورج جرداق.

الإمام علي (عليه السلام) أسد الإسلام وقديسه: روكس بن زائدة العزيزي.

الإمام علي (عليه السلام) نبراس ومتراس: سليمان كتاني.

(ب)

بصائر الدرجات: محمد بن الحسن الصفار/ الأعلمي/ طهران1404 /هـ.

بحار الأنوار: المجلسي/ مؤسسة الوفاء/ لبنان/ الطبعة الثانية/ 1403هـ.

بلاغات النساء: أبو الفضل بن أبي طاهر ابن طيوفور.

البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي/ دار إحياء التراث العربي/ الأولى/ 1408هـ.

(ت)

تذكرة الموضوعات: محمد طاهر بن علي الهندي الفتني.

تفسير القرطبي: محمد بن أحمد القرطبي/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ 1405هـ.

تفسير البيضاوي: عبد الله بن عمر الفارسي الشافعي البيضاوي.

التحصين: السيد ابن طاووس/ مؤسسة الثقلين لإحياء التراث/ قم1413 /هـ.

تفسير الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي.

تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي.

تاريخ الخلفاء: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي.

تفسير شفاء الصدور: ابو بكر النقاش الموصلي.

تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي/ دار المعرفة/ بيروت/ 1412هـ.

تفسير الصافي: المولى محسن (الفيض الكاشاني) الصافي/ مكتبة الصدر/ طهران/ الثانية/ 1416هـ.

تاريخ بغداد: أحمد بن علي الخطيب البغدادي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ 1417هـ.

تفسير الطبري: محمد بن جرير الطبري/ دار الفكر/ بيروت1415 /هـ.

تنبيه الخواطر: ابن ورام.

تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي / ط نجف.

تفسير الكشاف: محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري.

تفسير التبيان: الشيخ الطوسي/ داء إحياء التراث العربي.

التفسير الكبير: الفخر الرازي.

تفسير البرهان: السيد هاشم البحراني.

تاريخ دمشق: علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ابن عساكر /دار الفكر/ بيروت/ 1415هـ.

التوحيد: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم/ 1398هـ.

تفسير نور الثقلين: عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي/ مؤسسة إسماعيليان/ قم 1412هـ.

تفسير العياشي: محمد بن مسعود العياشي/ المكتبة العلمية /طهران.

تحف العقول: الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم/ 1404هـ.

تفسير النيسابوري: مطبوع على هامش تفسير الطبري.

تفسير مجمع البيان: الفضل بن الحسن الطبرسي/ مؤسسة الأعلمي /بيروت/ 1415هـ.

تفسير فرات: فرات الكوفي/ الطبعة الأولى/ طهران/ 1410هـ.

تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي/ دار صدار/ بيروت.

تذكرة الخواص: السبط ابن الجوزي.

التكامل في الإسلام: أحمد أمين الكاظمي.

تفسير الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المالكي/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ الطبعة الأولى/ 1418هـ.

الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري الشافعي.

)ث(

الثاقب في المناقب: محمد بن علي (ابن حمزة) الطوسي/ مؤسسة انصاريان/ قم/ الأولى 1411هـ.

ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق.

)ج(

جامع السعادات: محمد مهدي النراقي.

الجمع بين الصحاح الستة: رزين بن معاوية بن عمار العبدري.

الجامع الصغير: عبد الرحمن أبي بكر جلال الدين السيوطي/ دار الفكر/ بيروت.

الجمل: الشيخ المفيد/ مكتبة الداوري/ قم.

الجواهر السنية: محمد بن الحسن بن علي بن الحسين الحر العاملي/ مكتبة المفيد/ قم.

جامع المقاصد: علي بن الحسين المحقق الكركي/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم/ الأولى/ 1408هـ.

جواهر الكلام: محمد حسن النجفي/ دار الكتب الإسلامية/ طهران.

جنة المأوى: محمد حسين كاشف الغطاء.

)ح(

الحكمة والحكماء: المؤلف (رحمه الله) / مخطوط.

حياة الحيوان: الدميري الشافعي.

حلية الأولياء: أبو نعيم الإصفهاني.

)خ(

خطيب العلماء: السيد صدر الدين القبانجي.

الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي/ مؤسسة الإمام المهدي)عليه السلام)/ قم.

الخصال: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم/ 1403هـ.

)د(

دائرة المعارف البستانية.

الدرة النجفية: عبد الصمد التبريزي.

الدعوات: قطب الدين الراوندي/ مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام)/ قم.

درر السمطين: محمد بن يوسف الزرندي الحنفي.

دعائم الإسلام: القاضي النعمان المغربي/ دار المعارف/ مصر1383 /هـ.

دين وتمدن: محمد علي الحوماني.

دراسات في نهج البلاغة: محمد مهدي شمس الدين/ دار الزهراء /بيروت/ 1392هـ.

(ذ)

ذخائر العقبى: محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري/ مكتبة المقدسي/ القاهرة/ 1356هـ.

الذريعة إلى تصانيف الشيعة: آغا بزرك الطهراني/ دار الأضواء /بيروت/ 1403هـ.

(ر)

روضة الواعظين: محمد بن الفتال النيسابوري/ منشورات الرضي /قم.

الرياض النظرة: محب الدين الطبري.

(س)

سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني/ دار الفكر/ بيروت.

سنن الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي البيهقي/ دار الفكر /بيروت.

السقيفة وفدك: أحمد بن عبد العزيز الجوهري/ شركة الكتبي للطباعة والنشر/ بيروت/ 1413هـ.

سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي/ دار الفكر/ بيروت.

السنن الكبرى: أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي/ دار الفكر/ بيروت.

(ش)

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي/ ط: مكتبة المرعشي النجفي/ قم.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي/ ط الأولى/ مصر.

شجرة الطوبى: محمد مهدي الحائري/ المكتبة الحيدرية/ النجف1385 /هـ.

شرح أصول الكافي: محمد صالح المازندراني.

شرح نهج البلاغة: السيد كاظم القزويني.

شرح إحقاق الحق: المرعشي النجفي/ مكتبة المرعشي النجفي/ قم.

الشاهنامة: الحسن بن محمد الطوسي الفردوسي/ ط: مصر.

الشيعة والحاكمون: محمد جواد مغنية.

شرح مائة كلمة: ابن ميثم البحراني/ جماعة المدرسين/ قم.

شرح الأخبار: القاضي النعماني المغربي/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم.

الشجرة المباركة: الشيخ علي اليزدي.

(ص)

صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري/ دار الفكر/ بيروت1401 /هـ.

صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري/ دار الفكر/ بيروت.

صفات الشيعة: الشيخ الصدوق.

الصناعتين: أبو هلال العسكري.

الصراط المستقيم: علي بن يونس العاملي البياضي/ المكتبة المرتضوية/ الأولى/ 1384هـ.

الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة: ابن حجر العسقلاني.

الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري/ دار العلم للملايين /بيروت/ 1407هـ.

(ض)

ضبط نص نهج البلاغة: صبحي الصالح.

(ط)

طب الأئمة: عبد الله بن سابور الزيّات/ المكتبة الحيدرية /النجف/ 1385هـ.

(ع)

عوالي اللئالي: ابن أبي جمهور الاحسائي/ الطبعة الأولى1403 /هـ/ قم.

علل الشرائع: الشيخ الصدوق/ المكتبة الحيدرية النجف/ 1385هـ.

العدد القوية: علي بن يوسف الحلي/ مكتبة المرعشي النجفي/ قم /الأولى/ 1408هـ.

عدة الداعي ونجاح الساعي: أحمد بن فهد الحلي/ مكتبة الوجداني/ قم.

عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت1404 /هـ.

عبقرية الإمام علي (عليه السلام): عباس محمود العقاد.

عيون المعجزات: حسين بن عبد الوهاب/ المطبعة الحيدرية /النجف/ 1369هـ.

علي والقرآن: محمد جواد مغنية.

العمدة: يحيى بن الحسن الأسدي الحلي ابن البطريق/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم/ 1407هـ.

علي والأسس التربوية: المؤلف (رحمه الله).

عقد الدرر: يوسف ابن يحيى المقدسي الشافعي/ مكتبة عالم الفكر/ القاهرة/ الأولى 1399هـ.

العهود المحمدية: عبد الوهاب الشعراني/ شركة المصطفى البابي /مصر/ 1393هـ.

العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي.

(غ)

غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام: السيد هاشم البحراني/ تحقيق السيد علي عاشور.

غريب القرآن: الحافظ أبو عبيد الهراتي.

الغيبة: الشيخ الطوسي/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ قم/ الأولى1411 /هـ.

الغدير: الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني/ دار الكتاب العربي /بيروت/ الرابعة 1397هـ.

(ف)

فضل الكوفة: الشريف العلوي.

الفصول المختارة: الشيخ المفيد / دار المفيد/ بيروت/ 1414هـ.

الفتوحات المكية: ابن عربي.

فقه الرضا: المنسوب إلى الإمام الرضا (عليه السلام)/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم/ الأولى/ 1406هـ.

فرائد السمطين: شيخ الإسلام الحمويني.

فتح القدير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني/ عالم الكتب.

فلاح السائل: السيد ابن طاووس.

فيض القدير: محمد عبد الرؤوف المنّاوي/ دار الكتب العلمية /بيروت/ الأولى 1415 هـ.

الفصول المهمة: محمد بن الحسن الحر العاملي/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ قم/ 1418هـ.

الفرج بعد الشدة: الحسن بن أبي القاسم القاضي التنوخي /منشورات الشريف الرضي/ قم/ 1364هـ.

(ق)

قصص الأنبياء: قطب الدين الراوندي/ الهادي/ قم/ 1418هـ.

قضاء الحوائج: ابن أبي الدنيا.

القاموس المحيط: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي.

(ك)

كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق/ مؤسسة النشر الإسلامي/ قم/ 1405هـ.

كشف الخفاء: إسماعيل بن محمد العجلوني/ دار الكتب العلمية /بيروت/ الثالثة/ 1408هـ.

كتاب سليم بن قيس الهلالي/ تحقيق: محمد باقر الأنصاري.

كنز العمال: المتقي الهندي/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ 1409هـ.

الكامل: عبد الله بن عدي/ دار الفكر/ بيروت/ الثالثة/ 1409 هـ.

كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام): العلامة الحلي/ الطبعة الأولى/ طهران/ 1411 هـ.

كشف الغمة: علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي/ دار الأضواء /بيروت.

كفاية الطالب: الكنجي الشافعي.

كفاية الأثر: علي بن محمد الخزاز القمي/ انتشارات بيدار/ قم1401 /هـ.

الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الكشف والبيان: أبو إسحاق الثعلبي النيسابوري.

كشف الحق: العلامة الحلي/ ط بغداد.

الكشكول في ما جرى لآل الرسول: ابن المطهر الحلي.

الكافي: محمد بن يعقوب الكليني/ دار الكتب الإسلامية/ طهران /الطبعة الثالثة/ 1388هـ.

كامل الزيارات: جعفر بن محمد بن قولويه/ مؤسسة النشر الإسلامي/ 1417هـ.

الكنة والألقاب: المحدث الشيخ عباس القمي.

)ل(

اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء (عليها السلام): محمد علي بن أحمد القراچه داغي التبريزي/ دار فاطمة (عليها السلام) للتحقيق/ 1408هـ.

اللهوف في قتلى الطفوف: السيد ابن طاووس/ أنوار الهدى/ قم.

لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور/ نشر أدب الحوزة/ قم/ 1405 هـ.

)م(

المحتضر: حسن بن سليمان الحلي/ المطبعة الحيدرية/ النجف1370 /هـ.

مسند أحمد: أحمد بن حنبل/ دار صادر/ بيروت.

المستدرك على الصحيحين: أبي عبد الله الحاكم النيسابوري/ دار المعرفة/ بيروت.

معجم البلدان: ياقوت بن عبد الله الحموي/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ 1399هـ.

المنتظم: عبد الرحمن بن علي الجوزي.

مستدرك الوسائل: الشيخ الميرزا حسين النوري الطبرسي/ مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث/ قم 1408هـ.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ 1408هـ.

مطابقات الإختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية: أحمد الصديق الغماري.

المغازي: محمد بن إسحاق الواقدي.

المحبر: محمد بن حبيب البغدادي.

المصنف: محمد ابن أبي شيبة الكوفي/ دار الفكر/ بيروت/ 1409 هـ.

معاني الأخبار: الشيخ الصدوق/ مؤسسة النشر الإسلامي/ جماعة المدرسين/ قم/ 1361هـ. ش.

مصباح الشريعة: الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)/ مؤسسة الأعلمي/ بيروت/ 1400 هـ.

من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق/ جماعة المدرسين/ قم /الطبعة الثانية.

المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني/ الطبعة الثانية/ تحقيق: حمدى عبد المجيد السلفي.

المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني/ دار الحرمين/ 1415هـ.

مشارق الأنوار: الشيخ حسن العدوي الحمزاوي.

مدينة المعاجز: السيد هاشم البحراني/ مؤسسة المعارف الإسلامية/ قم/ الأولى/ 1413هـ.

المكاسب: الشيخ الأنصاري/ مجمع الفكر الإسلامي/ قم/ 1420هـ.

مجمع البحرين: الشيخ فخر الدين الطريحي.

مودة القربى: السيد أحمد الهمداني.

المناقب: الخطيب الخوارزمي.

المحاسن والمساوئ: أحمد بن الحسين البيهقي.

مقاتل الطالبيين: أبو الفرج الإصفهاني/ مؤسسة دار الكتاب /قم/ منشورات المكتبة الحيدرية/ النجف 1385هـ.

معارج الأصول: جعفر بن الحسن الهذلي (المحقق الحلي)/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم/ 1403هـ.

مسند الإمام علي (عليه السلام): المؤلف (رحمه الله.(

مروج الذهب: علي بن الحسين المسعودي.

مقتل الحسين (عليه السلام): الخوارزمي.

ملامح من عبقرية الإمام: د. مهدي محبوبة.

مصادر نهج البلاغة: السيد ابن زهرة الحسيني.

مشارق أنوار اليقين: الشيخ البرسي الحلي.

المزار: الشيخ المفيد/ تحقيق: السيد الأبطحي.

منهاج البراعة: الميرزا حبيب الله الخوئي.

مستدرك نهج البلاغة: الشيخ هادي كاشف الغطاء.

ما هو نهج البلاغة: هبة الدين الشهرستاني.

مكارم الأخلاق: الشيخ الحسن بن الفضل الطبرسي/ الطبعة السادسة/ 1392هـ.

المسترشد في إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) بن أبي طالب)عليه السلام): محمد بن جرير الطبري (الشيعي)/ مؤسسة الثقافة الإسلامية/ قم/ الطبعة الأولى المحققة.

منهاج الكرامة: العلامة الحلي.

مناقب آل أبي طالب: محمد بن علي بن شهر آشوب/ المطبعة الحيدرية/ النجف/ 1376هـ.

المحاسن: أحمد بن محمد البرقي/ دار الكتب الإسلامية.

مشكاة الأنوار: أبو الفضل علي الطبرسي/ دار الحديث/ قم /الأولى.

مجلة تراثنا: العدد 34 مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم.

المصنف: عبد الرزاق الصنعاني.

مصباح المتهجد: الشيخ الطوسي/ مؤسسة فقه الشيعة/ بيروت1411 /هـ.

الموطأ: مالك بن أنس/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت1406 /هـ.

منية المريد: الشيخ زين الدين بن علي العاملي (الشهيد الثاني)/ تحقيق: رضا المختاري.

)ن(

نزهة المجالس: الصفوري.

النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي/ تحقيق السيد علي عاشور.

النص والاجتهاد: السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي.

نظرة في شرح نهج البلاغة: محمد حسن القبيسي العاملي.

نظم درر السمطين: محمد بن يوسف الزرندي الحنفي/ مكتبة أمير المؤمنين (عليه السلام) العامة/ ط: الأولى/ 1377 هـ.

النهاية في غريب الحديث والأثر: إبن الأثير الجزري/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ الأولى/ 1418هـ.

)و(

وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي/ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ قم/ 1414هـ.

وفيات الأعيان: إبن خلكان.

)هـ(

الهداية الكبرى: الحسين بن حمدان الخصيبي/ مؤسسة البلاغة /بيروت/ الرابعة/ 1411هـ.

)ي(

ينابيع المودة لذوي القربى: سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي/ ط الأولى المحققة/ قم/ 1416 هـ.

****